مقاتلون فى سبيل وطنهم السوفييتى

*

*

يورى بوندارييف

الشاطئ الحار

رواية

دار التقدم. موسكو

ترجمة غائب طعمه فرمان

Юрий Бондарев
ГОРЯЧИЙ СНЕГ
Роман

На арабском языке

© الترجمة الى اللغة العربية – دار التقدم ، ١٩٧٤

Б $\frac{70302-279}{014(01)-74}$ 496–74

بدلا عن المقدمة

بحث فى الشجاعة

(حديث مع الكاتب)

ان تاريخ الانسانية لم يعرف معركة يشابه نطاقها النطاق الذى اتخذته المعركة من اجل ستالينغراد التى استمرت ستة اشهر ونصفا ، من تموز ١٩٤٢ حتى شباط ١٩٤٣ ، فقد اشترك من كلا الجانبين فى مرحلتها الاخيرة فقط ، حين تحولت القوات السوفييتية من الدفاع الى الهجوم ، اكثر من مليونى شخص ، و٢٦ الف مدفع ورشاش ، واكثر من الفى دبابة والفى طائرة .

ان تاريخ الانسانية لم يعرف معركة أكثر ضراوة واراقة للدماء .

لو ان احدا من الناس احصى عدد القذائف والالغام والقنابل والطلقات ، وعدّ ألوف الاطنان من المعدن المميت الذى القى على ارض ستالينغراد المعذبة الممزقة المحروقة فإنه سيحصل بالتأكيد على ارقام فلكية . ان المدينة الكبيرة التى كان يعيش فيها قبل الحرب نصف مليون انسان لم تعد تحوى على بيت واحد سليم ، وان اكثر من ٩٠ بالمائة من الابنية قد سويت بالارض فى خلال المعارك .

– لماذا عدت ، يا يورى فاسيليفيتش ، الى موضوع الحرب بعد ثلاثة كتب عن اوقات السلم ؟

– الجواب على هذا السؤال سهل وصعب . حتى الآن وقد كتبت عن الحرب قصتين طويلتين ورواية « الثلج الحار » ، ارى مع ذلك اننى لم اقل عن الحرب الا الشيء القليل . . .

لقد كانت الرغبة تراودنى فى ان اكتب كتابا عن ستالينغراد منذ ان كنت فى معهد الادب حيث كنت ادرس فى الحلقة الابداعية تحت اشراف قسطنطين باوستوفسكى ، الكاتب والمعلم الرائع . ليس فقط لأننى كنت قد اشتركت فى تلك المعارك ، بل الاهم من ذلك لأن هذا التصادم الاكثر حدة فى تلك الحرب ، ذروتها ، قد اتاح الكشف عن خلق شعبنا باكثر ما يكون من الوضوح .

فى قصتى الاولى والثانية عن الحرب : « الكتائب تطلب النار » و « الطلقات الاخيرة » حاولت ان اجد الملامح النموذجية لانسان من جيلى ، هو ضابط شاب تماما ، بدأ فى سن مبكرة يحمل السلاح ، ويقود الرجال ، ويتحمل مسؤولية حيوات اناس كثيرين . وفى رأيى ان المحور الرئيسى لقصة « الكتائب تطلب النار » هى قضية المسؤولية ، اما محور قصة « الطلقات الاخيرة » فهو الخير والشر ، الحب فى الحرب .

– وبم تتميز رواية « الثلج الحار » عن قصتيك الاولى والثانية عن الحرب ؟

– هو النظر الى الاحداث من زوايا مختلفة ، بعيون الناس الواقفين على درجات مختلفة من السلم العسكرى ، ولهذا فهم يرون حوادث الحرب من نقاط مختلفة فى الارتفاع ، وبالتالى ، فى سعة الرؤية .

فى الرواية اشخاص متنوعون – من القائد الاعلى الى سائق فى بطارية . قد يكون القراء قد تعودوا فى كتاباتى الاولى على غياب قادة عسكريين من مراتب عليا كالجنرال بيسونوف على سبيل المثال . ان هذه الشخصية مفاجأة لهم ، على ما اظن . ولكن لولا وجود بيسونوف لاخفقت الرواية . فانها عند ذلك ستكون قد فقدت شيئا جوهريا جدا ، ليس فقط من اجل اظهار سعة الاحداث . . . ذلك لأن بيسونوف يقود الناس ، ويتحمل مسؤولية حيوات عشرات الالوف من الجنود ، ويعرف ما هى الضحايا ، وما هو الدم ، ويعرف ان ما من معركة خاسرة او ظافرة تخلو من خسائر . ان مثل هذا الانسان ينبغى ان يضبط نفسه ، ويخفى حنانه نحو الناس ، وعمق مشاعره . . . ان هذه شجاعة ايضا ، شجاعة اخرى غير شجاعة الجندى ، ولكنها لا تقل عنها سموا . وكانت لها اهمية كبيرة فى احراز النصر .

والملازم كوزنيتسوف فى « الثلج الحار » قريب بمظهره الروحى من الابطال الآخرين فى قصتيّ عن الحرب . وهو فى الوقت ذاته يختلف عنهم .

– لماذا يهمك معيار خلقى كالشجاعة اكثر من اى شيء آخر ؟

– ان لكل كاتب موضوعه المحبب اليه فى الابداع ، يعود اليه المرة بعد الاخرى طوال حياته . وانا تهمنى مسألة الشجاعة الانسانية ، وتغلب الانسان على شكوكه ، والخوف . ذلك لأن تغلبنا على انفسنا فى الحرب كل ساعة وكل يوم انما هو اظهار الشجاعة بالذات . والانسان القادر على قهر شعور الخوف ، مقتدر على اجتراء الشجاعة كل يوم . وانا ارى فى ذلك منبع البطولة . ان رواية « الثلج الحار » من حيث التصدى لموضوع الشجاعة هى شفيفة قصتيّ السابقتين عن الحرب . . .

ليس فى مقدورى ، وانا اقدم للقراء ابطال قصتى ، الا ان اذكر بشعور الامتنان العميق اولئك المشاورين العسكريين الذين قدموا لى المساعدة مشكورين ، واسدوا لى النصائح الثمينة اثناء عملى على هذه الرواية التى لا تستهدف ، بالطبع ، ان تكون الوثيقة المفصّلة الوحيدة الاحداث الحربية فى منطقة ستالينغراد ، وجنوب غربى ستالينغراد فى كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٤٢ .

ومؤلف الكتاب الذى كان قد شارك فى الاحداث الموصوفة هنا يشير ، بشكل عام ، الى عمليات جيش الحرس الثانى . ومع ذلك فان هذه الرواية ليست ذكريات ولا مذكرات ، ولهذا فان ارقام التشكيلات والافواج والوحدات موضوعة حسبما اتفق ؛ وكذلك اسماء الشخصيات ما عدا القليل منها .

الفصل الاول

استيقظ كوزنيتسوف بسبب من الصمت ، من حالة الهدوء المفاجئ وغير العادى ، وفى الحال ، وهو ما يزال بين النوم واليقظة خطر فى ذهنه ان القطار يقف ، وانهم سينزلون ، و« لكن لماذا لم يوقظونى ؟ »

قفز من على الرف . كان الصباح باكرا زمهريريا ، والبرودة تتسرب من باب العربة المفتوح على سعته .

كانت العربة المتثلّجة خالية كليا . وعلى الرفوف قش مهشم ، وهرم من البنادق اللامعة لمعانا محمرا ، وعلى المصاطب صرر الامتعة محلولة . وبالقرب من العربة كان ثمة شخص يضرب قفازيه بفرقعة عالية ، بينما كان الثلج ، وهو ينكسر تحت الاحذية اللبادية ، يخشخش خشخشة قوية طرية فى الصمت الجليدى المتصلب .

— اين ستالينغراد ، ايها الاخوان السلاف ؟

— لا يبدو اننا سننزل ؟ لم يصدر امر بذلك . سيكون لنا وقت لتناول شىء من الطعام . لا بد اننا لم نصل بعد . ها هم جنودنا قادمون يحملون القصعات .

وقال صوت آخر فيه بحة ومرح :

— اوه ، السماء صافية ، وستأتى طائراتهم ! . . وقت مناسب جدا !

نفض كوزنيتسوف بقايا النعاس عن نفسه فى الحال . وتقدم من باب العربة . كانت الارض الثلجية المقفرة تتألق تحت الشمس ألقا باهرا جعله يقلص عينيه . وكان الهواء الزمهريرى جارحا جعله يغص .

كان القطار واقفا وسط السهب . وقرب العربة تجمهر الجنود جماعات ، على الثلج الذى رصته العاصفة الثلجية ، يتدافعون بالمناكب منفعلين ، ينشدون الدفء ، ضاربين قفازاتهم على جنوبهم ، ملتفتين بين الفينة والاخرى باتجاه واحد جميعا .

وهناك ، فى وسط القطار ، على رصيف المحطة ، كانت المطابخ ترسل الدخان فى الصباح الوردى الزجاجى ، ومقابلها كان سطح مبنى المحطة الوحيد بلونه الاحمر يلوح رقيقا وهو تحت الثلوج . وكان الجنود يتراكضون من العربات نحو المطابخ ومبنى المحطة حاملين القصعات . وكان الثلج حول المطابخ وحول شادوف البئر مزحوما بالمعاطف والاحذية العسكرية وكان يبدو وكأن القطار كله يمتاح الماء ، ويتهيأ للفطور .

لم يكف الجنود عن التدافع والمراوحة عند رؤيتهم الملازم كوزنيتسوف ، ولم يؤدوا التحية العسكرية . (فكر كوزنيتسوف مع نفسه : انهم اعتادوا ذلك ، الشياطين !) واكتفوا بقطع الحديث لحظة . كان الثلج مثل نثار فضى يلوّن حواجبهم ، واذينات

قبعاتهم الفرائية ، وياقات معاطفهم المرفوعة . قال الرقيب نيتشايف مسدد المدفع الاول ، وهو رجل مديد القامة ، بادى النحافة ، من بحارة الشرق الاقصى ، متميز بخيلان * مخملية ، وفودين ماثلين على وجنتيه ، وشاربين اسودين :

— ايها الرفيق الملازم ، أمرنا بان لا نوقظك . وقد قال اوخانوف انك كنت فى الخفارة الليلية . لم تعلن حالة الاستعداد بعد .

فسأل كوزنيتسوف ، وهو ما يزال مقلّصا عينيه من انعكاس الشمس على اكوام الثلج :

— واين دروزدوفسكى ؟

اجاب نيتشايف غامزا :

— يهندم نفسه ، ايها الرفيق الملازم .

وقد رأى كوزنيتسوف آمر البطارية دروزدوفسكى على بعد حوالى عشرين مترا من العربة . ان هذا الرجل ، منذ ان كان فى المدرسة الحربية ، كان يتميز عن الآخرين ، بهيئته العسكرية التى كأنما ولدت معه ،

* جمع خال . — المعرب .

بالمهابة المرتسمة على وجهه الشاحب الرقيق ، فكان احسن طالب حربى فى الكتيبة ، ومحبوب جميع امراء الصفوف . اما الآن ، فقد كان يقف بالقرب من تل ثلجى عاريا الى الوسط ، يحرك ، على مرأى من الجنود ، عضلاته القوية الشبيهة بعضلات رياضى ، منحنيا فاركا جسمه بالثلج بصمت وحيوية . وكان بخار خفيف يخرج من جذعه اللدن الفتى ، ومن كتفيه ، وصدره الصافى الاملس ، ومن بطنه المستوى . وكانت طريقته هذه فى الاغتسال والفرك بحفنات الثلج تكشف عن شىء عنيد على نحو تظاهرى .

قال كوزنيتسوف عن جد :

— حسنا ما يفعل .

الا انه ، وهو يعرف انه لا يستطيع ان يفعل ذلك ، خلع قبعته ، وحشرها فى جيب معطفه ، وفك ياقته ، وابتعد عن العربة ، واختطف من قمة كومة ثلج حفنة خشنة الحبات منه ، وتثلج بها ، وفرك وجنتيه وذقنه الى حد الالم .

سمع كوزنيتسوف صوت نيتشايف المبتهج على نحو مبالغ به وهو يقول :

— اية مفاجأة ! هل انت قادمة الينا ؟ كم نحن سعداء فى رؤيتك ! اننا نحييك باسم البطارية كلها ، يا زويا !

التفت كوزنيتسوف فرأى زويا يلاغينا المشرفة الصحية على البطارية تقف قرب العربة بين الجنود المبتسمين ، وهى ترتدى معطفا فرائيا ابيض غنجا ، وحذاء لباديا ابيض متقن الصنع ، وقفازين ابيضين مطرزين ، فى هيئة غير عسكرية مطلقا ، نظيفة بكامل قيافها وكأنها فى عيد ، شتائية الملبس ، كأنها قادمة من عالم آخر هادئ بعيد . نظرت زويا الى دروزدوفسكى بعينين حادتين متماسكتين من الضحك . بينما مضى هو فى رياضته ، دون ان يلحظها ، حانيا ورافعا جذعه بحركات متمرنة ، يفرك جسمه القوى المتورد بالثلج سريعا ، ضاربا براحتيه وكتفيه ، وبطنه ، زافرا الهواء ، ومالثا به صدره بحركة مسرحية قليلا . والآن ، كان الجميع ينظرون اليه بنفس التعبير المرتسم فى عينى زويا . هتفت زويا بصوت صادح :

— ايها الملازم ! هل لى ان اسألك : متى ستنتهى من تمارينك ؟ كنت اريد ان اتحدث اليك .

نفض الملازم دروزدوفسكى الثلج عن صدره ، وفك الفوطة الملفوفة حول خصره ، فعلّ رجل مستاء من مضايقة الناس له ، وقال عن كره :

— تحدثى !

— صباح الخير ، ايها الرفيق قائد البطارية !

قالت زويا ذلك ، فرأى كوزنيتسوف ، وهو يمسح وجهه ، الاختلاجة الخفيفة التى سرت فى طرفى حاجبيها المرّيشين بالثلج . تابعت زويا قولها :

— انا بحاجة اليك . هل تستطيع بطاريتك ان تبدى لى اهتماما ؟

القى دروزدوفسكى الفوطة حول رقبته ، بلا عجالة ، وتقدم نحو العربة . لمعت كتفاه المغسولتان بالثلج ، وكأنه خارج من حمام ، وكان شعره القشى القصير رطبا . سار ناظرا بابهة الى الجنود المتجمهرين قرب العربة بعينين لاحتا فى تلك اللحظة اشد ازرقاقا ، واقرب الى الشفافية . وقال ، اثناء سيره ، فى غير اهتمام :

— انا فاهم ، ايتها المشرفة الصحية ، هل جئت الى البطارية للقيام بالفحص حسب النظام الثامن ؟ لاخبرك اذن انه لا يوجد قمل عندنا .

وانضم الرقيب نيتشايف الى الحديث قائلا ، وهو يلقى نظرة ناعمة على معطف زويا الفرائى النظيف الانيق ، ومحفظتها الصحية المتدلية على ردفها :

ـ يا عزيزتى زويا ! فى بطاريتنا كل شىء على ما يرام تماما . لن تجدى حشرات ضارة حتى فى وضح النهار . . . ليس هذا مكانها . . . كيف نمت البارحة ؟ لم يضايقك احد ؟

فقاطعه دروزدوفسكى قائلا :

ـ انت كثير الكلام ، يا نيتشايف !

ومرّ بزويا ، وصعد الدرجات الحديدية الى العربة المكتظة بالجنود العائدين لتوهم من المطبخ ، والمتهيجين فى انتظار الفطور ، حاملين قصعات الحساء المتصاعد منها البخار ، وثلاثة اكياس للحوائج مملوءة بالبقسماط وارغفة الخبز . كان الجنود يفرشون على الرفوف السفلى معاطف بعضهم ، متهيئين لتقطيع الخبز عليها . وكانت الوجوه التى كمشها البرد مستغرقة استغراق ربة بيت فى اعمالها المنزلية . ارتدى دروزدوفسكى قميصه العسكرى ، وسوّاه على جسده ، واوعز :

ـ هدوء ! الا يجوز بلا هرج ومرج ؟ امراء المدافع ، اعيدوا النظام ! لماذا انت واقف هناك ، ايها الرقيب نيتشايف ؟ تعهّد بالارزاق . انت خبير بالتوزيع ، كما يبدو ! اما المشرفة الصحية فسيسوى شأنها بدونك .

اشار الرقيب نيتشايف لزويا برأسه معتذرا ، وصعد الى العربة ، وصدر صوته من هناك :

ـ كفوا عن الفوضى ! لماذا تضجون ضجيج الدبابات ؟

شعر كوزنيتسوف بالحرج من هذه الاوامر ، ومن رؤية زويا لهذه الضوضاء التى يحدثها الجنود وهم يقومون بتقسيم الارزاق ، ولا يعيرونها التفاتا . فهمّ ان يقول لها بنبرة خبيثة تفزعه هو نفسه : « لا حاجة لك ، فى الواقع ، الى ان تقومى بالتفتيش فى فصائلنا . ولكن لطيف جدا انك جئت الينا » .

وما كان فى وسعه ان يعلل لنفسه هو ، تعليلا كاملا ، السبب الذى كان يدفع جميع من فى البطارية الى ان يستعملوا ، كلما ظهرت زويا عندهم ، هذه اللهجة الكريهة الخبيثة التى كانت تستبد به الآن ، اللهجة غير المبالية لهجة المداعبة والتلميح المخفى ،

وكأن مجيئها كان يكشف عن غيرة لكل واحد منهم شيئا ما ، وكأنهم كانوا يقرأون على وجهها الناعس قليلا ، واحيانا فى الظلال تحت عينيها ، وفى شفتيها شيئا واعدا فاضحا خفيا ، ربما قد يقع لها مع الاطباء الشبان فى عربة الصحة التى تقضى فيها اغلب اوقاتها اثناء السفر . غير ان كوزنيتسوف كان يخمن انها عند كل وقفة لم تكن تأتى الى البطارية لمجرد القيام بتفتيش صحى . فقد كان يبدو له انها كانت تنشد لقاء مع دروزدوفسكى . قال كوزنيتسوف :

ـ الامور على ما يرام فى بطاريتنا ، يا زويا . ولا حاجة الى اية فحوص . ولاسيما عند الفطور .

هزّت زويا كتفيها :

ـ اية عربة خاصة هذه ! خالية من كل شكوى . لا تتظاهر بالسذاجة ، فانها لا تلائمك ـ قالت زويا ذلك بعد ان فحصت كوزنيتسوف برمشة من اهدابها ، وابتسمت بغرابة قائلة : اعتقد ان ملازمك المحبوب دروزدوفسكى بعد تلك التمارين المريبة سيجد نفسه فى المستشفى ، لا فى خط القتال !

رد كوزنيتسوف عليها :

ـ اولا ، انه ليس محبوبى ، وثانيا . . .

ـ شكرا ، يا كوزنيتسوف ، على الصراحة ، وثانيا ؟ ماذا تظن بى ، ثانيا ؟

قفز الملازم دروزدوفسكى الى الثلج بخفة ، وقد ارتدى ملابسه ، وشد معطفه بحزام تدلى منه قراب مسدس جديد ، ونظر الى كوزنيتسوف والى زويا ، وقال متباطئا بكلامه :

ـ هل تريدين ان تقولى ، ايتها المشرفة الصحية ، اننى اشبه من يجرح نفسه بنفسه ؟

دفعت زويا رأسها الى الوراء بتحد :

ـ ربما . . . وعلى اقل تقدير احتمال ذلك غير مستبعد .

فصرح دروزدوفسكى بلهجة حازمة :

ـ هكذا ، ولكنك لست مرشدة صف ، ولست انا تلميذا . ارجو ان تعودى الى عربة الصحة . هل هذا واضح ؟ ايها الملازم كوزنيتسوف الزم مكانى ، انا ذاهب الى قائد الكتيبة .

رفع دروزدوفسكى يده الى صدغه ، ووجه جامد ، وسار بمشية مطواعة مرنة ، مشية جندى حسن التدريب ،

ملفوف القوام بالاحزمة الجديدة ، ومرّ بالجنود المتحركين قرب العربة بحيوية . فتراجعوا امامه ، وصمتوا لمجرد رؤيتهم له ، وكأنه كان ينحى الجميع عن طريقه بنظرته ، وفى الوقت ذاته كان يرد التحيات بحركة قصيرة مهملة من يده . كانت الشمس تطل على بياض السهب الناصع محاطة بلألاء الجمد القزحية . وكان حشد الجنود الكثيف يتحلق حول البئر ، كما كان من قبل ، ثم لا يلبث حتى يتفرق . لقد كان الجنود يمتاحون الماء ، ويغتسلون خالعين القبعات ، شاهقين متصايحين ، ثم يعودون راكضين الى المطابخ الداخنة باغراء وسط القطار ، متحاشين للحيطة ، جماعة امراء الكتيبة قرب عربة الركاب المغطاة بطبقة من الجمد .

والى هذه الجماعة كان يتجه دروزدوفسكى .

رأى كوزنيتسوف تعبير العجز الذى ارتسم على وجه زويا ، وهى تراقب دروزدوفسكى بعينيها المفتوحتين على سعة ، المحولتين قليلا . سألها :

— ربما ترغبين فى الافطار معنا ؟

فتساءلت دون اهتمام :

— ماذا ؟

— تفطرين معنا . اظن انك لم تتناولى فطورك بعد .

وهنا صاح نيتشايف من باب العربة :

— ايها الرفيق الملازم ، سيبرد الطعام ! نحن بانتظارك ! عندنا حساء الحمص الكثيف — وغرف ملعقة من القصعة ، ولطع شاربيه وقال مضيفا : — لو اكلته دون ان تغص به يكتب لك الخلود !

كان الجنود يضجون وراءه ، متناولين حصتهم من على المعطف المفروش ، بعضهم بتكشيرة الرضى ، والبعض الآخر كان يجلس على الرفوف مدمدما ، مغترفا بالملاعق من القصعات ، غارزا اسنانه فى قطع الخبز الاسود الذى اصابه الجمد . والآن ، لم يعد احد يلتفت الى زويا .

نادى كوزنيتسوف :

— يا تشيبيسوف ! قدم قصعتى الى المشرفة الصحية !

فرد هذا من العربة بصوت صادح :

— الاخت الممرضة ! ما هذا القول ؟ صحبتنا ، يمكن ان نقول ، مرحة .

قالت زويا ساهية :

ـ نعم . . . حسنا . . . ربما . . . بالطبع ، يا ملازم كوزنيتسوف . انا لم اتناول فطورى . . . ولكن لماذا قصعتك ؟ وانت ؟

ـ سأتناول فطورى فيما بعد . لن اظل جائعا .

رد عليها كوزنيتسوف بشهامة الفرسان عارفا انه سيخسر طعامه .

تقدم تشيبيسوف نحو باب العربة بحركة عجلى ، واخرج من ياقته المرفوعة وجهه الصغير الاسود غير الحليق ، بسرور مفرط ، كما فى لعبة للاطفال ، واومأ لزويا بتعاطف لطيف ، ضئيل الجسم ، بمعطفه القصير الفضفاض عليه :

ـ ادخلى ، يا اخت ، ولا تترددى ! . .

قالت زويا لكوزنيتسوف :

ـ سآكل قليلا من قصعتك . ولكن معك ، والا فلا . . .

كان الجنود يتناولون فطورهم بترشف وتمطق ، وبعد الملاعق الاولى من الحساء الدافئ ، والجرعات الاولى من الماء المغلى المحلّى بالسكر عادوا يتطلعون

الى زويا بنظرات متسائلة . فكّت زويا ياقة المعطف الفرائى الجديد ، حتى برز جيدها الابيض ، وراحت تأكل من قصعة كوزنيتسوف بحذر ، بعد ان وضعتها على ركبتيها ، مخفضة عينيها تحت النظرات الموجهة اليها .

اخذ كوزنيتسوف يأكل معها ، محاولا ان يغضّ طرفه فلا يرى كيف كانت ترفع الملعقة الى شفتيها باناقة ، وكيف كانت حنجرتها تتحرك عند ابتلاع اللقمة . كانت رموشها المسبلة رطبة من ذوبان الثلج عليها ، متلزجة ، سوداء ، تخفى لمعان عينيها النامتين عن انفعالها . شعرت زويا بالحرارة ، وهى بالقرب من الموقد المشتعل ، فخلعت قبعتها الفرائية وتناثر شعرها الكستنائى على فراء ياقتها الابيض . واذا هى ، حاسرة الرأس ، تبدو مسكينة بلا حماية ، بارزة الوجنتين ، كبيرة الفم ، بوجهها الطفولى المتوتر ، بل والخائف ، الذى بدا غريبا بين وجوه الجنود العرقة المحمرة من الطعام ، ولاول مرة رأى كوزنيتسوف انها ليست جميلة . فلم يكن قد رآها حاسرة الرأس من قبل .

— فى منتزه تشاير تتفتح الورود ، فى منتزه تشاير يهل الربيع . . . *

غنى الرقيب نيتشايف هذا المقطع بصوت خافت وقد وقف عند رف فارجا ساقيه ، لافا لنفسه سيكارة بعد الشاى ، وهو ينظر الى زويا بابتسامة غزلة ، بينما صبّ تشيبيسوف لها قدحا مملوءا الى حافته بالشاى ، زيادة فى الرعاية ، وقدمه لها . فتناولت القدح الحار باطراف اصابعها ، وقالت بارتباك :

— شكرا يا تشيبيسوف — ثم رفعت عينيها النديتين اللامعتين الى نيتشايف وقالت : — قل لى ، يا رقيب ، اى منتزه هذا ، واية ورود ؟ انا لا افهم لماذا تردد هذه الاغنية دائما ؟

تململ الجنود فى اماكنهم ، وحثوا نيتشايف مشجعين اياه :

— قل ، قل ، ايها الرقيب . سؤال مطروح . من اين لك هذه الاغانى ؟

اجاب نيتشايف كالحالم :

* بداية اغنية كانت شائعة فى سنوات ما قبل الحرب . — المعرب .

— من فلاديفوستوك . وساحة الرقص على الساحل اثناء الاجازة و « فى منتزه تشاير . . . » . خدمت ثلاثة اعوام على رقصة التانغو هذه . فى وسعك ان تثقى يا زويا ، اية فتيات جميلات فى فلاديفوستوك . حوريات ، راقصات باليه ! سأظل اتذكر طول عمرى !

وعدّل بكلة البحارى ، واومأ وكأنه يعانق واحدة اثناء الرقص ، وخطا خطوة وهزّ ردفيه ، وغنى :

— فى منتزه تشاير يهل الربيع . . . واحلم بضفائرك الذهبية . . . ترام — با — با — بى — با — بى . . .

ضحكت زويا ضحكة مصطنعة :

— ضفائر ذهبية . . وورود . . كفى كلمات مبتذلة ، يا رقيب . . . ملكات ، وراقصات باليه . . هل رأيت حورية فى حياتك ؟

قال نيتشايف بجرأة :

— فيك ، كلمة شرف . ان لك قوام الملكات .

وغمز للجنود .

وفكر كوزنيتسوف مع نفسه : « لماذا يضحك منها ؟ لماذا لم الحظ من قبل انها غير جميلة بهذا الشكل ؟ »

— لولا الحرب ، آه ، لا تبخسى قدرى ، لولا الحرب لخطفتك فى جنح الليل . وحملتك فى سيارة تاكسى الى مكان ما ، ولجلست فى احد فنادق الضواحى عند قدميك ، فى يدى زجاجة شمبانيا ، وكاننى فى حضرة حورية . . .عندئذ تبا لكل الناس ! هل كنت توافقين ؟

قالت زويا بعد ان هدأ ضحك الجنود :

— فى سيارة تاكسى ؟ هذا شىء رومانتيكى . . لم يقع لى ابدا .

— لو كنت معى لوقع كل شىء . . .

قال الرقيب نيتشايف كل ذلك فى شبه مزاح ملتهما زويا بعينيه البنيتين ، الا ان كوزنيتسوف احس فى كلماته شيئا فاجرا ، فقاطعه فى الحال بصرامة :

— كفى هراء ، يا نيتشايف ! ثرثرة فارغة ! ما علاقة الفندق هنا ؟ بذاءة ! اشربى الشاى ، يا زويا ، ارجوك .

— يا لكم من مضحكين .

قالت زويا ذلك ، وبدأ وكأن ظلا من الألم انعكس فى الغضن الخفيف على جبينها الابيض ، ولم يختف

غضن التكدر هذا الذى بدا عارضا على البشرة البيضاء ، ولم ينبسط . وضعت زويا قدح الشاى على الموقد ، وسألت كوزنيتسوف بجسارة متعمدة :

— لماذا تنظر الىّ بهذا الشكل ؟ ماذا تبحث فى وجهى ؟ لطخة سخام من الموقد ؟ ام انت مثل نيتشايف ، تذكرت بعض الملكات الشنيعات ؟

اجاب كوزنيتسوف متعبسا ليخفى الحرج من مثل هذا السؤال غير المتوقع :

— قرأت عن الملكات فى كتب الاطفال فقط ، ولم ارهن فى حياتى . فعادت زويا تقول :

— انتم مضحكون جميعا .

سألها نيتشايف :

— كم تبلغين من العمر ؟ — ثم قال مخمنا : — ثمانية عشرة ؟ يعنى مثلما يقال عندنا فى البحرية نزلت الى بحر الحياة عام ١٩٢٤ ؟ انا اكبر منك باربعة اعوام ، يا زويا . وهذا فرق كبير .

قالت وقد ابتسمت هذه المرة :

— لم تحزر ، عمرى ثلاثون عاما ، ايها الرفيق البحرى . ثلاثون عاما وثلاثة اشهر .

طبع الرقيب نيتشايف امارة الدهشة القصوى على وجهه الاسمر ذى الخيلان البنية ، وقال بنبرة التلميح اللعوب :

— اترغبين بهذه القوة ان تكونى فى الثلاثين ؟ عندئذ كم عمر امك ؟ هل هى تشبهك ؟ اسمحى لى بأخذ عنوانها — وهنا ارتفع شارباه الضئيلان فى ابتسامة ، وانفرجا فوق اسنانه البيض ، وقال : — سأكاتبها من الجبهة ، ونتبادل صورتينا .

رشقت زويا بنظرة مشمئزة قوام نيتشايف المديد النحيل ، وقالت وبصوتها اهتزاز :

— ما اكثر ما حشتك حلبات الرقص بالسخافات ! هل تريد عنوانها ؟ تفضل ! مدينة بيريميشل ، مقبرة البلدية الثانية . هل ستكتبه ام تحفظه فى ذاكرتك ؟ بعد عام ١٩٤١ * اصبحت يتيمة الابوين — اكملت زويا كلامها بلهجة قاسية — ولكن ، اعلم ، يا نيتشايف ، ان لى زوجا . . . يا ربى ، لماذا تنظرون

---

* عام هجوم الجيوش الهتلرية على الاتحاد السوفييتى . — المعرب .

الىّ هكذا ؟ ان ما اقوله حق ، يا اعزائى ، حق ! ان لى زوجا . . .

وران صمت . وكف الجنود عن الأكل ، بعد ان استمعوا الى الحديث ، وتخلوا الآن عن التشجيع المتعاطف مع هذه اللعبة العابثة التى لعبها نيتشايف ، والتفتوا جميعا الى زويا . نظر الرقيب نيتشايف ، وهو يمص سيكارته ، الى وجه زويا بتشكك غيور ، وكانت زويا تجلس مطرقة بعينيها . وسأل :

— ومن هو زوجك ، اذا لم يكن هذا سرا ؟ ربما هو آمر فوج ؟ ام ، كما يشاع عندنا ، انك معجبة بملازمنا دروزدوفسكى ؟

وفكر كوزنيتسوف مع نفسه متشككا ايضا بكلامها : « ان ذلك غير صحيح ، بالطبع . لفقت كل ذلك الآن . انها ليست متزوجة . ولا يمكن ان تكون » .

قال كوزنيتسوف :

— كفى ، يا نيتشايف ! كف عن طرح الاسئلة السخيفة ! انت تبدو مثل اسطوانة غرامفون تالفة ! الا تلاحظ ذلك ؟

ونهض ، وابتعد عن زويا ، وطوّف بصره فى العربة ، وفى هرم البنادق ، والرشاشة اليدوية بالقرب من الهرم .

— شكرا على الضيافة ، يا رجال البطارية الاولى !

قالت زويا ذلك ، وهزّت شعرها مبتسمة ، بعد ان فكت تقطيبة حاجبيها فوق قصبة انفها ، ولبست قبعتها الجديدة المؤطرة بفراء الارانب ، وعدّلت شعرها تحت القبعة ، واضافت : — القاطرة تقترب . هل تسمعون صوتها ؟

صدر صوت من الرف الاعلى :

— الوقفة الاخيرة قبل الخط الامامى ، وبعد ذلك الى المبارزة يا المان !

وضحك صاحب الصوت ضحكة غير لطيفة .

قال نيتشايف :

— لا تتركينا ، يا زويا ، بحق الرب ! ابقى فى عربتنا . ما حاجتك الى الزوج ؟ ما حاجتك اليه فى الحرب ؟

فعاد الصوت الذى صدر من الرف الاعلى يقول فى بحة المدخن :

— يبدو انهم يرسلون قاطرتين . سيسرعون بنا الآن . الوقفة الاخيرة ثم ستالينغراد . . .

— ربما ليست الاخيرة ؟ ربما ، الجبهة هنا ؟

قال كوزنيتسوف :

— ليت ذلك يتم بسرعة !

— اية قاطرة هذه ؟ هل جنّوا ؟

اعلن ذلك المسدد يفستيغنييف ، الرقيب المسن الذى كان يشرب الشاى من القدح بوقار ، ووثب بقفزة واحدة ، واطل من باب العربة .

صاح كوزنيتسوف :

— ماذا هناك ، يا يفستيغنييف ؟ امر ؟

والتفت ورأى رأس يفستيغنييف الكبير المرفوع ، وعينيه الباحثتين فى السماء بهلع ، الا انه لم يسمع ردا .

انطلقت المدافع المضادة للطائرات فى طرفى القطار .

وهتف شخص قافزا من الرف :

— هيا ، يا اخوان ، اطلنا الوقوف حتى جاءت طائراتهم !

— هذه قاطرتك ! بالقنابل . . .

وانضم الى النباح المحموم للمدافع المضادة للطائرات رنين دقيق مقترب ، ثم شقت الهواء فوق القطار اللعلعة المزدوجة للرشاشات . ولم يكن كوزنيتسوف قد وعى تماما ما حدث حين اندفعت من السهب الى العربة بعض الاصوات المحذرة : « غارة ! طائرات « ميسير » ! » . رمى المسدد يفستيغنييف قدح الشاى على الرف ، واندفع الى هرم البنادق ودفع زويا التى كانت واقفة فى باب العربة تنظر الى السماء بعينين مدهوشتين ، بينما كان الجنود فى العربة يقفزون من الرفوف مختطفين البنادق من الهرم . وفى لمحة قصيرة مرّت فى ذهن كوزنيتسوف فكرة : « هدوءاً ! سأكون آخر من يخرج ! » واصدر امره :

ـ الخروج من العربة جميعا !

كان مدفعان مضادان للطائرات من مدافع القطار يدويان على قرب شديد ، حتى ان ضرباتهما المتتابعة كانت ترن فى الاذان . ثم عاد صوت المحركات المتلاحق بسرعة ، ورشق الرشاشات ينثال من فوق بدربكة متقطعة ، ويسرى فى سطح العربة .

اندفع كوزنيتسوف الى باب العربة المفتوح ، فرأى الجنود يقفزون الى الثلج حاملين البنادق ، ويتراكضون متناثرين فى السهب الابيض المشمس . قفز هو ايضا من العربة ، مستشعرا خفة باردة فى بطنه ، وببضع وثبات بلغ كثيبا ثلجيا هائلا لاح منحدره مشربا بالزرقة ، وسقط اثناء جريه قرب شخص ، شاعرا على قفاه بازيز يخرق الهواء . تغلب بجهد على هذا الثقل الذى كان يشده الى الثلج من قفاه ، واستطاع ان يرفع رأسه .

كانت ثلاث طائرات من طراز « ميسيرشميت » تنقض على القطار من السماء الشتائية المتلألئة لألاء باردا ازرق .

كانت خطوط قذائف الرشاشات المضادة للطائرات تنطلق للقائها بلا انقطاع من طرفى القطار ، وقد محت الشمس لونها . وكانت هذه القذائف تتناثر بالقرب من هذه الطائرات المنقضة باجسامها الضيقة الطويلة الى الاسفل انقضاضا يزداد عمودية وهويا ، مهتزة باللهب الحاد الاحمر المنطلق من الرشاشات والمدافع السريعة الطلقات . كان قوس القزح الكثيف الذى تشكله

خطوط القذائف ينطلق الى الاعلى بمحاذاة القطار الذى ما زال الناس يخرجون منه متراكضين .

توازت الطائرة الاولى فوق سطوح العربات تماما ، وانطلقت فى خط افقى على طول القطار . ومرقت الطائرتان الاخريان فى اثرها .

والى الامام ، حيث القاطرة ، اهتز الهواء ، وارتفع انفجار قنبلة ، وتطاير نثار الثلج . وعادت الطائرات المغيرة تصعد فى الجو فى زاوية حادة ، وتستدير فى ناحية الشمس ، وتنقض ثانية على القطار .

ولمع فى ذهن كوزنيتسوف : « انهم يروننا جميعا بشكل جيد . يجب فعل شىء ما ! »

ـ نار ! اطلقوا النار من البنادق على الطائرات !

ووقف على ركبتيه بعد ان اصدر هذا الامر ، وفى الحال لمح رأس زويا فى الجانب الآخر من كثيب الثلج ، وحاجباها مائلان بشكل غريب ، وعيناها الجامدتان مبحلقتان . صرخ بها :

ـ زويا ، الى السهب ! ازحفى بعيدا عن العربات !

الا انها كانت تعض شفتيها صامتة ، وتنظر باتجاه القطار حيث كان يحدث شىء ما . فنظر هو

ايضا الى هناك . كان الملازم دروزدوفسكى يركض قرب العربات متوثبا عبر اكوام الثلج ، بمعطفه الضيق الذى كأنه حيك على جسمه ، وكان يصرخ لهم بشىء لم يكن مفهوما . قفز دروزدوفسكى الى باب عربته المفتوح ، وعاد من هناك يحمل رشاشة يدوية ، وقرص خراطيش . وركض مبتعدا عن القطار ، حتى وقع على الثلج على بعد عشرة امتار من كوزنيتسوف ، وغرز قاعدة الرشاشة فى رأس الكثيب الثلجى . ووضع القرص فى القابض ، واطلق رشقة طويلة على الطائرات التى كانت تنقض من السماء المتلألئة باصقة وهجا اشعث .

اخذ الممر النارى المستقيم الذى ترسمه خطوط الرصاص ، والمتصل بالارض يقترب مثيرا الثلج . واحس كوزنيتسوف فى رأسه بفرقعة الطلقات المصمة ، وبدوى المحركات النافذ ، وتتابعت فى عينيه اطياف قزحية غريبة ، كما فى المشكال . وتطاير على وجهه نثار ثلجى اثارته طلقات الرشاشات من الكثيب الثلجى . وفى الاسوداد الهادر الذى غطى الكثبان الثلجية لحظة واحدة تدحرجت الخراطيش الفارغة ذات العيارات

الكبيرة ، وتقافزت على الثلج . ولكن اكثر الاشياء ابهاما ، هو ان كوزنيتسوف استطاع ان يلمح فى قبة الطائرة المندفعة نحو الارض رأس الطيار البيضوى من تحت خوذته .

وخرجت الطائرات من حضيض انقضاضها على بعد بضعة امتار من الارض مرسلة الدوى الحديدى لمحركاتها ، وتوازت ، ثم اسرعت متصاعدة مرة اخرى فوق السهب .

— فولوديا ! . . لا تنهض ! انتظر ! —

سمع كوزنيتسوف هذه الصرخة على مسافة غير بعيدة عنه ، وفى تلك اللحظة ذاتها رأى دروزدوفسكى يرمى القرص الفارغ محاولا ان ينهض ، الا ان زويا طوقته متشبثة وضغطت بصدرها عليه ممسكة به قائلة :

— فولوديا ! ارجوك !

— الا ترين القرص قد فرغ ؟

صاح دروزدوفسكى وقد تلوّى وجهه ، ودفع زويا ملقيا اياها عنه قائلا :

— لا تعيقينى ! قلت لك لا تعيقينى !

افلت من قبضتيها ، وركض الى العربة ، بينما

بقيت هى منبطحة على الثلج مذهولة . عندئذ اقترب كوزنيتسوف منها ، تماما :

— ماذا ؟ ماذا حدث للرشاشة ؟

نظرت اليه ، وقد تغيّر التعبير المرتسم على وجهها حالا ، وانقلب متحديا عن عمد وغير لطيف .

— ما هذا يا ملازم كوزنيتسوف ؟ لماذا لا تطلق النار على الطائرات ؟ خائف ؟ ودروزدوفسكى وحده ؟ . .

— من اين اطلق النار ؟ من المسدس ؟ هذا ما ترينه ؟

ولم تجب .

انقضت الطائرات على مقدمة القطار ، وحامت فوق القاطرة ، حيث كان الدخان يتصاعد من عربتى بولمان . كانت السنة اللهب تبرز من الابواب المفتوحة ، وتصعد الى السطح . وقد اثار الدخان المتصاعد هناك ، والسطوح التى سرى فيها اللهب ، والانقضاض الملحاح لطائرات « ميسيرشميت » فى نفس كوزنيتسوف شعورا حادا بالعجز المقرف ، حتى بدا له فجأة ان هذه الطائرات الثلاث لن تنصرف عنهم حتى تحطم القطار كله ، وتشعل النار فيه .

وبدأ يوحى الى نفسه : « لا ، ان خراطيشها ستنفد الآن ، سينتهى كل شىء الآن . . . »

الا ان الطائرات استدارت ، وعادت تطير بموازاة القطار على ارتفاع واطئ .

— اسعاف ! يا ممرضة !

صدرت هذه الصيحة من ناحية العربتين المحترقتين ، واندفعت بعض الشخوص الى الامام فى فوضى ، ساحبين شخصا على الثلج .

— يدعوننى !

قالت زويا ، ونهضت ، ونظرت الى ابواب العربة المفتوحة ، والى الرشاشة المغروسة فى الكثيب الثلجى . ثم سألت :

— اين هو ، يا كوزنيتسوف ؟ انا ذاهبة . قل له اننى هناك .

لم يكن له الحق فى ايقافها . امسكت حقيبتها وذهبت بخطى مسرعة ، ثم ركضت فى السهب باتجاه الحريق ، واختفت بين كثبان الثلج .

— كوزنيتسوف ! . . انت ؟

ابتعد دروزدوفسكى عن العربة متوثبا ، وسقط

بالقرب من الرشاشة ، ودسّ فى القابض قرص خراطيش جديدا . وكان وجهه الرقيق الشاحب مستدقا .

— انظر ، ماذا يفعل هؤلاء الاوباش ! اين زويا ؟

اجاب كوزنيتسوف ، وغرس قاعدة الرشاشة فى قشرة الثلج الخشنة لتكون اكثر ثباتا :

— جرح شخص فى مقدمة القطار . ها هى الطائرات تغير من جديد . . .

— اوغاد . . . اسألك : اين زويا ؟

صاح دروزدوفسكى ، ضاغطا بكتفه على الرشاشة ، وكلما ازدادت الطائرات من انخفاضها فوق السهب ، واحدة تلو الاخرى ، ازدادت عيناه ضيقا ، وجمد بؤبؤاهما فى زرقة السماء الشفافة مثل نقطتين سوداوين .

سكت المدفع المضاد للطائرات فى نهاية القطار .

اطلق دروزدوفسكى رشقة طويلة على جسم الطائرة الاولى ، الجسم المعدنى المستطيل اللامع فى الاعلى ، ولم يرفع اصبعه عن زناد الاطلاق ، حتى مرقت الطائرة الاخيرة بجسمها المستدق مثل نصل موسى باهر البريق .

هتف دروزدوفسكى مكتوم الصوت :

— اصبتها ! هل رأيت ، يا كوزنيتسوف ؟ حقا اصبتها ! ولا يمكن الا ان اصيبها .

كانت الطائرات الآن تحلق بسرعة هائلة على ارتفاع عشرين مترا فوق السهب ، ممزقة الهواء برشاشاتها ذات العيار الكبير ، حتى كأن الاسنّة النارية التى تكونها خطوط الرصاص تشلّك بطرفها اجسام الناس المبطوحة على الثلج ، وتقلّبهم فى دوامات الثلج الدائرة . لم يحتمل بعض الجنود من البطارية المجاورة فيضان الرصاص المتساقط من الاعلى ، فوثبوا واضطربوا تحت الطائرات ، وتفرقوا فى شتى الجهات . ثم سقط احدهم ، وزحف ، وجمد فى مكانه مادا ذراعيه الى الامام . وركض آخر بخط متكسر ، ناظرا بغرابة يمينا وشمالا ، ووابل الرصاص المنهمر من طائرة منقضة ، ينوشه بانحراف ، من الاعلى ، نافذا فيه ، مثل سلك حام ، وتدحرج الجندى على الثلج ، مشمّرا ذراعيه ، ثم جمد ايضا ، وتصاعد دخان من سترته المبطنة بالقطن .

— حماقة ! حماقة ! على ابواب الجبهة ! — صاح دروزدوفسكى ، مخرجا من القابض ثانى قرص خراطيش فارغ .

نهض كوزنيتسوف من ركعته على ركبتيه ، واصدر امره باتجاه الجنود الزاحفين وراء كثبان الثلج .

— لا تركضوا ! ممنوع ان يركض احد ، استلقوا !

وفى الحال تردد فى اذنيه امره هذا ، صوته ، الذى اندفع فى الصمت المطبق باعلى قوته . ولم تلعلع الرشاشات ، ولم يضغط على الرأس هدير الطائرات المنقضة . وادرك ان كل شىء قد انتهى . . .

ابتعدت الطائرات بصفير رقيق ميممة شطر الجنوب الغربى ، منغرسة فى زرقة السماء الشتائية ، وبرز من خلف الكثبان الثلجية الجنود الذين لم ترقد اليهم ثقتهم بعد ، نافضين الثلج عن معاطفهم ، محدقين فى العربتين المحترقتين فى المقدمة ، ثم ساروا ببطء الى القطار ، منظفين اسلحتهم من الثلج .

وصدر امر من بعد :

— اجروا تعدادا للرجال ! على كل بطارية ان تجرى فحصا !

وفى الحال اصدر دروزدوفسكى امره :

— رؤساء الفصائل ، صفوا الجنود !

وهدر رئيس الرقباء غولوفانوف :

— فصيلة الادارة ، اصطفاف !

واوعز كوزنيتسوف :

— الفصيلة الاولى ، اصطفاف !

وصاح الملازم دافلاتيان بالطريقة التى تعلمها فى المدرسة العسكرية :

— الفصيلة الثانية ، فى الصف !

أخذ الجنود اماكنهم دون تبادل الاحاديث على خلاف عادتهم ، وهم ما زالوا مضطربين لم يعد لهم هدوءهم بعد زوال الخطر ، نافضين ثيابهم ، معدلين احزمتهم ، وانظارهم متجهة جميعا نحو الجهة الجنوبية من السماء ، التى كانت فى تلك الناحية الآن وضاءة صافية على نحو لا يصدق .

جمعت فصيلة بالكاد . ادار كوزنيتسوف بصره فى حضائره ، فوقع بصره فى الحال على المسدد نيتشايف الذى كان منكمشا فى الجناح الايمن ، حيث كان يجب ان يقف آمر المدفع الاول الرقيب الاول اوخانوف الذى لم يكن موجودا .

سأل كوزنيتسوف ، وهو يتقدم من الصف قلقا :

— اين اوخانوف ؟ هل رأيته اثناء الغارة ، يا نيتشايف ؟

اجاب نيتشايف همسا :

— انا نفسى اتساءل ، ايها الرفيق الملازم ، اين يمكن ان يكون . قبيل الفطور ذهب الى رئيس الرقباء . ربما ما يزال هناك . . .

تساءل كوزنيتسوف متشككا : « حتى الآن هناك ؟ » ثم سار امام الفصيلة ، وسأل : « من رأى اوخانوف اثناء الغارة ؟ هل رآه احد ؟ »

تبادل الجنود النظرات بصمت ، وهم منكمشون من البرد .

ومرة اخرى همس نيتشايف ، مبديا وجها معذبا :

— ايها الرفيق الملازم ، انظر ! ربما هو هناك . . .

كان رذاذ ثلجى دقيق يرذ تحت الشمس ، القطار الجسيم ، والثلوج ، ومبنى المحطة الصغير الغاطس فى كثبان الثلج ، كما كان قبل الغارة . بينما استمرت الحركة اللاغطة فى المقدمة ، بالقرب من عربتى البولمان المحترقتين ، والعربات السليمة البيضاء من قشرة الجليد عليها ، وكان رجال البطاريات يصطفون فى كل مكان ، ومرّ بهم جنديان يحملان على معطف شخصا جريحا او قتيلا .

قال كوزنيتسوف :

ـ لا ، ليس هذا اوخانوف ، فقد كان يرتدى سترة مبطنة .

وارتفع صوت دروزدوفسكى الحاد :

ـ الفصلية الاولى ! الملازم كوزنيتسوف ! لماذا لا تعرض ؟ ما الامر ؟ تقدم كوزنيتسوف خمس خطوات نحو دروزدوفسكى وهو يفكر كيف ينبغى ان يوضح غياب اوخانوف ، ولكن ، قبل ان يتسنى له تبليغ ذلك تساءل دروزدوفسكى مطالبا :

ـ اين آمر المدفع اوخانوف ؟ لا اراه فى الصف ؟ انا اسألك انت ، يا آمر الفصيلة الاولى ؟

ـ فى البداية يجب ان نعرف . . . هل هو حى .

اجاب بذلك كوزنيتسوف ، واقترب من دروزدوفسكى الذى كان ينتظر عرضه مستعدا للعمل . وفكر كوزنيتسوف : « يبدو من وجهه انه قد لا يصدق بى» . وعاد الى ذاكرته حزمه اثناء الغارة ، ووجهه الشاحب المستدق حين دفع زويا ، بعد ان اطلق على الطائرات قرصا كاملا من الخراطيش .

قال دروزدوفسكى :

ـ ملازم كوزنيتسوف ، هل سمحت له بالذهاب الى جهة ما ؟ لو كان قد جرح لكانت المشرفة الصحية بلاغينا قد بلغت عن ذلك منذ وقت طويل . هذا ما اظنه !

فاعترض كوزنيتسوف قائلا :

ـ اما انا فاظن ان اوخانوف قد تأخر عند رئيس الرقباء . وليس له جهة اخرى يمكن ان يذهب اليها .

ـ ارسل احدا الى فصيلة التموين حالا ! ما الذى يبقيه هناك حتى الآن ؟ يساعد الطباخ فى اعداد العصيدة ؟

ـ انا ذاهب بنفسى .

واستدار كوزنيتسوف . وسار بمحاذاة العربات صوب مطابخ الكتيبة .

عندما وصل الى فصيلة التموين كانت بعض القدور ما تزال على النار على الرصيف ، وامامها السواق والكتاب والطباخ فى هيئة اهتمام . وكان رئيس رقباء البطارية سكوريك ذو الوجه النحيل ، والعينين الخضراوين الوحشيتين المكتنفتين انفا معكوفا عن قرب ، يروح ويجئ امام الصف رخوا كالعصيدة ، ويداه خلف ظهره ، وقد ارتدى معطف رؤساء الوحدات الطويل ،

وحذاء لباديا جديدا ، وكان بين الحين والآخر ينظر الى عربة النوم التى تجمهر عندها كبار امراء الوحدات ، ورجال السكك الحديدية العسكريون ، يتحدثون مع شخص من القيادة ، وصل لتوه الى القطار ، فى سيارة طويلة مغنومة .

ـ استعد !

صاح سكوريك ، وكأنما احس ظهره بمقدم كوزنيتسوف ، واستدار على عقبه استدارة دائرية ، كراقص الباليه ، ورفع يده الى صدغه بالتحية العسكرية ، وبسط اصابعه ، وقال :

ـ ايها الرفيق الملازم ، فصيلة التموين . . .

ـ استرح !

قال كوزنيتسوف ، ونظر بعبوس الى سكوريك الذى كشف بصوته عن درجة مرؤوسيته لرتبة الملازم غير العالية ، وقال :

ـ هل الرقيب الاول اوخانوف عندكم ؟

قال سكوريك متنبها مرتابا :

ـ ولماذا ، ايها الرفيق الملازم ؟ كيف يمكن ان يكون هنا ؟ انا لا اسمح . . . ما المسألة ، ايها

الرفيق الملازم ؟ اختفى ؟ يا للخبر ! اين هو ، ابو الرأس والاذنين ؟

فعاد كوزنيتسوف سؤاله صارما :

ـ هل كان اوخانوف عندكم وقت الفطور ؟ هل رأيته ؟

بدا على وجه رئيس الرقباء النحيل المتمرس جهد التفكير ، والدرجة المناسبة من المسؤولية والمشاركة فيما يحصل للبطارية .

فبدأ يتحدث بلياقة واتزان :

ـ اتذكر جيدا ، ايها الرفيق الملازم ، ان آمر المدفع اوخانوف تسلّم الفطور لطقمه بل وتشاتم مع الطباخ ، على تحديد الحصة . وقد اضطررت انا شخصيا ان الفت نظره . انه متسيب ، وكأنه ليس بعسكرى . انهم على حق تماما ، ايها الرفيق الملازم ، حين لم يمنحوه رتبة . متعجرف ، وغير محتشم . . . ربما ذهب الى الضيعة ، وراء المحطة ، فى الوهدة ! ـ وفى الحال التزم الحشمة ، وهمس : ـ ايها الرفيق الملازم ، يبدو ان الجنرالات هنا ، هل وصلوا لتفتيش البطاريات . ارفع تقريرك اذن ، حسب النظام . . .

سارت جماعة كبيرة من الناس من عربة النوم مارة بالبطاريات المصطفة بمحاذاة القطار ، وحتى عن بعد عرف كوزنيتسوف من بين رجالها العقيد دييف قائد الفرقة ، المديد القامة ، المحزّم باحزمة كتفية متصالبة على صدره ، المرتدى جزمة شتائية جديدة ، والى جانبه سار جنرال غير معروف ، نحيل ، سريع الخطو ، يعتمد على عصا صغيرة ، تبرز فروته القصيرة السوداء (التى لم يرتد مثلها احد فى الفرقة) بين الفروات والمعاطف الاخرى .

انه الفريق بيسونوف قائد الجيش .

سار يلاحق العقيد دييف . وهو لا يكاد يعرج ، وكان يتوقف عند كل بطارية ، ويستمع لبيان آمرها ، ثم ينقل عصاه الخيزرانية الدقيقة من يده اليمنى الى اليسرى ويرفع يده بالتحية ، ويتابع تفتيشه . وعندما توقف قائد الجيش ، والقادة المرافقون له عند العربة المجاورة سمع كوزنيتسوف فجأة صوت الجنرال العالى الحاد :

— اود وانا اجيبكم عن سؤالكم ان اقول شيئا واحدا هو انهم كانوا يحاصرون ستالينغراد خلال

اربعة اشهر ، الا انهم لم يستولوا عليها . والآن شرعنا بالهجوم . والعدو ، لا بد ، ان يشعر بقوتنا وكراهيتنا له على اتم وجه . ثم تذكروا شيئا آخر وهو ان الالمان يدركون اننا ، هنا ، عند ستالينغراد ندافع ، امام العالم كله ، عن حرية روسيا وشرفها . ولا اريد ان اكذب واعدكم بمعارك سهلة ، فان الالمان سيقاتلون بآخر ما لديهم . ولهذا اطلب منكم الشجاعة والاحساس بقوتكم ! . .

نطق الجنرال بكلماته الاخيرة بصوت متأثر ما كان له الا ان يثير الآخرين ، وهكذا احس كوزنيتسوف فجأة بالسلطة القوية المقنعة التى يتمتع بها هذا الرجل النحيل المرتدى الفروة السوداء ، وذو الوجه العليل الخالى من الجمال ، الذى سار الآن الى فصيلة التموين . لم يكن كوزنيتسوف يعرف ، وهو عند المطابخ ، ما يبلغ الجنرال به ، فاصدر امره قائلا :

— استعد ! تراصف الى اليمين ! ايها الرفيق الجنرال ، فصيلة التموين للبطارية الاولى من الكتيبة الثانية . . .

ولم يكمل تبليغه ، فان الفريق غرز عصاه فى

الثلج ، وتوقف امام فصيلة التموين الجامدة ، محوّلا عينيه الحادتين الى قائد الفرقة دييف متسائلا . فردّ هذا عليه ، من هامته الطويلة ، بايماءة مهدئة ، وابتسمت شفتاه اللامعتان ، وقال بصوت قوى فتى منخفض النبرة :

ـ لا توجد خسائر ، ايها الرفيق الجنرال . رجالها سالمون جميعا . اليس كذلك ، يا رئيس الرقباء ؟

صاح سكوريك بالاوكرانية لسبب غير معروف ، واجحظ عينيه بولاء :

ـ ولا رجل واحد ، ايها الرفيق العقيد . رئيس رقباء البطارية سكوريك .

واخرج صدره كالفتوة ، وجمد بنفس هيأة الاصغاء التام .

كان بيسونوف يقف على بعد اربع خطوات عن كوزنيتسوف ، فكان هذا يرى اطراف الياقة الفرائية الاستراخانية التى تجمد عليها بخار الانفاس ، والخدين الناحلين المزرقين الحليقين بنعومة ، والتغضنات العميقة عند فمه المضموم بشكل ينم عن سلطان ، والنظرة الذكية العارفة المطلة من تحت الجفنين ، نظرة رجل فى الخمسين لقى الشىء الكثير فى حياته . كانت هذه

النظرة تتحسس شائكة شخوص السوّاقين غير المتناسقة ، ثم هيكل رئيس الرقباء المقدود كالحجارة ، وكأنه يعريه . حرك رئيس الرقباء قدميه ، مقوسا صدره اكثر ، وتقدم بكليته الى الامام .

قال الفريق بصوت صارف :

ـ لم هذه العادة للرتب ؟ استرح !

صرف بيسونوف بصره عن رئيس الرقباء ، وفصيلته التموينية ، وعندئذ فقط خاطب كوزنيتسوف :

ـ وانت ، ايها الرفيق الملازم ، ما علاقتك بفصيلة التموين ؟

وقف كوزنيتسوف وقفة استعداد صامتا .

ـ هل ادركتك الغارة ، وانت هنا ؟

قال العقيد دييف ، وقوله لم يخل من اسعاف ، ولكن صوته كان المتعاطف الوحيد ، وكان حاجباه ، بعد بلاغ رئيس الرقباء ، منعقدين على قصبة انفه ، وسأل :

ـ لماذا انت صامت ؟ أجب عما تسأل عنه ، يا ملازم .

احس كوزنيتسوف بترقب دييف العجول ، النافد الصبر ، ولاحظ ان رئيس الرقباء سكوريك ، ورجال

فصيلة التموين بكامل طاقمهم غير المتجانس ، يديرون اليه رؤوسهم فى آن واحد ، ويرون الامراء المرافقين يتململون . واجاب كوزنيتسوف اخيرا :

ـ لا ، ايها الرفيق الجنرال . . .

قلّص العقيد دييف رموشه الشهباء ، وهو ينظر الى كوزنيتسوف ، وكأنه مانع مغيظ .

ـ ما معنى « لا » يا ملازم ؟

كرر كوزنيتسوف :

ـ لا ، لم تدركنى الغارة هنا . انا ابحث عن آمر مدفع من فصيلتى . اذ لم يكن اثناء التعداد . الا اننى اظن . . .

صاح رئيس الرقباء بعد شهقة هواء فى صدره ، ونظرة خاطفة الى بيسونوف :

ـ لا يوجد اى آمر من امراء المدافع فى فصيلة التموين ، ايها الرفيق الجنرال .

الا ان بيسونوف سأل ، وكأنما لم يسمعه :

ـ هل جئت رأسا من المدرسة العسكرية يا ملازم ، ام حاربت ؟

قال كوزنيتسوف قليل الحزم :

ـ حاربت . . . ثلاثة اشهر فى عام ١٩٤١ . اما الآن فقد انهيت مدرسة المدفعية . . .

كرر بيسونوف :

ـ مدرسة المدفعية . اذن ، فانت تبحث عن آمر مدفعك ؟ هل فتشت بين الجرحى ؟

اجاب كوزنيتسوف : « فى بطاريتى لا يوجد جرحى ، ولا قتلى » واحس ان سؤال الجنرال عن المدرسة هو قطعا وليد الاثر الذى تركه انقطاعه ، وقلة حيلته وخبرته .

وقال بيسونوف مصححا :

ـ اذن ، وانت فاهم ، يا ملازم ، انه لا يحدث فى المؤخرة ان يكون هناك مفقودون . ان المفقودين فى المؤخرة ليس لهم الا اسم هو : الهاربون . آمل الا يكون ذلك ما حدث ، يا عقيد دييف ؟

تريث قائد الفرقة فى الجواب قليلا . وساد هدوء . ومن بعيد ترامت اصوات مبهمة ، وهسيس القاطرة الصافر . فى المقدمة قرقعت الموصلات ، وصلصلت ، فقد كانوا يفكون العربتين المحروقتين من القطار .

ـ انا لم اسمع جوابا .

فقال دييف بقناعة مفرطة :

— ان آمر فوج المدفعية رجل جديد . ولكن مثل هذه الامور لم تحدث ، ايها الرفيق الجنرال . وآمل الا تحدث فى المستقبل . انا واثق ، ايها الرفيق الجنرال .

وارتعش طرف فم بيسونوف الحاد رعشة خفيفة .

— وليكن . . . شكرا على هذه الثقة ، يا عقيد .

ظلت فصيلة التموين واقفة على حالها بلا حراك ، ورئيس الرقباء سكوريك جامد على بعد خطوتين من الصف ، اشار بحاجبيه لكوزنيتسوف اشارات غريبة تلقينية ، الا ان كوزنيتسوف لم يلحظها . كان يحس بان الفريق يكتم عدم ارتياح لدى حديثه مع قائد الفرقة ، وبان قادة الاركان يبدون اهتماما قلقا . بعد ان كبح شيئا فى نفسه ، سأل رغم ذلك :

— اتسمح لى بالانصراف ، ايها الرفيق الجنرال ؟

صمت بيسونوف متطلعا فى وجه كوزنيتسوف الشاحب دون ان يبدى حركة . فرك قادة الاركان المتثلجون آذانهم خلسة ، ورفعوا رجلا وخفضوا اخرى . ولم يكونوا يفهمون تماما سبب تأخر قائد الجيش فى

فصيلة للتموين طوال هذا الوقت . ولم يكن فى وسع احدهما لا العقيد دييف ، ولا كوزنيتسوف ان يعرف ما يدور فى ذهن بيسونوف الآن . بينما كان بيسونوف ، كما كان يحدث كثيرا فى الفترة الاخيرة ، يفكر فى تلك اللحظة فى ابنه ذى الثمانية عشر ، الذى فقد فى حزيران فى جبهة فولخوف . فُقد لذنبه هو حتى ولو كان غير مباشر ، كما بدا ذلك لبيسونوف نفسه ، رغم انه ادرك بعقله انه فى الحرب احيانا لا يستطيع اى شىء ان ينقذ من رصاصة او من مصير .

وبعد صمت قال بيسونوف ، وقد رأى ما يبذله الملازم من جهود مبتسرة ليواجه الارتباك الذى تثيره نظرته :

— اذهب ، ايها الملازم ، اذهب ! . .

ورفع بيسونوف يده الى قبعته الجنرالية بالتحية ، عابس السحنة ، وسار على طول القطار محاطا بجماعة قادة الاركان ، ضاغطا بثقله على الرجل العليلة ، لانه شعر بالبرودة فيها .

وكان الالم يشتد كلما اصاب القرس هذه الرجل ، وذلك ما كان يحدث كثيرا فى الايام الاخيرة . الا

ان بيسونوف عرف ، بعد اقامته ، فى المستشفى ، ان الاحساس بالألم فى العصب الذى اصيب بشظية سيبقى طويلا ، وينبغى التعود عليه . لقد كان مضطرا دائما تقريبا الى ان يتحمل الما معرقلا فى قصبة ساقه ، كان يجعل اصابع القدم اليمنى تتخدر ، ويصيبه فى بعض الاحيان بما يشبه الرعب من تعطل لا معنى له ، كالفراغ ، اذا دخل المستشفى مرة اخرى حين ينغر الجرح ، وهذا ما كان يخافه ، ان هذه الحقيقة ، ودوام تفكيره ، بعد تعيينه فى الجيش ، فى مصير ابنه كانا يولدان فى نفسه هزات مقلقة من عدم التوازن النفسى ، والتخلخل الغريب ، وهو ما لم يكن بقادر على تحمله فى نفسه او فى الآخرين .

لم تكن المفاجآت كثيرة الحدوث فى حياته . الا ان تعيينه فى المنصب الجديد ــ كقائد جيش ــ كان مفاجأة تامة له . فقد تسلم جيشا جديدا حديث التكوين بعيدا فى المؤخرة ، فى ايام ترحيله فى العربات (كان يرسل الى الجبهة ما يبلغ ١٨ قطارا يوميا) ، ولم يرضه تماما تعرّفه اليوم على احدى فرقه التى تعرضت لغارة الطائرات الالمانية اثناء نقلها الى بضع محطات

شمالى غرب ستالينغراد . وكان عدم الرضى هذا مرجعه الى عدم تأمين غطاء جوى فى منطقة النزول . بعد ان استمع الى تبريرات ممثل المواصلات العسكرية من ان « طائراتنا المقاتلة غادرت المنطقة من توها ، ايها الرفيق القائد » اعترض قائلا : « ما معنى : غادرت ؟ غادرت طائراتنا ، وجاء الالمان فى الوقت المناسب ! مثل هذا التأمين لا قيمة له ! » وبعد ان قال ذلك اسف على عدم تماسكه ، فان ناظر المحطة لم يكن المسؤول عن الغطاء الجوى ، سوى ان عقيد المواصلات العسكرية هذا كان اول من وقع عليه بصره .

بعد ان ابتعد بيسونوف وقادة الاركان عن فصيلة التموين سمع وراءه صوت دييف المخفّض ، وقد تأخر عند الصف :

ــ ما هذه السفاسف التى تفوهت بها ، يا ملازم ؟ هيا ، ابحث بجد ! فهمت ؟ لك مهلة نصف ساعة فقط !

غير ان بيسونوف تظاهر بانه لم يسمع شيئا ، حين لحق به دييف عند العربات المكشوفة المحملة بالمدافع ، وقال له وكأن شيئا لم يحدث :

ـ انا اعرف هذه البطارية ، ايها الرفيق القائد . انا واثق فيها كليا . انا اتذكرها من التدريب خلال التشكيل . غير ان امراء الفصائل هؤلاء صغار السن جدا ، لم يحصلوا على خبرة بعد . . .

فقاطعه بيسونوف :

ـ ما الذى تحاول ان تبرره ، ايها العقيد ؟ ارجو ان تكون اكثر يقينا ووضوحا .

ـ اعذرنى ، ايها الرفيق الجنرال ، لم أرد . . .

فقال بيسونوف بلهجة تنم عن التعب :

ـ اى شىء لم ترد ؟ ما هو بالضبط ؟ امن المعقول انك تعتبرنى ايضا صبيا ؟ لا جدوى اذن من ان ترسل كلماتك الرنانة . انا لا اسمع رنينا من هذا القبيل .

ـ ايها الرفيق القائد . . .

ـ اما بخصوص فرقتك ، ايها العقيد ، فاننى لن اكوّن فكرة تامة عنها الا بعد القتال الاول . تذكر ذلك . واذا تأذيت منى فهذا لا يعنينى . فانا فى غنى عنه .

رفع العقيد دييف كتفيه ، واجاب مثبّط العزم :

ـ لا يحق لى ان اتأذى منك ايها الرفيق القائد .

ـ يحق لك ! فقط ان يكون الموجب لذلك واضحا .

غرز بيسونوف عصاه فى الثلج ، وادار عينيه فى قادة الاركان الذين سكنوا ، ولزموا الصمت مطرقين باعينهم ، غير مشتركين فى الحديث . لقد كانت عيناه تلاحقانهم فلم يكن على معرفة كافية بهم ايضا .

ـ استعد ! تراصف الى اليمين !

ارتفع هذا الايعاز العالى فى المقدمة ، عند صف الجنود الذى صار يلوح داكنا للعين امام العربات .

قال العقيد دييف :

ـ انها بطارية الهاون الثالثة ، ايها الرفيق الجنرال .

قال بيسونوف عرضا :

ـ لنر رجال الهاون .

الفصل الثانى

ـ البطارية ! نزول ! فرغوا المدافع من العربة ، وانزلوا الخيول !

ـ اسعدنا الحظ ، يا اخوان : فوج المدفعية كله فى السيارات ، وبطاريتنا على الخيول .

ـ الدبابة لا ترى الحصان بشكل جيد . هل فهمت معنى ذلك ؟

ـ ايها الاخوان السلاف ، يجب ان نسير مشيا على الاقدام ؟ او ربما الالمان على بعد خطوتين ؟

ـ لا تستعجل ، ستلحق على العالم الآخر . هل تدرى كيف الامر فى الخط الامامى ؟ ما تكاد تمس الاوكورديون لتعزف اغنية الحياة ، حتى تكون الاغنية قد انتهت .

ـ ولم هذا الكلام الفارغ ؟ من الخير ان تخبرنى هل يوزعون التبغ قبيل المعركة ؟ ام ان رئيس الرقباء سيبخل به ؟ انه يخيل الى ابعد حدود البخل ! زعموا انهم سيطعموننا اثناء المسيرة .

ـ رجالنا فى ستالينغراد وضعوا الالمان فى الطوق . . . يعنى نحن ذاهبون الى هناك . . . آه ، لو كنا طوقنا الالمان فى عام ١٩٤١ ، لوصلنا الى مكان بعيد !

ـ الريح هذه دلالة على البرد . فى المساء سيشتد القرس كما يبدو .

ـ سنضرب الالمان فى المساء ، فلا تبرد !

ـ وماذا يهمك ؟ الشىء الرئيسى ان تحافظ على

سلاحك الشخصى من الزمهرير والا فيتجمد وتعود الى البيت هزيلا . فلا تعرفك زوجتك الا اذا ابرزت هويتك .

ـ يا اخوان ، فى اية جهة ستالينغراد ؟

عندما نزلوا من القطار ، قبل اربع ساعات ، فى المحطة السهبية الصغيرة الاخيرة قبل الجبهة كان الانفعال الذى يحدث دائما عند تغيّر الوضع ، قد استحوذ على الجميع . كانوا جميعا يحسون بدفق من المرح الغامر ، بغض النظر عما يضمر المستقبل لكل واحد منهم ، وكانوا يضحكون برغبة مفرطة من النكات ، ومن السباب المبرأ من الضغن .

وفى تلك اللحظات كان الملازم كوزنيتسوف يحس فجأة بهذا التكاتف العام الذى كان يوحد العشرات والمئات والالوف من الناس فى انتظار معركة قريبة غامضة لم يخوضوا مثيلا لها ، ويفكر تفكيرا لا يخلو من قلق فى انه الآن ، فى هذه اللحظات بالذات ، قبيل التحرك الى الجبهة ، مرتبط بهم جميعا ارتباطا وثيقا ، ولزمن طويل . وحتى وجه دروزدوفسكى الشاحب ، وجه الآمر الذى اشرف على انزال البطارية ،

لم يبد له على تلك الدرجة من البرود والجمود ، وصار نسيا منسيا كلّ ما احس به اثناء الغارة الالمانية وبعدها . مثلما ابتعد عن مجال ذاكرته ونسى الحديث الذى جرى بينه وبين دروزدوفسكى قبل وقت قصير . ورغم ما يمكن ان يفترض صار دروزدوفسكى لا يسمع تقرير كوزنيتسوف عن كمال تعداد رجال الفصيلة (وكانوا قد عثروا على اوخانوف) ، وصار يقاطعه بنفاد صبر ظاهر يبدو من رجل مشغول بقضايا لا تقبل التأجيل : « ابدأ بانزال الفصيلة . من غير أخذ ورد ! واضح ؟ » اجاب كوزنيتسوف : « نعم ، واضح » ، واتجه الى عربته حيث كان آمر المدفع الاول اوخانوف واقفا محاطا بجمهرة من الجنود ، وكأن شيئا لم يحدث . ان ما حصل للقطار بدا الآن ، ازاء التحسس بدنو المعركة ، باهتا ، هزيلا مطويا ، لا يذكر الا عرضا ، وخطفا ، بدا ذلك لكوزنيتسوف ، ولدروزدوفسكى ، فيما يبدو ، ولجميع رجال البطارية التى استولى عليها فيض عصبى من الحركة فى شىء جديد لم يجرب بعد ، قد ضغط الى الحد الاقصى فى كلمة واحدة ترن كالمعدن ، هى ستالينغراد .

ومن ذلك ، فان الاصوات والضحكات صارت تهمد بالتدريج ، بعد مسيرة اربع ساعات فى سهب متجمد بلا بيوت ، بين ثلوج قفراء ممتدة الافق ، ودون وقفات قصيرة ، ولا مطابخ موعودة . وزال الانفعال ، وسار الناس مبللين بالعرق ، وعيونهم دامعة موجعة من لمعان الكثبان الثلجية المشمسة الحاد . وبين الحين والآخر كان يترامى من اليسار ومن الخلف قصف بعيد ، ثم كان السكون يسود ، ولم يكن مفهوما لماذا لم يقترب الخط الامامى وكان يجب ان يكون قريبا الآن ، ولماذا كان القصف يأتى من الخلف . كان الجميع لا يفكرون الآن الا فى شىء وحيد هو : اين تقع الجبهة الآن ، والى اى جهة يسير طابورهم ؟ ساروا مرهفين الاسماع ، وبين الحين والآخر كانوا يختطفون من جانبى الطريق حفنات من الثلج الخشن ، ويمضغونه ، ويخدشون شفاههم ، ويبتلعونه ، غير ان الثلج لم يكن يطفئ ظمأهم .

كف كوزنيتسوف منذ وقت طويل عن السير فى مقدمة الفصيلة ، كما كان يجب عليه ، وسار وراء المدفع الثانى ، وقد تصبب كل جسمه عرقا ، والتصق

قميصه على صدره تحت السترة المبطنة والمعطف . كانت خطوط العرق الحارة تسيل من تحت القبعة ، من صدغيه الملتهبين ، وتتجمد فى الريح فى الحال ، جاذبة الجلدة معها . كانت الفصيلة تسير جماعات متفرقة بصمت تام ، وقد فقدت منذ وقت انتظامها الاول الذى سرّه ، حين خرجوا الى السهب متبادلين النكات والضحك بلا سبب . والآن كانت الظهور تتماوج امام عينيه بلا انتظام ، وقد تحدبت عليها الحقائب الظهرية قبيحة المنظر . وارتخت احزمة الجنود المثقلة بالقنابل اليدوية على معاطفهم جميعا . وانزل بعضهم حقائبهم عن اكتافهم ، ووضعوها فى عربة المدفع الامامية .

سار كوزنيتسوف بلا مبالاة متعبّة ، منتظرا شيئا واحدا : ان يصدر امر بالتوقف للراحة ، وبين الحين والآخر كان يلتفت فيرى تشيبيسوف يقزل مطأطأ الرأس وراء العربات ، والمسدد نيتشايف الذى كان ، قبل حين ، البحار الدقيق ، يترنح وفى عينيه تعبير خبيث ، وقد تكاثف الجمد على شاربيه الرطبين اللذين كان ينفخهما باستمرار ، ويلعقهما .

« متى ستتوقف اخيرا ؟ اين الوقفة ؟ »

— على اى حال ، متى ستتوقف ؟ هل نسوا ؟ —

سمع كوزنيتسوف من خلفه صوت الملازم دافلاتيان الصادح الحانق . وكان صوته يدهش كوزنيتسوف دائما بصفائه الساذج المدرسى ، ولسبب ما كان يولد فى نفسه ، مثل ماض غابر ، ذكريات لطيفة عن زمن مدرسى حبيب وادع كان فى عهد ما ، لا يزال دافلاتيان يعيش فيه ، على الارجح ، ولكنه الآن كان يبدو لكوزنيتسوف مبهما بعيدا .

التفت بجهد ، فقد كانت بطانة الياقة السليولودية الرطبة التى اعطيت بعد التخرج من المدرسة العسكرية عند ارتداء البزة تضغط على رقبته ، وتبردها . لحق دافلاتيان آمر الفصيلة الثانية ذو الوجه النحيل والعينين الطويلتين بكوزنيتسوف . وكان على خلاف الآخرين لا يغطى قلنسوته بغطاء داخلى . واثناء سيره مضغ كتلة من الثلج بشهية ، وكأنها قطعة من السكر .

قال دافلاتيان بصوته المدرسى المرّن كالزجاج :

— اسمع ، يا كوزنيتسوف ! انا بصفتى سكرتير الكومسومول فى البطارية اريد ان اتشاور معك . هيّا ، اذا كان فى امكانك .

— وما المسألة ، يا غوغا ؟

سأل كوزنيتسوف ذلك ، وقد ناداه باسمه الاول ، مثلما كان يفعل فى المدرسة .

— ألم تقرأ بعد انشاء المانيا ؟ — قال دافلاتيان ذلك وهو يمصّ الثلج ، واخرج من جيب معطفه ورقة صفراء مطوية اربع طيات ، وقطّب حاجبيه ، وتابع قوله : — عثر عليها كاسيموف فى الخندق . القوها من الطائرة ليلا . انهم موغرون بالحقد ، ويفحون فحيحا .

— ارنى ، يا غوغا .

تناول كوزنيتسوف الورقة ، ونشرها ، ومرر عينيه بسرعة على نصها المكتوب بحروف كبيرة :

« يا قطاع الطرق الستالينغراديين !

اتيح لكم مؤقتا تطويق جزء من القوات الالمانية عند مدينتكم ستالينغراد التى حولها اسطولنا الجوى الى خرائب . فلا تفرحوا ! ولا تأملوا بانكم ستنتقلون الى الهجوم الآن ! فاننا سنعد لكم لحظات سعيدة ، ونسوقكم الى ما وراء الفولغا ، وبعد ذلك ستكونون طعاما لقمل سيبيريا . انكم ضعفاء امام الجيش المجيد

المظفر . فأسلموا على جلودكم الممزقة ، ايها الجزارون السوفييت ! »

قال دافلاتيان ، وقد رأى كوزنيتسوف يضحك ضحكة تهكمية بعد ان انهى قراءة المنشور :

— انهم يشتمون كالمسعورين . اغلب الظن انهم لم يفكروا بانهم سيلاقون الامرين فى ستالينغراد . كيف ترى هذه الدعاية ؟

اجاب كوزنيتسوف ، وهو يعيد اليه المنشور :

— انت على حق ، يا غوغا . انها ثرثرة وقحة . وبوجه عام لم اقرأ مثل هذا السباب حتى الآن . فى عام ١٩٤١ كانوا يكتبون شيئا آخر : « استسلموا ولا تنسوا ان تأخذوا ملعقة وقدرا ! » وكانوا يلقون مثل هذه المناشير كل ليلة .

قال دافلاتيان :

— اتدرى كيف افهم انا هذه الدعاية ؟ الكلب يحس بذنبه . وهذا كل ما فى الامر .

ودعك المنشور ، والقاه وراء الطريق ، وضحك ضحكة خفيفة ، ذكرت كوزنيتسوف مرة اخرى ، بشىء بعيد ، مألوف ، مشمس كيوم ربيعى فى نوافذ مدرسة خلال اوراق شجرة زيزفون مرصعة برصعات دفء .

وعاد دافلاتيان يقول ، وهو يبدل خطواته على خطوات كوزنيتسوف :

ـ الا تلاحظ شيئا ؟ فى البداية اتجهنا صوب الغرب ، ثم استدرنا نحو الجنوب . فالى اين نحن ذاهبون ؟

ـ الى الخط الامامى .

ـ انا اعرف الى الجبهة . انك ذكى . حزرت . ـ قال دافلاتيان ذلك ، بل وضحك خفيفا الا ان عينيه الطويلتين الشبيهتين باجاصتين كانتا تنمان عن اهتمام ـ ستالينغراد الآن الى الخلف . قل لى ، وانت قد حاربت ... لماذا لم يعلنوا لنا عن النقطة التى نتوجه اليها ؟ الى اين يمكن ان نذهب ؟ أهذا سر ؟ الا تعرف شيئا ؟ امن المعقول اننا غير ذاهبين الى ستالينغراد ؟

اجاب كوزنيتسوف :

ـ نحن ذاهبون الى الجبهة ، على اية حال . الى الجبهة ، وليس الى مكان آخر ، يا غوغا .

ادار دافلاتيان رأسه متأذيا :

ـ هل نطقتَ بحكمة ؟ وهل علىّ ان اضحك ؟ انا اعرف ذلك . ولكن اين يمكن ان تكون الجبهة

هنا ؟ نحن متجهون نحو الجنوب الغربى . هل تريد ان ترى فى البوصلة ؟

ـ انا اعرف نحو الجنوب الغربى .

ـ اسمع ، اذا كنا غير ذاهبين الى ستالينغراد ، فذلك شىء فظيع . انهم هناك يسلقون الالمان سلقا ، وهم يرسلوننا فى هذا الوقت الى آخر الدنيا . ها ؟

كان الملازم دافلاتيان يريد ، كما يبدو ، ان يجرى حديثا جديا مع كوزنيتسوف ، الا ان هذا الحديث ما كان من الممكن ان يوضح شيئا الآن . فان كليهما لم يكن يعرف خط سير الفرقة الصحيح الذى كان ، كما بدا لهما ، قد حوّل خلال مسيرة ، غير ان كليهما كان يحدس ان ستالينغراد ليست هى غاية سيرهم ، فهى الآن وراءهم ، هناك ، حيث كان يترامى بين الحين والآخر قصف بعيد .

صدر امر من الامام رددته فى الطابور اصوات لا حرارة فيها :

ـ تلاحق ! اسرع !

ردّ كوزنيتسوف ، بعد ان نظر الى الطابور الممتد فى السهب الى ما لا نهاية :

ـ حتى الآن غير واضح الا اننا ذاهبون الى مكان ما . انهم يسيرون بنا طوال الوقت . فلعلنا نسير بمحاذاة الطوق ، يا غوغا . ان المعركة اشتعلت هناك مرة اخرى ، حسب ما جاء فى بلاغ يوم امس .

فقال دافلاتيان :

ـ سيكون ذلك رائعا اذن !

ولما جاء دوره فى الايعاز ردده برنّة مدرسية استعراضية :

ـ تلاحقوا ، يا فتيان !

غير ان صوته بحّ ، فقال مرحا :

ـ هذا من اثر هذه الدوندرمه . حنجرتى بحت ! وانت ايضا امضغ . فان الثلج يطفئ العطش . والا فستكون مبللا كالجرذى !

ومصّ قطعة من الثلج بشهية وكأنها سكر .

قال كوزنيتسوف ، وابتسم ابتسامة لاارادية :

ـ هل كنت مولعا بالدوندرمة ؟ اتركها ، يا غوغا ، والا فستنزل فى وحدة الاسعاف . اظن ان صوتك تلف بالفعل .

هتف دافلاتيان :

ـ فى وحدة الاسعاف ؟ لن يكون ذلك ! وحدة الاسعاف ما ينقصنى ! الى الشيطان !

وتفل من وراء كتفه ثلاث مرات ابعادا للشر ، كما يحدث اثناء الامتحانات المدرسية ، واتخذ مظهر الجد ، والقى كتلة الثلج تحت قدميه .

ـ تلاحق ! اقرب الى المدافع ! استعد لحركة هبوط من منحدر .

خرج دروزدوفسكى بفرسه من رأس الطابور للقاء البطارية . كان يجلس على السرج معتدلا مستقرا ، ووجه الجامد صارم تحت قبعته المحالة على جبينه قليلا ، وتحوّل من العدو الى السير ، ثم اوقف الى جانب الطابور حصانه المنغولى القوى القوائم ، الطويل الوبر ، الرطب البوز من تردد الانفاس ولبضع دقائق راح يراقب ، بنظرة متمحكة ، الفصائل السائرة فى صف مستطيل بجنودها المتباعدين ، فى هيئة ناعسة لا ابالية . كانت ابطنة قلنسوات الجنود قد تضخمت من الثلج وشدت ذقونهم ، وكانت الياقات مرفوعة ، وحقائب المتاع تترنح متهدلة على الظهور المحنية . وما من ايعاز غير ايعاز « التوقف » ، على ما يبدو ،

كان من الممكن ان يشد ويخضع هؤلاء الناس الذين اكمدهم التعب . واغاظ دروزدوفسكى تخلخل البطارية هذا ، وهذه اللامبالاة ، وعدم اكتراث الناس باى شىء ، ولكن اكثر ما اغاظه ان حقائب الجنود كانت موضوعة على عربة المدفع الامامية ، بل وان بندقية احد الجنود كانت تبرز كالعصا من كومة الحقائب المشدودة اليها القصعات .

اوعز دروزدوفسكى ووقف فوق السرج لدناً :

ـ تلاحق ! حافظ على المسافة الاعتيادية ! لمن هذه الحقائب على عربة المدفع ؟ لمن هذه البندقية ؟ ارفعوها من العربة . . .

الا ان احدا لم يتقدم من العربة ، ولم يهرع احد ، سوى ان الذين كانوا قريبين منه اسرعوا خطاهم قليلا ، او بالاحرى ، تظاهروا بان ايعازه مفهوم . انتصب دروزدوفسكى على الركابين اكثر اعتدالا ، مستعرضا البطارية امامه ، وضرب بمقرعته رأس حذائه بهيئة تصميم .

ـ امراء الفصائل ، الىّ !

تقدم كوزنيتسوف ودافلاتيان سوية . انحنى

دروزدوفسكى عن السرج قليلا ، وكأنه يحرقهما كليهما بعينيه الشفافتين المحمرتين من الريح ، وتكلم بجفاء :

ـ ان عدم التوقف لا يعطى الحق فى ترك البطارية تسير بلا نظام ! حتى البنادق القيت فى عربة المدفع ! لعل الجنود لم يعودوا يطيعونكما ؟

قال كوزنيتسوف بصوت خافض :

ـ تعب الجميع ، يا آمر البطارية ، الى اقصى حد . ان ذلك واضح .

ـ وحتى الحصان ، انظر اليه كيف يلهث ! . .

قال دافلاتيان مؤيدا ، ومسّد بوز حصان الآمر . كان بوز الحصان رطبا تناثرت عليه ابر الجمد . وقد تبلل كمّ دافلاتيان من بخار انفاسه .

جذب دروزدوفسكى اللجام ، فالقى الحصان رأسه الى الوراء . وانشأ آمر البطارية يقول لاذع اللسان :

ـ انقلبتما الى شاعرين . « تعب الناس » و« الحصان لا يكاد يتنفس » . اتحسباننا ذاهبين لاحتساء الشاى عند احد الاصدقاء ام الى الجبهة ؟ تريدان ان تكونا رقيقى القلوب ؟ الناس تحت امرة هؤلاء يسحقون فى الجبهة كما يسحق الذباب . هل سنحارب بكلمات

« اعذرونى ، ارجوكم » ؟ باختصار . . . اذا بقيت البنادق والحقائب مرمية على عربة المدفع بعد خمس دقائق ، فسأجعلكما ، تحملانها على اكتافكما . هل كل شيء مفهوم ؟

— مفهوم .

رفع كوزنيتسوف يده بالتحية ، شاعرا بصواب دروزدوفسكى المبطّن بالسوء ، واستدار ، واتجه نحو عربة المدفع ، وركض دافلاتيان الى مدافع فصيلته .

جذب كوزنيتسوف من عربة المدفع حقيبة متاع فرنّت القصعة المشدودة اليها . وصاح :

— لمن هذا المتاع ؟ لمن هذه البندقية ؟

نظر الجنود ببرود ، وعدّلوا حقائبهم على ظهورهم بشكل آلى . وقال احدهم عبوسا :

— من وضع هذه الخرق هنا ؟ أهو تشيبيسوف ؟

زعق نيتشايف بلهجة الرقباء موترا حنجرته القوية :

— تشيبيسوف ! الى الملازم !

هرع تشيبيسوف يقزل من عربة الذخيرة الى عربة المدفع متعثرا بالجنود ، مبديا للجميع ، من بعيد ، ابتسامته المترقبة الباردة . وكان ضئيل الجسم ، فى

معطف عريض لا يناسب طوله ، قصير مثل تنورة واسعة .

— اهذه حقيبتك ؟ وبندقيتك ؟

سأله كوزنيتسوف شاعرا بالحرج من اضطراب تشيبيسوف عند عربة المدفع ، فاضحا غلطته بنظرته وحركته .

قال تشيبيسوف بصوت مبحوح ، وقد تراكم البخار على بطانة قلنسوته الصوفية المكسوة بالجمد :

— انها لى ، ايها الرفيق الملازم ، انها لى ، وانا المذنب ، ايها الرفيق الملازم . . . انحكت قدمى حتى تدمت ، فظننت ان تخفيف الحمل سيساعد قدمى قليلا .

— هل تعبت ؟

سأل كوزنيتسوف بهدوء غير منتظر ، ونظر الى دروزدوفسكى ، الذى مرّ على فرسه بالطابور ، منتصبا على سرجه ، يراقبهما من جانب .

امر كوزنيتسوف بصوت منخفض :

— لا تتأخر ، يا تشيبيسوف . سر خلف عربة المدفع .

— سمعا ! سمعا . . .

وانطلق تشيبيسوف يخب وراء المدفع رخوا مترنحا على قدمه الموجعة .

امسك كوزنيتسوف بالحقيبة الثانية وسأل :

— ولمن هذه ؟

تردد ضحك من الخلف هذه اللحظة . وظن كوزنيتسوف انهم يضحكون منه ، ومن قيامه بوظائف رئيس الرقباء او من تشيبيسوف ، فالتفت .

الى يسار المدفع كان اوخانوف يسير فى الطريق جنب زويا بمشيته الدبية المتمايلة . كان يحدثها بشيء ما ضاحكا ، وكانت هى تصغى اليه ذاهلة تهز له وجهها العرق المتعب ، وقد لاح الحزام مطبقا على خصرها . ولم تكن تحمل حقيبة الاسعاف ، فلعلها وضعتها فى احدى العربات .

والظاهر انهما كانا يسيران فى مؤخرة البطارية منذ وقت طويل ، والآن لحق كلاهما بالمدافع . نظر الجنود المتعبون نظرة جانبية اليهما فى غير ود ، وكأنما استشفوا من مرح اوخانوف المفرط معنى مبهما مغيظا . . .

صدر فى المقدمة ايعاز متوعد :

— امسك ! . . منحدر ! فرملة ! الجميع الى المدافع !

اعاد كوزنيتسوف الايعاز ، وسار الى مقدمة البطارية ، حيث تجمهر الجنود متزاحمين حول خيول المدفع الاول ، ممسكين بايديهم جوانبه وعجلاته ، ضاغطين باكتافهم على ترسه ومقدمته ، بينما كان سائقو الخيول يشدون المقاود شاتمين صارخين ، ليكبحوا الخيول الملتمعة من العرق ، وقد بركت على رجليها الخلفيتين ، امام منحدر شديد يؤدى الى وهدة عميقة .

اجتازت البطارية الامامية المنحدر الجليدى الاملس المدكوك اللامع كالزجاج ، وبلغت قاع الوهدة سالمة ، ثم اخذت المدافع والعربات التى تمور حولها حشود الجنود كالنمل تتسلق الجانب الصاعد من الوهدة ، مدفوعة من الاسفل ، ومن بعده سار الطابور اللانهائى متعرجا يشق السهب . بينما وقف آمر فصيلة الادارة رئيس الرقباء غولوفانوف منتظرا فى نقطة بعيدة فى الاسفل ، وسط الطريق ، يصرخ بصوت مجهد ، ويومئ :

— هيا ! . . تعالوا الىّ !

تقدم دروزدوفسكى بحصانه الى حافة المنحدر ، واوعز :

— احذروا ! . . لا تكسروا قوائم الخيول ! امسكوا جميعا ! امراء الفصائل ! اذا اهلكنا الخيول فسنجر المدافع بانفسنا ! امسك ! على مهلك ! ببطء !

« نعم ، اذا كسرنا قوائم الخيول ، فسيتعيّن علينا ان نجر المدافع بانفسنا ! » فكر كوزنيتسوف فى ذلك منفعلا ، شاعرا فجأة بانه وجميع الآخرين يخضعون كليا لارادة لا يحق لاحد ان يقف ضدها ، وان الجميع اندمجوا فى شىء واحد هائل جامح لا يكبح لم يعد احد فى تياره منفردا بعجزه وتعبه . كرر كوزنيتسوف الايعاز مستلذا بذوبانه هذا فى الجميع :

— امسك ، امسك ! الجميع الى المدافع !

واندفع نحو عجلات المدفع الاول ، فى خضم اجساد الجنود، بينما كان رجال الطقم يضغطون على عربة المدفع وعجلاته المترحلقة على المرتقى الشديد الارتفاع .

صاح السائقان على الخيول بصوتين متفاوتين :

— قف ، يا ملعون ! الزم !

صاحا ، وكأنهما افاقا على انفسهما فجأة ، فاتحين فميهما بشكل مرعب فى الاهداب المتجمدة لبطانة قلنسوتيهما .

كانت عجلات العربة والمدفع لا تدور ، وقد امسكت بها سلاسل الفرملة ، غير ان السلسلة لم تكن تنغرز فى الطريق المتماسك الاملس المصقول صقلا تاما . كانت احذية الجنود اللبادية تتفلت وتنزلق على المرتقى دون ان تجد نقطة ارتكاز . بينما كان ثقل العربة المحملة بالقذائف ، وثقل المدفع ، يزدادان ، وتزداد قوة تحدرهما الى الاسفل . كانت الخيول قد عكفت قوائمها الخلفية ، ورفعت ابوازها الى السماء ، لان عريش العربة الامامية الخشبى الذى تشد اليه عدة الخيول كان يلتطم بهذه القوائم . عاد السائقان الى الصراخ من جديد ، ناظرين الى رجال الطقم نظرة كره وتضرع ، واذا بالكتلة المتكورة من الاجساد الضيقة الانفاس ، وكأنما علقت من العجلات ، تنهار كلها منحدرة الى الاسفل ، فى حركة متسارعة . . .

اعلن عن التوقف بعد غروب الشمس ، عندما وصل الطابور الى قرية قوزاقية مجهولة محروقة . واذا

بالجميع كأنما اذهلتهم انقاض البيوت المحروقة الاولى على جانبى الطريق ، الهياكل الوحيدة للمواقد المتفحمة تحت اشجار الصفصاف الناتئة بحدة على شاطئ نهر متجمد ، حيث كان يتصاعد من ثغرات على الجليد بخار احمر مسموم كالضباب . كانت الارض والافق الغربى احمرين كالدم من غروب كانون الاول المتصلب فى تجمده ، الحاد كالالم ، حتى ان وجوه الجنود ، والمدافع المغلفة بالجمد ، واكفال* الخيول ، والسيارات المتوقفة فى جانب الطريق بدت كلها مصفّدة به ، متجمدة فى لمعانه المعدنى ، فى ضوئه البارد على كثبان الثلج .

ـ يا اخوان ، الى اين نحن ذاهبون ؟ اين الالمان ؟

ـ كانت فى هذا المكان قرية . انظروا ، لم يبق منها بيت واحد . اى شىء هذا ؟ على المثل القائل: جاء الى عرس فوجد جنازة .

ـ ما الداعى لتتحدث عن جنازة ؟ سنصل الى ستالينغراد ، والقادة اعلم .

* جمع كفل : وهو مؤخرة الفرس . ـ المعرب .

ـ متى حدثت معركة هنا ؟ . .

ـ منذ زمن ، على ما يبدو .

ـ ياليتنا ننال شيئا من الدفء . ها ؟ سنتجمد قبل ان نصل الى الجبهة .

ـ ولكن قل لى اين هذه الجبهة ؟

اقترب كوزنيتسوف من سائقى المدفع الاول ، وهو لا يكاد يثبت نفسه . كان السائق روبين وقد اشتد احمرارا وانطوى على نفسه متجهما ، يتلمس السيور التى تشد الخيول الى المدفع . وكان البخار يتصاعد من جنوب الخيول العرقة الزلقة . وكان السائق الشاب سيرغونينكوف واقفا عند فرسه الجانبى المتعب ، مقربا فمه الملتهم بنهم حفنة من الشعير وضعها على راحة يده ، بينما كان يربّت باليد الاخرى على جيده المبلل المنحنى . نظر كوزنيتسوف الى السائقين ، ومشى الى الطقم راغبا فى التمدد قرب الجنود ، متكئا على ظهر احد من الناس ، بعد ان يرفع ياقته ليقى وجهه من الريح ، يستلقى ، ويتنفس فى وجهه ، ويتدفأ بهذا الشكل .

تردد ايعاز فى الطابور :

— نهوض ! انتهى التوقف ! استعدوا للسير !

سرت فى الظلام اصوات منفعلة :

— لم نلحق ان نغمض جفوننا حتى يأمرونا بالكف عن النوم ؟ يسوقوننا سوقا .

— ليتنا نأكل شيئا ، ولكن الرقيب والمطبخ لا يلوحان فى الافق . الظاهر انه ذهب يحارب فى المؤخرة .

« مرة اخرى حركة . اين هى الجبهة ؟ الى اين نتجه ؟ » ردد كوزنيتسوف ذلك فى سره ، وكان طوال الوقت ينتظر هذا الايعاز لاشعوريا ، ويحس الى حد ارتعاش رجليه بالتعب يهبط على جسمه كله كالرصاص .

لم يكن يعرف ، ولكن كان يحدس فقط ، ان ستالينغراد الآن فى مكان ما وراءه ، وكأنما فى المؤخرة ، ولم يكن يعرف ان الجيش كله ، بما فيه فرقتهم التى كانت تضم فوج المدفعية ، وبطاريته ، وفصيلته ، كان يتحرك مسرعا باتجاه واحد ، هو الجنوب الغربى لمواجهة فرق دبابات المانية كانت قد بدأت هجوما فى محاولة لفك الحصار على جيش باولوس المحاصر بآلافه العديدة فى منطقة ستالينغراد . كما لم يكن يعرف ان مصيره ، ومصير جميع الذين معه — كل الذين من

نصيبهم ان يموتوا ، والذين كان من نصيبهم ان يظلوا احياء — امسى الآن مصيرا مشتركا ، بغض النظر عما كان ينتظر كل واحد على حدة .

— استعدوا للسير ! امراء الفصائل الى آمر البطارية !

نهض الجنود فى الظلام المتكاثف بتثاقل رخو ، ودون رغبة . وفى كل مكان تردد سعال ، وانين ، واحيانا سباب . تقدم رجال الطقوم من المدافع فى غير رضى ، وتناولوا البنادق والقربينات الموضوعة على مساند المدافع ، داعين الى الله على المطبخ والرقيب . كان السواق قد رفعوا اكياس العلف من ابواز الخيول الماضغة ، هاشين عليها باكواعهم : « كفى علكا ، يا ابناء الجشع ! » . وفى المقدمة بدأت المحركات تطلق قذفات من الدخان المخنوق ، وتتحرك ، وامتدت بطاريات الهاون فى الشارع ببطء استعدادا للسير .

كان الملازم دروزدوفسكى يقف فى جمع من رجال الاستطلاع والاتصال ، وسط الطريق ، قرب نار مطفأة ، ترسل على الاقدام دخانا ابيض . عندما اقبل كوزنيتسوف كان دروزدوفسكى يسلط مصباحا يدويا على خارطة تحت لوح من السيلولويد فى محفظته

العسكرية كان يمسكه رئيس الرقباء الضخم غولوفانوف بيديه . وكان يقول بلهجة من لا يحتمل الاعتراض :

— اسئلة زائدة . النقطة النهائية فى المسيرة غير معروفة . والاتجاه هو فى هذا الطريق ، الى الجنوب الغربى . تقدم بالفصيلة امام البطارية . البطارية تسير فى مؤخرة الفوج كما كانت .

— واضح ومفهوم !

تمتم غولوفانوف بصوت عميق ، وسار مع جماعته من رجال الاستطلاع والاتصال ، فى الطريق الى الامام مارا بالعربات المظلمة .

— الملازم كوزنيتسوف ؟

ورفع دروزدوفسكى مصباحه قليلا ، فصار يؤذى العيون ضوءه الحاد القاسى .

قال كوزنيتسوف مبتعدا قليلا :

— ايجوز من غير ضوء ؟ انا ارى بدونه . ما الجديد ، يا آمر البطارية ؟

— هل كل شىء على ما يرام فى فصيلتك ؟ لا يوجد متأخرون ؟ لا يوجد مرضى ؟ هل انتم مستعدون للسير ؟ فقط بايجاز .

القى دروزدوفسكى الاسئلة بصورة آلية تقريبا ، مفكرا ، كما يبدو ، فى شىء آخر . احس كوزنيتسوف بالانزعاج من ذلك فجأة .

— لم يتسن للرجال ان يستريحوا . اود ان اسألك : اين المطبخ ، يا آمر البطارية ؟ لماذا تأخر رئيس الرقباء ؟ فالجميع جياع كالذئاب . وتسألنى هل انتم مستعدون للسير . لم يمرض احد ، ولم يتأخر احد . ولا يوجد هارب ايضا . . .

قاطعه دروزدوفسكى قائلا :

— ما هذا التقرير ، يا كوزنيتسوف ؟ مستاء ؟ ربما تريد ان نجلس طاوين اذرعنا ، لننتظر الطعام ؟ من انت ؟ آمر فصيلة ام سائق من السواقين ؟

— انا آمر فصيلة ، حسب ما اعلم .

— لا يبدو ذلك ! تسير فى ذيل اوخانوف ومن على شاكلته ! ما هذا المزاج ؟ — ثم امر دروزدوفسكى بلهجة جامدة : — اذهب الى فصيلتك فى الحال ! وهىء رجالك لا الى التفكير فى الاكل ، بل الى المعركة ! انت تحيرنى ، يا ملازم كوزنيتسوف ! لا اعرف كيف سنحارب سوية !

— وانت ايضا تحيرنى ، يا آمر البطارية ! يمكنك ان تتحدث بطريقة اخرى ، وسأفهمك احسن .

ردّ كوزنيتسوف بذلك فى عداء ، وسار فى الظلام المشحون بضجيج المحركات ، وصهيل الخيول .

صاح دروزدوفسكى :

— يا ملازم كوزنيتسوف ! الى الوراء عد !

— ماذا بعد ؟

اقترب شعاع المصباح الابيض من الخلف ، متصاعدا فى الضباب الثلجى ، عاكسا على الوجنة ضوءا مدغدغا .

— يا ملازم كوزنيتسوف !

وحزّت شفرة الضوء الحادة عينى كوزنيتسوف . تقدم دروزدوفسكى ، واعترض طريق كوزنيتسوف ، متوترا بكل كيانه ، وقال :

— قف ! هذا امر !

— ابعد المصباح ، يا آمر البطارية .

قال كوزنيتسوف بهدوء ، شاعرا بما يمكن ان يحدث بينهما الآن ، فى هذه اللحظة ، الا انه فى هذه اللحظة ايضا كانت كل كلمة يقولها دروزدوفسكى ،

وصوته المسكوك القاطع ، يثيران فى نفس كوزنيتسوف مقاومة صلدة لا تكبح ، وكأن كل ما فعله دروزدوفسكى وقاله وامره به كان محاولة مباشرة مقصودة لتذكيره بسلطة دروزدوفسكى عليه ، ولاهانته . فكر كوزنيتسوف مع نفسه : « نعم ، انه يريد ذلك » ، وبعد تفكيره هذا احس باقتراب المصباح الشديد ، وسمع فى دوائر الضوء البرتقالية المبهرة همس دروزدوفسكى :

— كوزنيتسوف . . . تذكر ان آمر البطارية هو انا . انا وانا وحدى ! ليست هذه مدرسة ! انتهى عهد الزمالة ! واذا اخذت تحرن فان العاقبة ستكون سيئة عليك ! ولن تجدنى متمسكا باهداب الرسميات ، ولن انوى ذلك ! هل فهمت ؟ اركض الى فصيلتك ! — ودفعه دروزدوفسكى بالمصباح من صدره : — الى الفصيلة ! عدوا !

كان الضوء المسلط يغشى عينيه ، فلم يستطع ان يرى عينى دروزدوفسكى ، الا ان شيئا باردا صلبا مثل حد مثلوم قد انطبق على صدره . عندئذ نحّى بحدة يد دروزدوفسكى الحاملة للمصباح ، وامسكها بعض الوقت ، وقال بقوة :

— سأحملك على ابعاد المصباح ، على اية حال . . .
اما التهديدات . . . فمن المضحك سماعها ، يا آمر البطارية !

وسار فى الطريق المعتم ، لا تميز عيناه جيدا معالم السيارات ، والعربات ، والمدافع ، واشباح السواقين قرب الخيول . فقد تراءت امامه ، بعد ضوء المصباح ، دوائر شبيهة بالبؤر الشررية فى نيران مطفأة وسط الظلام . وقرب فصيلته اصطدم بالملازم دافلاتيان . وكانت انفاس دافلاتيان ، عند جريه ، تفوح برائحة خبز رقيقة لطيفة . سأل بسرعة :

— هل انت عائد من دروزدوفسكى ؟ ماذا هناك ؟

قال كوزنيتسوف بلهجة لا تخلو من السخرية الحانقة :

— اذهب ، يا غوغا . انه يهتم بمزاج الفصيلة ، وهل فيها مرضى ام هاربون . اعتقد ان فى فصيلتك شيئا من هذا . ها ؟

— هراء وحماقة ! — اعلن دافلاتيان بصوته المدرسى ، وقضم قطعة من البقسماطة ، واضاف باشمئزاز : — هذر مكعب !

واختفى فى الظلمة آخذا معه رائحة الخبز المهدئة البيتية .

فكر كوزنيتسوف متذكرا العرى غير الطبيعى فى كلمات دروزدوفسكى المحذرة : « حماقة بالضبط وهسترة » .

ومن بعيد اخذ الايعاز المألوف « الى الامام سر » يقترب متدرجا فى الطابور ، وكأنما يرتقى سلّما . كرر كوزنيتسوف الايعاز ، وهو يدنو من خيول المدفع الاول وشبحا السائقين يبرزان من عليها :

— فصيلة ، الى الامام سر !

وتحرك كل شىء دفعة واحدة ، واخذ يتهفهف . وطقطقت اعمدة العدة الخشبية ، وخشخش الثلج صلبا تحت عجلات المدفع المتجمدة . وترددت اصوات اقدام عديدة متفاوتة الوقع .

وعندما سارت الفصيلة فى الطريق دس شخص فى يد كوزنيتسوف قطعة بقسماطة يابسة خشنة .

وبلغ كوزنيتسوف صوت دافلاتيان :

— انت جائع كالذئب ، ها ؟ خذ ، وستشعر بارتياح . قضم كوزنيتسوف قطعة البقسماطة ، شاعرا بتقلص حلو للجوع فى معدته ، وقال بتأثر :

ـ شكرا ، يا غوغا . كيف احتفظت بها حتى الآن ؟

ـ لا تقل كلاما فارغا . هل نحن ذاهبون الى الجبهة ؟

ـ على الارجح ، يا غوغا .

ـ ليت ذلك يتم بسرعة . كلمة شرف . . .

الفصل الثالث

بينما كان شيء على ما يبدو ، قد أقر ووضع وثبت فى هيئات الاركان الالمانية العليا ، وبينما كانت فرق مانشتين للدبابات قد بدأت القتال لفتح ثغرة فى منطقة كوتيلنيكوفو لتنفذ منها الى ستالينغراد التى مزقتها معركة تدور رحاها منذ اربعة اشهر وتلتقى بتشكيلة الجنرال باولوس التى تضم اكثر من ثلاثمائة الف رجل ، والمحاصرة بجبهاتنا بين الثلوج والخرائب منتظرة الخروج بلهفة ، فى ذلك الوقت بالذات وجه جيش آخر شكل حديثا فى المؤخرة ، بامر من قيادتنا

العليا ، الى الجنوب ، عبر سهوب مترامية الاطراف للالتقاء بمجموعة الجيش الصدامية المسماة « غوت » التى كانت تضم ١٣ فرقة . كانت عمليات هذا الجانب وذاك تشبه كفتى ميزان وضعت فيهما الآن جميع الامكانيات ، دون الالتفات الى ما يمكن ان يلتفت اليه فى ظروف اخرى .

... كانت السيارة المغنومة من طراز « خورخ » تنطلق مهتزة فى الطريق سابقة الطابور تارة ، ومتأخرة عنه اخرى . وكان الجنرال بيسونوف يجلس بلا حراك دافنا رأسه فى ياقته المرفوعة ، ينظر من خلال الزجاجة الامامية ، ملتزما الصمت منذ ان غادر مقر اركان الجيش . وكان صمت القائد الطويل هذا يفهم من قبل الذين كانوا فى السيارة فهما خاصا ، كميل منه الى الانكماش ، وكحاجز لم يحزم احد منهم ان يكون البادئ على اجتيازه . وهكذا كان فسنين قوميسار الفرقة وعضو المجلس الحربى صامتا . وكان مرافق بيسونوف الميجور بوجيتشكو الشاب المحب للعشرة يتظاهر بالنوم منكمشا فى زاوية مقعده فى الخلف ، بينما كان فكره منذ بداية السفر مشغولا بفكرة واحدة هى ان يقص آخر

نكتة فى اركان الحرب ، الا ان مناسبة لم تسنح ، ولم يغامر فى التجاوز على صمت القائد الثابت .

لم يعد بيسونوف يفكر بان صمته المتعمّد على ما قد يبدو يمكن ان يفسّر كنفور من المخالطة ، او عدم مبالاة اعتدادية بالمحيطين به . فقد كان يعرف بالتجربة منذ زمان ان تبادل الحديث او التزام الصمت ما كان ليستطيع تغيير علاقاته مع الناس . ولم يرد ان يثير اعجاب الجميع ، كما لم يرد ان يبدو لطيفا فى عيون جميع الذين يحادثهم . فان مثل لعبة الغرور الرخيصة هذه لكسب الود كانت دائما تقرفه ، وكانت دائما تثير ضيقه من الآخرين ، وتنفره ، كالخفة الفارغة ، او كضعف رجل لا يثق بنفسه . لقد ايقن بيسونوف منذ زمن طويل ان الكلمات الزائدة فى زمن الحرب مثل الغبار الذى يحجب احيانا الوضع الحقيقى للامور . ولهذا السبب كان يستفسر قليلا عن فضائل ونواقص قادة الفيالق والفرق ، بل يدور عليهم ، ويتعرف عليهم بطريقة جافة تقريبا ، ويتمعن فى كل واحد منهم عن قرب ، غير مبد للرضى التام ، ولا لخيبة الامل الكلية .

وما كان يراه الآن من وراء زجاج « خورخ » فى ضوء مصباحى السيارة المتوهج حينا فى الضباب الصقيعى وجوه الجنود والامراء الغاطسة كوجوه النساء فى بطانة القلنسوات الصوفية المتجمدة ، والحركة اللانهائية للاحذية اللبادية المجرجرة على الطريق — لم يكن لينبؤه عن انهيار مفزع « للروح القتالية » ، بل عن مجرد تعب بالغ ساحق ، خارج عن سلطته . لقد كان يتعين على هؤلاء الجنود الغائصة رؤوسهم فى بطانة القلنسوات ان ينزلوا الى القتال ، ولربما سيلقى كل خامس خمسة منهم حتفه ابكر مما كان يظن . انهم لم يكونوا يعرفون ، وما كان فى مقدورهم ان يعرفوا اين ستبدأ المعركة ، ولم يكونوا يعرفون ان الكثيرين منهم يقومون بآخر مسيرة فى حياتهم قبل دخول المعارك . وقد حدد بيسونوف بوضوح وتبصر مدى الخطر المقترب . كان يعرف ان الجبهة فى ناحية كوتيلنيكوفو لا تكاد تصمد ، وان الدبابات الالمانية قد تقدمت خلال ثلاثة ايام اربعين كيلومترا باتجاه ستالينغراد ، ولم يبق امامها الآن غير حاجز واحد هو نهر ميشكوفا ، ومن ورائه يمتد سهب منبسط حتى الفولغا . كما ان بيسونوف كان يدرك انه ، فى

هذه اللحظات ، بينما كان يفكر فى الوضع المعروف له ، وهو جالس فى السيارة ، كان جيشه من جانب وفرق مانشتين للدبابات من جانب آخر يزحفان بنفس الاصرار الى ذلك الحاجز الطبيعى ، وان اشياء كثيرة ، وان لم يكن كل شىء ، تتوقف على من سيكون السابق فى الوصول الى نهر ميشكوفا .

رغب فى ان ينظر فى ساعته ، غير انه لم ينظر ، ولم يتحرك بعد ان فكر بان هذه الحركة ستحطم الصمت ، وتكون ذريعة للحديث ، وهو ما لم يرغب فيه . ظل ملتزما الصمت على سابق عهده ، مستندا على عصاه بجموده الحجرى ، ممددا رجله الجريحة الى دفء المحرك بعد ان وجد موضعا مريحا لها يستطيع ان يبقى فيه وقتا طويلا . كان سائق السيارة الكهل ينظر بمؤخرة عينه من حين لآخر ، فيرى ، فى الضوء الخافت المنبعث من لوحة المقاييس فى السيارة ، زاوية عين الجنرال الرصاصية الغامضة ، ووجنته الجافة ، وشفتيه المضمومتين بقسوة . ان هذا السائق الكثير التجربة الذى نقل قوادا متعددين ، كان يفهم الصمت الذى يسود السيارة على طريقته الخاصة ــ كأثر لمشاجرة

قبيل السفر او تعنيف من قبل قيادة الجبهة . وفى الخلف كانت اعواد الثقاب تشتعل بين اونة واخرى بوهج صغير ، ويتوقد فى الظلمة طرف السيكارة المشتعل احمر فى يدى القوميسار ، ويصرف جلد الحمّالة ، وفى ركن المقعد كان بوجيتشكو المرح دائما ما يزال ماضيا فى تظاهره بالنوم .

كان السائق يفكر مع نفسه : « غير راض عن شىء ما ام انه غير اجتماعى فى طبعه » . وفى نفس الوقت كان كلما توهج رأس سيكارة خلفه اشتهى ان يمصّ نفسا واحدا على الاقل . ويتابع السائق تفكيره : « وهو لا يدخن ، انه مريض ، على ما يبدو ، ووجهه شاحب . ام لعلى اطلب منه اذنا : اسمح لى ، ان ادخن سيكارة ، ايها الرفيق القائد . اذناى تورمتا من قلة التدخين . . . »

وفجأة قال بيسونوف :

— اشعل مصباحى السيارة .

جفل السائق من هذا الصوت ، واشعل المصباحين . وشق الضباب الصقيعى شريط ضوئى جبار .

وفى شريط الضوء الساطع رأى بيسونوف فى طرف

الجسر ، بالقرب من الحاجز المحطم ، شبح ملازم شاب منتصبا فى معطفه الطويل له صوت عال نحيل كصوت الديك ، واذن برزت من القبعة على نحو غريب . كان الملازم الثانى الشاب تارة ينظر الى الاسفل بحيرة ، وتارة يرمق السيارة وكأنما لاول مرة لم يفهم شيئا ، ناشدا الحماية من احد .

وفكر بيسونوف : « فكتور . . نعم ، انه فكتور » .

فى الآونة الاخيرة كانت جميع الوجوه الشابة التى يلتقى بها بيسونوف عرضا تثير فى نفسه نوبات من الشعور الممرض بالوحدة ، وبالذنب الابوى الغامض نحو ابنه ، وكان كلما اكثر التفكير فيه فى هذه الاوقات ازداد تصوره بان حياة ابنه كلها قد سارت دونه مغمورة على نحو فظيع ، وانسلّت منه انسلالا .

لم يكن فى وسع بيسونوف ان يتذكر على وجه الدقة تفاصيل طفولة ابنه ، ولم يكن فى وسعه ان يتصور ما اغرم به ، واية لعب كانت له ، ومتى دخل المدرسة . الا انه كان يتذكر بوضوح خاص حادثة واحدة (حدثت فى آسيا الوسطى) ، حين هبّ ابنه ذات ليلة من حلم

مفزع ، كما يبدو ، واخذ يبكى ، ولما سمع بيسونوف البكاء اشعل النور . كان ابنه يجلس فى السرير نحيلا ، وقد غرز يديه الرقيقتين المرتعشتين فى شبكة السرير . عندئذ اخذه بيسونوف وحمله متحسسا بصدره المشعر جسمه الواهن المنكمش ، واضلاعه الناعمة ، شاعرا برائحة شبيهة برائحة زغب العصافير تفوح من الشعر الرطب الاشقر فى قمة رأسه ، وراح يذرع به الحجرة متمتما بكلمات تنويمية مرتجلة ، مأخوذا برقة الغريزة الابوية : « لا ، يا بنى ، لن اسلمك لاحد . سنظل انا وانت سوية . . . »

الا انه كان يتذكر ، على نحو اسطع ، شيئا آخر صار يعذبه فيما بعد : يوم ان انتزعت زوجته المذعورة الحزام من يديه ، وكان يضرب به ابنه الطفل فى الثانية عشرة من العمر ، موجها ضرباته على بنطلونه الرخيص المشدود على جسمه ، والمعفر بغبار حجرة السطح . والطفل لا ينبس بنأمة . وعندما القى الحزام ، خرج الابن راكضا ، والتفت عند الباب عاضا على شفتيه . وقد احتبست دموع الصدمة الطفولية فى عينيه الرماديتين الشبيهتين بعينى امه .

وانها المرة الوحيدة التى الحق فيها الما بابنه . وكان قد سرق من مكتبه نقودا ليشترى بها حماما . . . وتعجب : امن المعقول ان فكتور كان يربى الحمام فى حجرة السطح ؟ وقد عرف ذلك فيما بعد ايضا .

كان بيسونوف يُنقل من صقع الى صقع : من آسيا الوسطى الى الشرق الاقصى ، ومن الشرق الاقصى الى بيلوروسيا ، وفى كل مكان كان يجد شقة ميرية ، واثاثا ميريا لا يعود له ، وكان يسافر ومعه حقيبتان ، وقد تعودت زوجته على ذلك منذ زمن ، وصارت مستعدة على الدوام لتغيير المكان ، والانتقال الى التعيين الجديد . كانت تتحمل صليبها وصليبه الثقيل دون تأفف .

وكان يبدو ان هذا ما كان يجب . ولكن بعد ذلك بوقت طويل ، بعد معركة موسكو ، حين كان راقدا فى المستشفى ، كان يفكر فى الليالى بزوجته وابنه فيدرك ان اشياء كثيرة لم تكن كما كان يجب ان تكون ، وانه كان يعيش ما يشبه مسودة حياة مؤملا طوال الوقت فى اعماقه القصوى انه بعد سنة او سنتين سيعيد كتابة حياته بصيغتها النهائية — فى الثلاثين او الاربعين من العمر . الا ان التحول السعيد لم يحدث .

بل بالعكس ارتفعت رتبه ومناصبه ، وفى الوقت نفسه اندلعت الحروب — فى اسبانيا ، فى فنلنده ، واخيرا جاء عام ١٩٤١ . والآن لم يعد يضع لنفسه تواريخ مرحلية ، مفكرا فقط بان هذه الحرب لا بد ان تغير اشياء كثيرة .

وفى المستشفى عنّت له لاول مرة فكرة ان حياته ، حياة رجل عسكرى ، لا يمكن ان تكون ، فى اغلب الظن ، الا فى الصيغة الوحيدة التى اختارها بنفسه مرة والى الابد . ولم يذهب شىء من حياته سدى . ولا يمكن ان تعاد صياغتها من جديد ، وما من حاجة الى ذلك . انه كالمصير : اما هذا او ذاك ولا وسط بينهما . ولو قدر له ان يختار مرة اخرى لما غيّر صيرورته . الا ان بيسونوف ، وقد ادرك ذلك ، وعى شيئا لا يغفر : هو ان الشىء الذى كان اقرب الى نفسه فى الصيغة الوحيدة المتاحة له لحياة اختارها ، قد انسل ، وتجاوزه خطفا ، وكأنما فى ضباب ، ولم يجد هو التبرير لا امام ابنه ولا امام زوجته .

كان آخر لقاء له مع فكتور قد تم فى ذلك المستشفى ذاته فى ضواحى موسكو ، فى الردهة المخصصة

لذوى الرتب العالية فى الجيش . وكان ابنه قد تلقى تعيينه بعد تخرجه من مدرسة المشاة ، وجاء مع امه ليعود اباه قبل ثلاث ساعات من خروج قطاره الى الجبهة . جاء ببزة ملازم ثان جديدة تتألق عليها مكعبات الرتب القرمزية ، ويهسهس فوقها مترفا نطاق الآمرية الجديد وحمالة الحزام ، جاء فى حلة احتفالية سعيدا مهيبا كان لا بد محط انظار الفتيات فى الشارع ، الا انه بدا فى قشابته كلعب الاطفال . وجلس على السرير المجاور (وكان صاحبه الجنرال المسموح له بالمشى قد خرج بادب) وتحدث بصوت عالى النبرة حيّ متكسر عن تعيينه فى الجيش المقاتل ، وكيف انه « زهق » من تلك الاوامر التى ترددت فى المدرسة بلا انقطاع من مثل « قف ، تراصف ، استعد ! » . والآن ، والحمد لله ، فسيسلمونه فى الجبهة سرية او فصيلة — شأنه شأن جميع الخريجين — وتبدأ الحياة الحقيقية .

وفى الحديث سها فأخذ يدعو بيسونوف بـ « ابى » لا بـ « بابا » وهو امر لم يفعله من قبل ، وكان يجب ان يتعود عليه . بينما راح بيسونوف ينظر الى وجهه الحيّ

ذى العينين الرماديتين المرحتين ، والزغب الرقيق على الخدين ، والى اليد الرقيقة ، يد فتى مقتدر ، غفل قليلا فربت بها على الجيب الجانبى لبنطلون الركوب العسكرى . ووجد بيسونوف نفسه يفكر فى فتيان آخرين — برتبة ملازم ثان وملازم اول — امراء فصائل وسرايا كان دائما تقريبا يراهم مرة واحدة ، وبعد المعركة التالية يأتى آخرون . . .

قطعت زوجته الحديث قائلة ، وهى تراقب ابنها بقلق :

— ارجو ، يا بيتيا* ، ان تسمح له بالتدخين .

سأل بيسونوف مندهشا فى دخيلة نفسه دهشة غير مريحة :

— هل انت تدخن ، يا فكتور ؟

الا انه قرب منه سكائر جاره الجنرال وعلبة ثقابه ، وكانتا موضوعتين على الطاولة الصغيرة :

— خذ ، هذه . . .

— انا فى الثامنة عشرة ، يا ابى . والجميع فى

---

* اسم مصغر لبطرس .

المدرسة يدخنون . لا استطيع ان اكون غرابا ابيض بين الغربان .

— وتشرب ، كما يبدو ؟ جربتها ؟ ولكن بصراحة : انت ملازم ثان الآن ، رجل مستقل .

— نعم ، جربتها . شكرا ، عندى سكائرى . هل ممكن ان ادخن ؟ ألا يضرك ان يدخن احد بالقرب منك ؟

قال الابن بسرعة ، واحمرّ ، ونفخ فى الجانب الفارغ من السيكارة ، واشعل عود ثقاب بطريقة خاصة ، مثلما يشعل فى الجبهة ، بتكوير الكفين ، وهذا ما تعلمه من احد الطلاب فى المدرسة على ما يبدو . واخذ يتحدث بحيوية ليخفى ارتباكه :

— اتصور ماذا كان سيحدث لو انك عرفت بذلك من قبل . . . لعاقبتنى بالضرب ؟

وراح يدخن بطريقة غير ماهرة ، نافثا الدخان فى الاسفل ، الى تحت السرير ، مثلما كان يدخن فى ثكنة المدرسة ، خائفا من ظهور الآمر الخفير . تبادل بيسونوف وزوجته النظرات صامتين .

اجاب بيسونوف بصوت كامد :

— لا ، لن يتكرر ذلك الحادث . احقا انك تظننى ابا قاسيا ؟

قال الابن :

— على كل حال كنت على حق فيما فعلت آنذاك . كان يجب ان تضربنى . لقد كنتُ احمق !

كان يقول ذلك ضاحكا بعد ان تذكر ما صار يؤلم بيسونوف الآن بشكل خاص ، وهو الحاق اذى جسمى بابنه .

هتفت الام بصوت خافت وعصرت باصابعها يد بيسونوف المطروحة على البطانية :

— عجبا ! يا رجلىّ الاثنين . . . الآن اصبح لى رجلان راشدان ! ان شيئا غريبا يجرى دون ان تشارك فيه ، يا بيتيا . ان فكتور مسافر الى جبهة فولخوفسكى للالتحاق بجيش غير معروف . . . امن المعقول انك لا تستطيع ان تفعل شيئا لتنقله اليك، فى احدى فرقك ؟ على الاقل سيكون امام عينيك . اتفهم ؟

وكان يفهم كل شىء ، ويعرف اكثر منها المصائر القصيرة كعمر الفراشات ، مصائر امراء فصائل وساريا المشاة . وقد فكر فى ذلك غير مرة ، واراد ان يمسّد

على يد زوجته الصغيرة مهدئا ، الا انه امسك نفسه بحضور ابنه .

قال بيسونوف ، وهو يحدق بابنه بامعان ، ولكن يوجه كلامه الى زوجته وحدها :

— انا الآن ، يا اولغا ، كما ترين : جنرال بلا جنود . وعندما يتضح الموقف فعليا سأنقل فكتور ، اذا كان بالطبع . . .

ولم يدعه ابنه يكمل جملته . نفث دخانه ، وهزّ رأسه نفيا :

— كلا ، يا ابى ! اكون تحت رعاية ابى الجنرال ؟ كلا ! ولا تتحدثى بذلك ، يا امى ! ربما تريدين ان اكون من مرافقى ابى ايضا ؟ ويأخذ بمنحى النياشين ؟

قال بيسونوف :

— لن اعينك مرافقا لى . ولكن اعطيك سرية . اما النياشين ، فلن اقلدها لك بدون استحقاق . رغم اننى اعرف ان الناس يتسلمونها بطرق مختلفة .

— كلا ! ان الفتيان فى المدرسة كانوا يسألوننى وعلى شفاههم ابتسامات معروفة الدلالة : « ستلتحق

بابيك الآن ؟ » لا اريد ، يا ابى ! ما الفرق فى ان اقود سرية هنا او هناك ؟ ثم ان امر تعيينى فى جيبى . نحن اربعة اشخاص من المدرسة نريد ان نذهب سوية الى مكان واحد . درسنا سوية ، وسنخرج للهجوم سوية ! واذا حدث شىء فتلك قسمتنا ! ولا توجد قسمتان ، يا ابى ! — ثم كرر هذه الكلمات التى يبدو انه سمعها من احد الناس قائلا : — لا توجد قسمتان ! كلمة شرف ، يا امى .

اكتفى بيسونوف بان حرك اصابعه ، تحت كف زوجته الرطبة ، ولزمت الزوجة الصمت ايضا . كان بيسونوف يرى فى ضوء مختلف بعض الشىء ما بدا لابنه الآن واضحا وبسيطا ، وما اثار بهذا الشكل تلهفه للحياة المستقلة الجديدة ، وللرفقة القتالية ، والهجمات المقدامة والمظفرة دائما بالطبع . لقد كان يعرف جيدا اى شىء هو ميدان القتال ، اى قبح يتسم به الموت فى الحرب احيانا .

ولكن لم يكن له الحق فى ان يكشف لابنه كل شىء ، ويحطم فيه خيال الشباب الساذج تحطيم الدارى الملتصق بالارض . كما ان ابنه لن يستوعب الآن شيئا

مما يقوله . فقد كان فكتور على ما يبدو لا يشعر الا بشيء واحد : هى تلك الخشخشة المسكرة التى يرسلها امر السفر الى الجبهة ، الموضوع فى جيب قميصه العسكرى الجديد . والحرب وحدها كانت تملك الحق فى ادخال التعديلات الواقعية .

قال بيسونوف :

— القسمة . انت تتحدث عن القسمة ، يا فكتور . ولكن القسمة فى الحرب ليست طائرا فى اجواز السماء على اية حال . بل هى ، مهما يبدو ذلك غريبا عليك ، مغالبة لنفسك كل يوم ، وكل دقيقة . . مغالبة تفوق طاقة البشر ، اذا اردت ان تعرف . ومع ذلك فليست هذه هى المسألة . . .

وافقه الابن غير مكترث :

— نعم ، ليست هذه هى المسألة ، ولن نخوض فى طلاسم الفلسفة . — ثم سأل ، وهو يشير الى قدم ابيه المشدودة تحت البطانية :

— والآن هل تحسنت ؟ هل ستغادر المستشفى قريبا ؟ انا اتصور اى ضجر يصيب الراقد هنا . انا اعطف ، يا ابى ! هل توجعك قدمك ؟ اوه ، اللعنة ،

حان الوقت . . . الفتيان ينتظروننى . حان وقت الذهاب الى المحطة ! — ونظر فى ساعته نظرة سريعة . ومن حركته هذه كان من الممكن الفهم انه ما يزال لا يتصور ما هو الالم ، بل ولربما لا يتصور حتى امكانية وجود الالم بحد ذاته .

قال بيسونوف :

— آمل ان اخرج من هنا . اما انت فاطلب منك شيئا واحدا : وهو ان تكتب لامك ، ولو مرة واحدة فى الشهر .

— اربع مرات فى الشهر ، خذها كلمة منى !

ونهض فكتور سعيدا من التفكير فى انه اخيرا سيركب عربة القطار مع زملائه فى المدرسة .

قالت الام معدّلة :

— لا ، مرتين ، يا فكتور . ولا حاجة لاكثر من ذلك . على الاقل سأعرف . . .

— اعدك ، يا امى ، اعدك . والآن آن لنا ان نذهب !

ثم تذكر بيسونوف شيئا آخر .

كيف وقف ابنه ، قبل خروجه ، مبتسما مترددا

غير عارف هل يقبل اباه (ولم يكن ذلك متعارفا عليه فى العائلة) . ولم يحزم امره ، ولم يقبله ، بل مدّ يده كما يفعل الكبار :

— الى اللقاء ، يا ابى !

الا ان بيسونوف ضغط على اصابع ابنه الرخصة ، وجذبه اليه ، وقدم خده النحيف الحليق ، كما هو دائما ، وقال عابسا :

— لا بأس ! لا اعرف متى سنلتقى مرة اخرى — انها الحرب ، يا ولدى .

وكانت هذه اول مرة يدعوه فيها بـ « يا ولدى » خلال الحديث كله ، ولكن لم نقلها بالنغمة التى قال بها فكتور كلمة « يا ابى » .

مسّ فكتور بشفتيه طرف فم ابيه بشكل مرتبك ، بينما قبّل بيسونوف خد ابنه الحار متشمما من قميصه العسكرى الرائحة الحلوة لعرق الفتيان ، وقال :

— سافر ! ولكن تذكر ان شظايا القنابل والرصاص تعاف الشيوخ ، وتبحث عن الشبان من امثالك . . . واكتب لى اذا غيّرت فكرك ، وسأجد لك سرية . والآن لك التوفيق ، ايها الملازم الثانى !

— تشافّ ، يا ابى ! وساراسلك بعد المعركة الاولى .

وضحك ، وعدّل تغضنات قميصه الانيق من النوع الذى يلبسه امراء الوحدات ، ودفع بارتياح قراب مسدسه الجلدى الاصفر اللامع ، وتناول من على ظهر السرير ممطره الجديد المخشخش ، والقاه على ذراعه بحركة رشيقة . فى تلك اللحظة تناثر شىء على ارض الردهة المشمسة مرسلا دربكة متتابعة . انه رصاص جديد ذهبى اللمعان لمسدسه كان قد حشا به جيوب ممطره . بعد التخرج من المدرسة كان يعطى لكل متخرج مشطان من الرصاص لا غير ، الا ان فكتور استطاع بطريقة ما ان يزيد احتياطيه منها حتى ليكفيه لعدة شهور من الحرب ، فى اغلب الظن .

استدار بيسونوف نحو النافذة ولم يقل شيئا . بينما ابتدرت الام تقول بصوت آس :

— ما هذا ؟ ما حاجتك الى كل هذا ؟ دعنى . . . اعينك . كم رصاصة اعطوك ؟

— ساجمعها انا . . انتظرى ، يا امى . هذه للطوارئ .

واخذ فكتور يجمع الرصاصات من الارض مرتبكا بعض الشيء . وعندما رفع قامته واخذ يحشيها فى جيوبه لمح رصاصة اخرى قد تدحرجت . التفت فكتور الى ابيه (وكان ابوه ينظر فى النافذة) وقذف هذه الرصاصة فى زاوية بضربة خفيفة من رأس حذائه من الجلد الكروم ، وخرج بوجه متألق سعادة ، وكأنما خارج لنزهة ، فى بزة ملازم ثان ، قشيبا كدمى الاطفال ، ملقيا ممطره الجديد على ذراعه ، موسوسا باحزمته .

وفيما بعد وجد بيسونوف هذه الرصاصة المصقولة كالمرآة تحت انابيب التدفئة ، وحملها فى راحته طويلا شاعرا بخفتها الغريبة .

الفصل الرابع

كان استدعاؤه الى مقر القيادة العليا مفاجأة له . لم يكن بيسونوف فى تلك اللحظة موجودا فى شقته فى موسكو ، بل كان فى الاكاديمية حيث كان يحاضر فى تاريخ الفن العسكرى قبل عامين من اندلاع الحرب . وكان يعرف ان امر تعيينه الجديد سيصدر حتما ، فذهب

لزيارة صديقه القديم رئيس الاكاديمية الجنرال فولوبوف زميله السابق فى الحملة الفنلندية ، والخبير البصير الدقيق فى التكتيك الحديث ، وهو رجل متواضع غير معروف كثيرا فى الاوساط العسكرية ، الا انه كثير الحنكة كان بيسونوف يقدر نصائحه دائما . وجرى بينهما حديث هادئ تخللته الذكريات اثناء احتسائهما الشاى فى مكتب الجنرال ، واذا بجرس التلفون يدق ، ويقطع الحديث . ردّ رئيس الاكاديمية بالعبارة المعتادة « الفريق فولوبوف » ورفع عينيه الى بيسونوف وقد تغيّر وجهه ، واضاف همسا :

ـ النداء لك ، يا بيتر الكسندروفيتش . . . مساعد الرفيق ستالين يطلبك . . . خذ السماعة ، رجاء .

تناول بيسونوف السماعة بتردد . واذا به يسمع صوتا غريبا مستويا خافتا ممرّنا على الهدوء يهنؤه دون اى ظل للهجة الامر ، داعيا اياه بـ « الرفيق بيسونوف » لا برتبته العسكرية ، ثم يسأله بادب عما اذا كان فى امكانه ان يأتى اليوم لمقابلة الرفيق ستالين فى الساعة الثانية بعد الظهر ، والى اين يمكن ان يرسل السيارة لنقله .

رد بيسونوف :

ـ الى مدخل الاكاديمية ، اذا لم يكن ذلك صعبا . ـ وبعد ان فرغ من المحادثة صمت طويلا تحت نظرة الجنرال فولوبوف المتسائلة ، محاولا ان لا يظهر القلق الذى استولى عليه فجأة ، وكان دائما لا يجب ان يرى علائمه على الآخرين . ثم نظر فى ساعته ، وقال بصوته المعتاد :

ـ بعد ساعة ونصف . . . يجب ان اكون عند القائد الاعلى . . . تلك هى احوالنا . . .

امسك رئيس الاكاديمية بيسونوف من كوعه وحذره قائلا :

ـ رجائى الوحيد ، يا بيتر الكسندروفيتش ، ان لا تستعجل فى الاجابة عن اى شىء سئلت هناك . كل الذين قابلوه يقولون انه لا يحب المتنطّعين . ثم اتوسل اليك ان لا تنسى فتسميه باسمه واسم ابيه ، بل سمّه بالصيغة الرسمية : الرفيق ستالين . انه لا يتحمل ان يخاطب الانسان باسمه واسم ابيه . . . فى المساء سأمر عليك لتحكى لى كل شىء بالتفصيل . . .

كانت حيطان غرفة الاستقبال الملاصقة لمكتب ستالين مغطاة بالواح من خشب البلوط ، وكان يتسرب الى هذه الغرفة من النوافذ ضوء بارد بائس حزين يرسله نهار من نهارات اواخر الخريف . وقد جلس على مقعدين من المقاعد القوية الخشنة التنجيد جنرالان لا يعرفهما بيسونوف طاوين ساقيهما فى صمت الانتظار . عندما دخل بيسونوف مصحوبا بالعقيد الكهل الاشيب الذى رافقه فى السيارة نهض من وراء مكتب عريض صفت عليه التلفونات رجل اصلع قصير القامة فى بدلة مدنية متواضعة تطل من وجهه الخالى من كل سمة والرمادى من الارهاق ، ابتسامة لا تعبير فيها . صافح بيسونوف بيد رخوة هشة العظام ناظرا فى حدقتى عينيه ، وقال ان عليه ان ينتظر وقتا ، رغم انه لم تحدد مدة الانتظار ، ورافق بيسونوف بنفسه ليجلس فى مقعد شاغر قرب الجنرالين قائلا :

ـ تفضل اجلس هنا . . .

جلس بيسونوف ، بينما عاد الاصلع المرهق ذو اللباس المدنى ـ وهو نفس الرجل الذى تلفن له فى الاكاديمية ـ وابتسم له ابتسامة اعتذار ، ومسّ عصاه

باطراف اصابعه الصفراء مسا خفيفا ، وبادب معتاد قائلا :

– اسمح لى ، يا بيتر الكسندروفيتش ، ان اضعها فى الركن . فسيكون ذلك اروح لك .

وحمل عصا بيسونوف باحتراس ، ووضعها بهدوء فى ركن وراء المنضدة ، وعاد يجلس بهدوء الى اوراقه وتلفوناته .

كان الجو هادئا فيه فوْح خفيف من رائحة الخشب ، وانابيب البخار الدافئة . وضجيج النهار فى موسكو الخريفية والمغطاة بالثلج رغم ذلك ، لم يكن ينفذ الى هنا من خلال السمك القديم للاسوار الحجرية ، حتى بوشوشة خفيفة . ولم يكن يسمع صوت انسانى ، ولا وقع خطوات فى الممر .

ولم يصدر فى غرفة الاستقبال ذاتها صوت ، ولا حركة ، ولا صريف مقعد . لزم الرجل ذو اللباس المدنى الصمت ، مثلما لزمه الجنرالان الغريبان . كما صمت بيسونوف نفسه شاعرا اكثر فاكثر باحساس غريب يتسلط عليه بقوة ، احساس بتحلله فى السكوت المصمت ، وبعدم استعداده للحديث ، وفى ذهنه

ان فى مكان ما ، خلف الجدار ، يمكن ان يوجد ستالين ، وانه بين لحظة واخرى يمكن ان ينفتح الباب ، ويدخل الى غرفة الاستقبال هذه الرجل الذى انطبع محياه فى وعيه ارسخ واثبت من وجهى ابيه وامه الراحلين .

وذلك ، فى اغلب الظن ، ما كان يحس به هذان الجنرالان الغريبان ، والرجل المتعب وراء المكتب .

كان كل شىء ينطق بوجود موصول يوما بيوم للرجل المدبر لمصير الحرب ، ولمصائر ملايين الناس المستعدين عن اقتناع للموت فى سبيله ، المستعدين للجوع والعذاب والتحمل ، المتهيئين للابتسام سعادة ، والهتاف بنشوة غامرة اذا ما عرفوه من بسمته الخفيفة ، ومن مجرد تلويح ذراعه على منصة الاستعراض . كان كل واحد من الذين فى غرفة الاستقبال – يغمره احساس قوى بانه ليس ذا اهمية تذكر ، لسبب آخر ايضا ، هو ان اسم ستالين المعتاد الصلب الرنان ، وكأنما لم يعد يخص شخصا بعينه ، كان مطلق الاهمية وعائدا للجميع كالعقيدة ، كالامل . وفضلا عن ذلك كان هذا الاسم مرتبطا بشخص وحيد قادر على ان يفعل ما كان يخص الجميع .

صار صمت غرفة الاستقبال يضغط عضليا ، يتلمس الجلد ، والشعر ، والظهر ، وكأنه ضغط جاف لدن للهواء .

لم يعزم احد على البدء فى الحديث ، فان تردد صوت انسان عادى كان من الممكن ان ينقل الجميع الى حالة اخرى تحطم شيئا ما مقدسا . باعد احد الجنرالين ، وهو فريق اول كهل ضخم الجرم ، بين ركبتيه السميكتين ، وغيّر وضعه ، فاذا بقدميه ترسلان صريفا مفاجئا وهما تحت المقعد ، فبدا الفزع على وجهه من هذا الصوت ، واحمر ، ونظر بطرف عينه الى جاره ، وهو ضابط شاب انيق الهندام برتبة فريق فى المدفعية ، كان يجلس مرفوع الصدر ، ملمّعا ، وقد امتلأت بالنياشين سترته المكوية كيا لا ثنية فيها كان يحدق بالرجل الصغير ذى اللباس المدنى الذى كان يقلب اوراقه دون انقطاع .

كانت الساعة الثانية وعشر دقائق بعد الظهر عندما عيّن الرجل الاصلع المتعب ذو اللباس المدنى بعلامة معروفة له وحده حضور ستالين على مترية .

نهض بحركة ناعمة ، ودخل المكتب دون ان يستدعى ، ولما عاد من هناك ترك الباب مواربا ، ونبس :

ـ تفضل ، يا رفيق بيسونوف .

دخل بيسونوف المكتب مجاهدا ان لا يعرج .

فى اللمحة الاولى لم يستوعب بصره دقائق ذلك المكتب الرحب كالصالة ، وقد علقت على جدرانه صورة لسوفوروف ، واخرى لكوتوزوف ، وزوّد بطاولة مداولات طويلة يضفى عليها مفرشها الاخضر الجوخى مظهرا رسميا ، وبطاولة اخرى ضخمة بسطت عليها خارطة طوبوغرافية ، وباجهزة تلفونات ، وسلك طويل لفّ حلقات على البساط الممشى . ففى تلك اللحظة لم يكن بيسونوف المتوتر بكل كيانه ، الملموم على نفسه ، يرى غير شخص ستالين القصير القامة ، الذى لا يشبه فى النظرة الاولى التصاوير المنشورة له . وقد اقبل يلقاه فى مشية رقيقة متخلجة قليلا ، فى حذاء طويل ناعم ، مرتديا سترة من الطراز العسكرى محبوكة على رمانتى كتفيه المتحدرتين . كان الشيب قد تبلّج من توه على شاربيه السميكين ، وحاجبيه

الكثيفين ، واطلت فى عينيه الضيقتين الضاربتين الى الصفرة نظرة هادئة . وقد فكر بيسونوف مع نفسه : « عمّ سيسألنى الآن ؟ »

سلّم ستالين دون ان يصافح بيسونوف ، ودون ان يدعوه للجلوس ، ولم يجلس هو ايضا ، بل سار على البساط الممشى فى خطى متساوقة غير مسموعة بحذاء الطاولة التى نشرت عليها الخارطة ممسكا امام بطنه ذراعه اليسرى وكأنه لا يستطيع ان يثنيها تماما .

بعد صمت طويل نسبيا ، سار ستالين الى المكتب الموضوع فى نهاية الغرفة ، ووقف هناك مديرا نصف وجهه الى بيسونوف ، وسأل بلهجة لا تنم عن شىء :

ـ ما رأيك فى الاحداث الاخيرة ، يا رفيق بيسونوف ؟

لم يفهم بيسونوف السؤال تماما ، فأراد ان يسأل مدققا : « فى اية احداث بالذات ، يا رفيق ستالين ؟ » الا انه اجبر نفسه على ان يجيب بصوت متحفظ :

ـ اذا تناولنا الاحداث الاخيرة عند ستالينغراد ، ايها الرفيق ستالين ، فانها قد تكون بداية لهجوم كبير ، ولمرحلة جديدة للحرب كما يبدو لى ، اذا كنا لا ندع

الالمان يكسرون الجبهة الداخلية والخارجية للطوق ...

ـ كما يبدو لك ، ام انت موقن من ذلك ؟

ـ موقن ، يا رفيق ستالين . اعتقد ان الكثير سيتوقف على قدرتنا على تتابع ضرباتنا لتقطيع وابادة العدو فى التطويق .

وصمت بيسونوف ، وخيل اليه ان ظهر ستالين المدوّر الضيّق قد تحرك ، وكأنما يوقفه ، ويوافقه على رأيه .

كان الجو فى غرفة المكتب باردا وهادئا . تناول ستالين غليونه من المنفضة ، واستدار عن المكتب ، واشعل عود ثقاب ، وراح يشعل الغليون ، محدقا من فوق شعلة عود الثقاب ببيسونوف ، وتحدث بعزم ، وكأنما لم يسمع رد بيسونوف :

ـ هل لديك اعتراض اذا عيّنّاك قائدا لجيش قرب ستالينغراد ، يا رفيق بيسونوف ؟ نحن مطلعون جيدا على عمليات فيلقك فى ضواحى موسكو ، وتشاورنا مع روكوسوفسكى ...

« اذن فالاشاعات عن تعيينى الجديد صحيحة . هل اجيب باننى على اية حال لا افهم سبب تعيينى ،

ام اجيب بان هذا التعيين مفاجأة لى ، وتلك صراحة حمقاء . يعنى ان روكوسوفسكى هو الذى رشحنى . لم اكن اظن ان الامر سيكون على هذا النحو» .

— ايها الرفيق ستالين ، انا جندى ، وان التعيين فى اى منصب هو امر بالنسبة لى .

— اظن انك قد تعالجت بما فيه الكفاية فى المستشفى ، والآن حان الوقت لان تحارب ، يا رفيق بيسونوف . اعتقد انك لا تعترض على هذا ايضا — وهزّ ستالين يده بفتور ليطفئ عود الثقاب ، وقال : — تعال ننظر فى الخارطة .

اجتاز بيسونوف المسافة الى الطاولة بصعوبة وهو بدون عصا ، وكأنما اجتاز حاجزا . والآن صار يقف على مقربة شديدة من ستالين ، حتى شمّ رائحة تبغية متبّلة حلوة المذاق قليلا منبعثة من ملابس ستالين ورأى ، من جانب ، حاجبه العريض المشوب بالبياض ، وبشرة وجنته الرمادية الخشنة المحببة بآثار الجدرى ، وعندما رفع ستالين عينيه المصفرتين ، بعد اطلالة صامتة على الخارطة كان فيهما بريق رقيق لابتسامة تهكم مضمرة راضية .

بدأ ستالين القول بخفوت :

— لا اعتراض لى على آرائك ، يا رفيق بيسونوف. لقد فكرنا فى محاصرة العدو ، فى المعركة قرب موسكو ايضا . ولكن لم تكن لنا قوة كافية ، وذلك ينطبق على فيلقك ايضا . كل جنرال يحلم بكان* ، يا رفيق بيسونوف . ولكننا شيوعيون ، ونؤمن بالظروف الموضوعية . يقال ان هتلر كانت تعوزه فى المعركة قرب موسكو فرقة دبابات مجلوبة من الثكنات رأسا ، وصيف طويل . وبعض الناس يدعون ظهور قانون جديد وهو ان العدو يهجم فى الصيف ، ونحن نضربه فى الشتاء . لا ، لا يمكن ان يكون مثل هذا القانون فى الحرب . هذه اغان قديمة ... تقول ، مثل كانّ ، يا رفيق بيسونوف ؟ — كرر ستالين قوله مع ان بيسونوف لم يستعمل هذه الكلمة . مصّ ستالين الغليون ... وكان قد انطفأ ، الا انه لم يعمد الى اشعاله ثانية . مرر نهاية الغليون بانسياب فوق منطقة ستالينغراد على الخارطة ،

---

* قرية فى جنوب ايطاليا انتصرت فيها قوات هانيبال على قوات روما المتفوقة بالعدد عن طريق تطويقها من الجناحين (٢١٦ ق . م .) .

وقال : — هنا وقع قطاع الطرق الهتلريون فى المرجل . هذا اول حصار لنا على غرار حصار كان ، يا رفيق بيسونوف . هل انت متفق معى ؟

— نعم ، يا رفيق ستالين ، انا متفق معكم تماما .

وبعد وقفة طويلة واصل ستالين قوله :

— ولهذا فان الجيش الذى نعطيه لك من احتياط القيادة العليا ، وهو جيش مجهز بصورة جيدة ، يوجه لتعزيز الجبهات الثلاث ، واتمام تحطيم الالمان فى الحصار . ستقوم انت بسحق باولوس ، وتحقيق عملية « طوق » . ما هى آراؤك فى هذا الخصوص ، يا رفيق بيسونوف ؟

قال بيسونوف ، فاهما السبب فى تطرق ستالين الى الوضع السابق فى المعركة قرب موسكو ، وتكراره الملح لكلمة « كان » ثلاث مرات ، لدى حديثه عن الوضع الذى حصل فى ستالينغراد نتيجة الهجوم المعاكس لجبهاتنا فى تشرين الثانى :

— بودى ان اقول ، يا رفيق ستالين ، ان كل شىء الآن متوقف على سرعة القضاء على هذه التشكيلة الالمانية الهائلة . ولا يستبعد احتمال ان يقوم الالمان بمحاولة

كسر الطوق من الداخل ، او خرق الجبهة الخارجية بضربة والنفاذ الى التشكيلة المحاصرة . لقد قيل لى ان عمليات قواتنا للقضاء على التشكيلة المحاصرة قد تباطأت فى الايام الاخيرة ، وان الالمان يقاومون بشدة ، بل ويقومون بهجوم مضاد ...

وفكر بيسونوف فى نفسه ما ان فرغ من عبارته الاخيرة : « انه يعرف ذلك احسن منى ، يبدو ان حديثى فى غير موضعه » . الا ان ستالين قرّب عود الثقاب المشتعل من الغليون ، وهزّ رأسه هزة خفيفة .

— تقول انهم يقومون بمحاولة كسر الطوق ؟ لست على خطأ ، يا رفيق بيسونوف ؟ هناك معلومات عن تحويل قوات المانية من اوربا الغربية الى جهة ستالينغراد ... واصل كلامك .

— ولهذا السبب اود ان ينقل الجيش الى الجبهة باسرع ما يمكن ، يا رفيق ستالين .

مسّ ستالين شعرات كثيفة من شاربه الاصهب بمبسم غليونه ، مفكرا ، على ما يبدو ، بفكرته الخاصة . وبعد دقيقة قال بلكنة جورجية ملحوظة جدا :

— علينا ان نقوم بعملية « طوق » لتقطيع وابادة

التشكيلة المحاصرة بقوات جبهة روكوسوفسكى ، وبشكل اساسى ، بقوات جيشك ، يا رفيق بيسونوف . فى موعد لا يتعدى الثالث والعشرين من كانون الاول . فالمسألة ايضا ان جنودنا ، وحتى امراء وحداتنا قبل ستالينغراد لم يتعودوا ، كما ينبغى ، على المحاصرة ، وتوجيه الضربات المميتة الى العدو المحاصَر . ان كلمة « المانى » ظلت مدة طويلة ترادف القوة النشيطة جدا . وهذا عامل نفسى يجب تحطيمه فى وعى الناس ، الى الابد . اليس كذلك ، يا رفيق بيسونوف ، ام ليس بالضبط ؟

قال بيسونوف :

— اظن ، يا رفيق ستالين ، تراجع عام ٤١ لم يمّح بعد كليا من وعى الجنود . وكذلك صيف ٤٢ . الا ان التحول هو بسبيل الحدوث ، او قد حدث بالفعل ... فالجنود اخذوا يدركون ان الحرب قد اتخذت منقلبا آخر ، واننا نحن الذين اخذنا نحاصِر لا الالمان .

لم تختلج عضلة واحدة فى وجه ستالين الرصين الرمادى الضارب الى الصفرة لا بما يدل على الموافقة ،

ولا على الاعتراض ، واخذ يروح ويجئ على الممشى البساط السميك الكاتم لوقع الخطى ساعلا او متنحنحا من حنجرته الموجعة ، بينما كانت ذراعه اليسرى المتصلبة المطوية من المرفق خارجة قليلا امام بطنه ، وكتفاه الضيقتان المنحدرتان منطويتين قليلا . الا ان بيسونوف تصوّر فجأة ان ستالين فى تلك اللحظة لم يكن مرتاحا من شىء ، ومهموما ، ربما من جراء التذكير بعام ٤١ ، او الاشارة الى تباطؤ عمليات قواتنا ضد تشكيلة باولوس المحاصرة . فقد كانت النظرة التى لمحها فى عينى ستالين حين اقترب منه مبوأرة ببرود ، وقد حافظ ستالين على النظر اليه بتصميم هادئ . ثم شرع يتحدث غير موجه كلامه الى بيسونوف ، بل كالمخاطب نفسه اثناء التفكير ، وكأنه يزن كلماته بميزان دقيق :

— ما هى مهمة القائد وغايته ؟ ان مهمة القائد الاساسية هى تقصى العدو . التهيؤ وانتهاز الفرصة . تمرين العضلات . وتوجيه الضربة مباغتة ، واحراز النصر .

وشدد على عبارة « احراز النصر » بايماءة ، وللمحة

واحدة صار وجهه الخشن المحبب بآثار الجدرى الصغيرة ينطق بالرضى .

واكمل ستالين قوله مشددا على الكلمات مرة اخرى :

— ان ذوى الايمان المزعزع سيهزمون جميعا . جبناء ومتشككون و خائرو العزم ، يا رفيق بيسونوف . ومثل هؤلاء ما يزالون موجودين ، مع الاسف .

واتجه ستالين نحو المكتب فى نهاية الغرفة متخذا هيئة رجل عابس غير مستعد الى الاصغاء الآن ، ورفع سماعة التلفون . الا انه تنحنح وسعل واعاد السماعة الى موضعها ببطء . ومرت دقيقتان وقف فيهما ستالين بلا اكتراث مديرا جنبه الى بيسونوف ، وكأنما قد نسى وجوده . وبعد ذلك مدّ يده الصغيرة الداكنة السمرة المغطاة بشعر ذهبى ، ودقّ الغليون المنطفئ ليخرج الرماد منه . وفتح علبة سكائر على المكتب ، واخذ يسحق السكائر فوق المنفضة بين اصبعيه ، ويفتت التبغ فى الغليون .

فكّر بيسونوف مع نفسه : « اعطانى اشارة الى ان انصرف . يبدو انه استدعانى ليلقى نظرة على قائد

الجيش الجديد ، وخرج غير راض كثيرا عنى . اذن ، فان تعيينى قائدا للجيش بمشورة روكوسوفسكى كان مصادفة ، كما كنت اتصور ... »

مضى ستالين يفتت التبغ فى الغليون ، ويرصه ، وبعد وقفة مطوّلة استأنف الكلام بخفوت شديد :

— خبرنى ، يا رفيق بيسونوف ، لقد كنت تدرس فى الاكاديمية ، ثم أخذت تدرّس فيها ... هذه حقيقة معروفة . فهل كنت متعرفا على الجنرال فلاسوف ؟

وطاف فى ذهن بيسونوف : « لماذا سألنى عن فلاسوف ؟ ما الذى جعله يتذكر فلاسوف ؟ »

— كنت متعرفا عليه . — رد بيسونوف بقلب واجف ، وكان قد سمع من العاملين فى القيادة العامة عن احداث حزيران فى جبهة فولخوف ، وعن مأساة جيش الصدام الثانى الذى كان يخدم فيه ابنه المفقود الآن . كرر بيسونوف القول : — كنت متعرفا عليه . فقد درسنا فى الاكاديمية فى وقت واحد ...

— ما هو رأيك الشخصى فى فلاسوف تلك السنوات ؟ يقولون انه كان مغرورا وسريع التكدر للغاية .

— لم يكن ذلك ظاهرا ، يا رفيق ستالين ، فى تلك السنوات لم يختلط كثيرا باحد ، كما اتذكر .

— يقولون ان هذا الجنرال المغرور الذى استسلم للالمان كان جبانا ، وهلوعا جدا فى القتال . أليس كذلك ؟

رد بيسونوف بصوت خفيض :

— لا استطيع ان اقول شيئا عن صفاته هذه ، يا رفيق ستالين . لم يصادف ان التقيت بفلاسوف فى جبهة . ولكننى اعرف شيئا واحدا بالتأكيد : هو انه لم يكن مبرزا بشىء فى الاكاديمية . لقد كان متوسط القابليات .

قال ستالين محتدا :

— اصبح معروفا ان هذا المغامر السياسى المتوسط القابليات ذهب ليخدم الالمان . وبذنب هذا الجنرال الهلوع هلك من جيشه ستة آلاف شخص ، وفقد ثمانية آلاف . فى رأيى ، يا رفيق بيسونوف ، ان الذين يقعون فى الاسر هم فى الغالب عناصر متخلخلة سياسيا ومعنويا ، وغير راضية بنظامنا ... باستثناء بعض الحالات . هل انت توافقنى ؟

وعاد بيسونوف يفكر مع نفسه شاعرا بألم محرق فى رجله ، وبرغبة لا تقاوم فى مسح العرق الحار الذى اساله هذا الألم على صدغيه : « لا يمكن ان يكون فكتور فى عداد هؤلاء المفقودين الثمانية آلاف ، وقع فى الاسر ! .. لماذا تطرق ستالين الى ذلك ؟ »

وكان بيسونوف ، بعد ان خرج من المستشفى ، وقبل ان يتلقى تعيينه ، وباله مشغول فى استمرار بابنه ، وبحياته او موته المحتمل ، قد قام بجميع التحريات عن جيش الصدام الثانى ، وعن الذين فلتوا من الحصار ، غير انه كان يتحاشى التطرق الى هذا الشىء الجديد حتى فى الحديث مع زوجته ، غير فاقد الأمل بعد .

وكان بيسونوف قد عانى بنفسه ، غير مرة ، حالة الاحباط فى الشهور الاولى من عام ٤١ ، وعرف معنى انسحاق النفس الشامل فى الحصار ، الانسحاق الذى يظهر مثل وباء جدرى الفراخ ، الا انه عرف ورأى ايضا ضباطا برتبة ملازم ، صغارا تماما ، لم يبدأوا بحلق ذقونهم بعد ، امراء سرايا وكتائب ، فقدوا خيط التوجيه لاسباب متنوعة ، الا انهم جمعوا فى ظروف بدت ميئوسة ، جماعات من الجنود ، وشقوا

طريقهم من الحصار بآخر ما لديهم من ضراوة واستماتة ، او صرعوا امام حواجز الدبابات ، وكان بيسونوف يتمثل ذلك بوضوح ، ولا يشك فى ان فكتور الذى يراه الآن فى ضوء جديد ، لا بد ، والجيش فى وضعية اندحار ، قد شقّ طريقه هكذا ...

ـ لماذا انت ساكت ، يا رفيق بيسونوف ؟ ألا توافق ؟

وافاق بيسونوف على نفسه ، وقد ظهرت غضون الكبر على وجهه الناحل ، وكانت شفتاه مزمومتين بشكل لا فكاك له ، بينما راح الألم المستحكم فى القدم المتخدرة من طول الوقوف يتصاعد الى فخذه بالحاح وشدة متزايدين ، ويضغط عليه كبراثن محماة كاشطة . وتذكر عصاه الصغيرة التى ركنها فى غرفة الاستقبال الرجل الاصلع المؤدب ، وشعر بالرغبة فى الجلوس ، وفى الوقت ذاته عرف انه لن يفعل ذلك . وتكلم بيسونوف اخيرا :

ـ كان ولدى آمرا لسرية فى جيش الصدام الثانى . وانا لا اعرف ماذا حلّ له ، ولكننى ، كأب ، لا املك اساسا للارتياب فى انه سيخون ، اذا ما وقع فى الاسر .

سعل ستالين بجفاف ، وخبط الغليون على المكتب ، ودفعه بعيدا عنه ، وكأنه مخلوق حى ضجر منه ـ وكان ذلك امارة على استياء يكتمه ، وهو ما لم يستطع بيسونوف ان يعرفه ـ ومشى فى غرفة المكتب ، وتقارب جفناه الاسمران المربدان . وقال ستالين :

ـ انا لم اقصد ابنك الذى هو ، حسب ما اعرف ، فتى جدا . لم افكر بما فكرت به ، يا رفيق بيسونوف . كنت اقصد شخصا آخر تماما . اظن ان جذور الخيانة تضرب دائما فى الماضى . والشبان ليس لهم ماض .

احس بيسونوف بالألم الحى المتزايد فى لذعه وعدم احتماله يمتد من ساقه الى فخذه ، وبخطوط العرق الحارة تسيل تحت ابطيه ، وفكر فى غير اوانه : « ليتنى استند على عصاى الآن » .

ـ كانت لفلاسوف هذا فى وقت ما حتى سمعة طيبة . ولم يدرك احد جوهره العفن ، لا فى الاكاديمية ، ولا فى الجيش . أليس هذا صحيحا ، يا رفيق بيسونوف ؟ ـ قال ستالين ذلك ومست البرودة الجارحة فى نظراته وجه بيسونوف الى حد انه اراد ان

يتلمس خديه بيده ليذود هذه البرودة المعدنية عن بشرته .

— يصعب علىّ ، يا رفيق ستالين ، ان اجيب عن هذا السؤال . بقدر ما استطعت ان اتصور الظروف التى وقع فيها فلاسوف فى الاسر ، فسرت ذلك بالجانب الحيوانى للانهيار الانسانى . ولكن فى المسألة تقاربه من الالمان ... اعتبره خطوة سياسية .

وفى تلك اللحظة ، وهو يحاول ان يفهم مغزى كلمات ستالين عن اسرى الحرب بشكل منطقى وبتتابع كان بيسونوف يرفض ، ولا يوافق على كل ما يمكن ان يلقى ولو ظلا خفيفا على مصير ابنه ، غير مصدق بضعفه ، ولا بخور عزيمته . لم يكن اسم فكتور مسجلا فى قوائم الآلاف الستة عشر الذين خرجوا من الحصار . وكالسابق كان بيسونوف لا يستبعد فكرة ان فكتور فى تلك الظروف لم ينج من الاسر مثل آخرين ، فى ذلك الوضع الفاجع ، ولكنه كان يجنح ، اكثر فاكثر ، ومهما يكن ذلك قاسيا ، الى التصديق بان ابنه صرع ايام محاولة جيش الصدام الثانى الافلات من الحصار . فان ذلك كان اكثر شبها بالحقيقة .

غير ان بيسونوف لم يستطع ان يعرف ما الذى ادى الى هذا الحديث ، وما الدافع الذى اثار استطلاع ستالين فجأة نحو الجنرال فلاسوف .

لقد وقعت فى كل الحروب خيانات ، وجبن ، وغدر بجيوش ، وافشاء لوثائق سرية . وخيانة فلاسوف فى حزيران من عام ٤٢ لم تكن خيانة من جانب الجيش الذى حارب الى آخر ما لديه بالقرب من قرية « سباسكايا بوليست » وشقت فلول فرقه طريقها من الحصار بالمعارك . ان خيانة فلاسوف كانت غدرا جبانا من جانب جنرال ترك مقر قيادته سرا فى جنح الليل ، وجاء الى قرية بياتنيتسا التى يحتلها الالمان ناطقا بكلمات فزع وهوان : « لا تطلقوا النار ، انا الجنرال فلاسوف » . وبذلك خلص حياته التى اصبحت منذ تلك اللحظة موتا لان كل خيانة ان هى الا موت روحى . غير ان خيانة فلاسوف وخيبة احد الجيوش فى جهة غير رئيسية لم يغيرا بالطبع الوضع على مجموع الجبهة السوفييتية ـ الالمانية . فى ذلك الوقت كان اكثر الاخطار جدية هو فى الخنوب ، ولم يرد ستالين الذى كان آنذاك مشغولا فى الجبهات الجنوبية ، حيث كان الالمان

يستعدون لتوجيه الضربة الرئيسية ، ان يركز اهتمامه في احداث فولخوف . ولكن حين مرّ اسم فلاسوف من جديد في تقارير الاستخبارات في الايام التي بدأ فيها النجاح الكبير للجبهات الثلاث عند ستالينغراد ، وفي ايام هجومنا المضاد في تشرين الثاني استولى الحنق القديم على ستالين من جديد ، وفي الوقت ذاته تصور منفعلا ما يمكن ان يشعر به فلاسوف الآن ، وهو في مؤخرة الالمان ، لدى سماعه نبأ نجاح الجيش الاحمر . ومع عودة ستالين الى الماضي في مجرى الذكريات الملحاحة توقع ان يحدد بيسونوف ، وهو الجنرال المتقدم في السن الذي وهب الجيش سنين طويلة من الخدمة ، وكان يعرف القائد السابق لجيش الصدام الثاني ايام الدراسة في الاكاديمية ، الشيء الملاحظ في المظاهر الروحية للخيانة ، البوارض التي لم تكن في تلك السنين البعيدة بارزة على السطح كثيرا ، والتي كان من الممكن ان يفسر بها الآن حاضر فلاسوف . ان هذا ما كان ستالين يريد ان يعرفه .

عندما سمع ستالين جواب بيسونوف ، لم يظهر ، على عادته التي كونتها السنون ، عدم رضاه مباشرة .

سار على البساط الممشى من طرف المكتب الى طرفه الآخر على مهل فاتر ، ثم قال بصوت لا يكاد يبين :

— خطوة سياسية ؟ نعم ، انها سياسة ... يقولون ، يا رفيق بيسونوف ، انك في بعض الاحيان تعلن عن ... وجهة نظرك الخاصة في مختلف الاحداث . حول اسرى الحرب هؤلاء مثلا . فهل هذا الرأي عنك يطابق الواقع؟

لم يكن بيسونوف ، وهو ينتظر مواصلة الحديث حول فلاسوف ، يتوقع سؤالا آخر . نقل رجله المتخدرة على البساط الممشى قليلا ، وشعر فجأة بنفحة هواء تهب داخل صدره ، وتكلم بجهد وهو يحس احساسا غير مألوف له بانه موشك على السقوط من مرتفع ماحق شديد الانحدار ، وكأنما قد تهيأ بوعيه الى النهاية الوخيمة :

— اغلب الظن ، يا رفيق ستالين ، انهم يقولون عني اسوأ من ذلك . انا اعرف ان هناك رأيا يقول ان لي طبعا سيئا . وانا لا اشك في ان هناك شكاوى عني .

رفع ستالين جفنيه الثقيلين ، ونظر بدهشة متفرسة ، ثم اسبل جفنيه في الحال .

وسأل ضاحكا فجأة ضحكة لا صوت لها :

— لماذا لا تجيب عن السؤال مباشرة ؟

ومسّد بابهامه غليونه الذى اطبق عليه يده ، وحرّك كتفيه حركة وانية ، وخطا ثانية نحو المكتب فى نهاية الغرفة :

— انت شيوعى ، يا رفيق بيسونوف ، فأجبنى كشيوعى . هل كانت لك دائما وجهة نظر خاصة فى مختلف الاحداث ؟

— كنت احاول ان تكون لى ، يا رفيق ستالين . ولكن لم افلح دائما فى الدفاع عنها حتى النهاية .

قلّص ستالين عينيه ، ونظر من موضعه عند المكتب . انه ، وقد تعوّد منذ زمن بعيد على ان يتلقى من المحيطين به موافقة لا تقبل الجدل على آرائه وكأن هذه الموافقة شيء طبيعى ، كان يسمح فى بعض الاحيان لنفر صغير جدا من المقربين اليه ان يعرب عن رأيه الخاص ، وقد ذكره جواب بيسونوف باحد ممثلى القيادة العليا الذى كان مغيظا له احيانا ، وفى الوقت ذاته كان ضروريا بصراحته الجريئة عند البت فى

المسائل العملية . الا ان فطنته المحنكة التى اذهلت الجميع باعتبارها تقييما قويما دقيقا للوضع قد عودت ستالين على ان يثق بمعصومية آرائه من الخطأ ، فكان يفصح عنها دون تردد .

— انا فاهم ، يا رفيق بيسونوف ... ان لشكوكك ، على ما يبدو ، علاقة بمصير بعض قادة الجيش الذين عاقبناهم فى حينه ؟

— هذه وجهة نظرى فقط ، يا رفيق ستالين ، — اجاب بذلك بيسونوف ، وكأنه ازداد اقترابا من الريح الثلجية التى كانت تهب فى وجهه ، ورجليه . وبعد ان اجاب بذلك وادرك ان ستالين جعله يقول ما لم يفكر فى قوله ، اضاف بهدوء ادهشه هو نفسه : « وقد تكونت وجهة النظر هذه لاننى قد خدمت مع بعض قادة الجيش الذين وقعوا فيما بعد ضحايا للافتراء . وانا متأكد من ذلك ، يا رفيق ستالين ...

دفع ستالين الغليون على المكتب مرة اخرى ، وكأنه شيء غريب يضايقه ، وقال غير متأثر :

— انا اعرف هذه الشكوك . ان النضال شيء قاس . الا ان الكثيرين ممن شككنا فيهم آنذاك ذوو نفوس

صغيرة منطوية على ما كانت تنطوى عليه نفس فلاسوف. ولقد صححت الاشتطاطات والاخطاء منذ زمن طويل. وها هو روكوسوفسكى وتولبوخين يحاربان بنجاح فى ستالينغراد.

فكر بيسونوف مع نفسه : « وماذا عن الآخرين ؟ »

— ... ولكن لئن واتى ذلك المعتوه فلاسوف شىء من الذكاء ، ونكص عن الالمان ، فاننا لن نغفر له ابدا ! ..

الظاهر ان هذا الحديث اثار فى نفس ستالين ذكريات مغيظة غير طيبة . بعد ان سعل سار نحو الخارطة بمشيته الهادئة الناعمة ، وهو فى حذائه الخالى من اى صريف ، ونظر طويلا فى تفاصيل الوضع صباحا على الجبهات محاولا الآن ان يحول افكاره الى اتجاه آخر ، مفكرا فى نجاح هذه الجبهات الثلاث عند ستالينغراد . وقال وهو يشير اشارة غير عابئة :

— كل ذلك استطراد فى الكلام ! اما ابنك ، يا رفيق بيسونوف ، فلن نضعه فى قوائم الاسرى ،

بل نعتبره فى عداد المفقودين . وفى المستقبل سنقوم بالاستعلامات المفصلة ونبلغك . ان ابنى الاكبر يعقوب فُقد ايضا فى بداية الحرب . وعلى هذا فنحن فى وضع متساو ، يا رفيق بيسونوف .

وهمّ ستالين ان يضيف شيئا آخر عن ابنه الاكبر ، الا انه تمهّل ، ونقّل العدسة المكبرة فوق الخارطة ، وتحدث عن شىء مختلف تماما :

— انزل بجيشك الى العمل فى الحال . واتمنى لك ، يا رفيق بيسونوف ، فى قوام جبهة روكوسوفسكى التوفيق فى سحق وابادة تشكيلة باولوس . ولى ثقة بك ، بعد العمليات النشيطة لفيلقك قرب موسكو ، يا رفيق بيسونوف . انا اذكر ذلك .

— لن ادخر جهدا ، يا رفيق ستالين . هل تسمحون لى بالانصراف ؟

— بالعكس ، يجب ان تدخر لك جهدا . كنت اتصورك عملاقا .

وبسط ستالين ذراعيه ، مشيرا الى المقاس الذى كان يتصوره لكتفى بيسونوف ، وابتسم عند ذلك بغتة ، وارتجف شارباه ، وفى تلك اللمحة (وقد شعر

ستالين نفسه بذلك) ذابت واختفت البرودة المعدنية الصلبة فى عينيه ، وصار كل وجهه المحبب بآثار جدرى خفيفة ناعما اليفا طيبا كما تعود بيسونوف ان يراه فى الصور . وقال ستالين :

ـ انت نحيف ، يا رفيق بيسونوف . أهذا لان لك وجهة نظر خاصة ؟ لا قرحة فى المعدة ؟ يبدو انك لا تأكل كثيرا . وسوف تطعم جنودك بشكل سيئ . ان هذا غير جائز ، رغم ان التموين عند ستالينغراد ابعد من ان يكون على ما يرام .

اجاب بيسونوف وقد رأى ابتسامة ستالين ، وكأنها دعوة لنسيان كل ما تطرق اليه الحديث مما ليس له علاقة مباشرة بالموضوع :

ـ انا خارج من المستشفى لتوى ، يا رفيق ستالين . ولكننى كنت نحيفا دائما .

وبعد ثلاث ساعات طار الى منطقة ستالينغراد . ولكنه ، وهو فى الطائرة ، لم يستطع الى النهاية ، ان يبلور الانطباع المعقّد عن حديثه مع القائد الاعلى ، الذى استغرق اربعين دقيقة .

فى اليوم الثالث من وصول بيسونوف الى مواقع الجيش ، كان الوضع فى الجنوب الغربى من ستالينغراد قد تغيّر تغيرا حاسما .

فى ٢٤ من تشرين الثانى حتى ٢٩ منه خاضت قوات جبهة الدون وجبهة ستالينغراد معارك هجومية متواصلة ضد التشكيلة الالمانية العديدة الالوف المحصورة فى الكماشة ، والتى كانت تبدى مقاومة عنيفة ، وقامت غير مرة بهجوم مضاد فى بعض الاقطاع . الا انه فى مستهل كانون الاول تقلصت المناطق التى تحتلها القوات المحاصرة الى النصف ، ولم تعد تتجاوز ٧٠ ـ ٨٠ كيلومترا من الغرب الى الشرق ، و ٣٠ ـ ٤٠ كيلومترا من الشمال الى الجنوب . وارسل الفريق الاول باولوس قائد جيش الميدان السادس برقية مستعجلة الى قيادة هتلر العليا طالب فيها السماح بالانفلات من « المرجل » بعد نقل القوات الى الجنوب الغربى ، وتعويلا على موافقة هتلر اصدر امرا الى جيشه ، والى جيش الدبابات الرابع الخاضع له بالاستعداد الى التراجع عن الفولغا باتجاه روستوف . وفى غضون بضعة ايام احرق هذان الجيشان بعجالة كل ما لم يكن من الممكن استخدامه

اثناء عملية الانفلات – الاحتياطات من كسوة الضباط الصيفية ، والجرارات ، والسيارات التى بقيت بلا وقود ، ونسفت مستودعات الامتعة التى تثقل على القوات ، واتلفت اوراق هيئة الاركان .

فى بادئ الامر تردد هتلر الذى كان مطلعا بالتفصيل على وضع القوات عن طريق ممثليه الشخصيين ، وكان فى حالة من الحيرة ، الا انه بعد وعد غيرنغ باقامة « جسر جوى » عن طريق الطائرات الى ستالينغراد ونقل ما يصل الى ٥٠٠ طن من الحمولات يوميا بواسطته ، ارسل برقية جوابية الى باولوس امره فيها بعدم التخلى عن ستالينغراد ، واقامة دفاع دائرى ، والقتال الى آخر جندى .

وتبع ذلك وصول امر الى مقر قيادة جيش الميدان السادس حول عملية رمز لها باسم « العاصفة الشتائية » عن التهيئة لفك الحصار ، اى شق طريق الى تشكيلة باولوس المحاصرة تقوم به مجموعة جيوش « الدون » بقيادة الفيلدمارشال مانشتين من ناحية كوتيلنيكوفو وتورموسين . وضعت تحت امرة هذا الفيلدمارشال آنذاك جميع التشكيلات المنتشرة الى الجنوب من المجرى

الاوسط للدون حتى سهوب استراخان ، اى ما يصل الى ٣٠ فرقة ، من بينها ست فرق للدبابات ، وفرقة آلية ، نقلت من المانيا وفرنسا ، وبولنده ، ومن المناطق الاخرى من الجبهة .

ان قرار هتلر هذا فى الاحتفاظ بستالينغراد باى حال من الاحوال كان يرمى ايضا الى هدف ستراتيجى ، هو تأمين تراجع تشكيلة شمال القفقاس الالمانية من روستوف ، التى كانت تحت خطر الالتفاف عليها من الجناحين .

فى ١١ كانون الاول ، وبعد البحث فى الوضع الناشئ فى منطقة ستالينغراد امر هتلر الفيلدمارشال مانشتين بتوجيه الضربة لفك الحصار .

وبعد خلق تفوق فى القوات بثلاث مرات فى منطقة ضيقة على طول سكة حديد تيخورتسك – كوتيلنيكوفو – ستالينغراد ، فى الصباح الباكر من ١٢ كانون الاول وجه الفريق الاول غوت قائد المجموعة الصدامية لفك الحصار ضربة فى نقطة اتصال جيشين فى جبهة ستالينغراد بفرقتين للدبابات مع مساندة قوية من الجو . واندفعت الدبابات فى الثغرة ، وخرجت فى

١٥ كانون الاول الى شاطئ نهر اكساى ، وبعد ان عبرته ، تقدمت خلال ثلاثة ايام من الهجمات المتواصلة ، ٤٥ كيلومترا باتجاه ستالينغراد . والتقط رجال الاستطلاع فى جيشنا برقيات مرسلة بدون شفرة من غوت الى مقر قيادة باولوس تقول : « اصمدوا . سيتم تحريركم قريبا . نحن قادمون ! » . وتعقد الوضع فى الجنوب الغربى للغاية . تراجعت قواتنا بعد ان اضعفتها المعارك الدفاعية والهجومية ، مستنزفة الدم ، متشبثة بكل مرتفع فى صلابة شديدة . وارسلت جميع الاحتياطات الى الجهة الرئيسية ، الا ان ذلك لم يستطع تغيير الوضع الناجم تغييرا جوهريا . فقد استمرت مجموعة جيوش الفريق الاول غوت ، المعززة بانضمام فرقة الدبابات السابعة عشرة اليها ، فى التقدم سريعا نحو ستالينغراد ، نحو جيش باولوس المحاصر الذى كان ينتظر من ساعة الى اخرى اشارة لشق الحصار ، للقاء فرقتى الدبابات المخترقتين له .

وفى الوقت الذى بدأ فيه جيش بيسونوف حديث التشكيل لتوه فى النزول فى شمالى غربى ستالينغراد وردت انباء مفصلة عن بدء الالمان بهجوم مضاد فى

جهة كوتيلنيكوفو ، وعن المعارك الدامية على شاطئ نهر اكساى . واستدعى بيسونوف مع رئيس اركان جيشه اللواء ياتسنكو الى مجلس الجبهة العسكرى بصورة مستعجلة ، وكان هناك فى ذلك الوقت ممثل عن القيادة العليا ايضا . وبعد تقارير مفصلة القاها قائد الجبهة ، وقواد الجيوش المدافعة اصبح واضحا بشكل لا غبار عليه ان قوات جبهة ستالينغراد التى تلقت الضربة الرئيسية لم تكن لها القوى الكافية لمقاومة ضغط مانشتين الذى كان له تفوق عددى كبير فى منطقة فرق الحصار .

استمع بيسونوف هذه التقارير صامتا ، مفكرا بان ادخال جيشه فى نطاق جبهة الدون بغية القضاء على تشكيلة باولوس المحصورة فى الطوق سيكون خطوة مجازفة فى حالة وجود خطر مسلط فى الجنوب . وعندما اقترح عليه ممثل القيادة العليا ان ينقل جيشه الحسن التجهيز من جبهة الدون الى الجنوب الغربى ضد مجموعة مانشتين الصدامية ، حيث كان يتقرر مصير العملية ، اجاب بعد تباطؤ ، وكان مستعدا ذهنيا لذلك ، بانه فى اللحظة الراهنة لا يرى حلا آخر .

ولكن بيسونوف اسرع بعد جوابه هذا فطلب فى الحال تعزيز جيشه الذى لم يكن تحت النيران بعد ، ولم يدخل المعارك ، بفيلق من الدبابات او الآليات . نظر اللواء ياتسنكو اليه فى تخوف ، فقال بيسونوف لنفسه ان رئيس اركانه (وكان لا يعرفه كثيرا فى ذلك الوقت) قلق للغاية من المهمة المعدّلة بشكل جديد والتى اخذها على عاتقه قائده القادم من توه فى يسر ، وكما بدا ، دون اخذ أو رد تقريبا .

وفكر بيسونوف : « على كل انه محق ايضا من وجهة نظره » .

اجاب ممثل القيادة العليا انه سيتلفن الى ستالين فى الحال ، ويأمل ان يحصل على موافقته على اقتراح المجلس الحربى حول نقل جيش بيسونوف من جبهة الدون الى جهة كوتيلنيكوفو المتفاقمة لايقاف مانشتين فى الطريق الى ستالينغراد وتحطيمه .

سمع بيسونوف كلمة « تحطيمه » الحامية ، وفكر مع نفسه : فى المرحلة الاولى حتى امكانية « الايقاف » المحققة تعادل كسب العملية .

وارسلت القيادة العليا موافقتها على الفور ، وتحرك

جيش بيسونوف فى مسيرة متقحمة ، دون توقف او نزول او استراحة ، من الشمال الى الجنوب ، الى شاطئ نهر ميشكوفا ، وهو آخر حد طبيعى امام الدبابات الالمانية ينفتح بعده سهل منبسط حتى ستالينغراد .

الفصل الخامس

فى الساعة الثالثة ليلا ، وبعد سير متعب فى الطرق السهبية المغطاة بالجليد المكتظة بطوابير القوات دخلت سيارة بيسونوف قرية قوزاقية نصف مهدمة لا يضيؤها ضوء واحد ، واقعة فى وهدة عميقة . فى هذه القرية اقيمت نقطة جديدة لقيادة الجيش .

بعد حدود القرية ، وعند مفترق طرق لمع فجأة ضوء احمر منبعث من مصباح يدوى ،وعلى مسافة الى الامام خرجت ثلاثة اشباح داكنة الى منتصف الطريق . وكان هؤلاء رجال دورية .

نزل الميجور بوجيتشكو من السيارة ، وبعد حديث قصير مع رئيس الدورية ، عاد فركب فيها ، وابلغ قائلا :

ـ البيت الرابع الى اليمين . لقد استقروا . وكل الخدمات موجودة .

مشى بيسونوف قليلا قرب مدخل مقر القيادة منقّلا رجليه المخدرتين ، مستنشقا الهواء الصقيعى الثقيل المشوب بعبق مر دافئ لدخان الروث المحترق ، محدقا فى السماء الكثيرة النجوم . كانت ابراج النجوم الساطعة ترتعش متقدة ، فى اجواء كانون الاول السوداء العالية . وكان غبار ثلجى ابيض لاسع يتطاير من سطح البيت بهيئة افاع ملتوية . وكانت الريح تصفر فى اعواد الذرة الجرداء المهجورة البارزة من حدائق البيوت مثل جزيرات داكنة . ومن الجنوب ، يسارا ، كان يترامى قصف اصم مقتربا ، ومتلاشيا ، وكأنما يتدحرج على ميزان الهواء .

قال فيسنين مصطكا من البرد ، ماسحا زجاج نظارته بمنديل جيب :

ـ هل تستمع ، يا بيتر الكسندروفيتش ؟ انهم يضغطون حتى فى الليل ! انهم يستعجلون جدا ! يبدو ان السماء هناك انور قليلا . كل شىء يحترق ...

ـ نعم ، انهم يستعجلون بالضبط .

اجاب بيسونوف ، ومرّ من الحارس صاعدا على مدخل البيت المغطى بالثلج .

كان البيت الذى اتخذ مقرا للقيادة مدفئا تدفئة حارة خانقة فيه رائحة فرو خروف ، وخشب وزيت قنب دافئ غريب وجوده فى هذا المكان . وكانت فى الغرفة الكبيرة ذات النوافذ المغطاة بالستائر باحكام مصابيح بطاريات مركمة تضيئها بضوء ابيض وهّاج ساطع . وكان رؤساء الاقسام والخدمات الذين استدعاهم ياتسنكو على الارجح ، يجلسون على مساطب خشبية تحت هذه المصابيح وراء المنضدة وقرب الخارطة . وقد ادهش بيسونوف انهم كانوا يرتدون فرواتهم وقبعاتهم الشتائية ، وكأنما يؤكدون بذلك عصبية لم يكن يريد ان يراها فى مقر قيادته . كان جو الغرفة مشبعا بدخان السكائر الذى كانت غمائمه الزرق تسبح فوق المنضدة . والظاهر ان الاجتماع كان موشكا على نهايته . هتف اللواء ياتسنكو الجهم ذو الرأس الكبير الحليق حلاقة ناعمة رغم ان الفصل شتاء ، بنداء التحية بصوت عالى النبرة . نهض الجميع منتصبى القامة ،

مخفين سكائرهم بسرعة . فقد كانوا يعرفون ان القائد الجديد لا يدخن ، ولا يطيق دخان السكائر .

سلّم بيسونوف دون ان يصافح احدا ، وخلع فروته ، وقال مستاء :

— رجوت ان لا يدخن احد فى هذه الغرفة . لا تضببوا الرأس . ثم اننى اردت ان يخلع امراء الوحدات معاطفهم وفرواتهم لدى دخولهم . فانا لا اشك فى ان ذلك سيكون اروح ... اذا كنت لم اقطع الاجتماع ارجو ان يشرع الجميع فى اداء واجباتهم فى الحال .

قال فيسنين ، وهو يفرك يديه ، ويتمايل على رجليه الطويلتين :

— كأنهم قاطرات بخارية تماما ! دخان فى دخان !

ارتفع صوت ياتسنكو الجهير حين خرج بعض الامراء :

— ما العمل معهم ؟ انهم فى تدخين مستمر ، هؤلاء الشياطين . ربما نهوى الغرفة يا بيتر الكسندروفيتش ؟ — وادار رأسه الكبير الحليق نحو النوافذ المسدلة الستائر .

اوقفه بيسونوف بقوله : « ليس الآن » . ومسّد شعره الخفيف الشائب المنحدر الى جانب ، وهزّ رأسه قائلا :

— تفضلوا الى الخارطة . اظن من الافضل ان نجلس .

جلس جميع الذين تبقوا فى الغرفة على مقربة من الخارطة . اسند بيسونوف عصاه على حافة المنضدة . لم ينظر الجميع الى ياتسنكو وهو متخذ هيئة موقرة لمن يستعد لالقاء بيان ، ولا الى الخارطة وقد علّمت عليها آخر المعلومات ، بل الى وجه بيسونوف العليل الجاف الذى لم يمسه اى احمرار بعد تعرضه للبرد الصقيعى ، مقارنين اياه ، دون ارادتهم ، بوجه فيسنين المورّد بشكل بهيج ، البادى الفتوة ، فقد كان قائد الجيش وعضو المجلس الحربى مختلفين فى ظاهرهما اختلافا صارخا . قال بيسونوف :

— تفضلوا .

بدأ ياتسنكو الكلام :

— بسبب منع استخدام اجهزة اللاسلكى يصير الاتصال بالفيالق فى حالة غير محمودة . ولم يلحظ

بيسونوف فى عينيه الصغيرتين الذكيتين التساؤل السابق والدهشة ، اللذين لاحظهما اثناء اجتماع مجلس الجبهة الحربى . الآن لم يكن ينعكس فى عينى ياتسنكو الا ما كان له صلة بالنقل المحموم لاربعة فيالق كاملة مائتى كيلومتر من الشمال الى الجنوب . وتابع ياتسنكو قوله : — قبل ساعتين كان الجيش يحتل الوضع التالى ...

وضع الجنرال ياتسنكو يده الكبيرة الناعمة البيضاء على الخارطة . كان تقريره شديد الوضوح الى حد الحذلقة ، وصوته كثيفا كأنما يتلذذ بالنطق با رقام الفيالق والفرق :

— دخل فيلق الحرس الثالث للمشاة منطقة النزول على شاطئ نهر ميشكوفا ، وهو يتخذ مواقع الدفاع . والفيلق السابع فى المسيرة ، وآمل ان يصل مع حلول الظلام الى منطقة تمركزه . واخطر وضع هو ما حصل فى الفيلق الآلى ، ايها الرفيق القائد — وهنا اخذ ياتسنكو يحمر شيئا فشيئا ، وكأنه ، وهو المحب لدقة التنفيذ ، عاد يعانى من حالة عدم ارتياح مبعثها الخبر الفاجع الذى تلقاه عن الفيلق الآلى ، قال : — نفد الوقود اثناء المسيرة ، وتوقفت الجرارات والسيارات المحملة

بالذخائر على بعد اربعين كيلومترا ... ارسلت برقيتين الى قائد الجبهة ...

واعاد ياتسنكو يقرأ من ذاكرته دون تلعثم ، ولكن بجهد كبير ، نص هاتين البرقيتين ، ثم رمق بيسونوف من تحت حاجبيه بنظرة معاناة وتوقع .

قال بيسونوف :

— مفهوم .

ان كل ما بينه رئيس هيئة اركان الحرب كان يطابق ما رآه بنفسه صباحا واثناء النهار فى طرق حركة الجيش . الا ان هذه التعقيدات لم تكن هى مثار قلقه الآن . لقد كان يؤمن ، من تجربته ، بما يسميه النفس الثانى للقوات ، فى عمليات النقل الاقتحامية الى مسافات كبيرة . ان ما اثار قلقه على نحو اشد بكثير ، هو وضع احدى فرق الجيش المجاور التى كانت مشتبكة فى المقدمة فى معارك دفاعية ضارية لعدة ايام ، حتى انهكتها الى اقصى حد هجمات الدبابات الالمانية . وكان بيسونوف يعرف الوضع هناك ليس فقط من الجواب غير المترابط الذى تفوه به ضابط دبابات اصيب بصدمة فزع . فان الوقت الذى كان يحتاجه

بيسونوف احتياجا شديدا لوصول ونزول جيشه كله على ضفاف نهر ميشكوفا ، الحاجز الاخير فى طريق الالمان الى التشكيلة المحاصرة فى منطقة ستالينغراد ، كان يتوقف بشكل مباشر على ثبات او هلاك هذه الفرقة الكابحة لضغط الالمان الضارى المجنون .

بعد ان قطع بيسونوف تقرير ياتسنكو بكلمة « مفهوم » القصيرة رمق رئيس قسم الاستطلاع العقيد درغاتشيف ، وهو رجل فى سن الشاب يضفى عليه حاجباه الكثيفان المتصلان على قصبة انفه هيئة مستقلة خشنة لا تناسب عمره . وسأله بلهجة من يتوقع انباء غير مرضية :

— هل من جديد يمكن ان يقوله رئيس قسم الاستطلاع ؟

قال العقيد درغاتشيف بنبرة لا تعد بشىء مشجع :

— الوضع حتى المساء ، ايها الرفيق القائد ، هو ان الالمان على الجناح الايمن للجيش المجاور ادخلوا الى المعركة فرقة دبابات جديدة تضم ما لا يقل عن كتيبة من الدبابات الثقيلة من الطراز الجديد « النمر » . وحسب اقوال الضابط الذى اسر امس ، والمعلومات

الاخرى ، يشترك فى عملية فتح الثغرة اكثر من عشر فرق من بينها فرقتان للدبابات . والجيش المجاور ليس فى مقدوره الصمود امام هذا الضغط ...

عاد بيسونوف يقول :

— مفهوم .

نخر ياتسنكو ، واضاف فى الصمت المخيم :

— وضع جيراننا الى اليمين ليس احسن ، ان لم يكن اسوأ ، يا بيتر الكسندروفيتش . تكبد فيلق الفرسان خسائر فادحة ، وتراجع . ويتولد انطباع ، ايها الرفيق القائد ، هو ان الالمان سيوجهون الضربة الرئيسية الى الجناح الايمن لجيشنا ، حيث توجد اقصر مسافة الى ستالينغراد .

نظر بيسونوف الى ياتسنكو باهتمام خفى . ان هذا الجنرال الضخم الحليق لم يكن يوحى من النظرة الاولى بانه رئيس اركان حرب فطن حاذق ، ربما بسبب مظهره الخشن ، وصوته الجهير الكثيف الشبيه بصوت رئيس رقباء . وفضلا عن ذلك كان بيسونوف متضايقا من رائحة الكولونيا القوية المنبعثة من ياتسنكو .

— نعم ، من هنا لا يكاد يتبقى امام مانشتين غير

اربعين كيلومتر ليصل الى التشكيلة المحاصرة ـ قال بيسونوف مثبتا فكرته بصوت مسموع ، ثم اضاف فى سره : « اذا يخترقون هنا فانهم سيشقون ممرا الى التشكيلة المحاصرة ، وبعد يومين او ثلاثة سيتغير الوضع فى منطقة ستالينغراد لصالح الالمان . فما العمل عندئذ ؟ »

الا انه لم يفصح عن هذه الفكرة بصوت مسموع . بل ان هذا السؤال الاخير يطرحه حتى على نفسه لاول مرة .

وانتظر كل الذين كانوا حول المنضدة ، فى تخمين متوتر ، عملا ما من بيسونوف ، كما يحدث دائما تقريبا ، حين يظهر فى مقر اركان كبير رجل جديد مخوّل كامل الصلاحية ، كأنما هو مطلق اليد كليا فى قراراته ، غير مرتبط برأى اى انسان . مضى بيسونوف ينظر باعياء عميق الى الخارطة المعلّمة باشارات الى الوضع ، المضاءة بالمصابيح المركمة اضاءة ساطعة مريحة ، وصمت بعد تقرير رئيس اركان حربه ، مستمرا فى التفكير فى توازن القوى الممكن فى الجهة التى يفترض ان توجه الضربة فيها : « اذا خرقت ثلاث او اربع فرق دبابات المانية الدفاع على نهر ميشكوفا

قبل ان يتسنى لنا الوقت للوصول ، وتوزيع جيشنا على الضفة اليمنى فانهم سيطوقوننا نحن ايضا . ذلك واضح كذلك » .

الا ان ذلك ايضا لم يقله بصوت مسموع ، لانه من غير المعقول ان يقول ما كان مفهوما ، على الارجح ، لجميع الجالسين حول المنضدة فى تلك اللحظة .

نهض بيسونوف ، وخطى بضع خطوات فى الغرفة معتمدا على عصاه ، وفى تلك الثوانى تذكر بغتة خطوات ستالين البطيئة الواثقة المتخلخلة على البساط الممشى الاحمر بالقرب من المنضدة الضخمة فى غرفة مكتبه الضخم ، ونحنحته التى لا تكاد تسمع ، وسعاله الخفيف ، وكل الحديث الذى استغرق اربعين دقيقة فى القيادة العليا . وتوقف بيسونوف فى طرف الغرفة ، والعرق يتفصد على صدغيه . وفكر ، وهو حانق على نفسه : « ما هذا ؟ لا استطيع ان ابعد ذلك عن ذهنى ، وكأنه مغناطيس » . ووقف بعض الوقت موليا ظهره الى الجميع ، متفحصا الفوط الكتانية المطرزة المعلقة تحت الايقونة اللامعة فى ركن الغرفة فوق المساطب الخشبية .

التفت بيسونوف وتحدث من مكانه فى طرف الغرفة متحسسا نظرة ياتسنكو المقابلة ، محاولا ان يتحدث بهدوء :

— ابلغ قائد فيلق الآليات هذا الامر على الفور : لا تضيع دقيقة واحدة فى انتظار الوقود ، واحمل الذخائر على السيارات والدبابات القادرة على التحرك . ولترسل جميع السيارات الشاغرة — من مقر الاركان ومن المؤخرة — الى الفيلق . وابلغ رئيس تموين المدفعية ، وقائد الفيلق ما يلى : اذا لم تخرج الالوية بكامل ذخيرتها الى الخط المقصود فاننى سأعتبر ذلك عجزا عن القيام بالتزاماتهما !

وفكر فيسنين مع نفسه وهو يصغى الى صوت بيسونوف الصارف : « نعم ، هذا ما خمنته . سيبدأ فى اخذ زمام الجيش بيده . وهذا ما فعله رأسا ... »

وتابع بيسونوف قوله ، وسار نحو المنضدة ، ناظرا الى قائد المدفعية الجنرال لوميدزه :

— والشىء الثانى ... اظن انه يتعيّن تغيير الخطة الاولى لدفاع المدفعية . من المستحسن ان تقدم جميع المدفعية ، باستثناء مدفعية الفيلق ، فى وضع التسديد

المباشر ، بين صفوف المشاة فى خط القتال . وان تدمر الدبابات . الشىء الرئيسى ان تدمر دباباتهم . وسننزل دباباتنا الى المعركة فى اللحظة الحرجة . وقبل ذلك سنحرص على دباباتنا ، كما نحرص على حدقات عيوننا .

قال ياتسنكو :

— فهمت ، ايها الرفيق القائد .

— وانت ... يا جنرال ؟

رفع اللواء لوميدزه قائد المدفعية الجميل الطلعة ، الاسود الشعر ، فى عامه الاربعين ، عينيه الحارتين السريعتين الى بيسونوف ، وقال :

— ايها الرفيق القائد ، السنا بهذه الطريقة نظل بلا مدفعية ؟ بعد المعركة الاولى . اريد ان الفت النظر الى ان مدافع الهاون ازاء الدبابات قليلة الفعالية . فانها من حيث سرعة الاطلاق اقل من المدافع المضادة للدبابات . كان هناك امر يجعل المدافع من عيار ٧٦ مليمترا فى حالة التسديد المباشر .

نظر بيسونوف الى لوميدزه بامعان ، وكأنما قد ادهشته معارضته .

— انا اعرف بم نخاطر . ولكن ان نفقد كل مدافعنا خير من ان نتراجع ركضا مع المدفعية حتى ستالينغراد . ولهذا اكرر : ضرب وتدمير الدبابات ، القوة الضاربة الاساسية لدى الالمان ، بكل الوسائل ! وعدم تمكين اية واحدة من النفاذ الى ستالينغراد . لا تدعوهم يرفعون رؤوسهم ! اتدرى بطرب الالمان فى « المرجل » بعد ان سمعوا بان مانشتين بدأ بهجوم مضاد ؟ انهم هناك ينتظرونه ساعة بساعة ان يخرق الحصار . علينا ان نتذكر فى كل دقيقة ان مانشتين ليس مستجدا ، بل قائدا له خبرة سنين طويلة جدا ! ارجو ان يكون مهضوما لدى الجميع : اننى ارى القضاء على الدبابات المهمة الاساسية للجيش فى المرحلة الاولى من المعارك . هل هناك اسئلة ؟

ولم تكن ثمة اسئلة .

ونادى القائد على الميجور بوجيتشكو .

فتح الباب فى النصف الثانى من البيت ، حيث كانت تصوت التلفونات ، ودخل بوجيتشكو نشيطا ، وفى عينيه آثار ضحك من نكتة رويت قبل لحظة فى

تلك الغرفة . ضرب الميجور على العتبة حذاء بحداء مؤديا التحية ، وقال :

— سمعا ، ايها الرفيق القائد .

— هىء السيارة .

رافق الجميع القائد حتى باب الغرفة ، الا الجنرال باتسنكو فقد عبر العتبة الى المجاز المظلم البارد . ولم يكن وجهه يرى هنا ، الا ان رائحة الكولونيا كانت محسوسة فى الجو البارد ، وشعر بيسونوف ان رئيس اركان حربه يود ان يصافحه عند توديعه تعبيرا عن تضامنه الا انه متردد .

قال بيسونوف :

— ارجو ان نوفق . — وصافح باتسنكو مصافحة قصيرة ، وخرج الى الشارع .

كان ليل كانون الاول القاتم يخيم على القرية والسهب ، والسماء منظومة بالنجوم المتناثرة . وبينما كان بيسونوف يخطو نحو السيارة التى كانت تلوح داكنة فى الطريق سمع صفق باب وراءه ، ثم خشخشة الثلج عند مدخل البيت ، والتفت نصف التفاتة آملا ان يرى رئيس اركان حربه وقد نسى ان يقول شيئا له . الا ان

القادم كان فيسنين . تقدم من بيسونوف يخطو برجليه لطويلتين الشبيهتين برجلى البلشون ، وقال بشيء من لتلعثم :

— يا بيتر الكسندروفيتش ؟ اتأذن لى بالانضمام اليك ؟ هل لديك مانع فى ان ارافقك الى نقطة المراقبة ؟

— انا لا افهم . ان عضو المجلس الحربى غير ملزم ، على حد علمى ، بان يطلب اذنا من القائد عن المكان الذى يجب ان يكون فيه . انه حر بان يقرر بنفسه .

— انت ، يا بيتر الكسندروفيتش ، تباغتنى ، وارجو المعذرة ، بصراحتك . ماذا علىّ ان اجيبك ؟

قال بيسونوف وابتعد بفيسنين عن السيارة :

— واريد ان القى عليك سؤالا آخر ، كشيوعى لشيوعى : اذا كان احد من الناس قد نصحك ، يا فيتالى ايسايفيتش ، بان تراقب قائد الجيش الجديد ، كما تراقب الطفل الصغير ، لاسيما بعد شروعه باداء واجبه ، فان علاقتنا مهددة بالتعقيدات . سيصعب ان يتحمل احدنا الآخر . — وهنا صمت لحظة ، الا ان

فيسنين لم يقاطعه ، فتابع قوله : — واذا لم يكن ذاك فانا مستعد للاعتذار فورا على ما قلت اعلاه .

— يا بيتر الكسندروفيتش ! — قال فيسنين متأثرا حتى انه جذب نظارته ، وتطلع فى انتباه اسيف ، بعينيه القصيرتى النظر ، — شكرا على الصراحة . الا اننى اعلن بصراحة تامة ايضا : لو ان احدا من الناس حاول ان يحذرنى منك ، لارسلت هذا الاحمق الى جهنم ، وابعد منها . ولا استطيع ان اضيف اكثر من هذا .

قال بيسونوف وضحك ضحكة مقتضبة :

— اشكرك . واعذرنى على هذا الحديث .

قال فيسنين :

— بالعكس . كنت اود لو يسنح لنا وقت لحديث اطول . ولكن ليس فى السيارة .

فقال بيسونوف واعدا :

— سنتحدث فى مقر الفرقة — ثم اضاف فى الحال :

— اذا يسمح الالمان ، بالطبع .

وفتح الميجور بوجيتشكو امامهما باب السيارة .

الفصل السادس

فى الساعة الثالثة ليلا وصلت فرقة العقيد دييف ، بعد مسيرة مائتى كيلومتر ، الى المنطقة المعينة – على الضفة الشمالية لنهر ميشكوفا – ودون ان تستريح شرعت فى اتخاذ مواقع الدفاع ، والتشبث فى الارض الثلجية القوية كالحديد . الآن كان الجميع يعرفون الهدف من احتلال هذا الخط ، الذى كان بمثابة آخر حاجز امام ستالينغراد .

وفى الساعة الرابعة ليلا اشتد القصف الثقيل المترامى من معركة بعيدة كانت تسمع اصداؤها من المقدمة طوال الوقت . والى الجنوب تنوّرت السماء قليلا – شريط وردى يضغطه الظلام على الافق . وفى فترات الهدوء القصيرة فى الجانب الذى كان يقترب منه شىء مبهم غير منظور كانت تسمع على الضفة كلها صلصلة الارفاش على التربة الصخرية المرنّة ، والضربات الصماء للمعاول ، والاوامر ، وصهيل الخيول . ان كتيبتين من المشاة ، وثلاث بطاريات من فوج المدفعية ، وكتيبة منفصلة مضادة للدبابات قد قدمت الى الامام ونقلت

الى ما وراء النهر عبر الجسر الوحيد فى قرية غريغورييفسكايا ، وتشبثت فى مواقعها امام قوات الفرقة الرئيسية ، وتخندقت هناك .

اخذت بطارية الملازم دروزدوفسكى الموضوعة فى هيئة التسديد المباشر ، على مسافة قصيرة جدا خلف الحراسة الامامية ، تحفر فى الارض على ضفة النهر تماما ، وبعد ثلاث ساعات من العمل المضنى تخندقت المدافع على عمق اكثر من قدم .

كان الملازم كوزنيتسوف يتصبب عرقا بكل جسمه . وقد احس ، فى بادئ الامر ، بشعور الاستعجال المندفع . وكان الجميع مثله يحسون بهذا الاندفاع . لقد شعر كل واحد منهم ، وهو يسمع الهدير الهابد المخنوق بالمسافة ، فى الناحية التى تنور فيها شريط السماء ، بان المعركة تقترب ، وتزحف الى هذا المكان بلا هوادة ، وانه اذا لم يلحقوا ليتخندقوا ، ويتخذوا حماية من الارض ، فانهم سيظلون ، فى هذه البقعة ، على الضفة المغمورة بالثلج ، كالعراة . الا ان الارفاش لم تكن تنفذ الى التربة التى صلبتها نوبات البرد ،

فكانت ضربات المعاول وحدها تحدث التجاويف ، وتنهش الارض ، فتتطاير كسرا قوية كالصوان .

كانت ريح مُسفّة تصفر على الشاطئ ، وفى الدكنة البيضاء الكدرة تتحرك اشباح جنود المدفعية ، ومشاة الوحدة المجاورة ، وكانت دروع المدافع قد عتمت فى كل مكان .

وجعل الصقيع الذى اشتد فى الليل ، يضيّق على الانفاس ، ولم يكن الحديث ممكنا . كانت الانفاس تتردد فى بحيح ، والجمد يتكوّن فى الحال على الوجوه العرقة بطبقة متماسكة ، ويلتصق على الجفنين كالجليد ، ما ان يتوقف احد عن العمل لحظة . وكان العطش يستبد على نحو لا يقاوم ، فكانوا يكشطون من فوق الحواجز حفنات من الثلج الدقيق ، اللاذع ، الموحل من كسر التربة ، ويمضغونه ، فتتجمد الحناجر من الماء البارد جدا ، وتصطك الاسنان . ظل الملازم كوزنيتسوف يضرب الارض بالمعول ، متصببا عرقا ، ولم يستطع ان يتوقف ، ويستريح . سرت قشعريرة كالافاعى الخشنة فى جسده المبلل ، تحت قميصه الملتصق بظهره ، وكان ، كالجميع ، يبتلع الثلج ، الا ان حلقه

كان يجف ، فكان يفكر بالحاح معذّب فى ماء بئر صاف شذى ، يود لو يعب من جردل حديدى غامسا ذقنه فى برودته .

قال تشيبيسوف ملاحظا بتوجس ، وكان يرفع التراب اهوج وراء معلول كوزنيتسوف برفش كالمغرفة :

ـ انك تكثر جدا من التهام الثلج ، ايها الرفيق الملازم . اخشى ان تصيب صدرك بالبرد . الثلج خادع كليا . مظهر فقط ! ..

ـ لا ، ابدا !

وتنهد كوزنيتسوف ، ونادى على اوخانوف .

كان الرقيب الاول اوخانوف يحفر مع المسدد نيتشايف حفرات للمدافع مفحا من حنجرته ، وكان قد خلع معطفه ، واكتفى بسترته اللبادية . القى المعول ، وقفز الى مربض مدفع لم يتم حفره بعد .

ـ كيف الاحوال ، ايها الرفيق الملازم ؟ نغوص فى الكرة الارضية شيئا فشيئا ، ها ؟

كان متلاحق الانفاس ، ملتهيا بالعمل ، تفوح منه رائحة عرق قوى معافى ، ووجهه لامع مبلل .

افصح كوزنيتسوف عن رغبته :

— لطيف لو نرسل احدا الى النهر ... ليعثر على حفرة فيه ، يمتاح لنا منها انائين من مائه .

قال اوخانوف موافقا ، ماسحا العرق من خديه بكمه :

— معقول . والا فان هؤلاء الشياطين سيأكلون كل الثلج حول المرابض . فلا يبقى شيء منه نموه به ... ايها الاولاد ، من بينكم ريفى يعرف كيف يحفر الجليد من على النهر ؟ انت ، يا تشيبيسوف ؟ انزل الى الاسفل ، وخذ معك مخلا !

— اقدر ... اقدر ... والا فكيف نكون بلا ماء ونحن عند النهر ؟ دقيقة واحدة ، ايها الرفيق الملازم ، سنشرب كلنا حتى نرتوى .

قال تشيبيسوف بكلام سريع منغّم ، والتفت جميع من كانوا فى المربض الى موافقته المتلهفة .

قهقه احدهم ، وقال مرتابا :

— ولماذا تشيبيسوف ؟ انه قد يذهب فى الاتجاه المعاكس ! هل يعرف الطريق ؟

— تكلّم الثرثار الاهبل ! فكر قبل ان تتكلم !

— انا اقول بصريح العبارة : انه يتصيّد اى امر يبعده الى المؤخرة .

ومع ذلك فقد اخذ تشيبيسوف مخلا ، وتسلق الحاجز ، واتجه يحجل نحو المدفع ليأخذ انائين .

قال احدهم من جديد :

— انه رجل ريفى ماكر ، الى اقصى حد ، — وقهقه ثانية — اذا دعوته الى العمل لا يحرك شعره ، واذا دعوته الى قصعة جاء رأسه قبل رجليه !

— وما هذا التهجم ؟ انت نفسك الا تريد ان تشرب ؟ هل سرق تشيبيسوف زوجتك منك ؟ انه رجل خدوم ، ولا يؤذى ذبابة ! مجرد لغو من جنابك !

هتف اوخانوف :

— صه ، يا جماعة ! لا تمسوا لى تشيبيسوف ! وانت ، يا روبين ، خير لك ان تفكر فى الخيول ، فان هذا لك امتع ! لم تعلن فترة للتدخين بعد ! احفر ، والا فان الذين هناك سيقصعوننا كالبراغيث ! ام تريد ان اكرر ؟

وعاد الجميع الى عملهم فى المربض — مصلصلين بالارفاش ، داقين الارض المرنة بمعاولهم برتابة كامدة .

رفع كوزنيتسوف معوله من الارض ، الا انه القاه فى الحال ، وطلع على الحاجز ، محدقا الى الامام فى ضوء الوهج الى يسار البيوت القليلة الداكنة للقرية الخاوية المتجمدة فى زرقة الليل القاتمة .

قال كوزنيتسوف :

— تعال ، يا اوخانوف . الا تسمع شيئا ؟

— ما هو ، يا ملازم ؟

— تسمّع ...

كان السكون الغريب ، الشبيه بسكون القبور يتمدد من الوهج بموجات واسعة لم يصدر من هناك دوى ، ولا قصف واحد لمدفع . وفى هذا السكون غير المفهوم سببه ، كانت تتضح وتعلو اكثر فاكثر اصوات الارفاش والمعاول الى الامام ، والاصوات البعيدة للمشاة فى الحراسة الامامية ، وزعيق سيارات المدفعية على المرتفعات فى الخلف — فى الضفة الاخرى حيث كانت الفرقة تأخذ مواقع الدفاع .

تكلم كوزنيتسوف :

— يبدو ان المعركة قد هدأت . اما انهم اوقفوهم او ان الالمان شقوا لهم ثغرة .

سأل اوخانوف :

— والى اليمين ؟ حدث شىء ما ايضا .

هناك ، بعيدا عند الافق ، الى يمين الوهج ، وبالضبط فوق سطوح جزء من القرية واقع على الضفة الجنوبية انشق شريط مضىء ثان فى السماء ، وتوهجت بلا صوت ، وكالومضات المستديرة ، اضواء ضاربة الى الحمراء ، منزلقة الى الاسفل ، متكئة لحظة على السحب الواطئة . ولكن هناك ايضا كان يسيطر صمت ثقيل .

قال كوزنيتسوف :

— انها تشبه الصواريخ .

وافقه اوخانوف :

— نعم ، يبدو انهم قد اخترقوا الحصار . الى اليمين . قبالتنا تماما . انهم يتقحمون طريقهم الى ستالينغراد بكل قواهم ، يا ملازم ؟ ذلك واضح . انهم يريدون ان ينتزعوا اصحابهم من الطوق ويعودوا الى اظهار قوتهم .

— يبدو ...

وقال احد وراءهم بدهشة مرحة :

— يا اخوان ، لماذا سيطر الهدوء فجأة ؟ هل يعنى ان الالمان ولّوا ؟ اضاءوا السماء ، ولكن الجو هادئ ! أيعنى انهم اقلعوا عن خرق الحصار ؟ فاهم ؟

— نعم ، « ولّوا » رأسا !

— لا ، عقبا ! ربما ، جنرالات هتلر هؤلاء شغّلوا عقولهم ، وقرروا ان يؤجلوا هجومهم فى الوقت الحاضر .

فأكمل صوت مماحك :

— سترى كيف « شغلوا عقولهم » . سيضربون ضربة تجعل ازرارك كلها تتطاير ، حتى التى فى فتحة البنطلون !

— اشتغلوا ، يا شباب ، احفروا ، اقرضوا الارض باسنانكم ! اسرعوا . هيا !

صمت كوزنيتسوف واوخانوف ، وهما يصغيان الى حديث الجنود وراء هم ، والانفاس المتلاحقة . كانت اشفار المعاول المثلومة تنزل بصوت مرن كالسندان على الارض الصلدة كالحديد ، التى كان يزحف عليها هذا السكون الجهم الرهيب . سأل اوخانوف مفكرا :

— هل هم بعيدون ؟ كم ، يا ملازم ؟ ساعة ؟ ساعتان ؟ ها ؟

— ومن يدرى ؟

اجاب كوزنيتسوف ،وانزل ياقة معطفه التى حكت رقبته المبللة . لم تكن القشعريرة قد انتهت . كانت تثلج ظهره مثل خيوط ثلج متشابكة ، وكان فمه ، كما كان من قبل ، جافا حارا . واكمل قوله :

— ضرورى ان نتخندق ، كالمسعورين . لا فرق ، سواء اكانت ساعة او ساعتان ! لا فرق !

وعادا الى صمتهما . وملأ الصمت السهب كاسحا وكأنه شىء له وزن محسوس ، وراح يزحف مشؤوما على البطارية من التوهجين الضاغطين فى ظلام الليل . وبالتدريج اخذت اصوات الجنود فى المواقع تخفت وتتقطع ، وتهمد : لقد اصبح الجميع يرزحون تحت هذا الصمت ...

قال اوخانوف ، ونظر الى كوزنيتسوف ، ولفّ سترته اللبادية على بدنه بضيق :

— اود ان افعل شيئا آخر ... ان ازهق روح رئيس رقبائنا والطباخ بيدى . اين الطعام ؟ لو تأخر واحد من

طقمنا يوما لقدم الى محكمة عسكرية ، واعتبر هاربا !
اما رؤساء الرقباء والطباخون فالحبل على غاربهم ! —
ونزل اوخانوف الى مربض المدفع ، حيث كان الجنود
يقرضون الارض بمعاولهم فى الظلام مبحوحين متنهدين ،
ملقين كتل الارض على الحاجز .

وجاء صوت اوخانوف من الاسفل :

— عمل الجندى ، يا اخوان ، مثل العجلة لا اول
له ولا آخر . اديروا العجلة ، يا اخوان ، وسنبلغ
الجنة .

وصل المطبخ فى الساعة الخامسة ليلا ، حين كان
رجال البطارية جميعهم يحفرون المخابئ فى الضفة
الشديدة الانحدار ، بعد ان اتعبهم تماما حفر المرابض .

نصب مطبخ الميدان على الطبقة الجليدية التى
تغطى النهر ناشرا فى الجو رائحة دافئة لحساء من الحمص
المركّز . وكان الجمر الصغير ما يزال يومض احمر
وديعا تحت القدر المفتوح الذى يتصاعد منه البخار .
وكانت المغرفة ترن وهى تلتطم بالقدر . وكان جنود
الطقوم يتجمهرون حول المطبخ فى كتلة واحدة داكنة

على الجليد ، بعد ان احاطوا بالطباخ المشغول بمغرفته .
وارتفعت اصوات الجنود متحدثة ، متذمرة ، وقد
حمستها الفودكا .

— مرة اخرى حساء الحمص البوريه ، يا ويلى !
لا يستطيع ان يبتكر شيئا آخر !

— صب ، صب ، يا اخى ! ما لك ؟ تذكرت
زوجتك ! يا اخوان لماذا جميع الطباخين بخلاء ؟

— انك تخنقنا بالحمص ! الا تعرف ما يمكن ان
يحصل للناس من الحمص ؟

— فى المشاريع المضرة يجب تقديم الحليب لغسل
البطن .

— اللسان بدون عظم ، وتكلّم حسب ما تريد ...
يجب ان تحكّم عقلك ... حليب — صاح الطباخ عالى
الصوت : — ما هذا التوبيخ ؟ هل انا بقرة لاحلب حليبا ؟

وتنفس كوزنيتسوف رائحة حساء محروق مع الطراوة
الصقيعية النقية لجليد النهر ، فاحس بغثيان . فانحرف
مبتعدا عن المطبخ ، فى ظلام انحدار عال ، متعثرا
بالارفاش والمعاول المتناثرة على الضفة . وبعد قليل لمع
امامه شق ضوء عمودى ، وترامى من هناك حديث ،

وضحك . تلمس بيده ، وازاح سدالا من المشمع ، ودخل مغمورا برائحة طين رطب ، ونفس الطعام .

فى الخندق المحفور بعمق قامة انسان ، كان يشتعل ظرف مقذوفة عبئ بالبنزين ، وضع فى قعر جردل ، وكان الظرف يهس هسيسا مرسلا لهبا ابيض . وكانت قصعات الحساء يتصاعد منها البخار ، وهى موضوعة على مشمع مفروش ، وقد صفت على مقربة منها اقداح الفودكا . وكان الملازم دافلاتيان ، والرقيب نيتشايف مضطجعين ورأساهما الى النار ، بينما جلست زويا مديرة الى النار جنبها ، مسندة حنكها على ركبتها ، تقضم البقسماط .

— كوزنيتسوف ! .. اخيرا !

صاح دافلاتيان وقد تورد وجهه من الاكل . وكان يبدو وكأنه قد نحف ، بعد عمل الليلة المرهق . وكانت عيناه تلمعان وكذلك انفه الصغير الحاد ، مثل فأر ينظر فى النار . وقال دافلاتيان :

— اين اختفيت ؟ اجلس معنا ! هذه قصعتك . جاء بها رقيبك العطوف تشيبيسوف !

— شكرا .

اجاب كوزنيتسوف ، وعدّل ياقته ، وتمدد بنصف جسمه قرب دافلاتيان الذى افسح له مكانا . وكان النظر فى اللهب الابيض المتطاير المبعوث من احتراق البنزين ما يزال متعبا لعينيه بعد الظلمة . قال كوزنيتسوف :

— اى قدح غير مشغول ؟

— اى قدح تشاء — قال نيتشايف ، وغمز بعينه لزويا بمكر ، واكمل : — الجميع اصحاء اطهار .

عرض دافلاتيان عليه قدحه قائلا :

— هذا قدحى ، يا كوزنيتسوف !

ونظر الى زويا ايضا ، وقدم له قدحا مملوءا بالفودكا باصابعه الدقيقة الملطخة بالتراب ، وقال :

— انا لا احب ان اشرب الآن . ثم انها فودكا مخلوطة حتما ، فان لها رائحة شىء غير طيب . بل وحتى رائحة كيروسين ، كما يبدو .

قال نيتشايف ورفت ابتسامة مبتسرة تحت شاربيه :

— بالضبط . خليط . ماء مع كولونيا مخلوطة . للفتيات فقط .

رشف كوزنيتسوف رشفة من القدح ، محاولا ان يتغلب على رجفة يده ، وتحسس رائحة الفودكا ، الا

انه فكر ، مغالبا نفسه ، بان القشعريرة ستزايله ، وان دفئا مريحا سيسرى فى بدنه من الفودكا ، وقال بصوت متوتر :

— اذن ... اشرب ، الموت للمحتلين الالمان !

وضغط على نفسه ، وشرب المشروب المحرق الشبيه طعمه بطعم عرق غير نقى وحديد صدئ ، وغصّ به . كان يكره الفودكا ، ولم يستطع قط ان يتعود عليها ، على هذه التى تقدم كل يوم مع الطعام للمحاربين فى الجبهة . هتف دافلاتيان :

— حثالة فظيعة ! لا يمكن شربها ! انتحار ! لقد قلت لك ...

قال نيتشايف ضاحكا بتهكم ، مقربا قصعة كوزنيتسوف :

— تمزز بالحساء المخثر ، ايها الرفيق الملازم . هذا يحصل . لا تناسب الحنجرة .

— يبدو .

اجاب كوزنيتسوف بصوت لا يكاد يسمع . الا انه لم يمس القصعة . تناول من على المشمع بقسماطة جودار ، واسند ظهره الى الحائط ، واخذ يمضغ .

ثم راح ينظر ، وهو فى الظل ، الى زويا ، الى وجهها المائل المضاء فى لهب البتزين ، ويجهد ذاكرته اجهادا غريبا ليبحث فى خطى حاجبيها الطويلين ، وفى عينيها المسبلتين ، عن شىء لا يمسك ، مألوف ومعهود من قبل ، وكأنما قد رآه بالفعل فى الماضى ، قد رآها ، هى ، زويا ، فى سكون دافئ بعيد عن الحقيقة ، فى ساعات نزول الثلج فى المساء وراء النافذة ، فى بيت مدفأ بشكل مريح ، وراء طاولة عليها خوان ابيض نظيف يفرش فى الاعياد ، وعلى المفرش البوم عائلى مفتوح ، ووجوه حبيبة مضاءة بضوء مصباح طاولة ، والى الخلف ، وراء دائرة الضوء ، سدفة مخملية لغرفة فيها رائحة ارضية مغسولة ، ومرآة مستطيلة لشكل قديمة داكنة ، وكرات نيكلية تلمع فى اعماق هذه الظلمة الغامضة ، فى الظهر العالى لسرير من طراز قديم . الا ان هذا السرير النيكلى ، وهذه المرآة القديمة كانا ، فى الواقع ، فى شقة فى شارع بياتنيتسكايا فى موسكو ، فكان يستطيع ان يرى بوضوح شديد ، وهدوء وغبطة امه فقط او اخته ، ولم يستطع ان يرى قط فى تلك الغرفة وجه زويا المائل وراء الطاولة الى جانب اخته

وامه ، على مقربة من المرآة المترفة المضحكة المصفرة من تقادم الدهر عليها ، المفخرة الوحيدة لامه ، والتذكار عن ابيه ، — فقد اشتراها فى يوم الزفاف ، مغتبطا للغاية بهديته الضخمة ...

سمع كوزنيتسوف صوت زويا :

— يبدو انك نائم ، ايها الرفيق الملازم . شىء غريب حين يصمت شخص واحد ، مثل الصاحى بين السكارى . ليست لك شهية ؟

قال كوزنيتسوف دون ان يتحرك من موضعه فى الظل ، وظهره الى الحائط .

— انا لست نائما . اتمتع فى الدفء فقط .

والحق انه بعد ان شرب الفودكا اخذ يتمتع بدفء المخبأ الهنيئ ، وباحتباس هوائه الرطب ، وبالضوء الحى لمصباح مرتجل ، وباصوات الحاضرين ، وبالظلال الغريبة الاشكال على الحيطان الرطبة . زايلته رعشة القشعريرة الداخلية . وكانت اوصاله ، العرقة من العمل بالمعولة ، قد تجمدت كثيرا فى خفق الريح على ضفة النهر ، وما تزال خطوط زلقة من البرودة تلتصق بدفتى كتفيه ، ولكنه لم يرد ان يغيّر وضعه ، فلم تكن

له قوة على ذلك . وفكر بغير وضوح وهو ينظر الى زويا :

« كانت فى الحصار عند خاركوف ؟ اشتركت فى القتال ؟ اى وجه مذهل لها ؛ وهى ، بشكل عام ، غير جميلة . عيناها فقط . وتعبير وجهها يتغيّر . ولكنها تروق لنيتشايف ، ولاوخانوف ، ولى ... اية علاقة لها بدروزدوفسكى ؟ كل شىء غريب ... »

قطع دافلاتيان عليه تدفق افكاره الهادئ بقوله :

— اسمع ، يا كوزنيتسوف ! لماذا لا تأكل ؟ فالحساء قد برد !

ارتفع وراء ستارة المخبأ صوت متأمر عالى النبرة :

— من قال : الحساء قد برد ؟ الحساء كالنار ! هل ممكن ان ادخل ؟

قال اوخانوف من الخارج :

— تعال ، تعال ، يا رئيس الرقباء ! خش !

تحركت اقدام ثقيلة عند المدخل مدحرجة كتل الطين المدمدمة الى الاسفل ، وتلمس شخص الستارة حتى اذا وجد شقها ازاحها ناحية ، واطل من شق المشمع رأس سكوريك ، بوجهه المنتفخ الملفوح بالصقيع . سأل كوزنيتسوف

— هل اضعت طريقك ، يا رئيس الرقباء ؟ ماذا تريد ؟

وقد تذكر من هيئة قبعته الجديدة الممالة الى حاجبه وحدها تأخر وصوله .

— انت صارم جدا ، ايها الرفيق الملازم . حتى يمكن القول انك اكثر صرامة من آمر البطارية نفسه — قال رئيس الرقباء بلمز يناسب مقامه الذى لا يمس ، واضاف : — هذا ! تسلّم الجراية الاضافية . وآمر البطارية يأمرك والملازم دافلاتيان بالذهاب اليه ... وكذلك الممرضة . انا قادم من عنده ...

— ضع الجراية الاضافية هنا ، وانصرف !

— لا استطيع ان اترك كيس المتاع هنا . فما تتركه لن تجد له اثرا فيما بعد . كما ان من المستحيل ان تجد كيسا آخر بلا صاحب .

— ادخل بسرعة ، وافرغ كيسك !

اندس رئيس الرقباء فى المخبأ ، جالبا معه هبّة برد ، ووضع كيس المتاع على المشمع المفروش ، واخذ يخرج ، بوقار مفرط ، بقسماطا ، وزبدة ، وسكرا ، وعلب تبغ — انها ثروة حقيقية لم يكن كوزنيتسوف

فى تلك اللحظة مكترثا لها . فقد كان يحس بشبع خادع بعد احتساء الفودكا ، واكل البقسماطة .

وقال رئيس الرقباء مذكرا :

— هذه الجراية لاثنين : لك وللملازم دافلاتيان .

امره كوزنيتسوف قائلا :

— اذهب ، وسنتصرف على نحوما . ام تريد ان تقول شيئا آخر ؟

— فاهم مفهوم ...

ولفّ الكيس ضاغطا اياه على صدره بقوة . وغادر المخبأ متقهقرا ، بعد ان وتّر رقبته ، والقى فى اللحظة الاخيرة نظرة حادة مستنكرة على زويا التى كانت صامتة منذ دخوله ، وسحب الستارة بغيظ معبّرا بذلك تعبيرا متقنا غير موارب عن استيائه من وجود زويا فى المخبأ . وبعد ذلك سمع صوت اوخانوف مرة اخرى قرب المخبأ :

— اوه ، واحبك جدا ، يا رئيس الرقباء ! لا اعرف لماذا انا متيّم بك ، يا ابانا وامين تموين . انا احترمك لدقة مواعيدك وعطفك على البطارية .

زعق رئيس الرقباء جهير الصوت وراء الستارة :

— لماذا تهذر ، يا رقيب اول ؟ كيف تتحدث ؟ ولماذا تبتسم ؟ انهض ، كما يجب !

ضحك اوخانوف قائلا:

— على مهلك ، يا رئيس الرقباء ، على مهلك ! لماذا بهذا الصوت العالى ؟ اين انهض ، كما يجب ؟

— امراء الفصائل حللوا لامراء الصغار ، ولا يوجد اى نظام ! سأعرف شغلى معك ، يا رقيب اول ! — صاح رئيس الرقباء فى الخارج متوعدا ، حاكما بذلك لا على اوخانوف وحده ، بل وشاملا معه كلا الملازمين اللذين لا بد انهما كانا يسمعانه فى المخبأ . ومضى يقول : ستجدون الحديدة حامية ... انا غلبت من اقوى منك ! لن اسمح بالتسيب والتحلل فى البطارية ! ..

فنصحه اوخانوف منشرح المزاج :

— فقط لا تزعق ، والا تلقيت منى ما لا يحمد ، جزاء على رعايتك الابوية ، يا رئيس الرقباء ... اكتف ، يا عزيزنا ، يا ذهب ، بتدريب الطباخين على التمارين العسكرية : انهم يفهمون بسرعة . هذا كل شىء .

بعد دقيقة دخل اوخانوف المخبأ ، وكان هادئا لا يكاد يبدو عليه انه انفعل . خلع قفازيه الملطخين

بالطين ، واخذ يفرك يديه فوق النار ، مجيلا فى الجميع عينيه الجسورتين اللتين كانتا تبدوان ممانعتين دائما . وكانت سنه الامامية الفولاذية التى كانت تلمع لمعانا باردا حين كان يتكلم او يبتسم هى التى تضفى عليه بشكل خاص تعبير الجسارة هذا .

ابلغ اوخانوف الملازم كوزنيتسوف بشكل عارض :

— الاعمال على وشك ان تنتهى ، يا ملازم . ما هى الا ساعتان لا اكثر . ما هذا ؟ الفطور والغداء والعشاء دفعة واحدة ؟ شىء رائع ! اذا كنتم تظنون اننى شبعان فهذا ضلال مبين . اين قصعتى الهائلة ، يا نيتشايف ؟

وفى الحال صار المخبأ اكثر اكتظاظا بجسم اوخانوف الكبير القوى ، وبصوته ، وبظله العريض الذى ظلل نصف الحائط ، وبرائحة الجمد المرة قليلا ، التى يتشبع بها كل خيط فى معطفه . فانه لم يذق الدفء منذ بداية العمل . صبّ نيتشايف الفودكا من القصعة الى القدح بكرم قائلا :

— المهم ان مدفئات الجبهة قد بردت ، يا رقيب اول . انتظرنا طويلا .

قالت زويا ، وهى تشد كلاليب فروتها :

— انا ذاهبة ، يا صغارى الاحباء .

جلس اوخانوف بالقرب منها ، فى وضع اروح امام الطعام ، على المشمع ، وقال لها :

— اذن ، يا زويا ... ابصقى على الجميع ، وانضمى الى طقمى . اعدك شخصيا باننى لن ادع احدا يمسّك باساءة . رجالنا محتملون . سنحفر لك مخبأ خاصا .

قال كوزنيتسوف :

— انا لا اعارض .

ونهض فى اللحظة ذاتها . ولم يعرف كيف قال ذلك ، وكيف افلتت هذه الجملة من لسانه . ولكى يخفف الحرج امام زويا ، اخذ ينزل ويعدّل قراب مسدسه المعلق فى حزامه ، وسأل :

— أذاهبة انت الى آمر البطارية ، يا زويا ؟

نظرت الى اوخانوف وكوزنيتسوف باندهاش . وابتسمت باضطراب وقالت :

— ممن تريدان ان تحمياني ؟ من الالمان ؟ انا قادرة على حماية نفسى . حتى بدون سلاح . انظر اية اظافر

حادة لى ! — وخمشت يد اوخانوف باظافرها . ولم يسحب اوخانوف يده ، لدى هذا البرهان ، بل لمعت سنه الفولاذية فقط . سألته زويا :

— كيف ؟ دفاع جيد ؟

قال اوخانوف :

— الاظافر للطلى بالمانيكور . وماذا تستطيعين ان تفعلى بها ؟

— سوف ترى !

قال نيتشايف متحببا ، وكان بادى الكدر بعد قدوم اوخانوف :

— آه ، يا زويتشكا * ، انت عظيمة الشجاعة . وما هى اظافرك ، اذا نوى شخص لك سوءا ؟ هل ستخمشين ؟ تعضين ؟ سيبدو ذلك مضحكا !

— مرة اخرى ؟ — قال دافلاتيان كمن فقد كل صبر — مرة اخرى تعودون الى هذا الهراء ؟ لا تطيقه الاذن مطلقا ! زويا ، ارجوك ...

ورفع الستارة المسبلة على مدخل المخبأ ، وترك زويا تخرج فى المقدمة .

---

* صيغة التحبب لـ « زويا » .

الفصل السابع

وطلعوا الى الليل الممتلئ بطرقات المعاول والارفاش ، والخشخشة الرذاذية للتراب المقذوف . وكان مطبخ الميدان ما يزال منصوبا على الجليد ، تحت الشاطئ الهادى ، الا ان النار قد خمدت فيه ، وكفت مغرفة الطباخ عن ارسال صوت . وخلا المكان من كل انسان . بينما كان الحصان الذى ارعشه طول الوقوف يرفع رجلا ويضع أخرى ، ويأكل من العليجة .

كانت السماء فوق المنحدر مضاءة بحمرة الوهج . وكانت حوافى الكثبان الثلجية مطرزة بألق أبيض . ومرة أخرى أحس كوزنيتسوف بالذهول أمام هذا السكون المخيم فوق السهب ، والممتد عميقا فى الليل ، وأمام ذلك الركود الغامض فى جانب الالمان . اعتصم كوزنيتسوف بالصمت ، وكذلك دافلاتيان ، وزويا . وكان يسمع تكسر الجليد تحت احذيتهم بخشخشة خفيفة .

وفكر كوزنيتسوف مع نفسه « يعنى وزويا ايضا أمرت بالحضور الى آمر البطارية » — وكان يعرف واجبات زويا المنفصلة فى البطارية بصفتها ممرضة ،

ووضعها المستقل الذى يسمح لها فى ان تصاحب اية فصيلة ، وغمه ذهابها الآن مذعنة ، رغم كل ذلك ، الى مخبأ درزدوفسكى الذى بدا له انه يملك عليها حقا معينا فى الاذعان له .

قال كوزنيتسوف وقد عيل صبره :

— اذن ، فقد كنت تمزحين ، يا زويا ، عندما قلت ذات مرة أنك متزوجة ؟

وكانوا قد صعدوا على الجليد حتى ظلمة المنخفض المزهر بلون الثلج الازرق ، وساروا متقاربين فى الدرب الذى داسته احذية الجنود بمحاذاة سفح المنحدر .

— لا ، بجد ! لم اكن امزح ...

وقد تهدج صوتها فى الجملة الاولى ، وكأنما وضعت قدمها على منحدر الشاطئ الزلق ، ثم عادت اليها صلابتها فى الجملة الثانية .

قال دافلاتيان ملتزماً جانب الحق :

— وما الداعى الى خداعنا ؟ لا ، على الاطلاق ! — ثم تأخر عن زويا ، وهتف قائلا : — انظر ، يا كوزنيتسوف . ان هذا النهر هنا ، مثل حفرة مضادة للدبابات . شىء رائع ! اذا ما نفذت الدبابات فانها

ستنحصر حالا . ان المدافع كثيرة هنا ، ولن يتجاسر الالمان على السير عبر الجليد . لن يتحملها ! فى أية جهة ستالينغراد ؟ الى الشمال ؟

قال كوزنيتسوف :

ـ على بعد حوالى ٤٥ كيلومترا الى الشمال الشرقى . اذا نفذوا الى تلك الضفة ، فان ذلك سيكون بعيدا جدا ... لا اود ان يحدث ذلك !

توقفت زويا . وفى الظل غشى معطفها الفرائى الابيض ووجهها نقاب الثلج الازرق على المنحدر الصبب . غير ان عينيها بدتا أكثر اسودادا ، وقد رفعتهما الى خط الوهج المتألق فوق الشاطئ .

ـ اذا نفذوا ـ كررت زويا القول ، وبعد ان انتظرت دافلاتيان ليلحق بها ، سألت دون أية صلة منطقية لما قيل فى بداية الحديث : ـ وانت ، يا دفلاتيان الا تخاف الموت مطلقا ؟

ـ ولماذا على أن اخاف الموت ؟

ـ ان لك خطيبة . واظن انك تشبه خطيبتك . هل هى لطيفة مثلك ! قطيطة لطيفة ؟ صحيح ؟

اندفع دافلاتيان ليقول :

ـ لا اهمية لذلك ! على الاطلاق ... ولماذا تقولين اننى لطيف ؟ انا لست لطيفا مطلقا ... ثم ما علاقة القطيطة هنا ؟ أنا لا احب القطط . ولم تكن فى بيتنا قطط ، فى وقت من الاوقات .

ـ أين كنت تعيش ؟ فى ارمينيا ؟ هل قضيت المدرسة هناك ؟

ـ قضيت المدرسة فى سفردلوفسك . ان أبى ارمنى ، وأمى روسية . ولم اكن فى ارمينيا قط ، مع الاسف . بل لا اعرف اللغة الارمنية .

قطع كوزنيتسوف الحديث بقوله :

ـ يبدو أننا وصلنا . هل تشمان رائحة دخان ؟ يبدو أن عندهم موقدا . من أين لهم الموقد ؟

ـ قف ، من القادم ؟ أهى الممرضة ؟

هتف المناوب كسولا فى نقطة وراء اكوام التراب ، ثم لاح شبحه ملفوفا فى الظلمة على بعد ثلاث خطوات . أجاب كوزنيتسوف :

ـ آمرا الفصيلتين ، والممرضة . هل آمر البطارية هنا ؟

— فى الانتظار. تقدموا، من هنا. هذا هو الباب.

كان المخبأ قد حفر كليا . وقد غرزت الارفاش فى أكوام التراب ، وطرحت المعاول . وبرز من الحائط الى جانب الباب الخشبى كوع معوج لمدخنة من تنك ، ناشرا على المنحدر ، فى الجو الصقيعى ، دخانا بيتيا مضواعا دافئا . ان كل هذه المتعة كانت ، كما يبدو ، من مكاسب رجال الاستطلاع الاتصال فى القرية .

فكر كوزنيتسوف مندهشا : « نعم . وحتى موقد » .

صرف الباب الصغير صريف الابواب فى البيوت الريفية ، ودخلوا فى ملجأ رحب جدا ، بعلو القامة ، مشبع برطوبة ثقيلة ، وبرائحة حديد حام (كان الموقد فى الركن متقدا الى حد الاحمرار) ومزود بمصباح كيروسين كبير ، ومضاجع ترابية فرشت بالقش على نحو مريح ، وطاولة ترابية مغطاة بمشمع . وكل ذلك كان يبدو مريحا بشكل لا تألفه الجبهة . وفى الركن الى جانب الموقد ، كان جندى الاتصال يضع جهاز الاتصال على صندوق من صناديق الذخيرة ، وراح ينفخ فى السماعة .

كان الملازم درزدوفسكى يجلس الى الطاولة محاطاً بثلاثة من رجال الاستطلاع ، منكبا على خارطة . كانت ازرار معطفه محلولة ، وشعره الفاتح اللون ، الأبيض تقريبا مصفوفا باتقان ، وكأنما غب استحمام ، ووجهه الجميل المضاء بالمصباح صارما . وكانت ظلال رموشه الطويلة الكثيفة غير الرجالية تسقط على عينيه المحدقتين بالخارطة .

— آمر الفصيلة الاولى قد حضر ، بناء على أمركم .

قال كوزنيتسوف مبلغا الآمر ، محافظا على اللهجة الرسمية التى عزم ، بعد المسيرة ، ان يتحدث بها مع درزدوفسكى . فان ذلك كان اوضح لكليهما وابسط .

وهتف دافلاتيان بصوت فرح :

— آمر الفصيلة الثانية بزغ ، بناء على امركم .

الا أنه أخذ يضحك وقد أذهله ترف الملجأ ، وقال :

— كأنكم فى قصر ، ايها الرفيق الملازم . ان هذا يسع بطارية كاملة !

قال أحد رجال الاستطلاع :

— كان هنا مقلع حجارة كالكهف ... استفدنا من ذلك فوسعناه قليلا .

قال درزدوفسكى ، وقد رفع من الخارطة عينين زرقاوين شفافتين ، مثل قطعتين من الجليد الصافى :

ـ اولا : ان الشيطان وحده يبزغ من العالم الآخر ، يا ملازم دافلاتيان . امراء الوحدات يحضرون بأمر . وثانيا ـ وهنا صعد بصره بكوزنيتسوف من قدمه حتى رأسه ، وحتى دون ان يلقى نظرة عابرة على زويا التى اتخذت مجلسها عند الموقد ، وكأنها لم تكن فى الملجأ : ثانيا ، قبل نصف ساعة طفت فى المرابض ، ورأيت ممرات الاتصال بين المدافع لم تشق كما يجب . فلماذا ارسلت جميع الجنود لحفر الملاجئ ؟ انت لن ترى الدبابات من الملاجئ . ربما اوخانوف هو الذى يترأس الفصيلة ، لا انت ؟

فاعترض كوزنيتسوف قائلا :

ـ الملاجئ ضرورية ايضا . وبالمناسبة فى وسع اوخانوف ايضا أن يقود الفصيلة . انه ليس اسوأ من الآخرين . فقد أنهى المدرسة العسكرية معنا . سوى أنه لم يحصل على رتبة . اضاف درزدوفسكى :

ـ من حسن الحظ أنه لم يحصل . أنا اعرف ، يا كوزنيتسوف ، اعرف كيف رفعت الكلفة فى علاقاتك مع الرقيب الاول اوخانوف !

ـ باى معنى ؟

خلعت زويا قبعتها ، وهى جالسة قرب الموقد الذى كان يرسل شرراً على الحديد ، وهزت شعرها ـ فتناثر على ياقة المعطف البيضاء ـ وابتسمت صامتة إلى جندى الاتصال الذى كان يتفحصها ، فأسرع هذا ليبتسم لها ابتسامة أعرض . وركز درزدوفسكى انتباهه على زويا لثانية واحدة دون أن يغير التعبير على وجهه الصارم . وكرر :

ـ انا عارف كل شىء ، يا ملازم كوزنيتسوف .

ـ وما علاقة رفع الكلفة هنا ؟ ـ قال ذلك دافلاتيان ، ورفع كتفيه ، وازداد أنفه الحاد حدة ، وكأنه يتحارش بدرزدوفسكى ـ اعذرنى ، يا آمر البطارية . انا مثلاً ، سأكون سعيدا لو كان فى فصيلتى آمر مدفع مثله . ثم اننا جميعا من مدرسة واحدة ، على أية حال .

غضن درزدوفسكى جبينه ، معبرا بذلك عن عدم رغبته فى الاستماع الى دافلاتيان الآن ، وقال دون ان يدعه يكمل :

— سنتحدث فى وقت آخر عن اوخانوف . ارجو ان تتقدما من الطاولة ، وتخرجا الخرائط .

فكر كوزنيتسوف : « هناك شىء جديد ، اذن . شىء ما اصبح معروفا » .

تقدما من الطاولة ، واخرجا خريطتين من محفظتيهما ، ونشراهما على الطاولة تحت الضوء غير المتساوى لمصباح الكيروسين . وساد صمت . وأحس كوزنيتسوف ، وهو ينظر فى الخارطة ، بحرارة الزجاج الساخن على صدغه ، ورأى درزدوفسكى عن كثب بوضوح غير معتاد ، وبدقة ، وكما لم يره من قبل : اضمامة شفتيه العنيدة المعتدة ، وزغب الصبا الناعم على خديه ، وأذنيه الصغيرتين ، والبؤرتين اللماعتين فى حدقتى عينيه الصلبتين ، والعينان شفافتان تجذبان المرء بالحاح وغرابة الى التمعن فى زرقتهما الشبيهة بزرقة البحيرات ، النقية نقاء العذارى .

وتكلم درزدوفسكى بوضوح :

— قبل ساعة تلفنوا لى من نقطة قيادة الفوج . ان الوضع أمامنا ، كما هو معروف ، غير ثابت على الاطلاق . ومن المرجح أن الالمان قد اخترقوا ، كما

فهمت ، فى منطقة الطريق العامة ، هنا على يمين القرية الى ستالينغراد — واشار الى نقطة على الخارطة . كانت يداه العصبيتان غير مغسولتين غسلا جيدا ، وعلى الاظافر الضيقة تقرحات صبيانية وأضاف :

— الا انه لا توجد معلومات دقيقة حتى الآن . قبل اربع ساعات ارسل رجال استطلاع من فرقة المشاة . أهذا واضح ؟

— تقريبا .

اجاب كوزنيتسوف بذلك دون أن يصرف بصره عن التقرحات على أصابع درزدوفسكى .

قال درزدوفسكى :

— تقريبا هذه ، يا ملازم ، زركشة ، اذا اردت ان تعرف ، من شعر تيوتشيف * ... وذاك الشاعر الآخر ... فيت * . اسمعا بقية الحديث . فى آخر الليل ، سيعود رجال الاستطلاع ، اذا سار كل شىء على ما يرام . والجسر سيكون نقطة طلوعها . هنا ، على

---

* شاعران روسيان غنائيان شهيران . (النصف الثانى للقرن ١٩) المعرب .

هذا الوادى ، شرق القرية . أى فى منطقة بطاريتنا . انبهكما الى أن تراقبا ، ولا تطلقا النار على هذه المنطقة ، حتى ولو بدأ الالمان بالاطلاق . والآن ، هل كل شىء مفهوم ؟

قال دافلاتيان بصوت كالهمس :

— نعم .

واجاب كوزنيتسوف :

— كل شىء . سؤال واحد فقط : كيف يمكن للألمان ان يطلقوا النار ، وهم ما زالوا غير موجودين فى القرية الى الامام ؟

صبت عينا درزدوفسكى برودة زرقاء فيه . — ليسوا موجودين الآن ، ولكن ليس من المستبعد وجودهم بعد خمس دقائق . أهذا واضح ، يا كوزنيتسوف ؟ ام مايزال غير واضح ؟

كان درزدوفسكى يتكلم بتشكك ، وكأنما كان يريد أن يقدر ما اذا كان سؤال كوزنيتسوف معارضة لأمره ، أم مجرد استيضاح طبيعى .

قال كوزنيتسوف ، وطوى الخارطة :

— الآن ، نعم .

— وانت ، دافلاتيان ؟

— واضح كليا ، ايها الرفيق آمر البطارية .

قال درزدوفسكى ، وقد رفع هامته وراء الطاولة :

— يمكنكما ان تنصرفا. سأتى الى البطارية بعد ساعة ، لأتأكد من كل شىء .

خرج آمرا الفصيلتين . تبادل النظرات ثلاثة من رجال الاستطلاع كانوا واقفين قرب الطاولة ، وادركوا ، وكأنما قد تحسسوا بعلبائهم وجود زويا هنا ، انهم زائدون الآن فى الملجأ ، وان عليهم ان يذهبوا الى نقطة المراقبة . الا ان درزدوفسكى ، خلافا للمعتاد ، لم يستعجلهم . وركز بصره صامتا فى نقطة غير مرئية أمام .

— اسمح لنا بالانصراف الى نقطة المراقبة ، ايها الرفيق الملازم .

— اذهبوا . انت ايضا — وأشار الى جندى الاتصال — فابلغ غولوفانوف بأن يحفر ممرات بين الخنادق بطول القامة . انصرف . لا حاجة للخفارة قرب تلفون ، ما دمت انا هنا . سأستدعيك عند الضرورة .

صر الباب ، وانفتح على الظلمة ، وترددت على الشاطئ خطوات رجال الاستطلاع والاتصال ، مبتعدة عن الملجأ ، واختفوا فى عراء الليل الصامت .

قالت زويا متنهدة :

— ما أعظم السكون الآن ! الا تسمع هسيس ذبالة المصباح ؟

اصبحا الآن وحيدين ، فى سكون الملجأ هذا ، المخنوق بسمك الارض ، وفى الموجات الدافئة للهواء المسخن بالموقد ، وفى زمزمة الذبالة المرنة فى المصباح المحمى . مضى درزدوفسكى فى تحديقته فى النقطة غير المرئية أمامه دون ان يجيبها ، وصار وجهه الشاحب الرقيق بادى الاهتمام غضوبا . ثم تحدث فجأة منتزعاً الكلمات بغير ود :

— وددت لو أعرف بم سينتهى هذا الأمر !

سألته زويا حذرة ، ودفعت رأسها الى الوراء :

— عم تتحدث ؟ أوه ، مرة أخرى ، يا فولوديا ؟

كانت تدير له جنبها ، جالسة على صندوق ذخيرة فارغ ، مادة يديها فوق الموقد المحمى الى حد الاحمرار ، واضعة راحتيها المدفأتين على خديها ، مبتسمة له فى

ظلام الملجأ برقة حذرة ، وكأنها كانت تعرف ما سيقول الآن .

— اريد أن أعرف أين كنت غائبة طوال هذا الوقت ؟ — سألها بنبرة غيورة ومطالبة فى الوقت ذاته ، نبرة رجل كان له الحق فى ان يسألها على هذا النحو ، وليس لها الحق فى الاعتراض عليه ، وعندما ردت عليه بهزة خفيفة من كتفيها قال : — نعم ، أريد .. أريدك ألا تظهرى للبطارية علاقتنا كثيرا . ولكنك تتمادين فى الأمر ! انا لا اغار عليك ابدا ، ولكن لا تعجبنى كثيرا علاقاتك بفصيلة كوزنيتسوف هذا . كان بامكانك ان تختارى فصيلة دافلاتيان ، على الاقل !

— فولوديا ...

— انا اتصور ما كان سيحدث لو أن كوزنيتسوف كان آمر البطارية ، لا انا ! اتصور جيداً ! ..

ونهض بسرعة ولدانة ، وتقدم منها ربع القامة ، مشدود الجسم كالرياضى ، مستقيما . ووضع يديه فى جيبيه ، وبحث فى وجهها المتوتر المرفوع ، وفى ابتسامتها المشوبة بالذنب ، عن الشىء الذى يجعله مضطرما بالشك . وقد فهمت هى . ألقت عن كتفيها

معطفها ، ونهضت للقائه ، ومالت اليه ، وحضنته من تحت معطفه غير المزرر ، ومررت خدها على الازرار المعدنية الباردة على صدره . اما هو فقد وقف ، دون أن يخرج يديه من جيبيه ، بينما هى تضغط خدها على صدره ، وتسمع دقات قلبه ، وتشم رائحة العرق القابضة من قميصه العسكرى . افزعها احتمال أن تكون فى شعرها رائحة دخان ، فابعدت رأسها قليلاً الى الوراء . وقالت :

— أنا وأنت متساويان . انت لم ترنى منذ ثلاث ساعات ؟ وأنا أيضا لم ارك ... ولكننا لسنا متساويين فى شىء آخر . وأنت تعرف ذلك ، يا فولوديا .

كانت تتكلم دون مقاومة ، ودون ادانة ، وتنظر بعينين رقيقتين مستسلمتين لارادته الى بياض جبهته النقى الخالى من كل تجعيد . وقد بدا لها بياض جبهته الصبوى هذا أعزل كالطفل .

— ما هو ؟ اها ، فاهم ! ... أنا لم ابتكر الحرب . ولا حيلة لى فى ذلك أيضا . أنا لا استطيع أن ابادلك العناق أمام انظار البطارية كلها ! هل تريدين أن يعرف الجميع بعلاقتنا ؟

وفك درزدوفسكى يديها عنه ، ودفعها الى الاسفل بقوة غير موزونة ، وتراجع خطوة الى الوراء بفم مزموم ، طاويا المعطف على جسمه ممتعضا . قالت زويا مندهشة :

— اى وجه ممتعض لك ! لا يروق لك ذلك ! لماذا عصرت يدى بهذه القوة ؟

— كفى ! انت تفهمين كل شىء جيدا — قال ذلك ، وراح يذرع ارض الملجأ بعصبية ودب ظله ، وتحطم على الحائط — لا يجوز أن يعرف أحد فى الفوج عن علاقتنا . ربما هذا يزعجك ، ولكننى لا اريد ولا يمكننى ذلك ! انا آمر بطارية ، ولا احب ان تدور حولى احاديث سخيفة ولا وشايات ! سيشمت بعض الناس ، اذا تهاونت . انهم ينتظرون ذلك بفارغ الصبر ! لماذا يحوم هؤلاء الصبيان حولك ؟

— انت خائف ؟ لماذا تخاف ان يساء الظن بك ؟ ولماذا لا اخاف انا ؟

— كفى ! انا لا اخاف شيئا ! ولكن انت تعرفين كيف يبدو كل هذا هنا ! تحسبين الوشاة قليلين فى البطارية ، ولا يسرهم ان يبلغوا الفوج او

الفرقة بعلاقتنا ... عظيم ! — وضحك ضحكة غير لطيفة — سيقولون : الحرب قائمة ، وهما يتقلبان على الاسرة ! حمائم ! عشيقان فى الجبهة !

— انا لا اريد ان اتقلب معك على الاسرة ، كما قلت — قالت زويا مطمئنة ، ووضعت معطفها على كتفها ، وكأنما احست بقشعريرة وكررت قوله السابق محاولة ان لا تغيظه — ولكن لا اخجل ، ولا اخاف اذا ابدى احد الناس اهتماما ، وابلغ قائد الفوج ، وقائد الفرقة بعلاقتنا ... ولكن هذا ليس هو الاهم ، يا فولوديا ... مجرد انك لا تحبنى كثيرا ، وحبك لى غريب . لا اعرف لماذا يعجبك أن تعذبنى بالتشكك . انت لا تلاحظ ، ولكن حتى حين تقبلنى تتألم . لأى شىء تنتقم منى ؟

كف درزدوفسكى عن ذرعه الملجأ ، وتوقف أمامها . وسرت خفقة ريح ، ورائحة رطبة لمعطف : وتلوت شفتاه . وتكلم بلا مهادنة :

— تعذيب ! ما هذا الذى تسمينه تعذيبا ؟ لا تضحكينى ! لأى شىء يمكن ان انتقم منك ؟ تقبيلى لك غير مريح ؟ اذن لم أتعلم ، لم يعلمونى كيف اقبل

بطريقة أخرى ! — انا لا استطيع ان اعلمك ، أليس ذلك صحيحا ؟ — قالت باستعطاف مرة أخرى ، وابتسمت له قائلة — انا نفسى لا احسنه . هل هذا هو الاهم ؟ سامحنى ، ارجوك ، فولوديا .

— هراء ! — وابتعد عنها الى الطاولة ، ومن هناك اكمل كلامه بقسوة ساخرة : — تعلمت القبل الاولى ، اذا اردت ان تعرفى ، من امرأة معتوهة حمقاء وانا فى الثالثة عشرة .

— من هى هذه المرأة ؟ — سألت زويا بهمس منطفئ واطرقت برأسها لكيلا يرى وجهها قائلة : — لم قلت ذلك ؟ من هى ؟

— غير مهم ! انها قريبة من بعيد ، عشت عندها عامين فى طشقند ، عندما صرع أبى فى اسبانيا . لم اذهب الى دار اليتامى ، بل عشت مع اقرباء لنا ، وقضيت خمسة اعوام ، كالجرو ، انام على الصناديق ، حتى تخرجت من المدرسة ! انا لن انسى ذلك ابدا !

— عندما صرع ابوك فى اسبانيا ، كانت امك متوفية ، يا فولوديا ؟

كانت تنظر الى جبهته البيضاء الناعمة ، وشعره ، بوجه متجمد ، واحساس حاد بالحب والشفقة ، مترددة فى النظر الى عينيه النفاذتين المزرورقتين .

وقال وقد رفت عيناه على زويا :

ـ نعم . فارقا الحياة ! وقد احببتهما . بينما هما ، وكأنهما غدرا بى ... أتفهمين ذلك ؟ فجأة بقيت وحيدا ، فى شقتنا فى موسكو ، حتى قدم من طشقند من يأخذنى ! وأنا أخاف أن تغدرى بى انت أيضا ، فى يوم ما ! مع صبى ارعن ! ..

ـ انت أحمق ، يا فولوديا . انا احبك . ولن اغدر بك ابدا . ها انت تعرفنى اكثر من شهر . أليس حقا ؟

ولم تكن زويا تفهمه فى لحظات تشككه غير المفسر ، ونوبات الغيرة القاسية عليها ، عندما يكونان سوية ، عندما كان لا يوجد اقل مسوغ للتحدث عن ذلك ، رغم انها كانت تحس وترى ، فى كل يوم ، وفى كل دقيقة ، علائم اهتمام رجال البطارية كلهم بها . الا انها كانت تعتبر علائم الاهتمام هذه واجبا قسريا ، وترد عليها بتطبيق اللعبة التى اختارتها للجميع ،

والتى اعتبرتها ضربا من الدفاع عن النفس . وقد يكون درزدوفسكى قد وعى ذلك ، الا ان نوبات تشككه ، رغم ذلك ، كانت تحمل شيئا من العجز ، ومن عدم الثقة الدائم بها ، وكأنما كانت مستعدة لأن تخونه مع كل رجل من رجال البطارية تبتسم له عرضا .

قال غير موافق :

ـ لا ، ليس هذا حقا ! انا لا اثق بك ! ...

وهنا ، فكرت زويا برعب فجأة ، فى انها لا تستطيع الآن ان تبرهن على شىء ، ولا ان تبرر شيئا . لم تكن تريد ، ولم تكن لها القوة ولا الرغبة على التبرير ، الا انها ، وقد توجست من اعتراضاته الحزنة ، ظلت واقفة أمامه ، متطلعة الى جبهته النقية الصافية المكشوفة ، وهى تدارى رغبة فى ان تمسدها . قالت زويا :

ـ لا ، أنا احبك . ولا يمكنك أن تتصور حتى مدى حبى . لماذا لا تثق بى ؟

خطا نحوها ، وأخرج يديه من جيبيه ، قائلا :

ـ برهنى ، برهنى على انك تحبيننى ! انت لا تريدين أن تثبتى ذلك ! ـ وضم زويا اليه من كتفيها بضراوة حنان مخبولة قائلا :

— هذا لا بد منه ! مضى شهر ونصف ! .. اثبتى انك تحبيننى !

وطوق ظهرها الطائع ، بقوة ، وصلابة ، وأخذ يقبل فاها قبلا ملهوفة خانقة ، وخارت ، مقلصة عينيها ، وكأنما تعانى الما ، وطوقته طائعة من تحت معطفه غير المزرر ، وصكت ركبتيها ، وفى الوقت ذاته حاولت ان تنتزع شفتيها من فمه الخانق .

وأبعد رأسها ، وانتزع نفسه منها . وقال بصوت مبحوح :

— سأطفئ المصباح الآن . ولن يدخل احد الى هنا ، لا تخافى ! اسمعى ، لن يدخل احد الى هنا . سنكون فى خلوة ...

قالت شهقة ، وقد اغمضت عينيها :

— لا ، لا ، لا اريد ... اعذرنى ، ارجوك ، يا فولوديا . لا حاجة لنا أن نفعل ذلك . لا يجوز لنا الآن ان نفعل ذلك ...

— لا استطيع على هذا النحو ! .. افهمى لا استطيع !

فهمست له فى صدره مقاومة صاكة على اسنانها :

— ولكننى احبك ، جدا . فقط لا حاجة الى ذلك ... والا فسيكره احدنا الآخر . أنا احبك ! .. ولا اريد أن يكره أحدنا الآخر ! ..

ومرة أخرى جذبها اليه من كتفيها جذبة قصيرة :

— لماذا ؟ لماذا ؟

— لقد قلت لك . لقد فعلنا ذلك مرة ... بعد ذلك لن يستطيع احدنا ان ينظر فى عين الآخر ، يا فولوديا . انا اتذكر كيف انقلبت سحنتك فى تلك المرة ، وأخذت تدخن ... افهمنى . ان هذا لا يجوز الآن ، يا فولوديا . ارجوك . لا استطيع الآن ، غير ممكن لى ، هل تفهم ؟ اعذرنى ، سامحنى ...

وبكت متضرعة بعينيها وصوتها ، غير عارفة سببا لانهمار الدموع ، واخذت تقبل حنكه ، ورقبته بلمسات باردة راعشة ، وكأنها تطلب منه الصفح ، وتعبر عن ذنبها .

— بلاهة ! .. سأكرهك ! تكذبين ؟ اوه ، لقد ضجرت ، ضجرت !

ونحاها فى حنق ، ولبس قبعته ، وخرج من الملجأ ، وصفق الباب بقوة ارعشت نار المصباح تحت الزجاجة .

الفصل الثامن

ارتقى الدرجات المحفورة فى المنحدر ، وعلى قمة الشاطئ ، متبرداً قليلاً بالريح الثلجية الهابة فى وجهه . وكرر بصوت مسموع من خلال اسنانه :

ـ حمقاء ، حمقاء ! بلاهة !

وأحس فى نفسه بامتعاض وكره لعجزه ، ولخوفها الاحمق ، ولرفضها ان تقترب منه قربها آنذاك ، ايام تشكيل الوحدات فى نقطة الاسعاف ، حيث كانت فى الخفارة ، واستشعر نحوها بغيظ مهين تقريبا ، ورغبة فى ان يعود اليها ، ويصفعها منتقما . ولكنه فى الوقت ذاته احتقر نفسه ، وعذبه ان يكون غير قادر على أن يضغط فى نفسه على كل شىء ، فقد كانت ليديه ولجسده ذاكرة مستقلة خاصة بها ، وكانت هذه الذاكرة ، بعد ملامساتها تلك فى نقطة الاسعاف ، وعينيها المغمضتين ، وركبتيها المرتجفتين ، والحركات الحيية لجسدها اللدن ، موافقة الآن ، لسبب ما ، على رقة مذلة له ، شرط ان تكون معه ...

« لا ، لأترك هذا ، كل شىء ! » خاطب درزدوفسكى

نفسه بذلك مقنعاً اياها ، وقد لاح فى ذاكرته فى تلك اللحظة ما كان له قدرة خاصة على ان يثير ويزيد نفوره منها بشكل لا هوادة فيه : فمها الكبير ، والذعر المرتسم على وجهها ، وصدرها الصغير للغاية ، ورمانتا ساقيها الممتلئتان بشكل مفرط ، وكأنهما قد حشرتا فى ساقى حذائها الطويل حشرا . وأراد أن يجد فيها ما يمكن أن يصرفه عنها ، بعد الذى بدا له غير قابل للمصالحة . فاسترسل مخاطبا نفسه « ماذا وجدت فيها ؟ ليتها كانت جميلة ، ولكنها عاطلة من الجمال ، لا شىء فيها ! فما هى هذه العلاقة البلهاء معها ؟ يجب أن يقطع كل شىء ، دفعة واحدة ، والى الابد ! »

ولما كان فى احتدامه فاته أن يلحظ فى الحال أن الهواء والثلج قد تنورا ، واكتسبا جفافا زمهريريا ، وسطعت نجوم كانون الأول سطوعا رائعا ، خافقة فى الاعالى الجليدية بالضوء الأخير قبيل تبلج الفجر . وعلى الأرض بدا وكأن سطوح بيوت القرية قد تقاربت ، متميزة عن الثلج بسوادها . وقد شحب الوهجان فوقها ، وشكلا نصف دائرة ، واحتلا وراء القرية الجزء الجنوبى كله من السماء .

ولاح له وكأن فى أطراف نصف الدائرة هذه ، عند الافق ، وراء الوهدة ، والمرتفعات ، تطوف أنوار ، وخفقات بروق شبيهة بلمعان مصابيح بعيدة . ثم خيل اليه فجأة ان الريح تحمل اليه من هناك مزيجا من أصوات المحركات ، وتحشرجات الدبابات ، والعجلات الجارة . فهل من المعقول أن يكون ذلك زحفا دون معركة ، ودون طلقات من جانب الجيش الالمانى الشاق طريقه الى هنا ، الى القرية ، نحو البطارية ؟ ...

وأخذ يدخن بنهم ، وعب بضع مصات ، وأرهف سمعه . كانت الريح تهب ، وتجرجر اذيالها الثلجية على الشاطئ ، وعلى مواقع البطارية ، وفى الاعلى كانت الاغصان المتجمدة لاشجار الصفصاف الجرداء تشترك فيما بينها كالأسلاك الشائكة ، وتتدلى ظلالا على حافة وهدة النهر . وفجأة وكأن أصوات المحركات ، والحركة غير المنظورة قد قطعت قطعا ، واختفت .

« ذهان » فكر مع نفسه ، وسار الى نقطة المراقبة التى هى الآن على مرتفع بارز يمينا فى الهواء الخفيف .

عندما صعد درزدوفسكى عن طريق خندق الاتصال غير العميق — الى حد الركبة الى المرتفع ، حيث ما

زالت الارفاش والمعاول تضرب الأرض ، وكأنها طيور نقار الخشب ، عادت الى وجهه امارات معالم الحزم البارد . كان رئيس الرقباء غولوفانوف وهو رجل عريض الصدر ، مديد القامة ، ينصب المنظار أمام المتراس . وعندما لاحظ درزدوفسكى ، هرع اليه ، وقال مبلغا :

— أيها الرفيق الملازم ، تلفنت لك منذ لحظة . فقالت الممرضة أنك قد خرجت ! قبل خمس دقائق وصلت سيارة قائد الفرقة الى منطقة الجسر ... ان شيئا ما يقلق ... لم يعد رجال استطلاع الفرقة حتى الآن ...

قال درزدوفسكى فى حنق :

— ولماذا تتأخر فى اخبارى ؟ لماذا لم تتلفن لى قبل خمس دقائق ؟

قال غولوفانوف بصوته الضخم :

— تلفنت . بالتأكيد . فردت على زوجتك ... ايها الرفيق الملازم ، اقصد الممرضة ...

— اخرس ، غولوفانوف ! هل فقدت عقلك ؟ أية زوجة ؟ — قاطعه درزدوفسكى بذلك ، وقد فهم تماما صراحة غولوفانوف ، وفهم لماذا كان رجال الاستطلاع الثلاثة ، كالصم ، يقذفون التراب بأرفاشهم فى الخندق

المجاور ، كآلات منصوبة ، وسأل بصوت منخفض : من ينشر الاشاعات حولى ؟ أهو انت ، يا غولوفانوف ؟ أم من ؟ على أية حال ، سأعرف ، يا رئيس الرقباء ! .. من جاء من الفرقة ؟

— ثلاث سيارات ، ايها الرفيق الملازم . عرفت فى واحدة العقيد دييف .

— يجب أن تعرف كل شىء ، اذا كنت رجل استطلاع !

أتجه درزدوفسكى نحو مواقع المدفعية بخطوات واسعة ، مارا برجال الاستطلاع المنضغطين على جدارى الخندق مع أرفاشهم ، وما تزال فى رأسه ترن « زوجتك ... زوجتك » . وفجأة فكر ، متلويا من الامتعاض ، بأن البطارية كلها ، فى الاغلب ، تتحدث الآن عن ذلك على المكشوف .

نزل درزدوفسكى من المرتفع ، وركض نحو المدافع ، التى حفرت موقعها الى يسار نقطة المراقبة ، على حدبة الشاطئ ، ولمح ، من بعيد ، ومن خلال شفافية الهواء المتبلجة ، ثلاث سيارات ، وعلى بعد ثلاثمائة متر منها ، فريقاً من الرجال متجمعين فى موقع

المدفع الاول . كان الجنود الذين يحفرون بمعاولهم خنادق الاتصال بين مواقع المدفعية ، ينظرون الى هناك ، وكان أحدهم — وهو صغير الجسم فى معطف قصير ضيق وبطانة قلنسوة مبللة تحت أنفه — وهو تشيبيسوف ، قد حول وجهه الصغير المثلث غير الحليق ، الشبيه بوجه وحش صغير متعب ، الى درزدوفسكى الذى مر راكضا ، وأبلغه :

— ايها الرفيق الملازم ، ان العقيد ، والجنرال العام هناك ، انه صاحب العصا ... ينتظران شيئا . يبدو أن المعركة بادية !

قال درزدوفسكى :

— بطانة قلنسوتك ... مبللة تماما ! اصلح هندامك ... منظرك مخجل ، مثل دجاجة مبللة . أين كوزنيتسوف ؟ أين دافلاتيان ؟

تمتم تشيبيسوف ناشقا بانفه :

— الجميع هناك .

فحص درزدوفسكى ازرار معطفه بتمرير أصابعه عليها ، على عادته ، وركض الى موقع المدفع الاول ، ورفع يده الى صدغه بالتحية باحثا عن صاحب ارفع

رتبة بين فريق القواد هذا ، وعرف من بين رجال لا يعرفهم ، العقيد دييف ، وقائد الجيش الجنرال بيسونوف. وتكلم كاتما أنفاسه :

ـ ايها الرفيق الجنرال ، انا آمر البطارية الاولى الملازم درزدوفسكى ! ..

التفت بيسونوف ، وكان يرتدى فروة لا تحمل شارات الرتبة ، ربع القامة نحيل العود ، لا تدل هيئته الاعتيادية ابداً على انه جنرال ، ونفذت عيناه الشائكتان الحادتان بجفنيهما المنتفخين قليلاً، فى وجه درزدوفسكى الشاحب الجامد فى تساؤل . ورفع العقيد دييف ، حاجبيه الاشهبين فى شىء من الأسى ، وكان ممتلئ الأعطاف عافية كالفتى ، احمر الوجه يرتدى سدارة جندى ، ويتمطق بأحزمة ، وقال بصوت عالى النبرة ريان :

ـ أين كنت مختفيا ، يا آمر البطارية ؟

أجاب درزدوفسكى متمطقاً بكلماته :

ـ كنت فى نقطة المراقبة ، ايها الرفيق العقيد . الأعمال الاخيرة لاعداد ممرات بين الخنادق موشكة على الانتهاء .

وفكر مع نفسه : « لأى غرض جاءوا ؟ لانتظار رجال الاستطلاع ؟ أم لتفقد البطارية فقط؟ ولكن هذا هو قائد الجيش نفسه » . وتساءل بيسونوف بصوت صارف :

ـ درزدوفسكى ؟ اسم عائلة مألوف لى ... يبدو أنه قد مر على هذا الاسم .

ونفذ ببصره فى درزدوفسكى بادى السهوم . مجاهدا لأن يعيد الى ذهنه ، ويلتقط امارة قديمة لشىء زلق، الا انه تذكر ، على ما يبدو ،شيئا آخر غيرما كان يريده ـ فتعبس ، وحرف بصره عن درزدوفسكى ، وخاطب دييف : ـ أين رجال استطلاعك ، فى آخر الامر ، ايها العقيد ؟

كان جميع الذين فى صحبة بيسونوف هنا ـ المقدم الكهل رئيس شعبة الاستطلاع فى الفرقة الذى نشر خارطة على محفضته ، وفيسنين عضو المجلس العسكرى المديد الطويل الساقين ذو النظارة ، والميجور تشيريبانوف الفتى جدا ، المنمش بشكل مضحك ، المعكوف الانف ، آمر فوج المشاة التى كانت كتائبه تتوكل بالدفاع على الشاطئ ـ كان هؤلاء جميعا ينظرون الى درزدوفسكى عندما كان بيسونوف يتحدث اليه ، كما

صرفوا أبصارهم عنه عندما شرع القائد يتحدث عن رجال الاستطلاع . ونظر الجميع فى ناحية الوهج ، حيث كان هدير مبهم يظهر تارة على شكل موجات محمولا على هبات الريح ، ثم يهمد تارة أخرى .

قال بيسونوف :

ـ ان شيئا ما واضح بدون استطلاع . ما رأيك ، يا فيتالى ايسايفيتش ؟

اجاب فيسنين :

ـ اظن ذلك . واضح بهذا القدر او ذاك .

ورد دييف منحرجا ، مخفضا صوته الجهورى قدر امكانه :

ـ اظن يجب أن نعود الى نقطة المراقبة . يبدو أن شيئا ما حصل لرجال الاستطلاع ، ايها الرفيق القائد . يصعب أن اشرحه ...

ـ ماذا قلت ؟

وكان من الممكن الاستدلال من لهجة القائد قطعا أن سؤاله لا يبشر بشىء حسن . الا أن دييف اتم كلامه قائلا:

ـ اظن لا داعى لانتظار رجال الاستطلاع هنا ، ايها الرفيق القائد .

قال بيسونوف بفكر :

ـ وأنا لا انتظرهم . مثل هذا الاستطلاع تعرض المرء للمسؤولية ، يا عقيد ، ليكن ذلك معلوما لك !

قال فيسنين :

ـ الدنيا تتنور تماما .

وتناول المنظار من المقدم كوريشيف رئيس شعبة الاستطلاع فى الفرقة ، وطوف به ، بحب استطلاع ، على الوهج ، وعلى القرية التى كانت ترى جيدا الآن الى الامام . الا أن جميع الأشياء اخذت تتخذ معالمها الكاملة دون الحاجة الى منظار . وفى البطارية ـ على مبعدة ومقربة ـ ظهرت وجوه الناس مسطحة رمادية من سهر الليل ، كالاقنعة ، والمدافع ، وأكوام التراب على المتراس ، والشجيرات فوق الثلج ، تطقطق بالريح أغصانها العارية . كانت آونة رجراجة من فجر كانونى صائر الى صباح باكر قد تورد كليا الى الشرق .

وفجأة اخذ الهدير المتذبذب فى الافق كله يهتز بوضوح ، ويعلو ، وكأن كرة حديدية هائلة تتدحرج على السهب . وفى تلك اللمحة طلعت من الأمام ، وسط الوهج ، خطوط من الصواريخ الثنائية الألوان ـ

واحدا تلو الآخر ، فى نصف دائرة – محلقة فوق القرية . انها رشقات من اللونين الأحمر والأزرق .

وفكر درزدوفسكى مثارا : « هذا ما كنا ننتظره ! . انها اشارات الالمان ... أمن المعقول أنهم بهذا القرب ؟ ولماذا هم بهذا القرب ؟ وما هذا الدوى ؟ »

بينما ظل هذا الهدير الجديد يملأ باطراد الفضاء بين السماء والأرض . ولم يعد يشبه صوت كرة حديدية متدحرجة ، بل كان تارة يهدر فى البعيد على شكل ضربات متتابعة ، وتارة يتحلل الى اصداء جبارة فى مجرى النهر العميق الى الخلف ، زاحفا باطراد من نقطة الى الأمام مخيفا لا يرد .

ولاح وكأن الأرض أخذت تتململ مثل جسم حى ، وكانت خطوط الصواريخ الحمراء والزرقاء تبرق بلا انقطاع فوق القرية على شكل نصف دائرة ، وكأنها ترسل الاشارات الى هذا الهدير .

« أهذه دبابات ام طائرات ؟ هل ستبدأ الآن ؟ أم بدأت بالفعل ؟ هل يجب أن أصدر أمر الاستعداد للقتال ؟ يجب أن اتصرف على الفور ! .. »

ورأى درزدفسكى وهو يحتفظ برباطة جأشه

بجهد ، غير مصدر أمرا ، كيف اجال الجنرال بيسونوف عينيه فى السماء ، وكيف رفع العقيد دييف حاجبيه ، وكيف توقف المنظار المصوب على الوهج فى يدى فيسنين . ثم اعطى فيسنين المنظار الى رئيس شعبة الاستطلاع ، ونزع نظارته لسبب ما ، وعندما التفت الى بيسونوف كان على وجهه الذى بدا أعزل بشكل غريب وهو بدون نظارة ، تعبير عجول مرح لرجل يعلن نبأ لا مناص منه :

– ها هى قادمة ، يا بيتر الكسندروفيتش . اللعنة ، كم عددها ...

وهناك، وسط الوهج لمع شىء وردي كثيف ، سحابة ما فى السماء . وكانت تقترب ، وتتجه قدما الى هنا ، الى القرية طاغية بصوت محركات مندمج فى هدير شامل . وصارت ترى فى هذه السحابة معالم طائرات « يونكرس » الالمانية الثقيلة الحمولة . كانت تقبل من الجنوب ، مجتازة الوهج ، مغطية اياه ، مثل افواج هائلة طويلة من السمك . وكانت من الكثرة بحيث تعذر على درزدوفسكى ان يعدها فى الحال . وبقدر ما كان يتضح ويتحدد بشكل متزايد اتجاه الطائرات نحو

القرية بالذات ، نحو البطارية واقترابها من هناك ، كان وجه بيسونوف يزداد صلابة وكأنما تزايله الرأفة ، حتى تحجر تقريبا . كانت عينا فيسنين القصيرتا النظر تحدقان متمعنتين مخمنتين لا فى السماء ، بل فى القائد ، وكانت اصابعه العارية وكأنها كانت تحيا حياتها (نسى أن يرتدى قفازيه اللذين كانا يبرزان من جيب معطفه) تمسح النظارة وتمررها على ياقته .

وفكر درزدوفسكى من جديد « لماذا واقفون ولا يصدرون أمرا ؟ ماذا يجب ان أفعل فى وجودهم ؟ » .

وفى تلك اللحظة انزلق الميجور بوجيتشكو عبر المتراس الى باحة المدفع الصغيرة ، وكأنه على قبقاب تزحلق ، وكان فى معطف المرافق الانيق — والظاهر أنه جاء راكضا من السيارات — ونادى بيسونوف باصرار دافق معهود من مرافق مسموح له ، وفق قانون غير مكتوب ، بأن يلفت نظر من يرافقه ، وحتى ان يطلب منه احيانا :

— ايها الرفيق القائد ، هل اجلب السيارة الى هنا ؟ يجب أن نرحل ، ايها الرفيق القائد !

قال دييف وهو يراقب حركة الطائرات من وراء حاجبيه الاصهبين :

— ربما من الاحسن الى أن ننتظر انتهاء الغارة هنا ، ايها الرفيق الجنرال . أنا اشك فى اننا سنلحق فى الوصول الى نقطة المراقبة قبل بداية ...

— واثق اننا سنلحق ، ايها الرفيق القائد ! — قال بوجيتشكو مؤكدا ، وشرح لدييف بعتاب : — ثلاثة كيلومترات بالعداد ، سنقطعها ...

— طبيعى ، سنقطعها ! — قال فيسنين متحدثا بحيوية ، ولبس نظارته ، حاسبا المسافة ما بين اسراب الطائرات التى اعتمت الوهج ، وبين المرتفع الشديد الانحدار وراء النهر ، حيث كانت نقطة مراقبة الفرقة — وقال مصححا — الا أن المسافة اربعة كيلومترات ، يا ، يا بوجيتشكو ، — ثم خاطب دييف بادئ التأثر — هل أنت واثق ، يا عقيد ، أنها ستقصف هذه المنطقة ؟ الا يجوز ان تكون متجهة الى ستالينغراد ؟

— لست واثقا ، ايها الرفيق عضو المجلس العسكرى ...

وضحك بيسونوف ضحكة مقتضبة ، وقال دون أى ظل لشك :

— ستقصف هذه المنطقة بالذات . الخط الأمامى .

ذلك شيء حتمى . فالالمان لا يحبون المجازفة . لا يهجمون بدون طيران . لنذهب اذا ، سواء ثلاثة كيلومترات أو اربعة . لا يهم . — وهنا فقط ، تذكر درزدوفسكى ، وكأن ذلك عرضا ، وكان درزدوفسكى يقف وقفة الانتظار ، فقال له :

— ما العمل ، الجميع فى المخابئ ، يا ملازم . وكما يقال : سنجتاز الغارة ! ثم هناك الشيء الاهم : ستأتى الدبابات . يعنى ، ايها الملازم ، اسم عائلتك : درزدوفسكى ؟ — سأل بيسونوف مرة أخرى ، ممسكا بشيء فى ذاكرته — انه اسم مألوف لى . سأتذكر . وآمل أن اسمع عنك مرة أخرى، يا ملازم درزدوفسكى ! لا خطوة الى الوراء ! صد الدبابات ، وأصمد ، وانس الموت ! لا تفكر فيه مهما تكن الظروف ! ان بطاريتك تستطيع ان تقوم بالكثير هنا ، يا ملازم ! وانا آمل بالأحسن ...

وأرتقى على المتراس يعرج عرجا خفيفا لا يكاد يلحظ ، وسار نحو السيارات ، ووراءه المرافق بوجيتشكو ، والعقيد دييف . وتأخر رئيس شعبة استطلاع الفرقة فى مربض المدفع . أبطأ واضعا قدما واحدة

على الحافة ، دون أن يرفع الخارطة عن ركبته ، ولم يترك المنظار من يديه مطوفا عدسته على الفضاء الخالى أمام القرية . لم يكن يريد أن يغادر المكان ببساطة وخلو بال دون ان يتأكد ويتحقق من مصير رجاله الذين خرجوا للاستطلاع . وحين مس فيسنين كتفه مسا خفيفا مدركا الأمر ، قال له شيئا بصوت خفيض . وبعد ذلك فقط سار هذا المقدم الصموت مطأطأ الرأس نحو خندق الاتصال . توقف فيسنين على بعد خمسة أمتار من موقع المدفع ، وقال لدرزدوفسكى ، وهو يرتقى مرتفع الشاطئ ، بصوت لم يخل من مرح غطى عليه دوى الطائرات المقترب :

— والآن ، يا آمر البطارية ، يبدو أن وقت الجد مقبل ! ألا تخاف ، فى المرة الأولى ؟

— لا ، أيها الرفيق قوميسار الفرقة !

— اذن ، رائع . قد ، يا قائد البطارية !

قضى درزدوفسكى بضع ثوان أخر ساهما جامدا مشدود الجسم ، ولكن ما ان أختفوا وراء سدة المتراس حتى تطلع كالذاهب البصر الى السماء المسودة ،

المفعمة بالحركة والضجيج ، وفجأة أصدر أمره بصوت هادر مرن :

— البطارية ، فى المخابئ !

وهرع الى نقطة المراقبة مارا بوجوه بيضاء خطفت بصره خطفا قرب المدافع ، وبظهور الجنود المحنية ، وكأنما تضغط عليها السماء الهادرة .

الفصل التاسع

خيم هدير المحركات الجبار على الرؤوس ، مبتلعا جميع الأصوات على الأرض ، وتذبذب فى الآذان وزمجر .

أخذ السرب الأول من الطائرات يغير تشكيلته فجأة على نحو ملحوظ ؛ وينبسط ، ثم راح يعيد تشكيل نفسه على شكل دائرة . ورأى كوزنيتسوف كيف بثت الصواريخ الالمانية نوافير من اللونين الأحمر والأزرق وراء بيوت القرية . وبعد ذلك أنفصل الصاروخ الجوابى من الطائرة الامامية بوهج أحمر ، راسما خطا من الدخان ، وسقط بسرعة منصول اللون بلمعان سطوح عديدة ،

وانطفأ فى الهواء المتورد . كان الالمان يرسلون الاشارات من الأرض والجو ليضبطوا منطقة القصف بدقة ، ولكن كوزنيتسوف لم يكن يسعى فى هذه اللحظة الى أن يحدد ويحسب المكان الذى سيقصفونه ، فقد كان ذلك واضحا . فحلقت طائرات « اليونكرس » واحدة وراء الأخرى فى دائرة هائلة ، مخططة مستوعبة فيها القرية ، والشاطئ كله ، وخنادق المشاة ، والبطاريات المجاورة ، ووقع الخط الامامى كله داخل هذا الطوق الجوى المحكم ، حتى بدا من المستحيل الهروب منه الى جهة ما ، رغم أن السهب الطليق فى الضفة الأخرى بدأ يتألق فى شروق الشمس ، والمرتفعات تشع بنور الصباح الهادئ .

— غارة ! .. غارة ! ..

صاحت أصوات فى البطارية ، وفى مكان فى اسفل منحدر الشاطئ ، متدفعة .

كان كوزنيتسوف يقف فى الخندق الى يسار المدفع مع اوخانوف وتشيبيسوف ، وكان الخندق ضيقا لثلاثتهم . كانوا يستشعرون ارتجاف الأرض بأقدامهم . وكانت كتل صلبة تتساقط من المتراس من جراء

هدير المحركات المندمج الذى كان يهز الهواء هزا .
ورأى كوزنيتسوف على مقربة شديدة منه عينى تشيبيسوف السوداوين كالغرافيت الندى ، متسعتين من الرعب ، فى وجهه المثلث المصوب الى السماء ، وقد استولى عليه الذهول والانسحاق ، ورأى الى جانبه حنك اوخانوف المرفوع ، وعينيه اللامعتين ، المتحركتين ، وكأنما تعدان فى غيظ ، وجسمه كله منكمش مضغوط ، وكأنه فى حلم ثقيل ، حيث لا تستطيع حراكا من مكانك ، بينما يجابهك شىء هائل لا يرد .

— ثمان واربعون .

عد اوخانوف اخيرا فى تنفس ، وحول الى تشيبيسوف عينين صافيتين متظاهرتين بعدم الفهم ، ودفع كتفه المتكمش دفعة خفيفة من كتفه ، وقال له :

— ما بك ، يا صاحبى ، ترتجف مثل ورقة الحور الرجراج ؟ لن يحدث ما هو أرهب من الموت . ولا ينفعك ارتجافك ...

— انها متجهة الى هنا ، الينا ! ..

ان هذه الصرخة ، وعينى تشيبيسوف الباحثتين

الخائرتين ، جعلت كوزنيتسوف يرفع رأسه للحظة . واذا به وكأنما هبت على وجهه الرائحة النارية للقدر المسلط من السماء . وان شيئا هائلا لامعا عليه صلبان مرسومة بالأبيض والأسود ، مرئية بوضوح — أمن المعقول أنه طائرة « اليونكرس » الامامية — بدأ وكأنه توقف لحظة ، متعثرا فى الهواء ، ثم أخذ يهوى الى الأسفل عموديا تقريبا نحو حدقتى كوزنيتسوف باسطا مخالب سوداء مفترسة ، مصما الآذان بصوت زاعق لحديد مسنن يحتك بحديد ، باهرا الأبصار بلمعان معدن ثقيل منطلق الى الأسفل تحت الأشعة القرمزية — الآتية من الاسفل الى الأعلى — للشمس التى لم ترتفع بعد فوق الافق . ومن تحت هذا اللمعان والهدير أنفصلت وتساقطت اشياء سوداء مستطيلة ، ونزلت الى الأسفل ثقيلة طليقة ، مضيفة زعيقا صارخا الى هدير « اليونكرس » .

كانت القنابل تتهاوى متلاحقة ، متساقطة على البطارية ، وعلى الأرض ، متعاظمة تحت الأبصار كل ثانية ، متأرجحة فى السماء بثقل كقطع مصقولة من جذوع الشجر . وفى اثر الطائرة الاولى خرجت طائرة « اليونكرس » الثانية من الطوق المغلق ، وأنقضت على

الشاطئ . نزل كوزنيتسوف الى الخندق مستشعرا رعشة باردة فى بطنه المشدود ، بعد أن رأى اوخانوف يطوى رأسه برجات بينما كان يتابع القنابل ببصره ، وكأنما يتفادى احجارا طائرة .

ـ استلق !

ولم يسمع كوزنيتسوف فى الصيحة المباغتة صوته ، بل شعر باصابعه وحدها كيف جذب بكل قوته طرف معطف اوخانوف الى الأسفل .

سقط اوخانوف عليه ، وحجب السماء ، وفى الحال غطت الخندق زوبعة سوداء ، وانسكب أتون من السماء ، وأهتز الخندق ، وتزحزح ، ومال وبدا وكأنه يشرئب ، ولسبب غريب لم يكن اوخانوف على مقربة منه (انزاح ثقل جسمه عن كوزنيتسوف) بل كان وجه تشيبيسوف الرمادى كالأرض بعينيه المتجمدتين ، وفمه المتحشرج : « فقط لا هنا ، لا هنا ، يا آلهى ! .. » ووقفت الشعرات على خديه الى آخرها ، وكأنما فارقت البشرة الرمادية . وعندما جثم على كوزنيتسوف تشبث بصدره بكلتا يديه ، حاشرا كتفه وظهره فى حيز ضيق لا وجود له بين كوزنيتسوف وجدار الخندق الزالق ، صارخا بتضرع :

ـ الأطفال ... عندى أطفال ! .. لا يحق لى ان أموت .. لا ! .. الأطفال !..

وأحس كوزنيتسوف بالاختناق من جراء رائحة الحريق الشبيهة برائحة الثوم ، ومن يدى تشيبيسوف الضاغطتين ، واراد ان يحرر نفسه ، ويستنشق هواء نقيا ، ويصيح « اخرس ! » الا أنه تنفس سم التولاين الكيمياوى ، وسعل شاعرا بألم جارح فى حنجرته . فك نفسه من يدى تشيبيسوف بجهد ، والقاهما عن صدره . وامتلأ الخندق بدخان خانق كثيف ، وانحجبت السماء . كانت تمور بالسواد والفرقعة . كانت الأجسام الماثلة للطائرات الهاوية تلمع فيها وحدها لمعانا كابيا غير حقيقى ، ومن الدخان فى الأعلى تنقض البراثن السوداء المعوجة مصوبة ، وفى تلاحق الانفجارات أعوج الخندق ، وتقوس ، وفى كل مكان كانت الشظايا تشق الهواء باصوات الموت الرتيبة ، الناعمة والغليظة ، وتساقط التراب طبقات ، مخلوطا بالثلج .

وقال كوزنيتسوف لنفسه يستحثها « سينتهى هذا الآن » شاعرا بهصيص التراب فى أسنانه ، مغمضا عينيه ، فقد تراءى له أن الوقت ، على هذه الحال سيمر

بسرعة : « لم تبق الا بضع دقائق .. ولكن المدافع ... كيف حال المدافع الآن ؟ أعدت للقتال .. قد تحطم الشظايا منظارات التسديد ؟ .. »

كان يعرف ان عليه ان ينهض على الفور ، أن ينظر الى المدافع ، ان يفعل شيئا الآن ، الا أن جسمه المثقل كان مضغوطا ومحشورا فى الخندق ، وكان يحس الما فى صدره ، واذنيه ، وكان العويل المنقض ، وضربات الهواء الحارة المصحوبة بصفير الشظايا تضغطه أكثر فأكثر فى قاع الخندق المتخلخل . ومن الحاح الفكرة على رأسه فى وجوب القيام بشىء ما فتح عينيه ، ورأى على منحدر المتراس حافة الأرض التى شقتها شظية كالنصل . وانثالت كتل رمادية حية على الجدار الترابى ناثرة من الحفر الضيقة حبات القمح ، وتراكضت الى الخندق ، وراحت وجاءت ، وصعدت فوق الحدبة التى كونها ظهر تشيبيسوف المقوس ، وقد انبطح على وجهه .

كان كوزنيتسوف يعرف هذه الكتل الرمادية ، ولكن لم يستطع تذكر اسمها ، وأين رآها بمثل هذا الوضوح الذى يراها فيه الآن . وفى تلك اللحظة نفذت

صيحة اوخانوف من خلال الهدير ، فقد نظر هو أيضاً الى ظهر تشيبيسوف بتفرس وذهول .

ـ انظر ، يا ملازم ، اللعنة ، حتى الفئران دمرت هيا ، خلص نفسك ! هيا .

وأخذ يد اوخانوف الكبيرة المقفزة بقفاز متصلب تتصيد وترفع عن ظهر تشيبيسوف هذه الكتل الرمادية التى كشرت عن اسنانها فى غل فجأة ، وتقذفها من الخندق الى الدخان .

ـ تحرك ، يا تشيبيسوف ، ستأكلك الفئران ! هل تحس ، يا اب ؟

وهتف كوزنيتسوف دون ان يهتم الى تشيبيسوف :

ـ منظارات التسديد ، يا اوخانوف ! اجهزة التسديد ! وللحظة فكر أنه كان يود ويستطيع ان يأمر اوخانوف ـ فقد كان له الحق فى ذلك ـ بأن يخلع منظارات التسديد ، أى أن يحمله بسلطته كآمر فصيلة ، على أن يترك ارض الأمان الآن ، ويركض ، تحت القصف ، الى المدافع ، ويبقى هو ، الآمر ، فى الخندق . الا أنه لم يستطع ان يأمر بذلك .

وفكر كوزنيتسوف فى سره : « لى الحق وليس لى الحق . لن اغفر لنفسى فيما بعد ... »

الآن تساوى كل شيء بينهما، وساد مقياس واحد ، ضخم ، نهائى ، عرضى ، بسيط هو بضع أمتار اقرب أو أبعد ، وحدة بصر الطائرات المنقضة من دائرتها المميتة على هذا الخواء الاعزل المريع لعالم كامل ، خال من الشمس ، ومن الناس ، ومن الطيبة ، والشفقة ، مضغوط الى حد لا يطاق فى خندق واحد ، تتقاذفه الانفجارات من حافة الحياة الى حافة الموت .

« لا يجوز لى ان اتصرف هكذا ، لا يجوز ! » هذا عجز كريه ... يجب رفع المنظارات ! هل أخاف الموت ؟ ولماذا اخاف الموت ؟ شظية فى الرأس ؟ اخاف شظية فى رأسى ؟ لا ، سأقفز الآن من الخندق . أين درزدوفسكى ؟ اوخانوف يعرف اننى مستعد لأن آمره ... لماذا ؟ .. لتذهب المنظارات الى الجحيم ! أنا لا املك القوة على أن اغادر الخندق ... مستعد لأن آمر ، بينما اظل قابعا هنا . اذا غادرت الخندق ، فلن يحمينى شيء . وتصيب رأسى شظية حامية ؟ ما هذا ، الهذيان ؟ »

امالت الفرقعة الحديدية المسلطة على الرأس الخندق بقوة ، ودفعت الى وجه كوزنيتسوف سحابة

من الدخان الأسود الملتوى ، وسعل كوزنيتسوف ثانية ، فقد كان يختنق بسم التولاين !

وعندما تبدد الدخان هز أوخانوف رأسه ماسحا التراب من شفتيه بردنه — كانت كتل الثلج الموحل تتساقط من قبعته — ونظر نظرة غريبة الى كوزنيتسوف الذى كان يسعل بحرقة ، وصاح ، كاشفا عن سن معدنية لامعة ، وكأن كليهما كان أصم :

— يا ملازم ! .. تنفس من خلال المنديل ، سيكون ذلك أسهل !

« نعم ، ابتلعت سخام التولاين . نسيت ، واستنشقته من فمى . رائحة ثوم محترق وحديد . شممت هذه الرائحة لأول مرة فى عام ١٩٤١ . وعلقت فى ذاكرتى الى الأبد ... عم يتكلم ؟ أى مناديل هذه ؟ فقط ان صدرى ينخلع ، والسعال يوجعنى . لو كان هناك ماء بارد ، ابتلعه .. »

قال كوزنيتسوف مبتلعا سعلته :

— آ ! لغو ! يا اوخانوف ! اسمع . يجب رفع عدسات التسديد ! ستسحق سحقا . غير مفهوم متى ينتهى هذا .

— أنا أيضا أظن ذلك ، يا ملازم ! سنظل بدون عدسات تسديد ، وكأننا بلا ملابس ! ..

سحب اوخانوف ساقيه ، وهو جالس فى الخندق ، وضرب قبعته بقفازه ، دافعا بها أقرب الى جبهته ، واسند يده على قاع الخندق لينهض ، الا أن كوزنيتسوف أوقفه فى الحال :

— قف ! انتظر ! حالما ينتهون من دورة القصف سنركض الى المدافع . أنت الى المدفع الأول ، وأنا الى المدفع الثانى ! ونخلع عدسات التسديد ! .. أنت الى الأول ، وأنا الى الثانى ! هل هذا واضح ، يا اوخانوف ؟ عندما أصدر أمرى ، واضح ؟ وسحب ساقيه أيضا ليسهل عليه النهوض ، كاتما سعاله بصعوبة .

— يجب الآن ، يا ملازم ! الآن ! ..

وتطلعت عينا اوخانوف الفاتحتا اللون من تحت قبعته المنكسة على جبينه .

ومن أصوات الطائرات الصاعدة بعد انقضاضها ، أحس كلاهما فى وقت واحد بأنها قد أتمت دورة من دورات القصف . كانت دوامات زوبعية من الدخان الحار تتصاعد من وراء المتراس . وعادت طائرات

« اليونكرس » تتشكل ، لدى طلوعها من انقضاضها واحدة بعد أخرى ، فى دائرة ، فى ارجوحة سماوية مستمرة ، مصعدة فوق السهب اعلى من السواد الحلزونى . الى الأمام ، والى الخلف ، وراء النهر ، كانت القرية مشتعلة بحريق هائل ، وكانت ألسنة اللهب المنطلقة فى الشوارع تتصادم ، وتدور . وكانت السقوف تنهار قاذفة فى السماء سحبا حامية من الرماد والشرر ، وكان الزجاج يتهشم ، ويفرقع . وفى طرف القرية كانت تشتعل بعض السيارات التى لم تلحق فى الاحتماء فى ملجأ ، وقد شوهتها شظايا القنابل . وكان البنزين يسيل فى خطوط نحيلة نحو النهر ، ويحترق . بينما جثم دخان كثيف فوق البطارية ، والشاطئ ، وخنادق المشاة مثل نقاب الحداد .

تطلع كوزنيتسوف من الخندق ، فرأى كل ذلك ، وسمع الصوت المتساوى لمحركات الطائرات التى حلقت وراء الدخان استعدادا للقصف . فأوعز بصوت قاطع :

— اوخانوف ! سنلحق . لنذهب ! أنت الى الأول وأنا الى الثانى ...

وثب من الخندق شاعراً بخفة وزن متخلخلة فى جسمه كله ، وقفز عبر متراس مربض المدفع الأول ، وركض على الثلج المسود بالسخام ، وخلال التراب المتناثر الى الأعلى من حفر القنابل ، الى موقع المدفع الثانى ، ومن هناك بلغته صيحة :

— يا ملازم ! .. الى هنا ! اركض الينا ! ..

كان موقع الرماية كله ، ومشاكى السلاح ، والخنادق مغطاة بجدار سميك من الدخان الساكن ، وفى كل مكان كتل التراب المحروق الذى قذفته الانفجارات ، وفى كل مكان ثلج اسود ، وتراب ! على جراب المدفع المشمعى ، ومؤخرة السبطانة ، وعلى صناديق الذخيرة . الا أن منظار التسديد كان سليما . أخذ كوزنيتسوف يفك منظار التسديد ، بأصابع محمومة ساعلا ، مبهور الانفاس ، متلفتا الى الخندق ، حيث أرتفع رأس ، واختفى ، مثل ظل مدور داخل الدخان .

— من هناك ؟ أنت ، يا تشوبا ريكوف ! هل الجميع أحياء ؟

اطل من الخندق الايسر وراء مشكاة القذائف رأس مالت قبعته الملطخة بالتراب على أذن واحدة .

تمايل الرأس على رقبة طويلة ، وكأنه يتمايل على سويق نبتة ، وبرقت العينان الجاحظتان بالتهيج ، وبالاستغاثة . لقد كان ذلك الرقيب الثانى تشوباريكوف آمر المدفع الثانى .

— الينا ، ايها الرفيق الملازم ! معنا رجل استطلاع !

صاح كوزنيتسوف :

— ماذا ؟ لماذا لم تخلعوا اجهزة التسديد ؟ هل حسبتم أنكم ترمون بلا جهاز تسديد ؟

— انه جريح ، ايها الرفيق الملازم ! فى الخندق رجل استطلاع ! جاء من هناك ... وهو جريح .

— اى رجل استطلاع ؟ أصابتك صدمة ، يا تشوباريكوف ؟

— لا ... فقط أن أذنى تطن ... يبدو أننى أصبت بالطرش .. وما عدا ذلك ، لا شىء .. جاء الينا رجل الاستطلاع !

— رجل استطلاع ؟ من الفرقة ؟ أين رجل الاستطلاع ؟

نظر كوزنيتسوف الى السماء — كانت الارجوحة الهائلة التى كونتها طائرات اليونكرس ، قد انطبقت

وشكلت أطواقا فوق السهب – وقفز عبر المشكاة ، ووثب الى الخندق ، ودس المنظار فى صدر تشوباريكوف . فأمسكه هذا بكلتا يديه ، ورفت رموشه السوداء وكأنها مكحلة ، من حركة كوزنيتسوف الحادة المفاجئة ، ثم أخذ يحشر المنظار فى فتحة صدره .

– هل نسيت منظار التسديد ، ياتشوباريكوف ؟ أين رجل الاستطلاع ؟

فى الخندق الطويل كان المسدد يفستيغنييف الكهل ذو الشعر الاشيب ، ورجلان من الطقم فى معطفين ملطخين بالطين يجلسون منضغطين على الجدار قدر مستطاعهم ، يدخنون لفائف سميكة بنهم لهوف . وكان هناك أيضا السائقان روبين وسيرغونينكوف اللذان لم يتسن لهما الوقت للخروج الى الخيول . كان كلاهما ينظر بصمت عابس وتوتر باتجاه واحد ، نحو نهاية الخندق حيث كان شاب شاحب اللون مبيضه يستلقى نصف استلقاءة فى بدلة تمويه ، وقد خلع عن رأسه قلنسوتها ، فلاح شعره الأجعد كشعر الغجر معفرا بالثلج الموحل ، كان الألم يطل من عينيه المدورتين ،

وتبرز تغددات على وجنتيه . كان الردن الايسر من بدلة التمويه والسترة المبطنة ، المشبع بالدم مقطوعا حتى كتفه بخنجر منغرس فى الأرض قرب قدميه . كان الشاب ، وقد لوى فمه ، يلف على زنده ضمادة خاصة ، بارتباك ولكن بقوة ، مستخدما أصابعه الزرقاء زرقة الموت ، الملطخة بالدم ، وقد صك على اسنانه قائلا :

– آه ، الاوغاد ، الاوغاد ! هاتوا لى قائد الفرقة ! أدعوا لى العقيد !

صاح كوزنيتسوف بتشوباريكوف الذى كان رأسه لا يفتأ يهتز من جانب الى جانب على رقبته الطويلة ، وكأنه ينفض ماء قد دخل اذنيه :

– ساعده ، بسرعة ! لماذا انت واقف ؟ ضمده !

قال السائق روبين بوجوم :

– إنه حَرِن !

وبصق على كفه المتصلبة ، وأطفأ السيكارة فى اللعاب ، ثم حشر عقب السيكارة فى طية قبعته الخارجية ، وتابع قوله :

ـ كأننا لم نر رجل استطلاع من قبل ! غرور وعجرفة فارغة ! لا يسمع كلمة ، ويزعق على الجميع ، كالمجذوب ! رجل استطلاع !

قاطعه كوزنيتسوف قائلا :

ـ سخافة منك ، يا روبين !

وزحم نفسه بين أقدام الجنود نحو رجل الاستطلاع ، وقال بصوت عال :

ـ اعطنى الضمادة ، لاساعدك ! من أين جئت ؟ عدت وحدك ؟

كان رجل الاستطلاع يحاول أن يشد الضمادة بأسنانه ، فانتزعها من زنده بضراوة ، وانشب عينيه المخبولتين السوداوين كالفحم فى الفضاء فوق الخندق ، وظهر الزبد فى أطراف شفتيه ، والآن فقط ، لاحظ كوزنيتسوف ، وهو على قرب ، خطوط دم دقيقة قد جفت على شحمتى اذنيه . كان مصابا بصدمة ، كما يبدو .

أن الرجل ، وارسل صرخة ، وكشر وقال عجولا :

ـ لا تمسنى ! ابتعد ، ايها الملازم ! ارسلنى الى قائد الفرقة ، هل فهمت ؟ اوصلنى الى العقيد ...

لماذا تتطلع بى ، وكأننى امرأة ؟ أنا من الاستكشاف ، من رجال استطلاع الفرقة ، هل فهمت ؟ تلفن الى العقيد ، يا ملازم ! ماذا تنتظرون ، يا اوباش ؟ سيغمى على وينتهى الأمر . سيغمى على ! .. فهمت ، يا ملازم ؟ ـ وتحدرت دموع الألم من عينيه الحانقتين .

القى رأسه الى الخلف ، وقطع ازرار سترته المبطنة من تحت بدلة التمويه ، بيده السليمة ، وكأنما أصيب بنوبة هستيريا ، ثم قطع ازرار قميصه عند الرقبة ، وراح يخدش بأصابعه القذرة المدماة ترقوتيه البارزتين من على فانليته البحرية الممحولة اللون .

ـ عجل ، عجل ! ما دمت متمالكا وعى ، فهمت ؟ تلفن الى العقيد . اسمى غيورغييف . تلفن . يجب أن اخبره ! ..

قال المسدد الكهل يفستيغنييف بتعقل :

ـ يجب نقله ، أيها الرفيق الملازم .

مضى كوزنيتسوف يحدق فى أصابع الرجل وهى تخدش ترقوتيه ، وقد ادرك الآن جيدا أن هذا البحار هو من رجال الاستطلاع الذين كانوا ينتظرونهم فى الفجر ، ولم يأتوا .

قال الرقيب الثانى تشوباريكوف :

— يبدو ان صدمة أصابته فى رأسه ، وقد سال الدم منه . كيف ننقله الى الفرقة ، ايها الرفيق الملازم ؟ نخشى ان يموت فى الطريق ...

التفت كوزنيتسوف الى تشوباريكوف وقال :

— هل هناك اتصال مع درزدوفسكى ؟ هل التلفون يشتغل ؟

اكتفى تشوباريكوف بان حول رأسه الى جدار الخندق الخلفى ، وكأنما يقول : لا بد أن يكون هناك اتصال . — لف الضمادة عليه ، ولا تتركه ينزعها ، يا تشوباريكوف ساتصل الآن ! .. هتف سيرغونينكوف بصوت محذر ، وضغط على اذنه :

— انتظر ، ايها الرفيق الملازم ! ها هى تهاجمنا مرة أخرى !

حدق كوزنيتسوف فى السماء ، وقد طلع الى موقع الرماية . كانت الارجوحة الهائلة لطائرات « اليونكرس » تدور فوق الشاطئ . ومرة أخرى أنقضت احداها خارجة من دائرة الارجوحة ، ولمع معدنها فى الشمس غير المرئية ، واتجهت نحو الأرض بانحدار شديد .

عندما قفز كوزنيتسوف الى خندق الاتصال الضيق غير العميق ، كان جندى الاتصال سفياتوف يجلس ، وقد احنى رأسه نحو جهاز الاتصال ، ممسكا بيد واحدة السماعة التى كانت مشدودة بشريط الى رأسه . أنحشر كوزنيتسوف فى الخندق الضيق مضطرا الى أن يضغط ركبته بركبتى سفياتوف ، وللحظة فزع من هذا التماس العرضى — لم يفهم فى الحال أى الركبتين كانت ترتعش — ركبته أم ركبة سفياتوف — وحاول بكل جهده أن ينتحى الى الجدار .

— هل هناك اتصال مع نقطة المراقبة ؟ لم ينقطع ؟ اعطنى السماعة ، يا سفياتوف !

— يوجد ، أيها الرفيق الملازم ، يوجد اتصال . فقط لا أحد ..

ضغط سفياتوف احدى ركبتيه بالأخرى ليوقف ارتجافهما . وهز وجهه الصغير المدبب الأبيض الريفى المتجمد الى حد التنقيط ، ومد يده نحو الشريط ، الا أنه لم يفكه ، جذب الاصابع ، واحنى وجهه الى الجهاز .

صاح صوت من البطارية :

— الدبابات !

الا أن الصيحة ابتلعها فى الحال هدير الطائرات الضاغط .

ومع هذا الصوت أخذت الانفجارات تتوالى مفرقعة ، قاذفة الى الأعلى بكل شىء ، مقتربة بسرعة نحو البطارية بمحاذاة الشاطىء، مزلزلة الأرض زلزالا كثيفا متفجرا . وانقذف الخندق ، ورأى كوزنيتسوف ، وهو يرتفع عن الأرض ، أجسام الطائرات الصلبانية منطلقة فوق الانفجارات المرتفعة على طول الشاطئ ، تخطف الابصار نيران رشاشاتها المرتجة . كانت خطوات الطلقات الكثيفة الملتوية تنصب على الشاطئ ، وتسير عبر خنادق المشاة الى البطارية رأسا ، وفى اللحظة التالية ظهرت أمام عينيه شفتا سفياتوف الهامستان بشىء ما ، وركبتاه المرتجفتان ، ولفافة الساقين المحلولة التى ارتجف طرفها ، وتدحرج منحلا على الأرض كالافعى .

همست شفتا جندى الاتصال البنفسجيتان :

— الدبابات ! الدبابات ! هل سمعت ؟ صدر الأمر ...

أراد كوزنيتسوف أن يصرخ : « لف اللفافة حالا ! » ويدير رأسه ليتجنب النظر الى ركبتيه

المرتجفتين ، والى ذعره القهار كالمرض ، الذى نفذ اليه ، هو الآخر ، بقوة فجأة ، لدى سماعه كلمة « دبابات » مرتفعة فى مكان ما ، كالريح . وفكر كوزنيتسوف « هذا غير ممكن ! أحدهم اخطأ ، توهم ... أين الدبابات ؟ من الذى هتف بذلك ؟ الآن ، الآن ، سأخرج من الخندق ... أريد أن اتأكد بنفسى!.. أين الدبابات ؟ »

الا أنه لم يستطع الطلوع من الخندق . فقد كانت طائرات « اليونكرس » تندفع واحدة بعد أخرى ، مائلة منخفضة فوق الرؤوس ، حاجبة شريطا ضيقا من السماء فوق المتراس ، بظلمة قاتمة نارية ، بهياكلها المعوجة الثقيلة ، وكأنما تبصق حديدا حاميا من رشاشاتها الكبيرة العيار اللاهثة .

نادى كوزنيتسوف على سفياتوف من خلال لعلعة رصاص الرشاشات ، وهز كتفه ، وكان هذا الجندى يخفى وجهه فى ركبتيه :

— سفياتوف ! اتصل بنقطة المراقبة ! بدرزدوفسكى ! ما هذا هنا ؟ اسرع !

رفع سفياتوف وجهه المتجمد بعينيه المائلتين ،

وتحرك بجلية ، وانشغل بجهاز التلفون ، نافخا فى السماعة ، صارخا « نقطة المراقبة ! ولكن لماذا ؟ .. » الا أن صوت طائرة منقضة بالغا أقصاه جعل كليهما ينحنيان الى الأرض . لعلعت صلية رشاش فوق رأسيهما بغلظة ، وتساقطت قطع صغيرة من التراب على جدران الخندق ، وعلى جهاز التلفون كالبرد . وفى تلك اللحظة خطرت فى ذهن كوزنيتسوف ، وهو يتوقع اصابة فى ظهره أو فى رأسه ، فكرة غريبة شامتة تقريبا : « تخطتنى ، تخطتنى ! .. »

نفضت يد سفياتوف قطع التراب المهشمة من جهاز المخابرة بحركات ارتجاجية تقريبا . وانفرجت شفتاه ، دافعة الى السماعة بخار أنفاسه المتقطعة : « نقطة المراقبة ... نقطة المراقبة ... لم يضربوكم ؟ » وفجأة زاغت عيناه مرة أخرى ، وجمدتا .

ـ الدبابات !

صدرت صيحة هستيرية ممزقة فوق المتراس . وهمست شفتا سفياتوف ، مهشمة الكلمات المتدافعة :

ـ أيها الرفيق الملازم ... اجابوا بالتلفون .. يوجد

اتصال ... درزدوفسكى على الخط . الآمر : الدبابات ، الدبابات قادمة . الى القتال ! .. يناديك ، يناديك ، آمر البطارية ! ـ والقى قبعته المتغضنة ، ورمى حبل السماعة من رأسه الأشقر الشبيه برأس صبى ، وقدم السماعة الى كوزنيتسوف مع تلك العروة الملفوفة .

ـ أنا سامع . الملازم كوزنيتسوف على الخط !

كانت أنفاس درزدوفسكى تبدو فى السماعة وكأنها أنفاس من توقف عن الركض من توه ، كأنها تندفع من طبلة السماعة ، تلذع الاذن بحرارتها :

ـ كوزنيتسوف ! .. أمامكم الدبابات ! .. المدافع للقتال ! هل توجد خسائر ؟ كوزنيتسوف ! كيف الناس ، كيف المدافع ؟

ـ لا استطيع الآن أن اخبرك بدقة .

ـ أين أنت الآن ؟ .. هل تعرف ماذا حصل لدافلاتيان ؟

ـ أنا ، حيث يجب أن أكون ، أيها الرفيق قائد البطارية ، قرب المدافع ـ قال كوزنيتسوف ذلك قاطعا الانفاس الصافرة من طبلة السماعة ـ لم اتصل حتى الآن بدافلاتيان . الطائرات على رؤوسنا .

وصفر صوت درزدوفسكى :

ـ حطم مدفع دافلاتيان باصابة مباشرة . وقتل رجلان ، وجرح خمسة . الطقم الرابع بكامله .

ولمع فى ذهن كوزنيتسوف بحرارة : « ها قد بدأ الأمر ... بدأ مبكرا .. يعنى لحق أن يتكبد دافلاتيان خسائر .. سبعة رجال ، ومدفع واحد . بهذه السرعة ! »

سأل كوزنيتسوف : « من الذى قتل » رغم أنه كان يعرف رجال الطقم هذا بالوجه وبالاسم فقط ، ولم يكن يعرف حياة اى واحد منهم .

هتف درزدوفسكى متنفسا فى السماعة :

ـ لا اهمية لذلك الآن ! الى القتال ، يا كوزنيتسوف ! الدبابات قادمة !

ـ فهمت . اريد أن أخبرك أن رجلا جريحا من رجال الاستطلاع قد وصل الى مدافعى .

ـ أى رجل استطلاع ؟

ـ من اولئك الذين كانوا ينتظرونهم . وهو يطالب بأن ينقل الى مقر قيادة الفرقة .

صاح درزدوفسكى :

ـ حالا ! ارسله الى فى نقطة المراقبة !

القى كوزنيتسوف السماعة فى يدى سفياتوف ، ونهض فى الخندق ، ناظرا الى اليمين حيث كانت توجد مدافع دافلاتيان . كانت سيارة محملة بالقذائف تحترق فى تلك البقعة ، وكان الدخان ينبسط فوق الشاطئ ، ويغطى المواقع ، ويمتد نحو النهر ، مختلطا بنار حرائق البيوت فى طرف القرية . كانت الذخائر تفرقع فى السيارات ، وتنفجر ، وتنطلق القذائف المضادة للدروع فى السماء حلزونيا كالألعاب النارية .

ابتعدت ارجوحة الطائرات ، وصارت تدور فى المؤخرة ، وراء النهر ، وغاصت فوق الطرق السهبية ، وراء المرتفعات . وبعد أن أتم جزء من الطائرات القصف ، مضى فى السماء البرنزية الى الجنوب ، فوق القرية المحترقة الى الأمام ؛ مرسلا صوتا متعبا ضاجا .

ورغم ان الطائرات ما تزال تقصف المؤخرة ، وان بعض الناس هناك لاقوا حتفهم ، فان كوزنيتسوف قد احس براحة قصيرة وكأنما قد تحرر من حالة غير طبيعية ، حالة الكآبة والعجز والمذلة ، وهذا ما يسمى فى الحرب بانتظار الموت .

ولكنه فى تلك اللحظة بالذات رأى صاروخين أحمر وأزرق يرتفعان الى الأمام فوق السهب ، ويسقطان بشكل قوسين على الحرائق القريبة .

كان الجرم المحدودب العريض ، والمنحدر الصبب ، للمرتفع أمام الوهدة والى يسار القرية ، مغلفين بنقاب من الدخان الأزرق ، وقد أختلطا ، وتحركا ، وتبادلا المعالم من جراء أهتزاز كثيف بطئ لمربعات صفر ورمادية تلوح هناك ، وتبدو غير خطرة اطلاقا ، مندمجة فى ظل هائل على الثلج ، المضاء بشمس كدرة فى الجو المعتم ، طالعة فوق أفق السهب الصباحى .

وأدرك كوزنيتسوف أن هذه هى دبابات ، الا أنه لم يحس بعد بحراجة الخطر الجديد ، بعد اجتياز غارة الطائرات منذ لحظة ، ولم يصدق بهذا الخطر .

الا أن حراجة الخطر قد حلت فى اللحظة التالية : خلال الظلمة الملفعة فى المنخفضات المعتمة سرى هدير مرتعش واطئ ، شبيه باهتزاز محركات كثيرة ، وظهرت بوضوح أشد ، معالم تلك المربعات ، وذلك الظل الهائل المندمج بقوة ، الموحد فى مثلث مفلطح

باعوجاج ، كانت قاعدته تتوغل وراء القرية ، وراء قنة المرتفع .

ورأى كوزنيتسوف الدبابات الامامية تهتز ثقيلة شوهاء ، ودوامات شعثاء من الثلج تلتف بقوة ، وتدور حول جنازير الدبابات الجانبية القاذفة الشرر من انابيب التصريف .

— الى المدافع ! الى المعركة !

صاح كوزنيتسوف بصوت آمر مستميت ، وبدا له الصوت مرعبا غريبا غير متهاون معه ولا مع الآخرين .

وطلعت الرؤوس وتحركت فوق المتراس فى كل انحاء الخنادق . وكان الرقيب الثانى تشوباريكوف أول من طلع الى موقع الرماية ، مخرجا جهاز التسديد من صدره . وأتلع رقبته الطويلة ، ونظرت عيناه الجاحظتان بتخوف الى السماء وراء النهر ، حيث ما زالت الطائرات الباقية ترشق برشاشاتها طرق المؤخرة فى السهب .

— الى المعركة !

واخذ الجنود ينطلقون من الخنادق الى المدافع ، وكأنما قذف بهم هذا الأمر . الآن لم يعد أحد قادرا

على تقييم كل شيء بدقة ، وبشكل واقعي . اخذوا فقط ينتزعون الاغطية عن مغاليق المدافع بشكل آلي ، ويفتحون صناديق القذائف في مشاكي الذخيرة ، ويجرونها الى مسافة اقرب الى المساند ، متعثرين بكتل التراب التي قذف بها القصف الى مواقع الرماية .

خلع الرقيب الثاني تشوباريكوف قفازيه ، وكان يضع بأصابعه السريعة ، جهاز التسديد في مكانه ، حاثا بنظرته رجال الطقم المنشغلين في القذائف . مسح المسدد يفستغنييف مينا المنظار الأسود بعناية وصبر ، وكأن ذلك كان شيئا ضروريا الآن .

وصاح رجل من المشاكي بصوت الانفاس :

ـ أيها الرفيق الملازم، هل نهيئ القذائف الواسعة التفجير ؟ سنحتاج اليها ؟ ها ؟ هذه القذائف ؟

قال كوزنيتسوف حاثا ، ضاربا قفازا بقفاز دون أن يدري ، بشكل أوجع كفيه :

ـ اسرع ، اسرع . اترك القذائف الواسعة التفجير المضادة للدروع فقط ، القذائف المضادة للدروع ! ..

وفي تلك اللحظة لمح بطرف عينيه رأسين برزا من الخندق كالعائق . انهما السائقان سيرغونينكوف

وروبين قد وقفا بطول قامتهما ينظران الى الطقم ، دون أن يخرجا من الخندق . كان سيرغونينكوف بادي التردد تفضح انفعاله سحابة انفاسه اللاهثة ، وروبين يلوح التقطيب على عينيه الصغيرتين الثقيلتين كالحديد في وجهه الكبير الأسمر .

سار كوزنيتسوف الى الخندق مسرعا :

ـ كيف حال رجل الاستطلاع ؟

ـ قال سيرغونينكوف :

ـ ضمدناه ... يبدو أنه نزف دما كثيرا . انه سيموت . لقد هدأ ...

وقال روبين بلا مبالاة انسان ضجر من ذلك :

ـ لا يموت ! ولماذا يموت ؟ كان يهذي طوال الوقت بأن سبعة اشخاص ما زالوا باقين هناك ، أمام الالمان . ابطال ! .. أهذا استطلاع ؟ هذه نكتة !

كان رجل الاستطلاع ما يزال على استلقاءته السابقة في الخندق ، وقد ألقى رأسه الى الوراء ، واغمض عينيه ، وقد غطت بدلة التمويه كلها بقع داكنة . وكان زنده قد ضمد بالفعل ، أوعز كوزنيتسوف قائلا :

ـ هيا ، أنتما الاثنان ، احملا الرجل الى درزدوفسكى فى نقطة المراقبة . حالا !

صاح سيرغونينكوف :

ـ والخيول ، ايها الرفيق الملازم ؟ يجب ان نذهب الى الخيول ... لنتأكد من ان القصف لم يصبها . الخيول وحدها ...

فتساءل روبين جهما :

ـ الدبابات تزحف ، اذن ؟ سيوقدون جهنم ! ها هو الاستطلاع ! ـ وهنا دفع سيرغونينكوف بكتفه المربع ـ وتهتم بالخيول ! ستحتاج الى الخيول عند الله ، فى الآخرة .

لم يلحق كوزنيتسوف أن يرد على روبين . ان ما لحق وقدر أن يفكر فيه عن مصير رجال الاستطلاع ، وغيظ روبين ، طردته من وعيه فى الحال سحنة تشوباريكوف غير المألوفة له ، المتوجهة اليه ، الباحثة عن شىء فى أمل . ثم رأى الطقم الملتف حول المسند ، ومغلاق المدفع ، والقذائف المحضونة بالركب بقوة ، والظهور المحنية تحت درع المدفع ، وأصابع المسدد الكهل يفستغنييف المتجمدة على اجهزة المدفع ،

المتدفئة ببخار انفاسه . وكان فى كل ذلك لا وقائية يائسة ، كانوا يحسونها قبل ان يبدأوا بالاطلاق ، وفى الوقت ذاته استعداد مشدد الى أقصى حد ، للأمر الاول ، كالاستعداد للقدر الزاحف اليهم جميعا بالتساوى ، مع هدير الدبابات المتقدم فى السهب .

ـ أيها الرفيق الملازم ، لماذا لا يطلقون النار ؟ لماذا هم صامتون ؟ انهم يزحفون علينا .

وأحس كوزنيتسوف وكأن صدره ينضغط تحت وطأة احساسات متضاربة : صوت المحركات المتعالى ، وسحنة تشوباريكوف الباحثة ، وصوته ، والتوتر الكئيب فى أوضاع الجنود ، والأمر الموشك على الانطلاق من حنجرته الجافة يوعز باطلاق النار (فقط ألا يطول الانتظار ، ان لا يطول الانتظار) والقشعريرة الزمهريرية فى ظهره ، وعودة تفكيره الملحف فى الماء . وصاح بتشوباريكوف مكرها نفسه على ذلك :

ـ لا تستعجل ! لا يبدأ فى اطلاق النار الا فى التسديد الثابت ... اسمع ، على اقرب مسافة ! انتظر ! .. هل تسمع ؟ انتظر ! ..

وفى غضون ذلك كان الخلاء الى يسار القرية

المحترقة ، الممتلئ بدخان كثيف ، قد أسود بمثلث الدبابات المطول الهائل ، المدبب الرأس استعدادا للضربة ، وكانت اجسامها المربعة الصفراء الرمادية تبرز وتختفى فى الظلمة ، وابراجها تهتز فوق شريط من الدخان ، وعاصفة الثلج التى اثارتها الجنازير تنبسط فوق السهب ، والدوامات التى تتناثرها سرعة الحركة تتخللها نفثات من الشرر منطلقة من انابيب التصريف . كانت القعقعة الحديدية ، والصريف يقتربان محتدمين ، والآن أصبح واضحا اهتزاز مدافع الدبابات ، ولطخات الثلج على اجسامها المدرعة .

ولكن الغريب أن الذين فى الدبابات المقتربة ، قرب نظارات التسديد ظلوا ينتظرون ، ولم يفتحوا النار ، عارفين ، كما يبدو ، قوة هجومهم الذى ابتدأ ، مجبرين بطارياتنا على أن تكون اول من يكشف عن نفسه . وانطلق فى السماء صاروخ احمر فجأة فوق هذه الكتلة المتدحرجة من الدبابات ، مطلقا الاشارات ، واذا بالمثلث يبدأ بالتجزؤ الى منعرجات من الدبابات . وأخذت مصابيحها تشتعل وتنطفئ ذئبوية ، خارقه نقاب الظلمة .

وصاح تشوباريكوف مديرا وجهه المصعوق :

ـ لم اشعلوا المصابيح ؟ يحثون على اطلاق النار ؟ لماذا ؟

قال المسدد يفستيغنييف مضخما صوته ، وهو راكع أمام منظار التسديد :

ـ ذئاب . وحوش حقيقية تطوق ! ..

رأى كوزنيتسوف من خلال المنظار أن دخان الحرائق المنتشر من القرية الى السهب يهتز برمته بشكل غريب ، وقد لمعت فيه بؤر حمراء لمعانا وحشيا ، وارتج هدير المحركات ، وانطفأت البؤر واشتعلت ، ولاحت فى ثقوب الظلمة المتراكمة ظلال واطئة عريضة ، متحركة تحت غطاء الدخان نحو خنادق الحراسة الامامية . وقد تزنق كل شىء فى كوزنيتسوف الى حد تحجر العضلات ، واستبدت به العجلة : ليت النار تطلق بسرعة ، بسرعة . فقط أن لا يطول الانتظار ، ولا اعدد اللحظات المميتة ، فقط أن افعل شيئا ما !

ـ أيها الرفيق الملازم ! ..

قال تشوباريكوف دون ان يصطبر ، زاحفا على بطنه ، على المتراس ، مبتعدا عن البؤر النارية الزاحفة ،

مديرا مرة أخرى وجهه الفتى بعينيه الجاحظتين ، محركا رأسه على رقبته الهزيلة .

— تسعمائة متر ... أيها الرفيق الملازم ... ماذا دهانا ؟

صاح يفستغنييف ، منحرفا عن منظار التسديد :

— أنا لا ارى الدبابات ، أيها الرفيق الملازم ، الدخان يغطى على .

— انتظر ، انتظر مائتى متر أخرى . قال كوزنيتسوف بصوت أجش ، مقنعا نفسه ايضا بأن يصطبر ، مهما يكن الأمر ، على هاتين المائتين من الامتار ، ولا يطلق النار ، مندهشا فى الوقت ذاته من دقة بصر تشوباريكوف فى تقدير المسافة .

— ايها الرفيق الملازم ... آمر البطارية يدعوك ... يسأ ل : لماذا لا تطلقون النار ؟ ماذا حصل ؟ لماذا لا تطلقون ؟ »

رفع سفياتوف جندى الاتصال قامته ، فلاح من خندقه الصغير ، كانت قبعته لا تكاد تستقر على رأسه الأشقر ، وقد دفعها شريط السماعة ، وضغط قفازه على

اذن واحدة ، وراح يتلقى الاوامر من التلفون وكأنما يلتقطها بفمه ، ويكرر بتلحين :

— الأمر باطلاق النار ! الأمر باطلاق النار ! « لا ، لنتريث . لو نتريث برهة أخرى ! أتراه هناك لا يرى ؟ لا يدرى ما هى الطلقات الأولى ؟ ... سنكشف عن أنفسنا حالا ، وينتهى الأمر ! »

قفز كوزنيتسوف الى الخندق قائلا : « اعطنى السماعة ، يا سفياتوف ! » وانتزعها من أذنه الوردية ، وصاح ملتقطا الكلمات المندفعة من طبلة السماعة :

— الى أين نطلق النار ؟ على الدخان ؟ هل تريد أن نكشف البطارية مقدما ؟

اندفع صوت درزدوفسكى من السماعة :

— هل ترى الدبابات ، يا ملازم كوزنيتسوف ام لا تراها ؟ اطلق النار ؛ آمرك بفتح النار ! .. فى هذه الدقيقة ! نار !

اجاب كوزنيتسوف همسا :

— من هنا أرى احسن منك ! — وألقى السماعة فى يد سفياتوف .

ولكن حين ألقى السماعة بنفس الفكرة السابقة ،

الشبيهة بقرار : « اذا كنا لا نصطبر ، ونكشف البطارية مقدما ، فانهم سيسحقوننا هنا » ، وما كاد ينتهى من التفكير بذلك ، حتى انفجر الهواء الى يمين البطارية ببريق وهدير . ومرق خط القذيفة الكاشفة فوق السهب ، ودخل منطفئا فى اللمعان الوحشى الى الأمام . ان مدفعا من مدافع دافلاتيان قد اطلق نيرانه . وفى الحال ردت الدبابات ، ووقع انفجار كالصدى الخاطف ، الى يمين المدفع المنطلق وخرقت رشقات حمراء من النار الظلمة الرجراجة أمام البطارية . لقد اخذت بعض الدبابات تخرج من الدخان اشباحا ثقيلة ، واتجهت مصابيحها ، الوامضة بوحشية ، نحو مواقع دافلاتيان ، وأختفى مدفعه القصى ، وغرق فى الفوران الاسود النارى للانفجارات .

وصدرت صيحة من الخندق :

— أيها الرفيق الملازم ! يبدو أن الفصيلة الثانية قد تحطمت .

وفكر كوزنيتسوف بغيظ « لماذا فتح النار مبكرا ؟ » وقد رأى هذه الدبابات قد دخلت فى مكان تماس مدافعه مع فصيلة دافلاتيان ، الا أنه ، رغم ذلك ،

لم يصدق أنها قد اصابتها كلها بهذه السرعة . ولبرهة من الوقت تصور الطقم المنبطح تحت المتراس ، والذى ضغطته على الأرض شظايا القذائف الصافرة فوق الرؤوس ، القاطعة بالنار ، وفجأة سمع صوته المجلجل المرتد فى اذنيه :

— نار على الدبابات الى اليمين ... التصويب على الامامية ! التسديد اثنا عشر ، القذائف خارقة الدروع ...

فى ذلك الجزء من الثانية ، أدرك وهو يحس احساسا غير محتمل بانكشافه ، قبيل أن يصرخ « نار ! » ، أنه لن يحتفظ فى المسافة التى أراد الاحتفاظ بها ، وأنه سيعرض الآن مدافعه الى الدبابات ، قبل الآوان ، الا أنه الآن لم يكن له الحق فى الانتظار . فنفث آخر كلمة من امره : نار !

اجتاحت موجة الطلقات اذنيه بألم حار .

ولم ير بوضوح مسار قذائفه . فقد شع خط مسارها شررا بنفسجيا ثم انطفأ فى كتلة الدبابات الرمادية المتحركة كعقارب متلاصقة . وكان من المستحيل تصحيح الهدف عليها بدقة ، فاسرع فى اصدار أمر جديد عارفا أن التباطؤ صنو الموت . وحين انطلقت

القذيفة الثانية مفرزة فى الظلام شواظا ، أخذ كل شىء هناك الى الامام ، يتوهج فى آن واحد بضراوة ، ويضىء ، ويتوامض مختلطا بخطوط القذائف الأخرى . وأطلقت البطاريات الأخرى من الضفة كلها سوية تقريبا ، مع مدافع كوزنيتسوف ، وفى اثرها أرعد الهواء ، متمزقا ، مسحوقا ، مرتجا . كانت خطوط القذائف الخارقة للدروع تمرق ، وتختفى فى رجات النار الحمراء المعاكسة . لقد كانت الدبابات ترد النار بالمثل .

كان كوزنيتسوف لا يسمع الا طلقات مدافعه ، مأخوذا بنشوة غامرة لعزلته المحطمة ، وصوته المتهلل فى حنجرته يصدح بالأوامر ، ولم يسمع الانفجارات القريبة وراء المتراس . لفحت وجهه لفحة هواء حار . ومرق صفير الشظايا فوق رأسه برجات متلظية . وما كاد يلحق أن ينحنى حتى كانت هناك حفرتان من حفر القنابل تدخنان مسودتين على بعد مترين من درع المدفع ، بينما وقع جميع رجال الطقم فى موقع الرماية ، ووجوههم الى الأرض ، وظهورهم ترتجف عند كل أنفجار جديد أمام المتراس . الا المسدد

يفستيغنييف ، الذى لم يكن له الحق فى ترك جهاز التسديد ، كان راكعا وحده على ركبتيه أمام الدرع ، حاكا مطاط المنظار بصدغه الأشيب على نحو غريب ، ويداه المتجمدتان تضغطان على جهاز التصويب . كان ينظر من جانب الى رجال الطقم الراقدين بعين متقدة ، صارخا بلا صوت ، متسائلا بنظرته عن شىء ما .

— الرقيب الثانى ...

واخرج الرقيب الثانى تشوباريكوف رأسه من خندق الآمر ، ووثب من هناك ، منحنيا ، معفرا بالتراب — والمنظار يتأرجح على صدره — وسقط على ركبتيه قرب المدفع ، وزحف نحو يفستيغنييف ، وهزه من كتفه وكأنه يريد ان يوقظه .

— يفستيغنييف ، يفستيغنييف !

صاح كوزنيتسوف ، وقد زحف ايضا الى المسدد :

— هل اصبت بالطرش ؟ مابك ، يا يفستيغنييف ؟ هل تستطيع التصويب ؟

نطق يفستيغنييف هازا رأسه :

— استطيع ، استطيع ... أذناى اصيبتا بالطرش ... ارفع صوتك بالأمر أكثر ... أعلى !

ومسح بكمه خط الدم القانى الذى سال من اذنه دون اهتمام به ، والتصق بجهاز التسديد .

— نهوض ! الجميع الى المدفع !

أوعز كوزنيتسوف بصوت حانق عجول ، مستعدا لأن يدفع الجنود الى المدفع بيديه ، شاعرا فى حنجرته بشىء حاد حانق :

— الجميع نهوض ! نهوض ! الى المدفع ! الجميع الى المدفع ! .. عبىء !

خرجت الدبابات ، وهى تتشكل بخط منكسر جبار ، وزحفت على طول الجبهة الى خط الدفاع الأمامى ، فائضة ، يمينا ، على طرف القرية المحترقة ، ملتفة عليها . وكانت مصابيحها تومض فى الدخان ، كما كانت . وكانت اضواء القذائف الكاشفة تتصالب ، وتلتقى ، وتنبسط على شكل مخاريط شعاعية ، مصطدمة بقذائف الدبابات الحادة المتتابعة المتوامضة .

وفى هدير المدفعية الكثيف أخذت تسمع خبطات ضعيفة للبنادق المضادة للدبابات فى خنادق المشاة . والى اليسار اجتازت الدبابات الوهدة ، وطلعت الى الشاطئ ، ودبت الى خندق الحراسة الامامية . فتصدت

لها البطاريات المجاورة والبطاريات التى كانت واقفة وراء النهر وراحت ترميها بنار حاجبة متحركة . والى الامام ، وراء القرية ، كانت ترى ايضا أسراب من طائراتنا المهاجمة تطير فى السماء الداخنة بلا صوت ، تهاجم من الجو موجة ثانية من الدبابات لم تلح للأبصار بعد . الا أن الشىء الذى لم يكن يواجه البطارية ، كان لا ينعكس فى الوعى الا كخطر بعيد . احاطت الموجة الاولى من الدبابات بدفاع الشاطئ بنصف حلقة ، فى حركة متعرجة ، وأخذ ضوء مصابيحها يضرب العيون متجها مباشرة نحو المدافع . وصار كوزنيتسوف يميز بوضوح كلى وسط الدخان الجسمين الرماديين للدبابتين الاماميتين أمام المواقع الامامية للفصيلة تماما ، وبعد أن هتف بأمره للطقم الذى اندفع الى المدفع ، التقط فى عدسة منظاره ، بعد الطلقة الأولى مباشرة ، خط القذائف المنقط الخاطف أوطأ من الدبابات الخارجة من الفوران المظلم .

— أعلى ! الى قاعدة البرج ! اسرع ! يفستيغنييف ! الى قاعدة البرج ! نار !

الا أنه لم تعد ، ثمة ، حاجة لاستعجال الرجال .

فقد كان الطقم يتحرك ، وكأنهم مأخوذون : كانت القذائف تمرق خطفا فوق مؤخرة السبطانة ، وتسحب يدان ذراع المغلاق ، وترتمى أجسام على المسندين فى نخير وأنين ، عند ارتداد المدفع . وكان الرقيب الثانى تشوباريكوف يكرر الأوامر وكأنه يلتقطها بوجهه كله . راكعا على ركبتيه قرب يفستيغنيف ، الذى لم يكن يحول بصره عن مطاط منظار التسديد .

— ثلاث قذائف ... تباعا !

صاح كوزنيتسوف فى نشوة حانقة ، وفى توحد مع الطقم متحمس مميت ، وكأنما لم يكن فى العالم شىء آخر يوحدهم هذا التوحد الاخوى .

وفى تلك اللحظة بالذات بدا له أن الدبابة الامامية، وهى تشق الدخان ببرجها ، قد اصطدمت بصدرها المائل فجأة ، فى لهوجة ، واثناء سيرها ، بشىء ما ، وأخذت تدور فى مكانها مرسلة زعيقا ضاريا من محركها ، وانفرزت فى الأرض مثل مثقاب ضخم مكدوم .

صاح تشوباريكوف باندهاش وفرح مديرا رأسه على رقبته الطويلة ، ضاربا قفازه على جنبه كالمرأة :

— بالجنزير ! .. ايها الرفيق الملازم !

— اربع قذائف ... تباعا ، بسرعة !

أمر كوزنيتسوف ، وكأنه فى غيبوبة ، سامعا صرخة تشوباريكوف وغير سامعها ، وهو لا يرى الا المظاريف الداخنة تطير من مؤخرة السبطانة ، والطقم عند كل طلقة ، وعند ارتداد المدفع يرتمى على المسندين الناطين .

ظلت الدبابة تدور فى مكانها ، وقد انفك جنزيرها متحولا الى شريط مسطح . وكان برجها يدور ايضا ، وماسورة مدفعها الطويلة تتحرك بارتجاج ، مصوبة نحو المربض . بصقت الماسورة نارا معوجة ، ومع انفجار وزعيق الشظايا ، المتلظى فوق الترس تناثر على درع الدبابة شعاع كالمغنسيوم . ثم زحفت عليها افاعى اللهب مثل عظايا خاطفة . وصاح كوزنيتسوف بنفس الحدة العارمة من الفرح والبغض :

— يفستيغنييف ! .. شاطر ! .. هكذا يجب ! شاطر !

ارتجت الدبابة رجة عشواء الى الأمام ، والى جانب ، مرتعشة ارتعاش كائن حى ، وكأنما من النار التى لسعت جوفها ، وانتفضت ووقفت أمام المدفع بانحراف .

وفى تلك اللحظة بدا وكأن ميدان القتال ، المملوء فى رحابته كلها بزلزال هجوم الدبابات ، وقصف البطاريات المجاورة قد اختفى . لقد أختفى كل شىء ، وأنزاح ، وتجمع ، وكأنه نقطة واحدة ، والتقى فى تلك الدبابة الامامية ، وراح المدفع يقصف ، بلا انقطاع ، جنبها المعروض الذى مازال حيا ، بصليبه الأبيض ، هذا العنكبوت الخطر بشكل مميت ، الجسم الآتى من كوكب آخر كما بدا .

أوقف كوزنيتسوف النار فقط ، حين خرجت الدبابة الثانية من الدخان وكأنما من غوص ، وكبرت خلال بضع ثوان ، وأطفأت مصابيحها ، وانعطفت يمينا وشمالا ، وكأنها تتحاشى تصويب المدفع ، ولحق كوزنيتسوف أن يسبق طلقتها الأولى :

— على الدبابة الثانية ، بقذيفة خارقة للدروع !..

شقت طلقة الدبابة الجوابية الأرض أمام المتراس بهدير . سقط كوزنيتسوف على موقع المدفع ، وهو يفكر ان الدبابة قد حددت موضع المدفع عن قرب ، وزحف الى الطقم فى غمامة البارود الطالعة من المتراس خانقة ، ولم تتبين له رأسا الوجوه الملطخة بالسخام ،

السوداء سواد الاردواز ، الجامدة فى انتظار الطلقة التالية ، ورأى يفستيغنييف ، الذى ترنح مبتعدا عن جهاز التسديد ، ونطق فى زفرة :

— صوب ! لا تنتظر ! .. يفستيغنييف ! تشوباريكوف !

كان الرقيب الثانى تشوباريكوف مستلقيا على جنبه على المتراس ، وقد فرك جفنيه بكلتا يديه ، وكرر مشدوها :

— أنا لا أرى ... دخل الرمل فى عينى ... الآن ...

وأثارت قذيفة الدبابة الثانية ، ركاما مسحوقا من التراب ، وانقدحت الشظايا على درع المدفع ، وغص كوزنيتسوف بنفثة مقززة من سخام التولاين ، ولم يستطع أن يلتقط انفاسه ، وطلع الى المتراس ليرى الدبابة ، ولكن ما هى الا نظرة حتى لذعته فكرة لذع تيار كهربى : « النهاية ! الآن سينتهى كل شىء ... أمن المعقول الآن ؟ » .

— يفستيغنييف ، نار ! نار !

كان رجال الطقم يضطربون فى الدخان ، ووجوههم السوداء المزيتة تلمع ، كانوا يعبئون المدفع

راقدين ضاغطين على المسندين . بل وبدت يدا يفستيغنييف الحمراوان الضخمتان قد كفتا عن الحركة ، وجمدتا على عجلة التدوير ، وقد ألصق عينا واحدة على جهاز التسديد . وكانت القبعة تضايقه ، فكان يدفعها طوال الوقت ، وأخيرا دفعها بمطاط جهاز التسديد . وقعت القبعة من رأسه العرق ، سارحة على ظهره . وتحرك يفستيغنييف على ركبتيه ، وقد طلع بخار من علبائه العريضة المتوترة ، وشعره المتلبد . ثم أخذ كتفه يتحرك . وارتفعت يده اليمنى فى الهواء ، وتلمست زناد الاطلاق لمسات متقطعة . كانت تتحرك ببطء غير واقعى ، وكأنها فى حلم مزعج ، كانت تبحث عن زناد الاطلاق برقة متريثة ، وكأنما لم تكن هناك معركة ، ولا دبابات ، مجرد أن عليها أن تتلمسه ، وتفحصه ، وتمسده .

— يفستيغنييف ! .. قذيفتان ! .. نار ! ..

رشقت صليات من الرشاشات المتراس ، ناثرة التراب على درع المدفع . ودوى محرك مصم بشهقات فوق الرؤوس . ونفذت القعقعة والصريف الى الصدور والآذان والعيون ، وضغطتا على الأرض ، حتى كان

من المستحيل ان ترفع رأسك . ولثانية تخيل كوزنيتسوف أن الدبابة ستظهر فى اللحظة التالية فوق المدفع ، بشراسة عارمة ، وتسحق سدة المتراس بمخالب جنزيرها الحديدية ، ولا يستطيع أحد أن ينسل ، ويركض مبتعدا ، ويصرخ ... « ما دهانى ؟ .. نهوض ، نهوض ، نهوض ... ! » .

— يفستيغنييف ! قذيفتان ، نار !

اطلق المدفع قذيفتين . ضربتان قويتان على طبلات الآذان ، وظرفان فارغان طارا برنين وبخار من مؤخرة السبطانة الى كومة المظاريف المطلقة من قبل ، وقد فقدت سخونتها . وعندئذ نط كوزنيتسوف من الأرض ، وطلع على حافة المتراس ، لكى يلحق أن يلاحظ خط سير قذائفه ، ويصلحه .

لفح وجهه شىء حاد نارى نافث ، وكأن حجر مسن هائلا كان يدور أمام عينيه . كانت شرارات كبيرة تخرج منقدحة من درع الدبابة — كانت قذائف أخرى تنطلق نحوها من جنب ، ومن يسار ، حيث كان يقع مدفع اوخانوف ، ثم اهتز انفجار أصم ،

دفع الدبابة الى الوراء ، وتصاعدت فوقها نافورة كثيفة من دخان النفط .

وفجأة أحس كوزنيتسوف مثل احساس بالدموع بانضغاط ساخن حلو فى حنجرته مع ايمان صارخ فى سعادته السهلة ، فى توقيعه ، وفى الأخوة المسلم بها فى هذه اللحظة . لقد رأى وأدرك أن مدفع اوخانوف الى اليسار هو الذى كان يجهز على الدبابة المقتحمة ، بعد القذيفتين اللتين اطلقهما يفستيغنييف بدقة وتسديد مباشر .

كان كل شىء الى الامام ينبض بحمرة قانية داكنة ، وكل شىء على الشاطىء الأيسر قد التهمته بؤر الحرائق ، وكان القصف المستمر من المدفعية قد أحدث فى هذه النار خروقا سوداء . واختلطت الانفجارات السريعة ، وأدخنة القرية الملتهبة بالأدخنة الثقيلة الكثيفة التى أرتفعت وسط نصف الدائرة الهائلة التى شكلتها الدبابات ، واندمجت فوق السهب مثل ستار كثيف ، ومن تحت هذا الستار المضاء من الأسفل بنيران الدبابات المحترقة كانت الدبابات تدب خارجة بلا انقطاع ، وبالحاح ، مضيقة نصف الدائرة حول دفاع الشاطى الجنوبى . ان

هجوم الدبابات لم يحبط ولم يفتر تحت النار الدائمة من المدفعية ، بل تباطأ قليلا فقط ، فى وسط نصف الدائرة ، وشدد وركز الضربات على الجناحين فى وقت واحد . لقد كانت صواريخ الاشارة ترتفع هناك واحدة تلو الأخرى بلا انقطاع ، والدبابات تنعطف بأسراب طويلة ، نحو اليمين ، وراء المرتفع التى كانت تتخندق فيه نقطة المراقبة للبطارية ونحو اليسار ، الى الجسر الذى كانت أمامه البطاريات المجاورة .

— الدبابات الى اليمين ! اخترقت !

نفذت هذه الصيحة الى وعى كوزنيتسوف ، واذا به يرى ، وهو غير مصدق بعد ، ما لم يكن يتوقعه .

صاح صوت آخر :

— الدبابات فى البطارية !

وبرقع السماء الدخان فوق السهب ضاغطا وحاجبا الشمس التى كانت تبدو مثل قطعة نحاس مغبرة . وفى كل مكان الى الامام كانت تمزقه الطلقات ، وتغلى فيه أمواج النار التى بدت وكأنها مضاءة من تحت الارض بشكل جهنمى ، ويزحف على البطارية ، وينزل على المتاريس ، وفجأة خرجت من هذا المزيج الفائر ظلال

هائلة لثلاث دبابات يمينا أمام موقع دافلاتيان . بينما كان مدفع دافلاتيان صامتا .

« الا يوجد احد هناك ؟ هل هم احياء ؟ » فكر بذلك كوزنيتسوف ، وكانت الفكرة التالية واضحة تماما : لئن خرجت الدبابات الى مؤخرة البطارية فانها ستحطم جميع المدافع واحدا تلو آخر .

— على الدبابات الى اليمين !

والتقط أنفاسه غاصا بالصيحة مدركا انه لن يستطيع أن يفعل شيئا ، اذا لا يطلق دافلاتيان النار فورا . وصاح :

— ادر المدفع ! .. الى اليمين ، الى اليمين ! اسرع ! يفستغنييف ! تشوباريكوف ! ..

واندفع الى الطقم الذى كان يسحب المسندين وينقلهما بكل قوة رجاله ، ضاغطين بأكتافهم على العجلتين ، والدرع ، نافثى اللعنات ، مجاهدين ان يديروا المدفع خمسا واربعين درجة الى اليمين . وقد رأوا ايضا الدبابات هناك . كانت الأيدى تتحرك بجلبة ، وتتشابك ، وتنزلق الأحذية على التراب ، وترف عيون مشبعة توترا ، بارزة ، وظهر أمام الدرع وجه

يفستيغنييف المنتفخ المتفصد عرقا . كان يسند رجليه على المتراس ، ويدفع عجلة المدفع بكل جسمه ، وماتزال خطوط دقيقة من الدم تسيل من أذنه على ياقة معطفه . والظاهر أن طبلة أذنه قد اصيبت .

نخر يفستيغنييف قائلا :

— أكثر .. هيا .. أكثر !

— المدفع الى اليمين ! اسرع !

— هيا ، أكثر ! ..

كانت الدبابات التى اخترقت دفاع البطارية تقتحم خارجة من غيهب الحرائق الأحمر ، وسارت نحو موقع دافلاتيان . وكانت الحركة تزيح الدخان عن دروعها .

صاح صوت فى حنق :

— أمن المعقول أن جميعهم قد قتلوا هناك فى الموقع ؟ لماذا لا يطلقون ؟ أين هم ؟

— اسرع ! اضغطوا ! الجميع دفعة واحدة !

تحشرج صوت يفستيغنييف مكررا :

— الى اليمن أكثر ! .. أكثر ! ..

وحول المدفع الى اليمين ، وثبتت الجذوع الخشبية

تحت سكك اخمصه ، وأرتفعت ماسورة المدفع فوق المتراس سريعا ، بعد أن أدار يفستيغنييف عجلتى التحريك بسرعة ، وكانت التقددات على خديه القذرين العرقين قد انتفخت . الا أنه بدا من غير الممكن الآن الصبر على الثوانى اللانهائية ، كالأبد ، الثوانى التى تستغرقها عملية التصويب . وفى تلك الثوانى المستنفدة كان كوزنيتسوف لا يسمع غير ايعازه : « نار ! نار ! نار ! » ، وكان هذا الايعاز الذى كان يصمه هو نفسه ، يبدو وكأنه يدفع رجال الطقم فى ظهورهم ، ومن علبائهم ، وأكتافهم ، ومن أيديهم العاملة بعصبية ، والتى لم تكن تلحق ان تسبق زحف الدبابات المتحركة .

وخطرت ببال كوزنيتسوف فكرة : « هل من الممكن ان يكتب لنا ان نموت جميعا الآن ؟ الدبابات تنفذ الى البطارية ، وتبدأ بسحق الطقوم والمدافع ! ماذا حدث لدافلاتيان ؟ لماذا لا يطلق رجاله النار ؟ احياء هم ؟ لا ، لا ، لابد أن افعل شيئا ...

وما هذا الذى يسمى بالموت ؟ لا ، لا يجوز أن يقتلونى ! .. لا ، يجب أن افكر فقط بأننى لن أقتل ، وعندئذ لن أقتل ! يجب على أن أتخذ قرارا ،

يجب ان افعل شيئا ! حتى وان لم يكن هناك أحد قرب المدفع ! .. »

ووصلت الى وعيه صيحة تشوباريكوف « لم ندر المدفع الدورة اللازمة أيها الرفيق الملازم ! » . وكان ينظر الى كوزنيتسوف هازا برأسه وماسحا جفنيه باصابعه ، وكأنه كان يذرف دموعا حمراء .

ـ نار ! نار ! نار على الدبابات !

صاح كوزنيتسوف آمرا ، وقفز بغتة ، وكأن شيئا جعله ينتصب ، واندفع نحو خندق الاتصال غير العميق الذى لم يتم حفره بعد . وقال :

ـ أنا ذاهب الى هناك ! الى الفصيلة الثانية ! حل محلى ، يا تشوباريكوف ! انا ذاهب الى دافلاتيان ! ..

وركض فى خندق الاتصال غير الكامل متجها الى مدافع الفصيلة الثانية الصامة ، منحشرا بين جدارى الخندق الترابيين الضيقين ، غير عارف بعد ماذا يفعل فى مواقع دافلاتيان ، وماذا يمكن ان يفعل ، وماذا يقدر ان يفعل . كان خندق الاتصال يصل فى عمقه الى وسطه ، فكانت ترتعش أمام عينيه الشربكة النارية

للمعركة : طلقات ، وخطوط القذائف الكاشفة ، وانفجارات ، وادخنة كثيفة وسط حشود دبابات ، وحريق فى القرية . والى اليمين سارت ثلاث دبابات مترنحة بيسر فيما يعرف بـ « الزاوية الميتة » — خارج المنطقة التى تصل اليها نيران البطاريات المجاورة ، وكانت على بعد مائتى متر عن مواقع دافلاتيان . وبعد ذلك لمع اللهب فى مواسيرها الطويلة ، وابتلعت الانفجارات على المتراس هدير المحركات ، وانطلقت الرشاشات فى اللحظة ذاتها فوق كوزنيتسوف مباشرة بخطين مزدوجين .

« فقط ان لا يحدث الآن ... أن لا أجرح وأنا فى الخندق ! .. ماذا استطيع ان افعل الآن ، فى هذه الثوانى ؟ .. اركض الى المدفع ، وتكون النهاية ؟ .. »

وليأسه من أنه لا يستطيع الآن ، ولا يحق له أن يعود ادراجه ، بل يركض للقاء الدبابات ، لحتفه القريب ، كما بدا له ، صاح مناديا على نحو مرعب ، شاعرا بالقرص على خديه :

— دافلاتيان ! .. الى المدفع !

وطلع من طرف خندق الاتصال متسربلا بالعرق ، أسود ، ملطخ المعطف بالطين ، وسقط على موقع الرماية ، وهو يصيح بصوت مبحوح :

— الى المدفع ! الى المدفع !

وما رآه على الفور فى موقع دافلاتيان ، وما احس به رأسا كان شيئا فظيعا . حفرتان عميقتان طريتان من الحفر التى تحدثها القنابل ، وأكداس من الأجساد بين مسندى المدفع ، ووسط مظاريف القذائف الفارغة ، وعند المتاريس كان رجال الطقم يرقدون فى أوضاع غير طبيعية مضغوطة . وكانت وجوههم الطباشيرية ، وقد بدا شعرها الأسود النامى قد لصق عليها بالفراء ، مغروزة فى الأرض ، فى الأصابع البيضاء المنشورة . كانت أرجلهم مطوية تحت بطونهم ، وأكتافهم منكمشة ، وكأنما كانوا يريدون على هذا النحو أن يحفظوا آخر دفء للحياة . ومن هذه الأجساد الملتوية ، والوجوه البيضاء السوداء ، كانت تنبعث رائحة الموت الباردة . ولكن هنا أيضا ، كان ، ثمة ، احياء ، على ما يبدو . فقد بلغته من الخندق أنات ، وهمهمات ولكنه لم يلحق أن يلقى نظرة الى هناك .

نظر الى عجلة المدفع التى حطمته الشظايا ، وكان ثمة رجلان يلتبطان تحت المتراس . وأرتفع من الأرض ببطء وجه المسدد كاسيموف المدمى العريض ، الوجنتين ، بعينين زجاجيتين ، كفثتين ، وكانت احدى يديه تتشبث فى عجلة ، غارزة اظافرها السود فى مطاطها . والظاهر أن كاسيموف كان يحاول النهوض ، وجر جسمه الى المدفع ، الا أنه لم يكن يستطع ذلك . كانت أصابعه تعرف باظافرها ، وتنزلق على المطاط الممزق . ولكنه قوس صدره ، وامسك بالعجلة من جديد ، وصرخ بلا ترابط :

— اذهبى ، يا اخت ، اذهبى ! لازم أن أرمى ... لماذا تدفنيننى ؟ انا شاب بعد ! اذهبى ! مازلت حيا ... سأعيش !

وكأن جسمه القوى قد كسر عند الخاصرة ؛ كان سائل احمر يسيل من تحت جنبه المضمد ، وكان هو فى بحران الجرح ، فى حالة الغيبوبة التى كانت وكأنها تبعده عن الموت .

صاح كوزنيتسوف :

— يا زويا ! .. اين دافلاتيان ؟

كانت زويا ترقد الى جانب كاسيموف تحت المتراس ، تضع ضمادة نظيفة على بطنه ، فوق القميص المبلل ببقع حمر مباشرة ، ماسكة اياه منحية طرفى سترته المبطنة ، وكان وجهها شاحبا ، مبوزا ، عليه خطوط داكنة من السخام ، وشفتاها مزمومتين ، وشعرها نافرا من تحت القبعة — وجها غريبا غير جميل خاليا من الفرح ، عليه تعبير غير مألوف .

حين سمعت صياح كوزنيتسوف جفلت كأنما من ضربة ، ورفعت عينيها المفعمتين بالاستغاثة ، وحركت شفتيها الخاليتين من الحياة ، الا ان كوزنيتسوف لم يسمع آى صوت . ومضى كاسيموف يصرخ فى غيبوبته :

— اذهبى ، اذهبى ، يا اخت ! ساعيش ! لماذا تدفنيننى ؟ لازم ان ارمى ! ..

ولأن كوزنيتسوف لم يسمع صوتها ، بل صياح كاسيموف الهاذى وحده ، ولأن كلا من زويا وكاسيموف لم ير ولم يعرف أن الدبابات المخترقة تتجه الى موقعهما رأسا عانى كوزنيتسوف مجددا من الاحساس الغريب باللاواقع . وكأنما لم يكن يكلفه سوى أن يضغط على نفسه ، وينفض رأسه ، ليستيقظ من الحلم

الكابوسى فى الصباح الساكن الهادئ ، والشمس خلف النافذة ، والورق الملصق على جدار الغرفة ، ويتنفس الصعداء لأن ما رآه قبل لحظة ما هو الا حلم.

الا أن ذلك لم يكن حلما .

سمع فوق رأسه شهقات قريبة مصمة لمحركات الدبابات ، والى الامام ، امام المدفع لعلعت صليات صارخة من الرشاشات ، حتى بدا وكأن الرمى يجرى من على بعد خمسة امتار وراء المتراس . وادرك هو وحده أن هذه الأصوات كانت أصوات الهلاك المقترب .

— زويا ، زويا ! الى هنا ، الى هنا ! عبئى ، وانا الى جهاز التسديد ، وانت عبئى ! ارجوك ، زويا !..

كانت بكرات جهاز التسديد زلقة جدا ، وكان مطاط جهاز التسديد يلتصق بأسفل الجبين ، وتنزلق دفات التدوير فى اليدين — كان دم كاسيموف قد تناثر على جهاز التسديد ، غير أن كوزنيتسوف لم يفكر بذلك الا خطفا — تحرك خطا الصليب الاسودان فى عدسة التسديد الى الأعلى والى الأسفل ، ثم الى جانب ، وفى وضوح العدسة الحاد التقط كوزنيتسوف جنزيرا متحركا هائلا على نحو لا يصدق ، بالثلج الملتصق

عليه بقوة والمتناثر منه فى الحال ، جنزيرا قريبا واضحا على نحو بدا فيه وكأنه قد حجب كل شىء ، وزحف على جهاز التسديد نفسه ، وها هو يخدش حدقة العين . وغشى على عينى كوزنيتسوف عرق حار ، وصار كل شىء يرتعش فى جهاز التسديد ، كما فى الضباب .

— عبئى ، يا زويا !

— لا اقدر ... الآن ... فقط أن اسحب ..

— اقول لك ، عبئى ! قذيفة ! قذيفة !

وأشاح وجهه عن جهاز التسديد عاجزا : كانت زويا تبعد جسد كاسيموف المتوتر عن عجلة المدفع ، وتضعه لصق المتراس تماما ، وعندئذ فقط رفعت قامتها ، وكأنما لم تفهم شيئا بعد ، محدقة فى وجه كوزنيتسوف الجزع الذى شوهه العجز .

— عبئى فورا ، قلت لك ! الا تسمعين ؟ قذيفة ! قذيفة ! من الصندوق ! .. قذيفة !

— نعم ، نعم ، يا ملازم ...

وتقدمت مترنحة من الصندوق المفتوح قرب المسندين ، وسحبت منه قذيفة بأصابع متشبثة ، وعندما

دفعت بها فى مؤخرة السبطانة المفتوحة ، وانقفل التراس ، سقطت هى قرب المسند ، مقلصة عينيها .

انه لم ير ذلك . ان سواد الجنزير الدائر الهائل كان ينسل الى جهاز التسديد ، ويتحرك فى حدقته ذاتها ، وكان الهدير العالى لمحركات الدبابات يضغط ، ويكبسه على المدفع ، ويدخل فى صدره حارا خانقا ، ورنت الارض رنينا حديديا وارتعشت . وخيل اليه أن ذلك هو ارتجاف ركبتيه المثبتتين فى الأرض المتعرجة ، او ربما ارتعاش يده ، المستعدة للضغط على زناد الاطلاق ، واهتزاز قطرات العرق فى عينيه اللتين كانتا تريان فى تلك اللحظة ما لم تستطع هى ، ان تراه ، وقد قلصت عينيها فى انتظار الاطلاق . وكأنها لم تر ولم ترغب فى ان ترى تلك الدبابات التى نفذت على بعد خمسين مترا من المدفع .

أما الخطان المتقاطعان فى عدسة التسديد فما كان فى ميسوره أن يلتقط نقطة واحدة ، فان شيئا اسود هائلا مصلصلا غطى على كل شىء . وحجب العالم كله .

ضغط على الزناد ، ولم يسمع طلقات الدبابات تسدد عليه مباشرة .

الفصل العاشر

رمت كوزنيتسوف عن المدفع قوة رهيبة ، ولطمت صدره بشىء صلب حديدى ، وبوعى غامض ، ورنين فى الرأس رأى نفسه ، لسبب ما ، تحت الاغصان الداكنة لشجرة الزيزفون الموجودة قرب مدخل البيت ، والمطر يزمزم خلالها ، وأراد أن يفهم ما هو الشىء الذى أصابه فى صدره بألم بهذا القدر من البغض ، وهو الشىء الذى سفع الشعر على علبائه بموجات لاهبة . أحس بميل الى التقيؤ ، الا أنه لم يتقيأ ، ومن هذا الأحساس برقت فى وعيه بريقا كدرا فكرة أنه ما يزال حيا ، فشعر فى الحال بأن فمه مملوء بشىء مالح دافئ ، ورأى ، وكأنه من خلال غشاوة ، بقعا حمراء على كفه المعفرة بالتراب ، المضغوطة على وجهه . وفكر مع نفسه « أهذا دم ؟ من اين ؟ هل أنا مجروح ؟ ما هذا ؟ »

— يا ملازم ! يا عزيزى ! ملازم ! ماذا بك ؟

ورفع رأسه باصقا دما ، محاولا أن يفهم جلى امره .

وفكر متذكرا « لماذا نزل المطر ، وانا واقف تحت شجرة الزيزفون ؟ أية شجرة زيزفون هذه ؟ أين كانت ؟ فى موسكو ؟ فى الطفولة ؟.. ماذا بدا لى ؟ »

كان يرقد وصدره على صندوق قذائف مفتوح ، بين مسندى المدفع ، وقد قذفت به عن درع المدفع موجة من الانفجار . وقد شق الجانب الأيمن من الدرع ، وتدلى وقد شوهته الشظايا تشويها فظيعا . وتقوض الجانب الأيمن من المتراس وخلفت فيه قذيفة حفرة عميقة ، وأحترق محببا ، وعلى بعد عشرين مترا كان حريق هادئ ، ولكنه يزداد اشتعالا ، يسرى فى ذلك الشىء الحديدى الهائل المصلصل الذى كان قد زحف ، قبل حين ، على المدفع ، أهوج ، حاجبا العالم كله .

وكانت الدبابة الثانية تقف قريبة جدا من هذا الحريق ، وقد أدارت ماسورة مدفعها المنكس الى اليسار ، فى ناحية الجسر ، وتصاعدت منها خطوط طويلة كالمجسات من دخان المازوت .

كانت القذائف تنطلق من الدبابة الأولى برجات زاعقة ، والبرج يهتز ، والجنزير يصلصل ويرتعش . ان هذه الدبابة ماتزال على قيد الحياة . وكانت تنتشر

فى الهواء الرائحة الكريهة القليلة الحلاوة ، رائحة اللحم المشوى المخلوطة برائحة زيت محروق .

وتذكر كوزنيتسوف مخنوق الأنفاس من الرائحة المقززة ، ومفكرا بكل ما حدث « أنا الذى اصبت الدبابتين ؟ ومتى جرحت ؟ وأين جرحى ؟ اين زويا ؟ كانت على مقربة ... »

— زويا ! نادها ، وعاد اليه غثيانه .

— ملازم ... عزيزى !

كانت تجلس تحت المتراس ، تنتزع وتفك ازرار الصدر ، فاقدة السمع ، كما يبدو مغمضة العينين . ولم تكن القبعة البيضاء الانيقة على رأسها ، فكان شعرها المخلوط بالثلج مسترسلا على كتفيها ، وعلى وجهها ، حتى كانت تلتقط بعض الشعرات بأسنانها البيضاء ، وتعضها .

— زويا !

عاد يناديها همسا ، وحاول ان ينهض ، وينتزع جسمه الثقيل كالحديد من صندوق القذائف ، من الرؤوس الفولاذية للقنابل المضادة للدبابات ، التى كانت تضغط على صدره . الا أنه لم يستطع ان يفعل ذلك رأسا .

دفعت زويا شعرها بحركة من رأسها ، ورمقته من الأسفل الى الأعلى بنظرة عذاب مكبوت وألم ، وهمست بشيء . ولم يتبين صوتها من خلال الرنين الطويل فى اذنيه ، ولكنه لاحظ فيما بعد أن بصرها كان يتجه الى يد كاسيموف التى تكشط الأرض بأظافرها ، خارجة من وراء عجلة المدفع .

ورأى كومة الجسد الداكن الساكن ، المغروز رأسه فى حافة المتراس . وكان كاسيموف قد كف عن الانين . وانكفأ على وجهه ، وقد مزقت الشظايا سترته المبطنة ، وتناثرت على ظهره كتل سود من التراب والثلج المخلوط بالبارود المحترق قذفها الانفجار ، وانعكف بوزا حذائه الى الداخل . كانت الحياة ما تزال تدب فى يده وحدها . ورأى كوزنيتسوف ايضا تلك الأصابع الكاشطة .

ابتلع البلل المالح قليلا ، الذى كان يملأ فمه ، وأراد ان يصيح على زويا بأن كليهما قد أصيب بصدمة انفجار ، وفقد سمعه ، وأن كاسيموف يحتضر ، ويجب نقله الى المشكاة وراء المدفع ، نقله حالا ، وبأقصى سرعة . ولم يكن يفهم لماذا عليهما أن يفعلا

ذلك بأقصى سرعة . ولماذا تتأخر زويا ، حين لا يجوز التأخر ثانية واحدة ، لأنه لم يبق سواهما فى هذا الموقع ...

— زويا !

نادى مرة أخرى ، وبصق دما ، والتقط أنفاسه ، وانسل من صندوق القذائف الى تحت المتراس ، وامسكها من كتفيها بكلتا يديه ، وخاطبها بأمل وعجز :

— زويا ! هل فقدت السمع ؟ ألا تسمعين ، يا زويا ؟

هل جرحت ؟ جرحت ؟ زويا ! ..

ولم يقاوم كتفها تحت يديه ، بل قاومت عيناها وشفتاها المزمومتان تحت خصلات شعرها . وفجأة مسحت الدم من ذقنه بطرف ظاهر لقفازتها فرأى دمه هو على قفازتها .

صاح فى وجهها :

— هذا هراء ... افقدونى سمعى واصطدمت بالصندوق ! انظرى ، يا زويا ، ماذا حصل لكاسيموف! هل تسمعين ؟ اسرعى ! على أن اعود الى المدفع ! .. يبدو أن كاسيموف ...

ونهض بصعوبة مترنحا من الدوار الغائم ، واتجه نحو مسندى المدفع ، مستعدا لأن يندفع نحو صندوق القذائف ، نحو جهاز التسديد ، الا أنه فى تلك اللحظة لمح زويا تزحف نحو عجلة المدفع ، وسمع صوتها :

— ملازم ... عزيزى ، ساعدنى !

وسحب الاثنان كاسيموف الى مشكاة القذائف . وانحنت زويا ، وكانت راكعة على ركبتيها طوال الوقت ، واخذت تتحسس بيديها ، صدره ، والضمادات القديمة الوسخة على بطنه ، المنتفخة ببلل بنى ، والممزقة بالشظايا .

اسبلت يديها ، ورفعت ظهرها اخيرا ، ونظرت فى وجه كاسيموف بعينين فاهمتين كل شىء . وفهم كوزنيتسوف : لقد قتل كاسيموف بشظايا اصابته فى صدره وكما يبدو فى اللحظة التى أراد فيها ان ينهض الى جهاز التسديد ، حين انفجرت القذيفة الأخيرة على المتراس ...

« يجب اطلاق النار ! أنا استطيع ان أرمى ! على هذا الدخان ، على الدبابات ، على هذه الصلبان ، على السهب . فقط أن يكون المدفع سليما ، وجهاز التسديد

غير محطم ... » كانت هذه الافكار تدور فى رأسه ، حين نهض ، كالسكران ، واتجه نحو المدفع . ونظر ، وتلمس عدسة التسديد بيديه ، متخوفا مسبقا من أن يجد عليها آثار تخريب . وقد اكتشف أنها سليمة ، ولم تصب بالشظايا ، وجعله ذلك يستعجل ، بل ان اصابعه أخذت ترتعش من قلة الصبر .

وأوعز دون صوت ، ودون أن يسمع نفسه : « قذيفة ! قذيفة ! » وبعد أن عبأ القذيفة لصق عينيه بسرعة ونهم على عدسة التسديد ، وأطبق اصابعه بقوة شديدة على بكرتى الانعطاف والرفع ، حتى بدا لنفسه هو أنه قد أندمج بماسورة المدفع الزاحفة على دوامة الدخان ، وكأن المدفع كان يطيعه مثل كائن حى ، ويصغى له ويفهمه مثل قريب له :

— نار !

« سأجن ! » فكر كوزنيتسوف وقد أحس بكراهيته هذه لموته المحتمل ، واندماجه هذا بالمدفع ، وحمى الجنون هذه الشبيهة بتحد ، مدركا بحاشية وعيه فقط ما هو فاعل .

وبنفاد صبر التقطت عيناه فى الخطين المتقاطعين فى

عدسة التسديد توشيات الدخان السوداء ، والتماعات النار المقابلة ، وجوانب الدبابات الصفر ، وهى تدب مثل قطعان حديدية الى اليسار واليمين امام الوهدة ، كانت يداه الراعشتان تقذفان القذائف فى فم مؤخرة السبطانة ، واصابعه تضغط على الزناد بتلمس عصبى عجول . وكان مطاط عدسة التسديد المبلل كله بعرقه يضرب اسفل جبينه ، فكان لا يلحق تتبع كل مسار لقذائفه المضادة للدروع ، النافذ الى الدخان ، اعاصير النار والدبابات ، ولا يستطيع أن يلتقط بدقة نقطة سقوطه . الا أنه لم يعد قادرا الآن على التفكير ، والحساب ، والتوقف ، فكان يطمئن نفسه ، وهو يرمى ، أن قذيفة واحدة على الاقل ستصيب الهدف . وفى الوقت ذاته كان مهيئا لأن يضحك ، وكأنما من سعادة ، حين رأى ، وهو يندفع الى مؤخرة السبطانة ، ويعبئ ، صناديق القذائف مغتبطا بأنها تكفى لوقت طويل . وكان يهتف من خلال دوى المدفع :

— اوباش ! اوغاد ! اكرهكم !

وفى أحدى الفترات بين طلقة وأخرى ، حين ارتد عن عدسة التسديد صدمته عينا زويا المتوقفتان عليه ،

المتشبثتان ببصره ، الواسعتان ، المذهولتان فى وجه بدا غريبا عليه حتى أنه لم يفهم فى اللحظة الأولى سبب وجودها هنا ، ولم هى معه الآن .

— ماذا دهاك ؟ اذهبى الى الملجأ ! هل تسمعين ؟ حالا ! أنا لا أريد أن أراك قتيلة ! — وراح يشتم فجأة ، كما لم يشتم قط فى حضورها — اذهبى ! اقول لك !

— أنا اساعدك ، يا ملازم ... عبأت المدفع بالفعل ... أنا معك ، يا ملازم ...

ولم تسمع سبابه الغليظ بوضوح ، سوى أنها حدقت به متفرسة ، وكأنها لم تعرفه قط ، أو لم تتذكره ، وهو الملازم الحضرى ، المتحفظ دائما ، بينما كانت تمسك القذيفة بكلتا يديها ، وتضغطها على صدرها . وبعد ذلك اكرهت نفسها على أن تضحك ضحكة مبتسرة :

— لا داعى لذلك ، يا ملازم ! لا يجوز لك ان تشتم ، يا ملازم !

— اذهبى الى الملجأ . ليس لك ما تفعلينه هنا ! هل تسمعين ؟

كانت تنظر اليه مندهشة . كأنما كانت تسكته .

كأن حضورها ، ووجهها ، وصورتها يرفع عنه جزءا من حنقه ، جزءا من الكراهية الضرورية ، المفهومة من قبله فجأة ، اللازمة له ، والتى لم يحس بها على هذا النحو طيلة حياته .

ومرة أخرى أندفعت الى الخطين المتقاطعين لعدسة التسديد صور سريعة التبدل مقربة الى عينيه بشكل مريع : أدخنة مكثفة ، وحرائق سيارات وناصيات فطساء لدبابات ، فى الفجوات التى احدثتها الانفجارات ... الا أنه حين ضغط على الزناد اليدوى ، مرسلا القذيفة الى تلك الحركة التى يراها ، الى تلك الدبابات التى لا توقف شق السماء كلها لمعان برق حاد ، وومض فى عدسة التسديد ، مصحوبا بالحرارة القاتلة للتولاين المحترق . والقت كوزنيتسوف ضربة من الجانب ابعدته عن عدسة التسديد ، وضغطته ارضا ، وتساقطت كتل الارض على ظهره . وعندما كان منبطحا لمعت فى رأسه فكرة متشفية سعيدة هى أنه الآن أيضا لم يقتل . وفكرة أخرى التمعت فى ذهنه كالوهج :

— زويا ! الى الخندق ! الى الخندق !

ونهض قرب المسند ليرى أين هى ، الا أن برقا

تفجر من جديد قد خطف بصره فى الحال . وتلقى ضربة دافعة فى صدره . وسقطت زويا على جنبها على مقربة منه ، وقد أمسكت كلتا يديها بصف ازرار معطفه ، زافرة بوجهه العرق ، ضاغطة نفسها عليه بشدة وقرب ، حتى رأى عينيها المتقلصتين ، وجفنيها الاسودين من البارود ، وقد جمد جسدها الباحث عن حماية مضغوطا على جسده .

— فقط ألا اصاب فى البطن ، فى الصدر ... أنا لا اخاف ، اذا جاء رأسا ... فقط أن لا يحدث ذلك ! ..

ولم يكد يسمع ما تقوله . كانت شفتاها تكادان تمسان شفته ، ولكنه كان ضعيف الالتقاط لذلك الهمس ، المهموم ، المطلسم ، على رحى الهدير الدائرة .

وعند كل انفجار كان جسمها يزداد انضغاطا على جسمه ، وعندئذ طوقها ، كازا على اسنانه ، بآخر حماية غريزية ، أمام المصير المتساوى ، الموحد لهما ، المغتفر لكل شىء ، بآخر غوث ، بغوث شخص راشد لطفل ، وضغط رأسها على رقبته العرقة ... وبهذا

العناق القوى انتظر الثانية الاخيرة ، متحسسا شعرها يخفق على وجهه بخفقة انفجار ، مختنقا بالرائحة الحارة للتولاين المحروق ، وقبيل نهاية هذه الثانية فكر برعب ، وهو يحس بصدرها ، وبشفتيها الباردتين على رقبته ، ان جسدها سيرتخى فجأة ، بين يديه حين تصيبهما شظية فى ظهرها . « هنا ، الى عجلة المدفع ... يجب ان اضغط ظهرها الى العجلة ! انها تحمى من الشظايا ، اذا ... »

وأراد ان يتحرك ، وينقلها الى عجلة المدفع ، الا أن الرنين غشى على اذنيه فى تلك اللحظة كأنه من رحاب الأبدية ، وابتعدت السحابة السوداء الاردوازية وراء المتراس ، ضاغطة اياهما على المدفع . وهبطت على الموقع . رغم ان الارض والهواء المسخن بالتولاين كانا يترنحان بطنين ، مهزوزين بالمعركة ، شق شرخ من السكون حاد هفهاف ، كالهواء الطلق ، الموقع ، ودخل فى خط انطباق جسديهما .

ولم يكن ذلك سكونا ، بل تنفيسا . دفعت زويا رأسها الى الوراء، وفتحت عينيها اللتين اذهلتاه بعمقهما الداكن ، وهما فى رموشهما السود المخططة بالسخام .

ثم حررت نفسها من بين يديه بتؤدة ملصقة ظهرها بمسند المدفع .

وبنفس التؤدة دفعت الى الوراء شعرها الذى القته الانفجارات على وجهها قبل حين ، دفعته بظاهر اصابعها القذرة ، ساحبة معطفها الفرائى على ركبتيها المغبرتين من الطين الملتصق بهما . وتكلم كوزنيتسوف :

— انتهى ...

فهمست بين شهقة وزفرة قصيرتين :

— ملازم ، ملازم . يبدو أن رأيك فى ليس صحيحا تماما ... اسمع ... اذا جرحت فى صدرى ، أو بطنى ، هنا — واشارت بيدها الى حزام الضباط الذى كانت تشده على خصرها بقوة ، حتى بدا لكوزنيتسوف أنه من الممكن ان يحاط بأصبعين — فأنا ارجوك ... اذا كنت لا استطيع ان افعل ذلك بنفسى ... هنا فى الحقيبة مسدس المانى أهدى لى منذ مدة طويلة . هل تفهم ؟ اذا أصبت هنا ، فلا حاجة الى التضميد ...

أما هو ، الذى كان يتصور فى رعب ، قبل لحظة من الزمن ، احتمال ان تصيبها شظية فى ظهرها

وتقتلها ، فقد صمت غير فاهم تماما السبب فى تحدثها له بهذه الصراحة الآن عن شىء غير طبيعى ورهيب كان فى الامكان ان يحدث ، ولم يحدث . لقد كان يفزعها ان تجرح فى صدرها أو بطنها . كانت تخاف الضعف ، والمهانة ، والخجل قبيل الموت ، تخاف ان ينظر الرجال اليها ، وهم يلمسون بأيديهم جسدها المعرى ، ويشدون الضمادات عليها ...

همس كوزنيتسوف :

ـ واضح ، ولكن ماذا تطلبين منى ؟ أنت مخطئة . أنا لست حفار قبور ! من الذى أمرك بأن تكونى قرب المدفع ؟ ليس من واجبك ان تكونى هنا ! المعركة لم تنته بعد . اهذا واضح لك ؟

وكأنه كان يحدس ذلك . فان السكون العابر قد تمزق فى الحال امام المتراس . وارتفعت الانفجارات سوداء امام المدفع . زحف كوزنيتسوف على ركبتيه الى جهاز التسديد . ومثل أبرة حامية وخزت عينه نار طلقة بدت وكأنها نفذت الى الخطين المتقاطعين فى عدسة التسديد ذاتهما ، وفى الحال أختفت من رأسه زويا ، وشعرها المرسل على خدها ، ومسدسها ،

ورجاؤها الغريب ، اختفى كل شىء ، وصار العالم من جديد الى اقصى حد من الواقعية والقسوة والهلاك ، خاليا من الطيبة ، ومن الامل فى الطيبة ، ومن الشكوك .

وفكر ممسكا بعجلة التدوير « المدفع المتحرك على مقربة ... »

فى تلك اللحظات كان لا يصدق الا بدقة الخطين المتقاطعين اللذين يتحسسان جوانب الدبابات ، وبكراهيته المدمرة التى عادت اليه ، بعد ان التصق بالمدفع .

« وددت لو اكتشف هذا المدفع المتحرك ... انه كان يطلق من مكان قريب ... كأنما هو من وراء الدبابتين المحترقتين . اين هو ؟ »

الا أنه أحس ، وهو يدير عجلة التدوير ، بمقاومة من جانب آلية المدفع ، وبعدم توافق بين جهاز التسديد ، وماسورة المدفع ، فانصرف عن مطاط عدسة التسديد . كانت ماسورة المدفع تتراجع بكل كتلتها . وكان سائل بنى يتناثر بخط نابض من جهاز الرجوع على الدرع الممزق ، وعلى ماسورة المدفع الساخنة .

— اوغاد ! هذا عمل المدفع المتحرك من مخبئه !
يا لنكد الحظ !

صاح كوزنيتسوف غير عارف ماذا يفعل ، متهيئا لأن يبكى فى عجز ، ضاربا بجمع يده على مؤخرة السبطانة المتراجعة . لقد أصابت شظية جهاز الرجوع .

كانت دبابتان تخترقان أمام المدفع تماما ، وكانت نار مزدوجة نشيطة تلعق برجيهما ، والى اليمين ، فى حافة الوهدة تماما كان ينبعث دخان جانبى من دبابة ثالثة . ومن وراء هذه المدخنة الكثيفة كان ينط لهب طلقات مثلث الى يسار خط البطارية ، حيث كان يقع مدفع تشوباريكوف ومدفع اوخانوف . كان المدفع المتحرك يقذف المدفعين من جانب على بعد مائتى متر ، محجوبا بستار الدخان رائيا الهدفين بشكل جيد .

وابعد من ذلك ، على بعد كيلومتر ونصف يسارا ، على مشارف معبر النهر ، كانت الدبابات تخرج من الوهدة ، مترنحة فى الدخان ، مارة بالسيارات المحترقة بفتور ، وكأنها اكوام دريس رطب ، وكانت جميع

البطاريات المجاورة فى منطقة الجسر ، ومدفعا فصيلته ، والبنادق المضادة للدبابات من خنادق المشاة تطلق النار فى وقت واحد فكانت خطوط القذائف المضادة للدبابات ، والانفجارات العالية لمدافع الهاون الثقيلة ، والخيوط النارية لقذائف هاونات « الكاتيوشا » النفاثة المنطلقة من الشاطئ الآخر تندمج ، وتتقاطع امام معبر النهر ، وتختلط هناك .

أما ذلك المدفع المتحرك المختبئ وراء الدبابة ، فقد كان يختار هدفه ، ويصوب من جانب على الجناح بهدوء وانتظام . وكان كوزنيتسوف يرى ذلك .

سمع نداء زويا :

— يا ملازم ! .. لماذا انت واقف ؟ هل ترى؟ ..

الا أن كوزنيتسوف لم يعد قادرا على ان يفعل شيئا الآن .

كان المدفع المتحرك يقذف مدفع تشوباريكوف بنار سريعة . وقد كف المدفع عن الرمى ، واختفى فى الظلام المتواثب قرمزيا . وكانت احدى الدبابات قد خرجت من مكان ما الى اليسار ، وراحت تتحرك نحو وثبات الظلام هذه ، منقية من على درعها ، جراء

سرعة حركتها ، ألسنة لهب واطئة . والظاهر أنها احترقت بقذيفة مضادة للدبابات من مدفع تشوباريكوف ، قبل أن يعترض ذلك المدفع المتحرك ، ويغطى الموقع . والآن لم يكن أحد يراها من قرب المدفع المحاط بالانفجارات كالسياج . بينما ظلت الدبابة تنغرز بكل جرمها فى ذلك الظلام المحيط بالمدفع ، مزيدة من سرعتها ، وقد ازدادت النار التهاما لها ، وانتشارا على درعها ، وأخذت تنعطف يمنة ويسرة فى بقعة واحدة ، وكأنها تسحق وتسوى شيئا بثقلها الهائل . ثم هز الهواء انفجار ، وارتفعت من برج الدبابة مظلة دخان سوداء مصحوبة بنار ، وجمدت واقفة باحد جنازيرها على المدفع المسحوق . ومن جانب نفذت الى النار المندلعة خطوط القذائف واحدا تلو الآخر بارقة على طول جبهة البطارية . كان ذلك مدفع اوخانوف الواقع فى أقصى الجناح يقذف النار على الدبابة .

كان كوزنيتسوف مصعوقا ومنسحق النفس من الاقتحام المسعور للدبابة المحترقة ، وصار وعيه لا يستوعب غير الوضوح الصارخ الجلى ، وهو أن الالمان

يهاجمون الجناح الشمالى باستماتة ، محاولين بكل ثمن ان يشقوا طريقهم الى الضفة ، الى الجسر ، وأن طقم تشوباريكوف قد هلك ، كما يبدو ، وسحق تماما — لم يخرج أحد من رجالها من الموقع — وأنه لم يبق للبطارية الى اليسار غير مدفع واحد ، هو مدفع اوخانوف .

— زويا ... أنا آمرك بالذهاب الى الملجأ ! اذهبى من هنا ، اتسمعين ؟ انا ذاهب الى اوخانوف !

صاح كوزنيتسوف بصوت أجش ، وفى نفس اللحظة رأى زويا تعض شفتيها المتورمتين ، وتلتقى محفظتها الطبية على فخذها ، وتسير على جنب ، ثم تثب الى خندق الاتصال غير الكامل ، المؤدى الى المدفع .

— يجب ان اذهب الى تشوباريكوف ! ربما مايزال احدهم حيا . لا اصدق أن الجميع ...

ودفعت شعرها ، وأختفت فى خندق الاتصال ، وكأنها لم تسمع أمره .

كز كوزنيتسوف على اسنانه جزعا ، وخرج من موقع النار راكضا ، ملتفتا الى الدبابات المحترقة فى حافة الوهدة ، حيث كان يقف المدفع المتحرك ، الذى كان عاجزا الآن على الوقوف ضده .

الفصل الحادى عشر

ـ قف ! الى أين ؟ كوزنيتسوف ؟

كان درزدوفسكى يجرى وثبا نحو المدفع على مرتفع الشاطئ ، وحذاؤه اللبادى الطويل الملطخ بالثلج يرمح عاديا بين كثبان الثلج ، وفمه الفاغر بالصيحة يبدو أسود على رقعة وجهه البيضاء :

ـ ارجع !

ووراءه كان السائقان روبين وسيرغونينكوف يعدوان قافزين حفر القنابل ؛ وكلاهما كان يحدق عجولا لاغطا الى الدبابتين المحترقتين امام البطارية ، والى الحريق فى القرية ، وكان سيرغونينكوف ينحنى الى الارض بين الحين والآخر ، عند الانفجارات القريبة على الشاطئ .

وارتفعت صيحة درزدوفسكى محرقة :

ـ الى اين ؟.. ارجع ! عد ، كوزنيتسوف ! تهرب ؟ تركت المدفع ؟ لماذا قطعت النار ؟ تراجعت ؟ قف !

دنا درزدوفسكى شاهرا مسدسه فوق رأسه ، وفى

عينيه بريق كدر مخبول ومنخراه يرتعشان ، وقد لون وجهه غير الحليق منذ أيام شحوب صارخ حانق الى حد الزرقة :

ـ الى المدفع !

أمر درزدوفسكى ، وغرز يده اليسرى فى كتف كوزنيتسوف كالكماشة ، وجذبه بقوة اليه :

ـ ولا خطوة الى الوراء ! لماذا تركت المدفع ؟ الى اين ذاهب ؟

ـ هل عميت ؟..

نفض كوزنيتسوف يد درزدوفسكى عن كتفه بقوة ، والقى نظرة سريعة على المسدس الذى كانت يد درزدوفسكى اليمنى تصوبه بارتعاش امام بطنه ، وقال :

ـ اعد المسدس الى مكانه ! هل جننت ؟ انظر الى هناك ـ وأشار نحو مدفع تشوباريكوف ، حيث كانت الدبابة التى اخترقت الموقع تشتعل قاذفة بحزم الشرر ، وقال : ألا ترى ما هناك ؟..

مرت رشقة واطئة على اكوام الثلج كالمروحة اللامعة . والظاهر أن الذين فى المدفع المتحرك المختفى وراء الدبابتين المدمرتين لاحظوا ناسا على الرابية ،

وبدأوا اطلاق النار من رشاشة يدوية مسددين على الشاطئ .

— لا تقف ! .. استلق !

قال كوزنيتسوف محذرا ، بيد أنه لم يستلق هو نفسه ، وبشعور مريح من الانتقام رأى درزدوفسكى ينحنى ، والسائق روبين يحول وجهه الغليظ باتجاه الرشاشة ، ويقعد ثقيلا على رجليه القويتين القصيرتين . أما سيرغونينكوف الناحل الطويل الرقبة فقد أرتمى ، بهذا الأمر ، تحت كثيب ، وزحف منبطحا على الأرض ، الى موقع المدفع ، الى تحت حماية المتراس ، جارفا الثلج بغدارته .

قال درزدوفسكى لاعنا :

— لماذا تزحف كالجرو ؟ — وأنتصب ، وضرب حذاء سيرغونينكوف بقدمه وقال : — انهض ! الجميع الى المدفع ! أرموا ! ارموا ! .. اين زويا ؟ اين الممرضة ؟

وبعد ان خطا بضع خطوات نحو المدفع ، نشب فى كتف كوزنيتسوف ثانية ، وبتشكك ثبت فى وجهه عينيه الشفافتين الى حد انهما بدتا بيضاوين :

— أين ارسلتها ؟ كانت هنا قبل لحظة !

قال روبين ساعلا بحدة :

— ركضت ... نشلها الشياطين !

— الى المدفع ، يا كوزنيتسوف ! ارم ! ..

عدوا الى الموقع ، وسقط الاثنان على ركبتيهما امام المدفع ذى الدرع المحطم ، ومؤخرة السبطانة المتراجعة الى الوراء قبيحا ، الفاغر شدقها الاسود . وتكلم كوزنيتسوف بموجة غيظ لا يفتر :

— والآن انظر ! هل ترى جهاز الرجوع ؟ المدفع المتحرك يضرب من وراء الدبابتين ! كل شىء مفهوم ؟ وزويا ذهبت الى تشوباريكوف ! ربما بقى احدهم على قيد الحياة ...

سأل درزدوفسكى بصوت عال ، دافعا المسدس الى غمده بعجلة ، ورموشه الطويلة ترف من الانفعال :

— من كان يرمى على الدبابات ؟ اين كاسيموف ؟

— قتل . انه هنا ، فى المشكاة . وثلاثة من الطقم . لو لم يكن هذا المدفع المتحرك ... تغطى فى الدخان ، وراء الدبابتين . وهو يضرب موقع اوخانوف فى الجناح ... يجب ان نذهب الى اوخانوف ، الظاهر أنه لا يراه جيدا ! ليس لنا ما نفعله هنا !

— انتظر ! لم هذا الذعر ؟

وأستند درزدوفسكى على كوعه ، وأطل بسرعة من وراء المتراس المحفر المحطم بالقذائف ، والشظايا المصقولة مغروزة فى الارض المحروقة — وفى الحال عادت رشقات الرشاشة ترن فوق الموقع ، مخترقة اصوات المعركة .

والتمعت الشررات الزرق للقذائف المتفجرة فى رؤوس كثبان الثلج وراء المدفع . أجال درزدوفسكى ، وهو يجلس تحت المتراس ، ناظريه المتقلصين اللهوفين فى ميدان المعركة ، وتقلص وجهه كله حالا ، وانكمش ، وسأل بصوت متقطع :

— أين القنابل اليدوية ؟ أين القنابل اليدوية المضادة للدبابات ؟ لقد وزعت على كل مدفع ثلاث قنابل من هذا النوع ! اين هى ، يا كوزنيتسوف ؟

— لأى شيطان هذه القنابل اليدوية الآن ؟ المدفع المتحرك على بعد مائة وخمسين مترا من هنا ، هل ستصيبه ؟ والرشاشة أيضا لا تراها ؟

— وهل تظن أننا سننتظر ، هكذا ؟ اجلب القنابل اليدوية بسرعة ! هاتها هنا ! .. الرشاشات موجودة فى كل مكان فى الحرب ، ياكوزنيتسوف ! ..

وارتسم على وجه درزدوفسكى الخالى من الدم ، المجزع بنفاد الصبر ، الاقدام والاستعداد لكل شىء ، واكتسب صوته فجأة رنة مجلجلة .

— يا سيرغونينكوف ، هات القنابل اليدوية ، هنا !

— انها فى المشكاة ، ايها الرفيق الملازم ...

— الى بها ! ..

وعندما ذهب السائق سيرغونينكوف الى الخندق ، أخرج من المشكاة قنبلتين يدويتين مضادتين للدبابات ملوثتين بالتراب ، نظفهما فى الحال بطرف معطفه ، ووضعهما أمام درزدوفسكى فأوعز هذا ، ناهضا بنصف قامته فوق المتراس :

— هيا ! .. سيرغونينكوف ! عليك ان تقوم بذلك ! اما النياشين على صدرك ، واما ... هل فهمتنى ، يا سيرغونينكوف ؟

رفع سيرغونينكوف رأسه ، وحدج درزدوفسكى بنظرة متفرسة لا ترمش ، ثم سأل غير مصدق :

— كيف ذلك ... ايها الرفيق الملازم ؟ انه يقف وراء الدبابتين وانا ... الى هناك ؟

— ازحف الى الامام ، وضع القنبلتين تحت

الجنازير ! حطم هذا المدفع المتحرك ! قنبلتان يدويتان ، وتسحق الحقيرة ! ..

كان درزدوفسكى يتكلم بقطعية . وفجأة رفع القنبلتين من الأرض بيدين مرتعشتين ، وبحركة حادة ، وقدمهما لسيرغونينكو ف ، فبسط هذا كفيه بشكل آلى ، وكاد يسقطهما حين تسلمهما ، وكأنهما مكواتان حاميتان .

كان يبدو أنه لم يحلق وجهه مرة فى حياته ، فقد كان يلمع على خديه الفتيين ، وشفته العليا المنتفخة زغب أشقر بدا الآن بسبب شحوبه داكنا خشنا . ورأى كوزنيتسوف ، وهو على مقربة شديدة ، لازورد عينيه العجيب ، وحنكه الصبوى الناعم ، ورقبته النحيلة والناعمة أيضا ، البارزة من ياقته الواسعة . ثم سمع همسته :

ـ انه وراء الدبابتين ، ايها الرفيق الملازم ... يقف بعيدا .

ـ خذ القنبلتين ! .. بلا تأخر !

ـ فهمت ...

حشر سرغونينكوف القنبلتين فى طية صدره

بحركة مرتجة عشواء باحثة ، وانزلق لازورد عينيه الصافى على وجه درزدوفسكى الحازم المتغير ، وعلى وجه كوزنيتسوف ، وعلى ظهر روبين المدور الذى يبدو عليه عدم المبالاة ، وكان روبين مستلقيا نصف استلقاءة بين مسندى المدفع ، ناخرا بثقل ، محدقا فى المتراس باستغراق غامض .

ولم يحتمل كوزنيتسوف فقال :

ـ اسمع ، يا آمر البطارية . الا ترى بعينيك ؟ عليه أن يزحف مائة متر فى فضاء مكشوف ! ألا تفهم هذا ؟

فتكلم درزدوفسكى بنفس صوته الرنان ، وضرب ركبته بقبضته :

ـ وأنت تظن أننا سنجلس طاوين ايدينا ؟ بينما هم يسحقوننا ؟ ـ والتفت نحو سيرغونينكوف التفاتة حادة ، وآمرة : ـ هل المهمة واضحة ؟ الى المدفع المتحرك زحفا وركضا ! الى الامام ! ـ وأنطلق أمر درزدوفسكى كالرصاصة ـ الى الامام !

ان ما كان يحدث الآن بدا لكوزنيتسوف خطوة لا تتصف فى الخذلان فقط ، كاليأس ، بل ومريعة

وسخيفة ولا أمل فيها . وكان يجب ان يقوم بها سيرغونينكوف حسب منطوق الأمر « الى الامام ! » الذى لم يكن ، وفق القوانين الحديدية المعمول بها خلال المعركة ، الحق لأحد – لا لسيرغونينكوف ولا لكوزنيتسوف – فى اهماله او الغائه ، وفكر كوزنيتسوف من حيث لا يدرى : « لو كان هناك مدفع سليم ، وقذيفة واحدة فقط ، لما حصل شىء ، نعم ، لما حصل شىء من هذا » .

– اسمع ، يا سيرغونينكوف ... زحفا فقط ، ملتصقا بالأرض . هناك الكثير من الاجمات ، ازحف الى الوهدة ، يمينا ، فى شريط الدخان ، هل تسمع ؟ فقط أن تأخذ حذرك ، ولا ترفع رأسك ! ..

قال كوزنيتسوف فى لهجة شبه آمرة واقترب من سيرغونينكوف زحفا ، وضغط على كوعه بتحفظ ، ونظر فى حدقتيه الغارقتين فى زرقة سماوية وضاءة ، وغير المتقبلتين شيئا . وهز سيرغونينكوف رأسه ، وابتسم ابتسامة قبول واهنة ، ابتسامة متجمدة ، ولسبب غير معروف ظل يضرب بقفازيه معطفه

المنتفخ بالقنبلتين على صدره ، وكأن هاتين القنبلتين كانتا تلذعان صدره ، فكان يريد تبريد لذعهما .

همس بشفتيه فقط :

– ايها الرفيق الملازم ، أرجوك رجاء حارا أن تخبر أمى ، اذا حدث لى ... قل لها انه مفقود ... ! ليس لها غيرى ...

صاح كوزنيتسوف :

– ابعد ذلك عن رأسك ! هل تسمع ، يا سيرغونينكوف ؛ فقط أن تزحف زحفا ! ادفن نفسك فى الثلج !

ابعد درزدوفسكى ذراعه على المتراس :

– هيا ، يا سيرغونينكوف ! بلا تأخر ! الى الامام !

– أنا مستعد ، أيها الرفيق آمر البطارية ، الآن أنا ...

ولعق سيرغونينكوف شفتيه الجافتين وبلع ريقه ، وتلمس القنبلتين لسبب ما مرة أخرى تحت معطفه ، وتسلق على المتراس شاحطا بحذائه على ارض الموقع المحروقة بالانفجارات . رفع قامته على المتراس ،

والتفت من على كتفه ، وكأنما نسى شيئا ، ووجدت عيناه الغريبتان الطفوليتان وجه روبين المتطلع اليه ، المتجمد جمودا عبوسا ، وقال فجأة ببساطة كبيرة ، بل وبهدوء :

— اذا رحت تعذب الخيول ، يا روبين ، فسأجدك فى الآخرة . والآن وداعا ...

ضغط كوزنيتسوف صدره على المتراس . زحف سيرغونينكوف حوالى خمسة أمتار نحو الاجمات ، فى مجاميع حفر القنابل السوداء ، امام المدفع ، شاقا الثلج المخلوط بالأرض التى تناثرتها الانفجارات . وكانت العين ترى حركة جسمه النحيل المتلوى بين الاجمات المعراة ، المقطوعة بشظايا القنابل الى النصف ، وكان كوزنيتسوف بكل كيانه ينتظر اللمعان الخاطف لرشقات الرشاشات المنطلقة من وراء الدبابات على سيرغونينكوف . كان المدفع المتحرك يطلق النار الى اليمين ، باتجاه الجسر ، باتجاه مدفع اوخانوف ، حيث كان اللهب يندلع داكنا أحمر ، مغطيا الدبابات المهاجمة . والذى كان يطلق النار من الرشاشة لم يكن يرى سيرغونينكوف الآن . بينما مضى سيرغونينكوف

يزحف بين حفر القنابل والاجمات ، ويختفى وراء كثبان الثلج ، طالعا وغاطسا ، شاقا الثلج بكوعيه ورأسه ، حتى بدا واضحا أن المسافة قد قصرت بينه وبين الدبابتين الداختتين ، اللتين كان المدفع المتحرك يقف خلفهما .

« ارجو ان يدخل فى شريط الدخان بسرعة ، فقط أن يدخل فيها .. » فكر كوزنيتسوف مع نفسه فى أمل ، وهو راقد على المتراس بقلب واجف ، مقدرا المسافة بالامتار حتى المدفع المتحرك المختفى وراء الدبابتين .

— لم يتباطأ ؟ عدوا ! وثبا !

كان درزدوفسكى يقول متقطع الكلمات ، مختطفا باصابعه المقفزة كتل التراب المتيبسة ، ساحقا اياها على المتراس ، منتظرا هذه الوثبة الأخيرة على المدفع المتحرك .

— اى عدو ! أظن ان قلبه ينبض الآن مثل قلب العصفور .

قال السائق روبين عن كره ، وتراخت كلماته ، وتلزجت فى الجو المكفهر .

— اسكت ، يا روبين ! تسمع ؟

وبكره تقريبا رأى كوزنيتسوف عن جنب رفة الانتظار فى رموش درزدوفسكى الطويلة ، والى جانب منه بروفيل روبين الثقيل كالرصاص ، وقد انبطح هذا الرجل مسطحا بجسمه العريض على المتراس ، بحيث كانت رقبته المتينة السمراء غائصة كلها فى ياقته ، وفى الحال تذكر كوزنيتسوف محاولته لقتل الحصان الذى كسرت ساقه فى المسيرة برصاصة ولما تذكر ذلك ، رأى روبين أيضا يبصق عبر المتراس فى حنق . وصارت عيناه الصغيرتان النافذتان المصوبتان نحو درزدوفسكى عابستين كارهتين .

— ليتك اوكلت لى أمرك ، ايها الرفيق الملازم ! كل شىء سواء لدى . وانا لا اتشبث فى الحياة ! أنا لا اذكر احدا ولا احد يذكرنى !

ومرة أخرى تلزجت كلماته فى الجو المكفهر .

بينما راح كوزنيتسوف ، ولم يعد يسمع شيئا ، يراقب الخلاء أمام الدبابتين المحترقتين ، وهذا المدفع المختفى وراءهما . وكانت الدودة الآدمية المتلوية تزحف ببطء أكثر ، وحذر أشد ، ثم هدأت مسطحة

على الأرض على بعد عشرة امتار من الدبابتين . ولم يكن واضحا للعين تماما ما كان يفعله سيرغونينكوف هناك ، ثم تبين أنه ارتفع عن الارض قليلا ، ناظرا من الارض ، الى المدفع المتحرك وقد تحركت احدى كتفيه ، وكأن يده كانت تنتزع بعجالة قنبلة من طية الصدر . الا أن ذلك من بعيد ، لم يكن الا تصورا ولم يلمح كوزنيتسوف ببصره لحظة أن سحب سيرغونينكوف سداد الأمان ، وقذف بأول قنبلة .

وفى الهدير العام للمعركة قرقعت القنبلة قرقعة ضعيفة مكتومة مثل قرقعة جوزة عند تهشمها . وأرندت عن الارض كتلة برتقالية مغبرة ، وتشبعت بالسخام المخيم على الدبابتين ، بينما كان المدفع المتحرك من هناك ماضيا فى رميه باتجاه الجسر .

— اخطأ الهدف ! . . — زفر روبين ، وبصق ثانية عبر المتراس ، ومسح شفتيه بقبضته ، وتقارب جفناه الاحمران .

— لماذا ؟ لماذا يتباطأ ؟ . . الى الأمام ، المدفع . . الق الثانية ! . .

وكانت اصابع درزدوفسكى ما تزال تفتت كتل التراب ، باحثة ، لما تزل ، عن مسند فى المتراس .

كفى المدفع المتحرك عن الرمى . ثم انكشف من وراء الدبابتين الداختين شىء مستطيل واسع طلع واستدار ثقيلا فى السخام الكثيف . وفى تلك اللحظة زحفت الدودة الرمادية بضعة أمتار الى الامام بين حفر القنابل السود ، وانضغطت على الثلج حالا كاللولب ، ولملمت نفسها ، وفى اللمحة التالية قفز هذا المخلوق الرمادى الصغير من الأرض ، ورفع ذراعه ، وأندفع ، دون ان ينحنى ، نحو ذلك الشىء المستطيل الهائل المتحرك فى الدخان ، الطالع من خلف الدبابتين .

وفى تلك الثانية نفسها ارتفعت بروق قصيرة للقاء هذا المخلوق ، والتمعت خاطفة منحرفة ، واوقفته ، وهو مندفع الى الأمام ، رافعا ذارعه ، فتعثر ، والقى رأسه الى الخلف بقوة ، وكأنما يتلقى بصدره رماح البروق الحامية ، وأختفى ، واندمج مع الأرض .

انفجرت القنبلة اليدوية مثل سحابة ممزقة قرب الكومة الرمادية الساكنة امام الدبابتين . وانداح الدخان ناحية . ومرة أخرى لعلعت الرشاشة اليدوية من الأعلى ،

ودفعت سيرغونينكوف ، الميت الآن ، على الارجح ، رشقات مستمرة من التفجرات ، وجرته على الأرض ، وكانت العين ترى تدخين المعطف على ظهره .

— آوه ، الشاب ، الشاب ، ثكلته أمه ! حاول فعل المستحيل ! . . قتلوه ؟

لم يستطع كوزنيتسوف ان ينطق بكلمة ، وهو يغالب نوبة تشنج ، وقطع باصابعه الابزيم من ياقة معطفه ليتخلص من ضيق انفاسه الحار « من قال انهم قتلوه ؟ روبين ، كما يبدو ؟ » . ولم يعرف كوزنيتسوف ماذا يفعل الآن ، وما زال غير مصدق ، الا انه رأى موت سيرغونينكوف الفاضح هذا ، المكشوف بفظاعة ، قرب مدفع العدو . التفت مختنق الانفاس الى درزدوفسكى ، الى فمه المشوه بشكل مقزز ، الذى نطق معتصرا الكلام اعتصارا : « لم يتحمل ، لم يقدر ، لماذا نهض ؟ » وفجأة قال كوزنيتسوف ما لم يتوقع قوله وبصوت جاف غريب ، وكأنما اعترته قشعريرة :

— لم يقدر ؟ يعنى أنت تقدر يا آمر البطارية ؟ هناك فى المشكاة بقيت قنبلة واحدة ، هل تسمع ؟ آخر قنبلة . لو كنت فى مكانك لأخذتها ، وركضت

ى المدفع . سيرغونينكوف لم يقدر ، أما انت فتقدر ! هل نسمع ؟ . .

ولمعت فى رأس كوزنيتسوف فكرة ضبابية ومن اغوار نفسه :

« انه أرسل سيرغونينكوف ، وهو يملك الحق فى اصدار الأمر له . وأنا كنت شاهدا ساظل ألعن نفسى طوال حياتى على ذلك » أنه لم يكن يدرك ما يقوله الى آخر مدى ولم يفهم مقدار معقولية افعاله .

ـ ماذا ؟ ماذا قلت ؟ ـ قال درزدوفسكى ممسكا درع المدفع بيد ، وحافة الخندق باليد الاخرى ، وأخذ يصعد ، رافعا وجهه الابيض الخالى من الدم ، بمنخريه المرتعشين الرقيقين ، وقال : هل تحسب اننى كنت اريد موته ؟ ـ وارتفع صوته الى زعيق ، وخالطته نبرة دامعة : لماذا نهض ؟ . . هل رأيت كيف نهض ؟ لماذا ؟

وفى تلك اللحظات التى كان يحدق فيها فى عينى درزدوفسكى الذاهلتين المأخوذتين ، لم يكن يسمع ، وكأنما اصيب بالصمم ، طلقات البطاريات ولا الدندنة المنخفضة للدبابات المهاجمة يسارا ولا الانفجارات

على الساحل ، وكان الشىء الوحيد فى ذاكرته معطف سيرغونينكوف الداخن ، وجسمه ، الذى كانت تدحرجه على الثلج كالزكيبة صليات الرشاشة . فان ما حدث لسيرغونينكوف لم يكن يشبه موت كاسيموف ، ولا حتى مصرع طقم تشوباريكوف الذى سحقته الدبابة قرب المدفع . ولم يكن يتصور ، مهما يكن من شىء ، أنه سيرى موت سيرغونينكوف على هذا النحو الفاضح ، البسيط بشكل غير معقول . . .

ـ لا استطيع ان أراك ، درزدوفسكى ! لا استطيع . . .

وسار كوزنيتسوف الى خندق الاتصال ، وكأنه يسير فى ظلمة ساخنة ، وأتجه الى الجهة التى كان يجب أن يقع فيها مدفع اوخانوف الى اقصى اليسار . كانت تعتريه رعشة عصبية ، سار نكئا على حافة المتراس ، ثم ركض ، وحين كان يركض داهم كيانه كله شعور منقذ بالانفصال ، لأنه هو نفسه ما يزال حيا ، وأنه قادر على ان يفعل شيئا ما الآن .

ولم يكن قد حدد لنفسه ما حصل . ولكن عندما أحس فى نفسه من جديد ، كما حدث له حين كان

يطلق النار على الدبابات ، بشراسة المعركة الآن ، بدا وكأنه فقد القيمة الوحيدة لحياته ، التى كانت وكأنها لم تكن تخصه ، والتى لم يكن يستطيع تقييم أهميتها فى سريرته حتى خفية عن الجميع . لقد فقد شعور الخطر المستفحل ، والخوف الغريزى من الدبابات ، من الموت أو الاصابة بجرح ، من كل هذا العالم الذى يطلق النار ويقتل ، وكأن القدر وهبه حياة ابدية ، وكأن كل ما فى الارض أضحى متوقفا على افعاله ، وعلى جسارته الحازمة ، وعلى الخفة الغريبة التى كانت ترن فى كل اعطافه .

وعندما خرج من خندق الاتصال نصف المتهدم ، وقفز الى موقع مدفع اوخانوف ، كان المدفع يطلق نارا سريعة مرتدا قاذفا من مؤخرة السبطانة المظاريف الفارغة . كان الرجال يروحون ويجيئون ، ويدبون قرب مسندى المدفع ، ووقع كوزنيتسوف على المتراس دون أن يتبين وجوه رجال الطقم فى الدخان ، ونفث بصعوبة :

ـ اوخانوف ! الجميع احياء ؟

كانت المظاريف الفارغة تنط ما بين المسندين مرنة باخرة .

ـ ملازم ! القذائف ! . . لم يبق غير خمس مضادة للدبابات ! اين القذائف ؟ قذائف ، يا ملازم !

كان المتحدث اوخانوف ، الا أن كوزنيتسوف ما كاد يعرفه ، وهو يسمع صوته . كان اوخانوف راقدا على المتراس فى سترته المبطنة وحدها ، ينظر اليه ، وعيناه المتقلصتان ملتهبتان فى وجهه الاسود العرق ، والسترة محلولة الازرار عند الصدر ، وياقة القميص مشقوقة ، وعرق رقبته القذرة منتفخ كالحبل ، من جراء الصياح ، وسخام البارود يتجمع لطخات على جفنيه وحاجبيه .

ـ قذائف ، يا ملازم ! قذائف ، اللعنة عليهم ! الدبابات تطوق ! قذائف !

انه لم يسأل كوزنيتسوف كيف الحال مع المدافع الأخرى ، وهل رجالها احياء . والظاهر أنه قد حدس ذلك ، وتصور ما جرى للبطارية ، لأنه قبل بضع دقائق رأى بنفسه كل شىء ، بينما هو يطلق النار على الدبابات المخترقة ، والآن كان يصيح مطالبا بالقذائف فقط ، لأنه وكل الذين الى جانبه كانوا بلا حول من دونها .

— اسمع ، يا اوخانوف ! ليذهب رجال الطقم جميعا لجلب القذائف ! الى تلك المدافع ، ما تزال هناك قذائف . احملوا جميع القذائف الى هنا ! كلها ولا تبقوا واحدة ! أنا سعيد ، لأنك حى ، يا اوخانوف !

قال اوخانوف وقد رفع جسمه قليلا على المتراس مثبتا مرة اخرى عينيه الحادتين للحظة واحدة فى عينى كوزنيتسوف وقد اشتد توتر العرق على رقبته ، متخططا بخطوط العرق :

— لم تصب رصاصة لى اذن ، قضى على الآخرين ، ولم يبق احد سوانا ، يا ملازم ؟

— قلت : الجميع الى القذائف ! جميع الاحياء الى القذائف ! . .

الفصل الثانى عشر

فى اواخر النهار اصبح واضحا ان ضربة الالمان الرئيسية موجهة الى نقطة التقاء جيش بيسونوف ، بالوحدة المجاورة الى اليمين التى لا تكاد تتحمل الضغط ، وفى نهاية اليوم اصبح الوضع صعبا فى قطاع فرقة

الجناح الايمن للعقيد دييف . فى الظهيرة احتل الالمان جزءا على الضفة الجنوبية من القرية بعد هجومات مستمرة ، وفى هذه البقعة حاولت الدبابات عبور النهر فى مكانين ، للخروج الى الضفة الشمالية لنهر ميشكوفا ، ودق اسفينين فى اعماق الدفاع ، وتقطيع وتطويق القوات السوفييتية التى كانت تدافع عن هذا الخط .

كان بيسونوف جالسا فى نقطة المراقبة التابعة للجيش ، ينظر فى خارطة منشورة على طاولة ، ويستمع فى التلفون الى بلاغ جديد من الجنرال ياتسنكو ، عندما دخل فيسنين عضو المجلس العسكرى بادى الانفعال .

وفكر بيسونوف مع نفسه « أمر عجيب . ان فيه شيئا من صبى — وهو يكاد يفهم ما يتهيأ فيسنين لقوله الآن ، قطع حديثه مع ياتسنكو ، وفكر — بأى شىء جاء الى نقطة المراقبة ؟ »

— أنا مصغ اليك ، يا فيتالى ايسايفيتش .

قال فيسنين وهو واقف عند الموقد :

— الدبابات شقت طريقها الى الضفة الشمالية ، يا بيتر الكسندروفيتش ! واستولى الالمان على بعض

الشوارع فى جزء من القرية واقع على الضفة الشمالية . وهذا يرى بشكل جيد من نقطة مراقبة العقيد دييف . وقد بدأ القتال على هذه الضفة ، وعلى وجه التحديد على بعد حوالى عشرة كيلومترات الى الجنوب الغربى منا . وقد قرر دييف ان يقوم بهجوم معاكس ، واشرك فى الأمر فوج الدبابات المستقل بقيادة خوخلوف . ولكن حتى الآن لا توجد أية نتائج ايجابية . . .

قال بيسونوف فى التلفون :

ـ يا سيمون ايفانوفيتش ، أنا منتظر أن أبلغ حالما يصل فيلق الدبابات والفيلق الآلى الى منطقة التجمع ـ ووضع السماعة على الجهاز ، واسند يده عليه ، واضاف : ـ ان ممثل القيادة العليا قلق من الوضع عندنا . اعطونا فيلقا آليا بالاضافة الى فيلق الدبابات ، من احتياط القيادة العليا .

قال فيسنين :

ـ يوجد ما يدعو الى القلق . الوضع حرج للغاية . . ان الالمان يضغطون بقوة جنونية .

فرك فيسنين يديه ، وهز كتفيه المقوستين ، وضرب قدما بقدم ، وكأنما لم يتدفأ فى السيارة ، والآن فقط

كان ينعم بالدفء ، بعد الريح الزمهريرية الحادة فى نقطة مراقبة العقيد دييف ، حيث قضى زهاء ساعتين .

وكرر بيسونوف :

ـ اذن ، فقد شقوا طريقهم الى الضفة الشمالية ؟

فى النصف المجاور من المخبأ كانت اصوات جنود الاتصال تدندن ، والتلفونات تطن بلا انقطاع ، وكان كل شىء يبدو ، على حاله وبلا تغيير ، بينما فى هذا الجزء من نقطة المراقبة ساد سكون مفاجئ . ادار رقيب الاتصال الكث الشاربين مقبض جهاز التلفون بحذر ، مرسلا اشارة انتهاء المكالمة بعد حديث قائد الجيش مع مقر قيادة الجيش . وتحول الى الهمس جندى اللاسلكى حالما ارسل فى الأثير نداءات فيلق الجانب الأيمن ، كان الميجور بوجيتشكو يمسح خزانة مسدسه بخرقة بادى السهوم ، جالسا على مصطبة فى ركن ، ونظر نظرة حادسة الى فيسنين ، وبيسونوف ، وأدخل الخزانة المصقولة الى حد التلميع فى قبضة المسدس ودفعه الى الجراب وربطه بحيوية ، مظهرا لبيسونوف بكل هيئة أنه مستعد لتنفيذ الاوامر . لم يلق بيسونوف التفاتا الى بوجيتشكو ، كان يجلس الى

المنضدة ، واضعا يده الصغيرة على الخارطة ، وينقر باصبعه نقرا خفيفا ، ثم استفسر :

ـ تريد ان تقول ، يا فيتالى ايسايفيتش ، ان دييف لا يعتمد كثيرا على نجاح هجوم خوخلوف المضاد ؟ هل جرى حديث عن هذا مع دييف ؟

ـ نعم ، عن هذا ايضا ، يا بيتر الكسندروفيتش ـ اجاب فيسنين بذلك مبتسما ابتسامة خفيفة . وكان مرحه متكلفا ، فى الغالب ، الا أن شيئا آخر اصبح مفهوما ايضا : ـ ان العقيد دييف كان اكثر مسارة وصرامة مع فيسنين منه مع بيسونوف ، والظاهر انه كان يخشى أن يكشف عن قلقه امام قائد الجيش الجديد ، فلم يبده الا لفيسنين .

قال بيسونوف بصوت صارف :

ـ عندما كنت فى نقطة المراقبة ، يا فيتالى ايسايفيتش ، ابلغونا من مقر قيادة الجبهة ان الطيران الالمانى زاد تحليقاته على التشكيلة المحاصرة . يلقى بالذخائر . يبدو أن الاستعداد يجرى على قدم وساق لخرق الحصار للالتقاء بمانشتين . ما رأيك فى هذا الشأن ، يا فيتالى ايسايفيتش ؟

قال فيسنين :

ـ اظن ان كل شىء سيتوقف على الظروف التى ستحصل هنا . ثمة مسافة ٤٠ كيلومترا من الطرف الامامى لدفاعنا حتى ستالينغراد . سنقطعها دفعة واحدة فى حالة شق الخط .

فقال بيسونوف مدققا :

ـ بالنسبة للتشكيلات المتحركة . اذا شق الخط ، فى هذه الحال ، نعم .

ـ ائذن لى بالدخول ، ايها الرفيق القائد .

وانزاح الستار الخيشى الذى كان يغطى المدخل الى النصف المجاور ، حيث كانت تشتعل مصابيح المركبات ، ودخل غلاديلين نائب رئيس قسم العمليات مدفوعا بالضوء الساطع الملتطم على الكوة ، وكان هذا برتبة ميجور فى نحو الاربعين من العمر ، جاد الهيئة يتفصد العرق على جبينه الابيض العالى . فى الوقت الذى نازعته نفسه لأن يقول فى قلق انسانى : « ان دبابات العدو دخلت القرية فعلا ، ايها الرفيق القائد ! » انشأ يقول برباطة جأش مشددة تليق برجل من هيئة الاركان ، مجرب ، فاهم جدا للشخص الذى يبلغه ، ولما يبلغه به :

— ايها الرفيق القائد . . . اصبح معروفا من الاخبارات الشفاهية التى نقلت قبل حين من الفوج الثانى والسبعين ، والفوج السادس والثلاثين بعد الثلثمائة أن الدبابات الالمانية عبرت النهر قبل نصف ساعة ، ودقت اسفينا . . .

— اعرف ، يا ميجور .

قاطعه بيسونوف الذى انزعج بعض الشىء من هذا البلاغ المتأخر لقسم العمليات ، ومن صوت الميجور الباهت ، وهدوئه الزائف الخالى من الحياة ، وكأنه هو ، قائد الجيش ، بوجوده وحده هنا كان يجبر الناس على التزام الحذر والتكلف .

— أما كون الدبابات الالمانية قد عبرت النهر الى الضفة الشمالية ، فهذا واضح ، كما يبدو . فماذا بوسعك ان تضيف على ذلك ؟

— قبل ساعة دخل المعركة فوج خوخلوف المستقل ، أيها الرفيق القائد . وبدأت الدبابات القتال ، وهى تقوم بهجوم مضاد فى الجزء الواقع على الضفة اليمنى من القرية ، غير ان العدو لم يوقف ، وهو يقرض فى دفاعنا .

قال الميجور غلاديلين ، ولمعت قطرات العرق على جبهته العالية الشاحبة بلحوظ أكثر . فقال بيسونوف فى تذمر ، وقد عجز على كبح لهجته المنزعجة :

— يقرض ، يقرض . . . اية كلمات جميلة ! كم دبابة ؟ سرية ، كتيبة ؟ أم دبابتان ؟

اجاب غلاديلين :

— هناك افتراض ، أيها الرفيق القائد بأن الالمان انزلوا الى المعركة فى النصف الثانى من النهار فرقة جديدة للدبابات . أظن ان ما يقرب من كتيبتين قد خرق خط الدفاع ، بناء على . . .

— اضبطوا افتراضاتكم حالا !

قاطعه بيسونوف ثانية ، وقد حرك القلم على الخارطة ، رغم أن ملاحظة غلاديلين حول انزال الالمان فرقة جديدة من الدبابات كانت تتفق مع افتراضه هو . واستمر بيسونوف قائلا :

— أرجو فى المستقبل ان لا تستعجل ببلاغاتك قبل ان تتحقق من كل شىء . غالبا جدا ما نقع تحت تأثير الانفعالات الاولى . اذهب ، يا ميجور .

خرج الميجور بهدوء ، على رجلين مستقيمتين ،

وحتى علباوه البيضاء – الشائبة قليلا ، وظهره كانا يكشفان عن خضوع مطلق . سحب ستارة الخيش ، ثم رتب طرفها بعناية ، ناظرا خلال ذلك الى بيسونوف نظرة كامدة لرجل خائف فى حضرته . وفكر بيسونوف مع نفسه ان نائب رئيس قسم العمليات غلاديلين هذا ، الذى هو ميجور كهل ، بقى مدة طويلة جدا فى رتبته ، التى لا تناسب منصبه المهم فى هيئة الاركان . أنه مرهف الحس وليس بالشخص البليد ابدا ، الا أن ليونة طبعه وتهيبه كانا يثيران فى النفس احساسا شبيها بعدم الرضى .

صمت بيسونوف قليلا ، ومد يده الى عصاه تلمسا ، وكانت مسندة على حافة المنضدة ، ونهض معتمدا عليها . وفى الحال وثب بوجيتشكو الذى كان قبل ثانية ، ينظر فى اظافره وديعا ، ورفع فروة بيسونوف التى كانت معلقة فى مسمار قرب باب المخبأ . ومزح فيسنين ، فى الصمت الشامل ، وهو يرتدى قفازيه :

– أنا فى حالة الانذار ، منذ زمان ، يا بيتر الكسندروفيتش .

ونظر فيسنين الى بيسونوف ، وراقبه يحشر يديه فى كمى فروته فى اطيط ، وقد رفعها له مرافقه .

أهتزت أرض المخبأ الترابية بقوة اشد بفعل الانفجارات ، وتحرك القلم الأحمر على المنضدة المهتزة ، وتدحرج على الخارطة .

– الى نقطة مراقبة دييف – قال بيسونوف ذلك وهز رأسه لفيسنين هزة لا تكاد تلحظ – هل تذهب فى سيارتى ، يا فيتالى ايسايفيتش ؟

– نعم ، لو سمحت . فى سيارة واحدة اروح .

قال بوجيتشكو ، وهو يتناول البندقية الاوتوماتيكية من المصطبة :

– أتسمح لى ان اقول لتيتكوف ، ايها الرفيق القائد ؟

– لا نأخذ حراسة معنا . دعها تبقى هنا . لا شىء تفعله هناك .

وتقدم بيسونوف من باب المخبأ .

قطعوا الكيلومترات العشر الى نقطة مراقبة دييف بسرعة .

كان العقيد دييف موجودا فى نقطة المراقبة ، فى قمة المرتفع ، واقفا عند النظارة المزدوجة مع فريق من امراء الوحدات ، ينظر الى ميدان المعركة وراء

النهر . ان كل شيء هناك قرمزى ، محطم ، تلونه توهجات الانفجارات ونيران الطلقات بالوان شتى . ولكن ما ان دخل بيسونوف الخندق العميق لنقطة المراقبة ، وأتخذ امراء الوحدات هيئة الاستعداد امامه ، ورفع جنود المخابرة رؤوسهم ، وهم جالسون الى تلفوناتهم ، وصدر صوت ينبه دييف من ورائه ناطقا « القائد ! » حتى ابتعد دييف عن النظارة بسرعة ، واستعد لتبليغ القائد مالئا بالهواء صدره تحت الحمالة المشدودة على فروته .

كانت ريح شديدة تصفر على المرتفع ، وتعصف ، وتنشر اصوات الطلقات . وجميع الوجوه حمراء من الشفق ، ساطتها الريح ، يرتسم عليها انتظار هالع ، وفى الوقت ذاته شعور بالذنب لا يكاد يلحظ ، ازاء الوضع الذى نشأ فى قطاع الفرقة . مرر بيسونوف بصره على الوجوه ، واوقفه على دييف . فأخذ هذا يبلغه بصوت عالى النبرة فتى :

ـ ايها الرفيق القائد ! قبل ساعة شل الالمان البطاريات المتقدمة الى الأمام فى الضفة الأخرى ، وأخترقوا الخندق الأول ، وعبروا النهر بحوالى كتيبتين

من الدبابات شرق المرتفع وغربه ، وطلعوا الى طرف القرية الواقع على الضفة الشمالية . . . وبدأ فريق من مطاردى الدبابات يقاومها . وأنزل الى المعركة فوج من الدبابات . . . ـ وفجأة تعثر الكلام فى لسان دييف ـ نشأ وضع خطير فى جناحى الفرقة ، ايها الرفيق القائد .

قال بيسونوف :

ـ أعرف ، يا عقيد . فقط أن تتم كلامك الى النهاية . هل خطورة الوضع تتعلق بحركة التفاف جناحية أم عملية التفاف من المؤخرة ؟ هكذا ، على ما يبدو ؟ يقطعون الجناحين ؟ اظن انك قد درست مثل هذه المصطلحات فى الاكاديمية ؟

ـ أنا لم انه الاكاديمية ، ايها الرفيق القائد .

ـ لم تنهها ؟ مع الاسف . . بالمناسبة ـ وهنا تذكر بيسونوف بتداع مفاجئ ، حديثا قديما جدا على ما يبدو ، فى القيادة العليا عن اعوام دراسته فى الاكاديمية ، اسئلة عن الجنرال فلاسوف . غرز عصاه فى الارض ، وتقدم من النظارة المزدوجة ، واستأنف كلامه : بالمناسبة ان ذلك غير مهم جدا الآن ، يا

عقيد ــ والتفت الى امراء الوحدات الذين تجمعوا صامتين من مختلف اطراف الخندق ، وقال :

ــ اذا ، قد اتخذ القرار ، يا دييف يجب أن يقوم فوج خوخلوف للدبابات بهجوم مضاد وطرد الدبابات من رأس الجسر . واستدعاء فوج مدافع الهاون النفاثة كله الى هنا ايضا . وابلغ امراء افواج المشاة أمرى الشخصى . ونظر بيسونوف مرة أخرى الى دييف ، وكأنما يفرز كل كلمة ببصره كالرصاص : على الافواج ان تقاتل فى كل الظروف . الى آخر قذيفة . الى آخر رصاصة . والشىء الأهم أن يسمر الالمان ، وتسحق الدبابات . بكل الوسائل . أنا لا اعطى حقا فى التراجع ! وارجو أن تتذكروا ذلك فى كل لحظة ! اهذا واضح ، يا عقيد دييف ؟ هذا كل ما فى الأمر الآن . سأظل معك فى نقطة المراقبة حتى نهاية المعركة . يجب البقاء فى المواقع التى نحتلها الى آخر رجل . السبب الموضوعى الوحيد للخروج من الموقع يمكن أن يكون واحدا للجميع دون الاستثناء ، وهو الموت . . .

وقف بيسونوف عند النظارة ، وحشر رأسه فى

ياقته ، وراح ينظر الى الاسفل الى ميدان المعركة أمام المرتفع . كان الشفق قد نشر لونه الدموى على كل شىء : على العراء وراء تعرجات النهر الوردية قليلا ، المرقش بسواد الجليد الفاحم الممزق بالقنابل والقذائف ، وعلى الضفة العالية التى كانت تطلق منها بطارياتنا النار بلا انقطاع ، وعلى منحدرات المرتفعات القليلة الانحدار وراء الوهدة الواسعة الى يسار القرية ، حيث كانت طلقات الدبابات تلمع فى الدخان المنبسط على الجبهة . وكان كل شىء يتشابك ، ويتحرك ، ويتشربك فى نيران صغيرة وكبيرة ، ويجرجر على الارض اذيالا حدادية مائلة لحديد محترق ، وزيت محترق ، وبنزين . وكأن الثلج ملتهب من الحرائق ومن الشفق .

ان هذه الفوضى ، وهذه الشربكة التى اثارتها القذائف الكشافة بالقرب من الشاطئ ، وعلى مسافة غير بعيدة امام المرتفع الذى تقع عليه نقطة مراقبة الفرقة ــ كل الوضع المنظور للمعركة ، والذى لا تميزه العين جيدا فى الدخان وراء المرتفع ، فى الجزء الشمالى من القرية ، فى البقعة التى خرقتها الدبابات الالمانية التى كانت هاونات « الكاتيوشا » تصوب نيرانها

22—1050

عليها منذ وقت قصير ، كان هذا الوضع كله يبلو لبيسونوف واضحا محددا جدا : حتى جعله يفكر بأن الوضع الحرج تقريبا قد جاء ، على ما يظهر ، وحلت مرحلة الذروة فى المعركة ، حين بلغ الوتر المشدود منتهاه وهو موشك على الانقطاع بين لحظة وأخرى .

وترددت اصوات من الخندق : « القائد مطلوب على التلفون ! » فتلقفها بوجيتشكو فى الحال ، ونادى :

— ايها الرفيق القائد ، يطلبونك ! . .

خمن بيسونوف بأنه ياتسنكو ، وتحرك متخوفا ، وفكر مع نفسه « منذ مدة لم يجر اتصال . ماذا عندهم هناك ؟ ماذا سيقول ياتسنكو الآن ؟ »

الفصل الثالث عشر

كان كل شىء مكتوما فى المخبأ تحت ثلاث طبقات من الجذوع . كانت اصوات المعركة تنفذ من خلال سمك الجذوع والتراب ضعيفة بشكل ملحوظ . وكان كلام الناس هنا يتردد طبيعيا . وكان مصباحا كيروسين معلقان يشتعلان ، وكان الوقت

ليلا . وكانا يهتزان اهتزازا رتيبا كبندولين تحت الطبقات السميكة ويضيئان بضوء أصفر الوجوه غير الحليقة ، والخرائط ، واجهزة التلفون على منضدتين .

وضع قائد المدفعية الذى كان يتحدث الى آمر فوج الهاونات النفاثة سماعة التلفون على الخارطة ، ودار نصف دورة مبتعدا عن المنضدة ، يريد أن يبلغ . الا ان بيسونوف أوقفه باشارة من رأسه ، وسار وسط نظرات جنود الاتصال المتتبعة الى حجرة قصية فيها تلفونات وجهاز لاسلكى كانت على اتصال بقيادة الجيش .

. . . ولم يكن بيسونوف مخطئا فى ظنه ، فقد كان يطلبه فى التلفون اللواء ياتسنكو رئيس هيئة الاركان . وهنا ، فى حجرة المخبأ هذه ، حيث نصب جهاز لاسلكى وخط سلكى بقيادة الجيش وبالفيالق كان يوجد رئيس استطلاع الفرقة المقدم كوريشيف . وكان يقف بالقرب من منضدة صغيرة وقد ارتسم الجد على وجهه الذكى الداكن من الهموم والارهاق . وكان يتحدث فى التلفون مع ياتسنكو مكررا بنبرة رتيبة : « نعم ، يا رفيق خامس . فهمت ، يا رفيق خامس » واصابعه

الصفراء من التدخين تدحرج القلم على الخارطة .
وكان جندى اللاسلكى غير الملحوظ فى الظل يجلس فى زاوية ، منكبا على جهاز اللاسلكى بهدوء ، وكأنما بظهره وعلبائه كان يستمع هذا الحديث مع نقطة قيادة الجيش .

قال المقدم كوريشيف : يطلبونك ، ايها الرفيق القائد . ومد السماعة الى بيسونوف .

تردد صوت ياتسنكو القوى الاستعراضى واضحا ، كالعادة ، ورغم أنه أبلغ بنتيجة الموقف فى نهاية النهار بلغة عسكرية حرفية معقدة ، لغرض الحيطة المعمول بها خلال المحادثات التلفونية ، فان بيسونوف نقل الحديث بسهولة الى اللغة الاعتيادية . ان الالمان مستمرون فى هجومهم كالسابق على جناحى الجيش الجنوبى والشمالى مع مساندة قوية من الجو . وفى المساء لم تنقطع الهجمات ، ولم تخف ، وبضربة قوية من أكثر من ستين دبابة لفرقة الجناح الايسر تمكنوا من التضييق بعض الشىء . وتجرى الآن معارك ضارية فى قلب خط الدفاع الأول ، حيث توغل الالمان فيه ما بين كيلومتر ونصف وكيلومترين . واقتضى

الأمر اشراك لواء المشاة الآلى ولواء للدبابات من الفيلق ١٧ الآلى الذى يحمى الجناح الايسر ، الا أن الوضع لم يصلح بعد . أما فى مركز دفاع الجيش فيمكن اعتبار الوضع مستقرا . واحتياط القيادة العليا — الفيلق الاول للدبابات والفيلق الآلى الخامس — لم يصلا بعد الى منطقة التمركز . وقبل بضع ساعات التقط رجال استطلاع الجبهة برقية لاسلكية من تشكيلة الجيوش الالمانية المسماة « الدون » التى يجب أن يفترض أن مقر قيادتها فى نوفوتشركاسك الآن ، مرسلة الى مقر قيادة باوليوس تقول : « اصمدوا . النصر قريب . نحن قادمون للنجدة . استعدوا لاشارة عيد الميلاد عن الطقس » . ومن الصعب بعد معرفة ما تعنى العبارة الأخيرة . ربما المقصود منها الضربة المقابلة لتشكيلة باوليوس المحاصرة للالتقاء بدبابات مانشتين . فقد كان ملحوظا جدا نشاط طائرات النقل الالمانية ، تلقى لباوليوس بالوقود ، والذخائر ، رغم ان طائراتنا تحاصر المطارات الالمانية بشدة . وقد لوحظ فى التشكيلة المحاصرة تحرك الدبابات نحو الجزء الجنوبى الغربى من « المرجل » . الى منطقة مارينوفكا .

لم يقاطع بيسونوف مرة واحدة تقرير الجنرال ياتسنكو المفصل بحذلقة . اسند عصاه على حافة المنضدة ، ووقف صامتا ، واضعا يده على جهاز التلفون . عندما ظهرت فى صوت رئيس الاركان نبرات الختام ، عندئذ فقط ، ربط بيسونوف ابزيم ياقته ، وجلس الى المنضدة ، وسأل بعد تريث :

— هذا كل شىء عندك ؟

وقال ، وقد حزر جوابه مقدما :

— اوضح من الواضح أن الضربة الرئيسية يوجهونها هنا ، والضربة المساعدة الى اليسار .

— أنا أيضا اعتقد انهم يريدون ان يشقوا ممرا الى باوليوس خلال تشكيلات دييف . أظن ان مانشتين لن يغير تكتيكه . سيشق دفاعنا فى منطقة واحدة ضيقه ، وفى أقرب نقطة نحو الهدف .

— أنا متفق معك .

— سأحاول ان اعرف بتفصيل أكثر ما عند باوليوس الآن . ما هو وضع قواته المتحركة ؟ وهل هو قادر ، بالفعل ، على شق طريقه للقاء مانشتين ؟ هذا شىء ليس قليل الاهمية الآن ، يا بيتر الكسندروفيتش .

فقال بيسونوف مؤكدا :

— هذا أكثر من مهم — ثم اضاف — ويهمنى أيضا متى سيصل الأول والخامس ، أخيرا ؟ استعجلهم !

— أنا استعجلهم طوال الوقت ، يا بيتر الكسندروفيتش ! قال ياتسنكو بصوت عالى النبرة مبهور الانفاس من الانفعال والكدر على أن الفيلق الآلى وفيلق الدبابات اللذين الحقا بالجيش لم يصلا حتى الآن الى منطقة التمركز المعينة لهما . وسأل :

— متى سننتظرك عندنا ؟

— لا تنتظروا الآن . هنا حجر العثرة ، على حد تعبير الناس .

سعل ياتسنكو ، وتريث برهة . ثم ترددت انفاسه فى التلفون صخبا :

— ولكن ، حسب الوضع ، لا ينبغى لك ان تبقى كثيرا عند دييف . ستعرض نفسك . . . ليس لى الحق ، فى الحالة هذه ، أن أنصحك . ولكن قد يكون من الاصح أن تنتقل الى نقطة المراقبة التابعة للجيش .

قاطعه بيسونوف غير مستمع له ومقلصا عينيه :

— ارجوك ، يا سيمون ايفانوفيتش أن توجه عنايتك

كليا الى الجناح الايسر ، مادمت أنا هنا . هجمات مضادة بلا انقطاع !

ومرر اصابع يده اليسرى على جبهته ، كانت الاصابع رطبة ، مرتجفة من التعب . وكانت قدمه المتخدرة من الألم ترتجف أيضا ، وكان قد لواها فى وضع غير مريح ، بعد أن سقط فى قاع خندق الاتصال اثناء قصف الهاونات السداسية المواسير .

وضع بيسونوف السماعة ، وجلس وقتا طويلا وكأنه غارق فى تفكير ساهم ، باسطا رجله تحت الطاولة بحذره ، وكان ينتظر ان يزول الألم ، ويستطيع ان ينهض ، الا أن الألم لم يبرحه .

وسأل بيسونوف المقدم كوريشيف محاولا أن ينشغل عن الاختلاج الحار فى ركبته :

— الم يقل شيئا جديدا رجل الاستطلاع ذاك الذى استطاع ان يفلت ؟ هل عاد له وعيه ؟ اين هو ؟

تكلم المقدم كوريشيف ، وهو ينظر فى الخارطة المرصعة بالاشارات ، دون أن يبدى فى صوته الارهاق البالغ لرجل قلق وقتا طويلا .

— عندما جلبوه من البطارية كان فى شبه غيبوبة ، ايها الرفيق القائد . وكان من الممكن أن يفهم المرء من كلماته ان رجال الاستطلاع الآخرين قد اكتشفهم الالمان فى طريق عودتهم من الاستطلاع ، واشتبكوا فى معركة ، وانحصروا مع الأسير الذى أخذوه فى مكان أمام خنادق الحراسة الامامية . وقد أرسل العائد الى كتيبة الاسعاف ، ولكن من المشكوك ان يقول شيئا جديدا . . . نعم ، وأنا اتحمل المسؤولية الكاملة على عملية الاستطلاع هذه .

قال بيسونوف ضاربا كفه على المنضدة ضربة خفيفة :

— كف عن تقريع النفس هذا . ان ذلك لا داعى له ، وغير مناسب ، البتة ، يا مقدم . انه لا ينفعك ولا ينفعنى . لا يوجد لدينا اسرى — والآن لا يمكن ان يكونوا — الالمان يهاجمون ، وأنا بحاجة الى المانى جدى معتبر حسن الاطلاع . فماذا نفعل ، يا مقدم ؟

— هل تسمح لى بمهلة من التفكير ، ايها الرفيق القائد ؟

نقر بيسونوف على المنضدة باصابعه ، ورأى المقدم كوريشيف يزيح كتل التراب المتساقطة من تحت الجذوع عن الخارطة بحافة يده بتؤدة وعناية ، وكأنها فتات خبز . وقد بدا ذلك لبيسونوف غير طبيعى ، وغير لازم ، مثل عملية استطلاع فاشلة ، مثل الألم الممض فى قدمه ، واذا به يفكر مع نفسه : « لو شربت شيئا من الفودكا لصفا رأسى ، وانكمش الألم ، وسرى عنى ! » الا أنه استغرب فى الحال من أن تكون لنفسه هذه الرغبة المفاجئة ، هذا التفكير فى التسرى ، وظل فى جلسته يعانى فى ركبته الما لاذعا غير مبارح ، يعيقه عن التركيز ويغيظه .

كفت الهاونات السداسية المواسير عن ضرب نقطة المراقبة ، الا أن المخبأ كان يترنح ، كالرمث فى الظلمة ، وسط قذائف المدافع والانفجارات التى كانت تهزه ، وسط موجات الرشاشات المتلاطمة بلا انقطاع الى الامام فى الظلمة . ولسبب ما استطاع بيسونوف أن يميز بين الاصوات المكتومة بجذوع السقف هدير الدبابات والدمدمة المتتابعة المحتدمة للبندقية الاوتوماتيكية التى كانت تكتنف المرتفع

من شمال وجنوب حسبما تتبينها الأذن ، فيبدو المرتفع وكأنه فصل عن الجيش ، وعن الفيالق ، والفرق اى عن العالم المحيط اجمع .

— . . . لكن قلت لك ، حتى ولو اطلقت رصاصة بنفسك من مسدسك . هل فهمت ؟ دع الدبابات تمر عبرك ، ولكن اصمد ، مفهوم ؟

رفع بيسونوف رأسه ، وقد استطال وجهه ، وارتسم عليه العذاب . فى النصف الثانى من المخبأ كانت التلفونات تطن ، وترن يقاطع بعضها بعضا ، والاصوات المتوترة تنفذ ، وصوت دييف الجهورى القوى يعلو على هذه الضجة هاتفا بالأوامر مخلوطة بالسباب والتهديد :

— اذا تقهقرت ميلمترا واحدا فمن الخير أن تضع بنفسك رصاصة فى جبهتك ، مفهوم ، يا تشيريبانوف ؟ كل المدفعية عندك ، وجميع القوى المضادة للدبابات كل شىء عندك ! اعرف انهم يحاصرون . فهل نستغيث ؟ اصمد ، ولو زهقت روحك ! لا دبابات أخرى ما دام المعبر قد هدم ! انت تهذى ؟

سمع بيسونوف ذلك ، وادرك أن تشيريبانوف آمر فوج المشاة قد أبلغ بأنه محاصر من الجناحين

بالدبابات ، وأنه يقاتل فى شبه حصار ، وكان يطلب دعما ، الا أن دييف لم يعده بعون ، ورد عليه بكلمات حانقة ، ونصحه فى موقف الموت ان يستنجد بالموت ، اذا لا يصمد . . . بينما كان بيسونوف جالسا فى هذه الحجرة المنفصلة يعانى الألم فى ركبته ، ولا يملك الحق فى التدخل فلم يخرج . وكان دييف ينفذ الأمر الذى اعطاه هو نفسه الصمود الى آخر رجل . حتى يكون على بيسونوف الآن أن ينظر فى عينيه المنتظرتين ايضا غوثا له ولفرقته — رغم انه كان يعرف أهمية هذا الامر القاطعة لأفواجه التى كانت تتلقى كل ضربة الدبابات المخيفة ، التى ارادها القدر ، كما يحدث ذلك فى الحرب ، حيث لا خيار .

صاح دييف متحولا الى نبرات الاستماتة — تشيريبانوف لا تستجد كشحاذ . وتتصورنى لا أفهم ! قلت لك كل شىء ! اربط صرتك بثلاث عقد ، وأصمد فى مكانك . المدفعية تساندك بكل قواها ! اذا كنت لا ترى ، فأنا أرى ! لا تتباك ، وتذرع بالصبر ! اصمد مثل فتاة عفيفة . استعمل اسنانك واظافرك ، ولكن اصمد . لا تتلفن بهذا الخصوص مرة اخرى ! لا اريد ان اسمع !

وطاف فى ذهن بيسونوف « ان دييف ينفذ امرى ، ولكن ماذا يفكر وهو يصدر هذه الايعازات ؟ »

ولثانية التقت عيناه بنظرة رئيس قسم الاستطلاع الذى كان واقفا قرب الطاولة صامتا بلا حراك . وكان قد كف عن ازاحة كتل التراب من الخارطة . كان على وجهه الذكى المتعب ما ينم عن ادانة غير مفصح عنها مشوبة برجاء لعون . كان يفهم وضع الفرقة الآن فهما ممتازا ، يفهمه من اصوات المعركة تلك ، ومن أوامر دييف التى كان يصدرها من الحجرة الاخرى من المخبأ . مسح بيسونوف جبهته بباطن كفه ، وقال شيئا غير الذى كان يريد ان يقول ، وغير الذى كان يفكر فيه :

— تحدث ، يا مقدم ، وأنا مصغ اليك .

بادر المقدم كوريشيف يقول بصوت موزون :

— ايها الرفيق القائد ، يبدو أن امكانية تطويق الفرقة قائمة .

— هل أنت واثق ؟

— نعم ، اعتقد . الدبابات تلتف حول نقطة المراقبة ، ايها الرفيق القائد .

لبث بيسونوف جالسا دقيقة واحدة ، ثم نظر الى كوريشيف بتعب ، وكأنما أفاق على نفسه ، ثم نهض ، وتكلم بفضول قاس :

— لا تكمل قولك . اردت ان تقول اننا انفسنا يمكن أن نصير « اسرى » ؟ أهذا ، على ما يبدو ، ايها المقدم ؟

شرح المقدم بنفس الصوت الموزون :

— أنا اتحدث عن الموقف الموضوعى . بعد شىء من الوقت يمكن أن يقطع الالمان الاتصال . وعندئذ سنفقد خطوط التوجيه .

قال بيسونوف :

— شكرا ، على هذه الكلمات الموضوعية ، يا مقدم . وكفى . ما تزال خطوط التوجيه قائمة . وكما أن أمرى بالحصول على أسير لم الغه بعد ، حتى لو أسرنا أنا وأنت . وهو أمر مؤسف جدا .

ورفع سماعة التلفون :

— اعطنى قائد المدفعية . . . الخط يعمل . هذا شىء ممتاز . اعطنى لوميدزه .

وفيما بعد ، عندما جاء فى السماعة الصوت الحلقى ،

صوت الجنرال لوميدزه ، قائلا بلكنة جورجية :

« جن الالمان عندكم كليا ، ايها الرفيق الأول . . »

قاطعه بسؤال :

— هل هناك امكانية استخدام الفوج الثانى والاربعين للهاونات النفاثة باتجاه دييف ؟

— سأصدر امرى ، يا بيتر الكسندروفيتش . هل نستخدمه ضد الدبابات ؟ هل فهمتك صحيحا ؟

— فهمت صحيحا .

لم يتوقف بيسونوف فى النصف الثانى من المخبأ الذى كانت التلفونات تدندن فيه . وقد امتلأ جوه بدخان السيكائر ، فكان مثل ضباب يمامى اللون ، تتحرك فيه شخوص الضباط . ما ان لمح قامة العقيد دييف المديدة بين رجال قسم العمليات حتى دفع الباب بعصاه ، دون أن يتفوه بكلمة ، وخرج من المخبأ . وتبعه مرافقه الميجور بوجيتشكو . . .

كان المرتفع يصفر تحت ضربات الريح ، تحت زمزمات المعركة ، فكان تارة يبدو وكأنه يرتفع نحو السماء المنورة ، مضاء بوابل الصواريخ المتكسر ،

وتارة يسقط فى الظلام . كانت الاضواء والظلال السريعة تتابع عليه ، مرتعشة فى الخندق ، مضيئة الوجوه ، ثم تنطفئ ، قاذفة الظلمة فى الابصار لمحة واحدة .

ـ ايها الرفيق الجنرال ! ارجوك ان تأتى الى المخبأ ! الى المخبأ ارجوك !

هتف بذلك بوجيتشكو ، وقفز من مكانه ، واندفع الى خندق الاتصال ، محذرا شخصا ما بصيحة ضارية :

قف ! من انتم ؟

وهناك ، فى الاسفل ، فى خندق الاتصال سرت ضجة حركة ، وترددت صيحات الحراس المذعورة ، ثم تجمهرت ظلال فى الممر الضيق . ركض بوجيتشكو الى عطفة الخندق ، وقد أعد بندقيته الاوتوماتيكية للاطلاق ، وهتف ثانية بتهديد عنيق :

ـ قف ! سأرمى ! من انتم ؟

سكت كل شىء هناك ، وكفت الظلال عن الحركة ، وأعلن صوت الحارس وحده من الاسفل :

ـ من اركان الجيش يريدون القائد . هل اسمح لهم ؟

ـ انتظر !

أوقفه بوجيتشكو بهذا القول ، وركض الى الاسفل ، وامعن النظر .

صاح صوت آخر من خندق الاتصال :

ـ من هذا الآخر الذى يأمر ؟ ماذا يعنى « انتظر » ؟ اهذا انت ، يا بوجيتشكو ؟ لماذا تزعق على جماعتك ، وكأنما مقذوف من مسمار ؟ اين القائد ؟ أين عضو المجلس الحربى ؟

قال بوجيتشكو ممطوط اللهجة وضحك :

ـ هذا انت ، أيها الرفيق العقيد ! ظننت أن الالمان يتسللون ! ما قدومك الينا ، ايها الرفيق العقيد ؟ حننت ؟

ـ أحن اليك منذ زمان ، يا ميجور بوجيتشكو . صوتك الجهورى لا يؤهلك لان تكون مرافقا ، بل آمر فصيلة مشاة . أين الجنرال ، هل هو هنا ؟ اين عضو المجلس الحربى ؟

ـ هكذا ولدتنى أمى ، ايها الرفيق العقيد . ممكن أن اكون آمر فصيلة أيضا ، لن أضيع . . . انهما هنا ، تفضل .

خرج العقيد أوسين رئيس استخبارات الجيش من

خندق الاتصال الى الخندق ، نافضا ثيابه بلا اهتمام ، واسرع يصلح حزامه ، وقراب مسدسه ، ومحفظة الميدان . وكانت جميعها قد انحرفت عن اماكنها ، وكأنما كان يركض ويسقط ، ويزحف طويلا على كثبان الثلج . وكان مرافقه المسلح ببندقية اوتوماتيكية ، المسربل بالثلج من رأسه حتى قدميه وكانما قد غاص فيه ، رجلا صغير الجسم ، مترهلا ، لاهث الانفاس ، يطأطئ رأسه عند كل رشقة زاعقة ، وقد وقف وراء العقيد يساعده فى تنظيف اللطخات البيضاء الملتصقة على ظهره وجنبيه . وكان بوجيتشكو يتطلع اليهما تطلعا لا يخلو من اهتمام ، ويبتسم ابتسامة خفيفة . والى الوراء ، فى الخندق ، كان ثلاثة آخرون يضربون الأرض باقدامهم لاهثين ، هم الميجور تيتكوف القصير الجذع ، الحديدى البنيان كمصارع ، وأثنان من حملة البنادق الاوتوماتيكية طويلان ركينان ، من حرس بيسونوف الذين تركهم فى نقطة المراقبة التابعة للجيش .

سأل بوجيتشكو بدهشة وغيرة فى الوقت ذاته :

ـ وأنتم ايضا قد وصلتم ، يا اولاد؟ هل استدعيتم؟

ـ ما هذا الفضول ؟ أنت تريد أن تعرف الكثير

مما لا لزوم له ، يا بوجيتشكو ـ قال اوسين ذلك قاطعا الاستجواب ، وبعد أن هدأت أنفاسه دفع يد مرافقه التى كانت تمسح فروته معتنية ، قائلا : كفى ، يا كاسيانكين ، كفى ! ستمزق جبينك من شدة المجاهدة ! لا تدخل معى ، وانتظر هنا ! ابق مع الحرس ـ وأشار برأسه الى داخل الخندق ـ يا ميجور بوجيتشكو ، دلنى على عضو المجلس الحربى . أين مخبأه ؟

ـ انه مع قائد الجيش ، ايها الرفيق العقيد ، فى نقطة المراقبة .

ـ قدنى ، يا ميجور !

حث اوسين آمرا ، وسار خلف بوجيتشكو بعزيمة وبمشية واسعة ، ووقار من يعرف قيمة نفسه ، ويؤدى واجبه بجدية وبلا لفط . وعندما كان امراء وحدات الفرقة الذين لا يعرفونه يلتقون به فى الخندق كانوا يصاحبونه بنظراتهم مخمنين شخصيته ، والأمر الذى جاء به فى هذه الساعة .

حينما وصلا الى بيسونوف الذى كان منكبا على عدستى النظار ، وأعلن بوجيتشكو وصول رئيس

الاستخبارات بشيء من الاستغراب المرح ، تحركت دفتا بيسونوف على ظهره الضيق ، والتفت معتمدا على عصاه ، وتفرس فى وجه أوسين القوى الوجنتين ، الملتمع بالعرق ، وكأنه لم يعرفه ، وبعد ان تريث قليلا قال على غير ثقة :

ـ لا أفهم . . . لماذا أنت هنا ، على وجه التحديد ، يا عقيد ؟

أجاب اوسين بنطق ذلق مبتسما ابتسامة عذبة واسعة ، ماسحا العرق عن خديه بكفه :

ـ وددت أن أرى ما يجرى عندكم ، ايها الرفيق القائد ! الجميع يتحدثون عن الوضع فى قطاع دييف ، فلم اصطبر . فى البداية ركبت السيارة ، وفى القرية هنا زحفت زحفا ، ونططت نطا . . . وصلت بمغامرات . الطلقات كانت تأتينى من كل الجهات . ولكن الامر انتهى بسلام !

سأل بيسونوف :

ـ هل جئت من مقر قيادة الجيش رأسا ؟

ـ ركبت من مقر القيادة الى نقطة المراقبة التابعة للجيش . ومن هناك الى هنا رأسا ـ وراقب اوسين

تدفق خطوط القذائف الكشافة فوق المرتفع ، وتلاشت الابتسامة من شفتيه العريضتين ، وقال :

ـ انظروا ما يفعل هؤلاء الالمان ! احقا أنهم يأملون فى شق طريقهم الى باوليوس ، ايها الرفيق القائد ؟

اجاب بيسونوف باقتضاب ، غير مبال الى التفسيرات ، وهو ما يزال غير فاهم السبب فى قدوم هذا العقيد القليل التعرف عليه والذى لم يكونوا بحاجة اليه هنا على الاطلاق :

ـ لست على خطأ ، يا عقيد .

ـ اهذا انت ، يا رفيق اوسين ؟ سأل فيسنين هذا السؤال وقد حيره ايضا قدوم رئيس الاستخبارات المفاجئ ، وخرج اليه من ظلام الخندق ، ومس باصابعه جسر نظارته ، ورفع حاجبيه سائلا :

ـ اى شؤون لك هنا ، فى نقطة المراقبة ؟ هل هناك شيء مهم ؟

ـ ايها الرفيق عضو المجلس الحربى . . .

ولم يتم اوسين عبارته ، وأرتسم الجد فجأة على وجهه المدور المعافى ، والقى ببصره تحوطا عبر كتفه الى الوراء ، ناظرا الى امراء الوحدات فى الخندق ،

والى بوجيتشكو الذى كان يلعب ، ويطقطق بحزام بندقيته الاوتوماتيكية ، مستقلا بنفسه ، مسندا كوعه على قرمة . قال اوسين دون ان يتم فكرته الى النهاية :

— ايها الرفيق عضو المجلس الحربى ، أنا أفهم أننى زائر نادر فى نقطة المراقبة ، على أية حال . . . لا أريد أن اضايق القائد ، هل تسمح لى بالتحدث معك ؟ الحديث يستغرق ثلاث دقائق لا اكثر .

الفصل الرابع عشر

كان المخبأ الصغير الذى حفره رجال المدفعية ، كما يبدو ، فى نهاية الخندق ، خاليا ، تفوح منه رائحة أرض فقدت حرارتها . وكان مصباح كيروسين يشتعل معلقا فى الاعلى ، وكان ما يتساقط من تحت جذوع السقف من قطع التراب الصغيرة يندق فى زجاجة المصباح ، ويجعله يهتز اهتزازا خفيفا .

جلس فيسنين الى منضدة صنعت من صناديق المدافع ، والقى على سطحها علبة سيكائر ، وقال ، وهو يتناول منها سيكارة :

— انا مصغ اليك ، يا رفيق اوسين . ارجو أن تشرح لى بطريقة ملموسة أكثر ، اذا كان ذلك ممكنا .

القى العقيد اوسين نظرة خاطفة على المخبأ ، واركانه المظلمة ، ولمس بيده المشمع الملقى على الرف بالقرب من قرابى البوصلة والمنظار ، ثم سحب الستارة على المدخل ، وعندئذ فقط ، جلس الى المنضدة ، وخلع قبعته ، وفك ابزيم فروته العلوى — كان يستشعر حرا ، وما يزال عرقا بعد النط والزحف فى الثلج ، وانشأ يتحدث مخفضا صوته :

— أيها الرفيق عضو المجلس الحربى ، اعذرنى على هذا السؤال غير اللازم : كيف تقيم شخصيا وضع الفرقة ، فى اللحظة الراهنة ؟

سحق فيسنين السيكارة ليخلخل التبغ فيها ، وأشعلها ، ومص نفسا ، وقال :

— وهل المسألة غير واضحة حقا ؟ انت نفسك ، فى اغلب الظن قد تأكدت كيف تطور الوضع فى الفرقة نحو المساء . فلأى غرض هذا السؤال .

انتصب العقيد اوسين وراء المنضدة .

— تأكدت بنفسى ، ايها الرفيق عضو المجلس الحربى . . .

— أنا مصغ لك ، مصغ .

قال ذلك فيسنين ، ومص سيكارته ، لا ليوقف اوسين ، بل ليستعجله ، وبعد ان نفث الدخان فى نار المصباح الكيروسينى ، هز رأسه له ، وهو ما يزال فى واقع الأمر غير فاهم السبب فى قدوم رئيس الاستخبارات .

مرر العقيد اوسين جمع يده على جبينه مفكرا ، وكان شعره الاشقر المجعد ملتصقا ووجنتاه البارزتان الحليقتان جيدا تبدوان كالقرميد الأحمر .

استنشق الهواء من أنفه ، وتكلم بصوت سرت فيه قوة :

— اغلب الظن ان قدومى يبدو غريبا ، ايها الرفيق عضو المجلس الحربى . ولكن لست أنا وحدى متخوفا من وضع فرقة دييف فى الوقت الراهن . لقد سمعت رأى الجنرال ياتسنكو ، وغولوبكوف عضو المجلس الحربى للجبهة .

رفع فيسنين حاجبيه وقال :

— ما الخبر ؟ ماذا قلت عن غولوبكوف ؟ هل هو فى مقر قيادة الجيش ؟ هل التقيت به ؟

— نعم ، انه وصل . . . وهو أيضا عبر عن تخوفه بشأن الوضع المعقد للفرقة . وغولوبكوف الآن ليس فى مقر القيادة ، بل فى نقطة المراقبة التابعة للجيش . أراد أن يراك ، ايها الرفيق عضو المجلس الحربى ، ولكنك هنا . . .

ومسد العقيد اوسين بيده الكبيرة سطح المنضدة الخشن يمنة ويسرة ، وأبتسم لفيسنين معتذرا بعينيه الزرقاوين قليلا ، المتشبثتين ، كما بدتا ، بعينى فيسنين ولم تكن تنعكس فيهما تلك البساطة الريفية الوقائية التى لاحت لدى حديثه مع بيسونوف . بل كانت تشع فيها الرغبة فى حسن المعاملة ، والتزام الحدود التى تفرضها العلاقات بين رئيس ومرؤوس .

— جرى الحديث حول المكان الانسب لك ولقائد الجيش لتقودا المعركة منه الآن ، وهو المكان الذى لا يهددكما فيه خطر ، مثل نقطة المراقبة التابعة للجيش على سبيل المثال .

— واذن ؟ ننتقل من نقطة مراقبة الفرقة الى نقطة مراقبة الجيش ؟ الآن ؟

— افهمنى بشكل صحيح ، أيها الرفيق عضو

المجلس الحربى . لماذا تغفلان ، أنت وقائد الجيش ، الحيطة اذا كان من الممكن ألا تغفلاها ؟ أنا اعرف طبع قائد الجيش الذى ما كان ليسمعنى ، ولهذا اتحدث اليك ، وأنت المسؤول الحزبى ذو النفوذ ، حديثا صريحا للغاية .

ـ هكذا . تابع كلامك .

قال فيسنين ذلك مزيدا من انكبابه على المنضدة ، ناظرا فى حدقتى اوسين ، ومع ذلك غير حادس كليا شيئا لم يتم رئيس الاستخبارات قوله ، بسبب من التكتم المعتاد ، كما يبدو ، أو من الخوف أمامه ، وهو عضو المجلس الحربى ، المخول صلاحية اكبر بكثير .

قال اوسين ، وقد تقوس قليلا حاجباه الاشقران :

ـ ليس هناك اسرار بالنسبة لك ، ايها الرفيق قوميسار الفرقة . انت تعرف أية أحداث مفجعة وقعت فى جبهة فولخوف فى حزيران من هذا العام . أنت تذكر ، بالطبع ؟

ـ يعنى ؟

قال ذلك فيسنين ، وابعد نفسه عن المنضدة بدفعة

قوية من اصابعه ، وحشر يديه بجيبى معطفه الفرائى ، وسار عدة خطوات فى المخبأ ، واحس بقشعريرة مفاجئة ، وقال دون ان يخرج يديه من جيبيه :

ـ لست فاهمك كثيرا ، على أية حال . هل تريد أن تتحدث عن جيش الصدام الثانى ؟

ـ نعم ، عن الاحداث فى جيش الصدام الثانى . فلا يمكن نسيان تلك . . . تلك بالذات ـ قال اوسين مؤكدا بعظمة ، ونظر الى جذوع سقف المخبأ ، فقد كانت تقرقع بفعل الانفجارات القريبة ، وكان المصباح يتأرجح يمنة ويسرة فوق الرأس ، وقال اوسين : أنظر كيف ! الدبابات تقصف نقطة المراقبة طوال الوقت . . .

جلس فيسنين على المقعد قرب المنضدة بحركة حادة ، واخرج يديه من جيبيه بحركة حادة ، وتناول علبة السيكائر التى تناثر عليها التراب من السقف ، الا أنه دفعها فى الحال ، وفرك صدغيه وكأنه يهدئ صداعا ، ونظر الى اوسين فجأة ، باندهاش وتفرس . اعتمل شىء فى نفسه ، فاحس بأنه مستشاظ غيظا ، وبأنه يريد أن يضرب الطاولة بجمع يده فى هذه اللحظة ، الا أنه اكتفى بأن قال محنقا :

— وما علاقة كل هذا ؟ . . هل أنت قلق ، يا رفيق اوسين . . . تخاف ان يحدث ما لا يعرفه الا الشيطان لبيسونوف ولى اذا تم تطويق الفرقة ؟ من أين جاءك هذا الحذر ؟

— ما الداعى الى ذلك ، ايها الرفيق عضو المجلس الحربى ؟

واسبل اوسين رموشه الشقر ، وراح يتحدث باخلاص وبتكدر :

— لماذا تقول ذلك ؟ أنا اعرف شجاعة الجنرال بيسونوف ، وأعرفك ، وأنا لا استطيع أن افسر لنفسى لماذا تعتبرنى ، وارجو المعذرة ، احمق كليا ، ايها الرفيق عضو المجلس الحربى ؟ أنا لا أود أن أفهم فهما غير صحيح .

— وكيف تفهم ؟

— أنا اتحدث عن الطوارئ . الا تعرف ، لحد الآن ، بالمصير المفجع لابن قائد الجيش الملازم بيسونوف ؟

رجت المخبأ انفجارات القذائف ، وعاد المصباح الى تأرجحه تحت جذوع السقف المقرقعة ، وتساقطت

كتل التراب الصغيرة مرتطمة بالواح الارضية . ركض شخص فى الخندق مارا بالمخبأ ، ضاربا الارض بقوة ، صارخا بشىء ما وترددت اصوات جوابية مبهمة . غير ان فيسنين لم يعر التفاتا للضجة المفاجئة فى الخندق ، واجابه :

— لا ! اعرف ، على العموم ، أن ابن القائد فقد فى جبهة فولخوف . وانت ماذا تعرف ؟

أدار اوسين رأسه الى مدخل المخبأ ، وتصنت الى الانفجارات على المرتفع ، والى الاصوات فى الخندق ، ثم وضع على المنضدة ، فى غير ما حزم ، محفظته العسكرية المنتفخة ، الجديدة ، الخالية من كل خدش ، وفتحها . وخشخش الورق تحت اصابعه وهى تتصفحه .

— تفضل اطلع ، ايها الرفيق قوميسار الفرقة ، على المعلومات الاخيرة . لقد تلقيت هذا المنشور من توى ، وعزمت على أن اطلعك عليه فى الحال . تفضل . . .

خشخش المنشور الصغير خشخشة الفأر ، وقد أخرجه اوسين بعناية من ملف للاوراق فى محفظته ،

ومده الى فيسنين عبر المنضدة فأستقر أمامه كالمستطيل الأصفر على سطح المنضدة غير المسحوج . غام بصر فيسنين للحظة ، ثم أخذت تظهر أمام عينيه الصورة المطبوعة بشكل سئ على ورق رخيص ، والحروف السميكة تحتها : « أبن قائد عسكرى بلشفى مشهور تحت العلاج فى مستشفى المانى » . والصورة تمثل فتى نحيلا وكأن مصاب بداء مسقم ، حليق الرأس كليا ، يرتدى قميصا عسكريا عليه شارة ملازم ثان ، محلول الياقة لسبب ما — وقد لاحت بطانة الياقة الداخلية جديدة مخاطة بشكل معوج — يجلس على كرسى ذى مسندين وراء منضدة بين ضابطين المانيين أدارا وجهيهما له فى ابتسامة كاذبة . كما أن الفتى يبتسم بغرابة وعذاب وينظر الى كؤوس عالية وسط المنضدة الصغيرة ، وقد ظهرت فى الصورة عكازة أسندت على مسند الكرسى .

— الا يكون هذا تزويرا ؟ أم هو ابن الجنرال بيسونوف فعلا ؟

سأل فيسنين مقاوما نفسه ، غير مصدق بعد ، بأن هذا الفتى الحليق الرأس ، الذى يبدو وكأن التيفوئيد

قد أضناه ، يمكن أن يكون ابن بيسونوف ، وبعد سؤاله هذا حول بصره الى اوسين ، محذرا أياه بصمت من أن الخطأ لا يغتفر .

قال اوسين مطمئنا بهيئة جادة حادة هيئة رجل يعرف الأمر الذى يتحمل مسؤوليته :

— كل شىء صحيح ، ايها الرفيق قوميسار الفرقة . الخطأ فى مدلول الصورة مستبعد كليا . اقرأ النص ، ايها الرفيق عضو المجلس الحربى .

ومال اوسين بجذعه الى الوراء ، وصر الصندوق تحته ، وأرسل الزفير من أنفه .

مرر فيسنين عينيه سريعا على النص القصير تحت الصورة ، مستوعبا الفكرة بصعوبة وليس رأسا ، معيدا عدة مرات قراءة العبارات المعروفة السموم ، المشبعة بالرائحة الغريبة ، الكذب الصارخ المفضوح ، لمنشور اعتيادى من منشورات الدعاية الفاشية ، وكان انتباهه يزيغ عن النص طوال الوقت ، ولا يستطيع تركيزا ، فكف عن القراءة ، ونظر الى هذه الصورة المسودة كلطخة ، والى الابتسامة المعذبة للفتى الحليق الرأس ، والعكاز الصغير المسند الى ذراع الكرسى والى البطانة

النظيفة المخاطة بانحراف ، تحت الياقة المحلولة ، والى الرقبة الفتية النحيلة البائسة ، رقبة ابن الجنرال بيسونوف . وتوقف عند بعض العبارات : « ان ابن بيسونوف القائد العسكرى السوفييتى البارز الذى يقود ، كما هو معروف أحدى التشكيلات منذ بداية الحرب ، صرح لممثلى القيادة الالمانية ، أن السرية القليلة التدريب ، السيئة التسلح التى كان يقودها قد سيقت الى المذبحة . وكانت المعركة الاخيرة لا تطاق . . . ان الملازم الثانى بيسونوف الذى جرح جرحا بليغا ، وقاتل بشجاعة وبعصبية تقريبا قد صرح ايضا : « لقد دهشت كثيرا لأننى أرسلت الى المستشفى وعولجت . ورأيت فى المستشفى الكثيرين من الاسرى السوفييت . وهم يعالجون معالجة كاملة . ان دعاية القوميساريين السوفييت تبث الاشاعات حول فظائع الالمان الوحشية ، وهذا ما لا يتفق مع الواقع . هنا ، فى المستشفى ، سنح لى الوقت لأفهم أن الالمان أمة رفيعة الحضارة انسانية النزعة تريد أن تقيم الحرية فى روسيا ، بعد اسقاط النظام البلشفى فى روسيا . . . »

وتردد صوت اوسين الجاد ، وكان يراقب قراءة فيسنين الطويلة :

ـ هل قرأت ، أيها الرفيق عضو المجلس الحربى ؟ أتسمح لى بأن أخذ المنشور ؟

فكر فيسنين مع نفسه ، وهو ما يزال غير قادر على أن يصرف بصره عن الصورة الرمادية غير الواضحة لهذا الفتى الضاوى الحامل رتبة ملازم ثان : « اذن ، هذا ابن بيسونوف ، وهو حى . ان هذا واضح الآن . وبيسونوف لا يعرف ذلك . ربما يحدس ، ولكن لا يعرف ؟ اى شىء هذا ؟ ان النص مزور وهذا واضح تماما . زائف دون شك . وهناك غير قليل من امثاله . ان واحدا من الاخساء الذين وقعوا فى الأسر معه دل الالمان قائلا أن آمر السرية هذا هو ابن جنرال . نعم ، بهذا الشكل ، على ما يبدو . بهذا الشكل فى اغلب الظن . ولا يمكن ان يكون غير ذلك . وبعد هذا أدخل الى المستشفى . وصوروه فى أول استجواب ، واختلقوا النص . لا يمكن ان يكون غير هذا ! ذلك لأنه ابن مدرسة ، صبى رباه الكومسومول ، والسلطة

السوفييتية ! لا ، أنا لا اصدق بشيء آخر ، ولا يمكنني أن اصدق !

— ايها الرفيق عضو المجلس الحربى ، ان هذا المنشور ، كما تدرك بنفسك ، لا يجوز ان يخبر عنه . يعنى . . . ارجو كثيرا الا يصل الى اسماع القائد .

— انتظر .

« نعم ، بيسونوف ، بيسونوف . . . قال انه أبلغ فقط بأن ابنه مفقود . ولم يرد اسمه فى قوائم القتلى والجرحى . . . ما هو تاريخ هذا المنشور ؟ ١٤ تشرين الأول ١٩٤٢ . قبل حوالى شهرين » .

— ايها الرفيق عضو المجلس الحربى . أرجو المعذرة . اعد المنشور لى . قد يدخل القائد الى هنا فجأة . ليس لنا الحق فى أن نجرح معنويته . . .

« هل كانوا يعرفون ذلك فى موسكو ، ام لا يعرفون حين كان هناك بيسونوف ؟ « هذا المنشور ، كما تدرك بنفسك ، لا يجوز أن يخبر عنه » . . . « ليس لنا الحق أن نجرح » ، يعنى أن بعضهم بهذا الشكل أو ذاك يقى القائد من المأساة الحقيقية التى حلت بابنه . ولكن لماذا ؟ لاى اعتبار ؟ » .

سأل فيسنين بصوت خافض :

— قل لى ، يا رفيق اوسين ، هل أنت تصدق بهذا المنشور ؟ هل تصدق أن هذا الغلام خان ، وغدر ؟

اجاب اوسين : « لا أظن » وشمر ذارعه احتقارا ، ثم استدرك :

— ولكن كل شيء محتمل فى معمعة الحرب . كل شيء تماما . أنا اعرف ذلك ايضا .

— تعرف ذلك ايضا ؟ — كرر فيسنين ، وطوى المنشور اربع طيات محاولا ان يخفى ارتعاش اصابعه ، وفك معطفه ، ودس المنشور فى جيبه الداخلى . قائلا : سيبقى المنشور معى ، « ولا يجوز ان يخبر عنه » على حد قولك — ووضع فيسنين قبضته المضمومتين على الطاولة — والآن اليك نصيحتى هذه : ارحل من هنا على الفور ! غادر نقطة المراقبة فى هذه الدقيقة . فان ذلك سيكون أحسن . ارحل ، الآن !

ونهض فيسنين ضاغطا قبضتيه على الطاولة .

نهض اوسين ايضا ، ولكن بحركة شديدة جدا ، فهز الطاولة بركبتيه . وغاض على الفور الدم الدافق

فى وجهه الممتلئ قليلا، وحل محله بياض ، وتوترت البشرة على وجنتيه .

وأتم فيسنين قوله بتؤدة :

— اذا يحصل شىء فى التطويق ، يا عقيد اوسين ، فان الأمان . . . هنا — مرر يده على حزامه وربت على قراب مسدسه على جنبه : هذا هو الامان . . .

صمت اوسين بأدب . انه لم ينس لحظة واحدة سلطة فيسنين الكبيرة ، وعلاقاته الطيبة مع غولوبكوف عضو مجلس الجبهة الحربى ، ولم ينس حقه فى الاتصال بموسكو مباشرة ، وفكر فى الوقت ذاته بفيسنين كانسان حاد المزاج جدا ، غير بعيد النظر ، ولا ملتزم جانب الحذر ، بل وضعيف الارادة ، ومثل هؤلاء الناس لم يكونوا يوحون بالثقة فى متانة مكانتهم . وكان اوسين يعرف كل شىء عنه : كان يعرف أن فيسنين لم يكن من العسكريين النظاميين بل من المدنيين ، من اساتذة المدرسة الحزبية العليا ، والاكاديمية السياسية . وكان يتذكر جيدا انه تزوج مرتين ، وأن زوجته الثانية مدرسة كيمياء ، ارمنية ، وان له ابنة فى العاشرة تدعى نينا ، من زوجته الأولى التى حكم على شقيقتها فى

أواخر الثلاثينيات وعلى اثر ذلك صدر بحق فيسنين توبيخ صارم لم يرفع عنه الا قبيل الحرب . وكان يعرف أنه فى عام ١٩٤١ ، وقد أصبح قوميسار فرقة ، قد اخترق الحصار قرب يلنيا ، واخرج معه فوجا كاملا تقريبا . كان يعرف ويتذكر الكثير مما غاب عن ذاكرة فيسنين ، فى اغلب الظن ، منذ زمن بعيد . الا أن اوسين دارى نفسه على عادته بابتسامة لا تدل على شىء ، وكأنما يوازن كل ذلك فى ذاكرته المتماسكة المستوعبة . واجاب فيسنين بالعمومية ذاتها :

— أنا لم أصر على شىء ، ايها الرفيق قوميسار الفرقة . أنا فقط اديت واجبى . . . الوظيفى والحزبى .

فقال فيسنين متجهما :

— ما دمت قد أديت واجبك ، فليس لك ما تفعله هنا أكثر . اكرر مرة أخرى : غادر نقطة المراقبة فى الحال ، ولا تخف الطوارئ ! ليس هناك اسخف من حذرك ! ليس من المعقول أن مفهوم « التطويق » يثير مخاوف باطنية !

تقدم فيسنين من الطاولة ، ولمعت نظارته وهو ينظر الى اوسين ، واختطف من على الطاولة علبة

السكائر التى تناثر عليها التراب ، وانحنى عند باب المخبأ ، وخرج الى الظلام الذى تتوامض فيه الصواريخ ، الى لعلعة رشقات الرشاشات الأوتوماتيكية ، الى الطلقات التى تتناهبها الريح فوق متراس الخندق .

الفصل الخامس عشر

لم يجد فسنين بيسونوف حال خروجه من المخبأ . كانت توهجات الصواريخ الحمراء-الخضراء ، تخطف بصره ودمدمة الرشقات القوية تصم أذنيه ، وكأنها قريبة منهما .

وفكر فسنين مع نفسه : « قد يسأل عن سبب قدوم أوسين . فماذا أجيبه ؟ أى حق انسانى لى فى أن أذهب اليه ، وأكذب فى عينيه ؟ اية علاقة يمكن أن تكون بيننا فيما بعد ؟ لا ، لا أستطيع أن أذهب اليه ، وأتظاهر بأن شيئا لم يحدث . يجب أن يكون بيننا اخلاص مطلق ونزاهة . . . ولكن لا أستطيع أن أدير لسانى ليحدثه عن ابنه الآن ، لا أستطيع . . . »

وأحس فسنين بأن اللابساطة الخالية من الوهم ، والتشدد فى علاقاته مع بيسونوف لم يعطياه حقا ولا صلابة فى المراوغة دبلوماسيا ، وهو لم يكن قادرا على تهوين الأمور ، وتخطى المهم ، وهكذا شعر ، وهو واقف فى كوة البوصلة ، بخجل محرق كريه فى داخل نفسه ، وكأنه تقيأ أمام الناس .

— يا بيتر ألكسندروفيتش ! هتف فسنين ، وخرج من الكوة مندهشا من نفسه على تصرفه هذا ، واقترب من بيسونوف الذى كان محاطا بالضباط قرب المنظار .

قال بيسونوف ، وانصرف عن المنظار المزدوج :

— وأنا بحاجة اليك ، يا فيتالى ايسايفيتش — ومسح بيسونوف بمنديله وجهه الملذوع بحبات الثلج — نزلت الفرقة « ٣٠٥ » الى المعركة . سنرى الآن ماذا سيحصل . ولكن الشىء الأهم هو . . . — وظل يمسح وجهه بمنديله بهيئة استغراق ساهم — الشىء الأهم الآن هو الفيلق الآلى وفيلق الدبابات . من الضرورى استعجالهم ، استعجالهم بكل الجهود ! بودى أن تذهب للقاء فيلق الدبابات فى منطقة التمركز ، يا فيتالى ايسايفيتش ، واذا ليس لديك مانع ، ق هناك فى

الوقت الراهن لتنسيق العمليات بشكل أنجح . أنا أعتبر ذلك ضروريا . وأحس فسنين بغصة تصعد الى حلقومه ، فأجاب بالكاد :

— سأقوم بكل ذلك ، يا بيتر ألكسندروفيتش . . . سأخرج حالا . . .

— سافر . فقط أن تبدى يقظة فى القرية . فان الوضع على الضفة الشمالية لم يتغير بعد .

. . . عندما وصل فسنين الى موضع فى الخندق كان قد التقى فيه بالميجور بوجيتشكو من توه كان الأخير يطلق النار مستلقيا على المتراس ، فكان كتفه يتحرك من رشقات البندقية ، وقد انسرحت القبعة على علبائه .

— يا ميجور بوجيتشكو ، أنا بحاجة اليك !

التفت بوجيتشكو على النداء ، وعدل وضع قبعته من على علبائه بضربة من يده وهتف بحماس بهيج :

— على أية حال ، الألمان يطوقون ! انهم يتقدمون فى ناقلات مصفحة ، ويزحفون كالقراد ! أنا مصغ اليك ، أيها الرفيق قوميسار الفرقة !

كان فسنين يقف فى الخندق ، وقد أحنى رأسه :

— اسمعنى ، يا بوجيتشكو ، ينبغى على فى هذه الدقيقة أن أذهب الى فيلق الدبابات . لا تنس شيئا واحدا : احرص على القائد حرصك على حدقة عينك . أنصحك بأن تكون على مقربة منه دائما .

— مفهوم ، أيها الرفيق قوميسار الفرقة . — وأنزل بوجيتشكو البندقية الأوتوماتيكية ، وتساءل : — هل أنت ذاهب الآن ؟ ولكن أعذرنى ، ألا يكون خطرا جدا الآن ؟ المرتفع يبدو هدفا للرمى من كل الجهات .

قال فسنين وقد هز ساعد بوجيتشكو هزا ضعيفا .

— سيذهب معى العقيد أوسين وحراسه : توافه . بنفس الطريق الذى جاء به أوسين . سيكون كل شىء كما ينبغى ، يا بوجيتشكو . حصل أسوأ من ذلك . . .

— يبعد عنك الشر ، أيها الرفيق قوميسار الفرقة !

عندئذ ابتسم فسنين ، وهز ذراعه .

— لا يهم ، ليكن ما يكون ، يا بوجيتشكو !

كان العقيد أوسين وكاسيانكين ما يزالان جالسين الى الطاولة فى مخبأ رجال المدفعية ، وكلاهما ، يسمع الرمى ، كان ينتظر شيئا ما فى صمت كئيب . عبر فسنين العتبة ، ودون أن يبدى عجلة نظر الى أوسين

بتماهل متفحص ، فقفز هذا فى الحال . قال فسنين بلهجة آمرة غير معهودة :

— طريقنا واحد ، يا عقيد أوسين ، الى قرية غريغوريفسكايا . أين تقف السيارة ؟ خذ معك حراسة !

— أنا مسرور ، أيها الرفيق قوميسار الفرقة ... مسرور جدا . شكرا . السيارتان تحت التمويه وهما تقفان فى زريبة أسفل المرتفع ، شكرا ... — تكلم بذلك أوسين راضيا ، وتناول من على الطاولة محفظته العسكرية الجلدية وسأل بحذر — : وكيف ... الجنرال بيسونوف ؟ كيف ؟ هل ستبقى هنا ؟

لم يصطبر فسنين فقال :

— أما زلت تعتقد أننى ذاهب معك لغرض سلامتى الشخصية ؟ معقول أنك واثق من ذلك ؟

قال أوسين متكدرا ، وأسبل رموشه البيضاء :

— أيها الرفيق قوميسار الفرقة . لا داعى لأن تغضب منى . أظن أنك ستجد عضو مجلس الجبهة العسكرى فى نقطة المراقبة التابعة للجيش ، وسيعرب لك بنفسه عن قلقه .

— لا تبطئ يا أوسين ، وسر بى الى السيارة .

قال أوسين :

— لنذهب عبر الطرف الشمالى الغربى للقرية ، باتجاه الطريق الريفية . فان هذه الطريق ما تزال حرة . فى الأسفل فقط ، فى أسفل المرتفع ، حين استدارت السيارات ، بأمر أوسين ، فى شارع صغير فى القرية ، وانطلقت بسرعتها نحو الطرف الشمالى الغربى ، عندئذ فقط فكر فسنين بما فى وضع فرقة دبيف من ضعف وتخلخل . لقد كان الوضع على هذه الضفة يبدو له من الأعلى ، من نقطة المراقبة مختلفا بعض الشىء ، وليس على هذا القدر من الخطورة ، ولا على هذا القدر من الحراجة القصوى .

كانت الضربات الحادة للمعركة المقتربة تماما تدق فى الأذان بدفعات لا تنقطع .

كان جزء القرية الواقع على الضفة الشمالية نهبا كله لحرائق تتسع كلما دنت المسافة — كان كل شىء يتلوى ، ويهوى ويميل ، ويزحف فى النار التى تشب وسط البيوت بانفجارات القذائف ، وكانت رشقات الرشاشات ترسل من حجرات السطح المحترقة حزما متناثرة من الشرر . وكانت حرارة الهواء المحمى

بحرارتها ولذعها تحس فى السيارة أيضا . ان هذه الحرارة المخلوطة بالدخان كانت تدمع العيون ، وتناكلها . وصارت تسرى فى الحنجرة دغدغة وحرقة . وأخذ سائق السيارة يسعل بين الحين والآخر ، ملقيا صدره على الدفة ولمح فسنين الدبابات للحظة واحدة فى الطرف القصى من الشارع . انزلقت كلمعان أحمر وراء البيوت . لمعت واختفت ، مبتعدة عن السيارة ، أو بالأصح أبتعدت السيارة عنها . ولم يسنح لفسنين الوقت ليعرف لمن هذه الدبابات .

— دس على البنزين الى الآخر ، والحق بتيتكوف ، فهو يعرف الطريق ! وفى القرية استدر الى اليمين رأسا ! — صاح بذلك أوسين بانفعال من أخذ على عاتقه كامل المسئولية ، وأدار لفسنين وجهه المستدير القوى وقال :

— سنعبر ، أيها الرفيق قوميسار الفرقة !

— أنا لا أشك فى ذلك .

فأكد أوسين ، واستنشق الهواء من منخريه بقوة :

— سيكون كل شىء على ما يرام تماما . حوالى ثلاثة كيلومترات هى الخطرة . . .

كان راغبا فى مطارحة الحديث ، الا أن فسنين لم يكن راغبا فى الحديث على الاطلاق .

كان يجلس الى الخلف مع كاسيانكين منضغطا على ظهر المقعد صموتا . وكانت البندقية الموضوعة على ركبتى المرافق تهتز لدى مرور السيارة فى حفر الطريق وكانت توخز جنب فسنين . كان بصر كاسيانكين ينتقل هائما من علباء السائق الذى كان يهزه السعال ، الى الطريق المغطى بالثلج والذى كانت تضيؤه البيوت المحترقة اضاءة شاملة ساطعة . وعندما تكلم أوسين جفل ، متصورا ، فى أغلب الظن ، هذه الكيلومترات الثلاثة ، وأدار عينيه فى خوف ذات اليمين وذات الشمال . وفكر فسنين : « ان هذا شاب أرعن ، ربما هو خائف أكثر من اللازم ؟ »

قال فسنين :

— أمسك البندقية أقوى ، يا كاسيانكين . أو أعطها لى .

رد كاسيانكين بصوت مهبهب :

— أمسكها . . . أمسكها أنا ، أيها الرفيق قو — ميسار الفر — قة ، — و هز رأسه متوسلا قائلا : أعذرنى أرجوك .

الى اليمين تراءت حرائق متناقصة ، والى الأمام يبدو الشارع قد انتهى . سارت السيارة بمحاذاة الشاطئ . والآن لاح المرتفع المدور الذى تقع عليه نقطة المراقبة الى الخلف ، والى اليسار فوق سطوح البيوت ، وراء النهر شب وأرتفع وهج المعركة الحار عريضا قانيا تشعشعه ومضات الصواريخ .

ابتعدت السيارة ، وكانت تسبح فى الضوء القرمزى ، يمين هذا الوهج ، عن المعركة وراء النهر ، وصعدت فى جبل الى طرف القرية ، مارة بالبيوت الأخيرة . وكان فسنين يرى الآن ، وهو يحس بارتياح لا ارادى بشىء من التخفيف ، سيارة الحرس الى الأمام ، تصعد بكل سرعتها المرتقى الصقيل المدكوك من كثرة الحركة ، الى المرتفع وراء طرف القرية حيث كانت تنتهى حدود الرمى . كانت الظلمة هنا تشف عن حمرة ناعمة .

ـ ماذا بك ؟ هل جننت ؟ لماذا قللت السرعة ؟ لماذا ؟ ما الخبر ؟ ـ صاح أوسين ، وضغط بكل جسمه على السائق .

ـ أيها الرفيق العقيد ! . . أنظر ! ـ نطق بذلك السائق بعسر ، خلال سعاله الموصول . ـ أنظر ! أنظر الى الأمام !

ـ هذا تيتكوف . . . يبدو أن سيارة تيتكوف ، تعطف . . .

أعلن كاسيانكين ذلك بصوت رقيق ، وقد مد رقبته الى السائق ، ورفع جسمه ، وتشبث فى المقعد الأمامى بكلتا يديه ، فسرحت البندقية من على ركبتيه ، وسقطت على أرضية السيارة المهتزة وراحت تقفز على قدمى فسنين .

قال السائق بصوت مبحوح ، متهيجا بشكل جنونى :

ـ الدبابات ! . . الألمان الى الأمام !

صاح أوسين :

ـ أين ؟ أين الألمان ؟ من أين جاءوا ؟ انها دباباتنا « ت-٣٤ » ! الى الأمام ! . . أنت ، يا عجيب ، هل فقدت عقلك ؟ زد السرعة ! . .

كانت البندقية تضرب قدمى فسنين بسرعة متزايدة .

كان فسنين فى كل لحظة يريد أن يقول لكاسيانكين : « أمسك وأخيرا ، ألا تمسك البندقية ! » ـ الا أنه لم يقل ، لأنه رأى ما حدث الى الأمام .

صعدت السيارة الى المرتفع وراء طرف القرية ، زاعقة على المرتقى وانكشف فى تلك اللحظة ، ونهض

كالجدار ظلام اللهب الوردى الممتد حتى سواد الأفق ووسط هذا السواد ، المتوقد بالوهج ، المتحول الى غبش راحت سيارة الحرس الأمامية تستدير على المرتفع ، أمام أشباح ضخمة مثل أكوام الدريس ، متعجلة مرتجة الى الأمام والى الخلف رجات غير موزونة ، وأخيرا استدارت ، وتقافزت على الطريق الوعرة ، وانطلقت نحوهم على المرتقى .

كان باب السيارة الى يمين السائق مفتوحا ، ولاح منه شخص الميجور تيتكوف طالعا الى وسطه . كان يصرخ بشىء ما ، كما يبدو ، ملوحا بالبندقية الأوتوماتيكية الى فوق . ثم أطلق رصاصة فى السماء .

ـ والآن أيضا تعتقد أنها دباباتنا يا أوسين ؟ سأل فسنين بهدوء غير متوقع فى مثل هذه اللحظة ، حتى أنه هو نفسه لا يكاد يسمع صوته .

وفى تلك اللحظة ارتطم صدره بظهر المقعد الأمامى ارتطاما شديدا بسبب فرملة السيارة الحادة ، الا أنه استطاع أن يلمح الأشباح السوداء تنفث الشرر فى السماء الليلقية الكدرة من الوهج ، وترامى من هناك دوى كثيف لمحركات الدبابات . وفى الحال تطاير

اللهب الى الأمام مثل وميض برق أحمر ، وزمزم رعد هناك . وأرتفع مخروط نارى عريض أمام سيارة الحرس ، وقذفها ناحية ، وأقعدها على جنبها على المرتقى . لم يقفز من السيارة غير شخص واحد ، ركض فى الطريق الى الأسفل فى خط متعرج ، ساقطا . كان يصرخ بشىء ، على ما يبدو ، دافعا بالبندقية فوق رأسه .

أوعز أوسين بصوت مسعور « الى الوراء ! » وقد انقذف هو نفسه الى الوراء ، وضرب كتف السائق ، وقال :

ـ استدر : بسرعة ! الى الأسفل ! الى القرية !

ـ الألمان ! الألمان ! . . كيف يمكن هذا ؟

صرخ بذلك كاسيانكين منهارا فى ركن من السيارة ، بل بدا وكأنه يحاول أن يضم ركبتيه الى بطنه وشفت حركاته الرعناء هذه ، وصوته المرعوب عن شىء حاد شائك ، كالذعر ، وخز فسنين فى حشاشته .

ـ اخر . . . رس ، يا كاسيانكين ! ـ قال له فى حنق ، ودفع ركبته المرتفعة المرتجة مشمئزا ، وكرر :

ـ أسكت حالا ، تماسك !

صرخ كاسيانكين بصوت تملؤه العبرة :

— ولكنهم قريبون ، قريبون ! وقعنا ! ما هذا !

— قلت لك أسكت !

كان فسنين يسمع أوامر أوسين — « الى الوراء ! بسرعة أكثر ! استدر ! أضغط على آخر السرعة ! » — وسعال السائق القاتل الشبيه بنوبة متشنجة ، وفى غير أوانه وكان يرى كيف يدير الدفة بدفعات حادة من أيديه وكتفيه ، وكيف كان أوسين المائل بكل جذعه الى الأمام كالوحش يضرب الغطاء الحديدى فوق لوحة المقاييس بجمع يده فى نفاد صبر . كان فسنين يريد أن يرى الدبابات من خلال الزجاجة الجانبية ، وفى اللحظة التالية أحس وكان بصره قد خطفته النار المتأججة لومضة برق ثانية مصوبة نحوه ، شاعرا بأن السيارة قد استدارت أخيرا ، وصارت تنحدر بانحراف زاعقة باطاراتها ، وتنزلق الى الأسفل . وانقذف فسنين فى السيارة بقوة رهيبة ، انقذف ناحية على شىء حى ناعم صارخ بصوت مجلجل ، أخذ يتحرك تحته . وبمحاولة خارقة لتخليص نفسه من هذا الطارئ المشؤوم الذى وقع له لحق أن يفكر بوضوح « فقط أن لا أفقد الوعى

الآن ! من يصرخ ، كاسيانكين ؟ هل جرح ؟ لماذا يصرخ هذا الصراخ ؟ »

الا أنه ، على الأرجح ، فقد وعيه للحظة من ارتطام رأسه بقوة للمرة الثانية بشىء معدنى صلب . ثم أفاق على صيحة على شىء ما كان يضطرب تحته ، ولم يدرك رأسا بأنه يرقد مضغوطا على نحو غير طبيعى ، فى تضبب رمادى ، على شخص ما ، وباب السيارة لم يكن الى يمينه ، بل فوق رأسه . وحدس بشكل مبهم : ان السيارة قد انقلبت ، واستقرت على جنبها تحت المرتقى . كان كل شىء قد تغشى بكفن الغيبوبة : ان النظارة لم تكن على عينيه . تلمس فسنين باحثا عن النظارة بشكل آلى ، وهو ما يزال غير متمالك وعيه تماما ، فرأى فى غير وضوح رأس السائق الحاسر الجامد منضغطا بخده على باب السيارة المغروز فى كومة ثلج . كانت زجاجة السيارة الأمامية مهشمة ، وغطاء المحرك يبرز معوجا . كان الهواء الصقيعى ينفذ الى السيارة مع دوى قريب مبهم ، وكان هذا الدوى يغطى على أنين كاسيانكين وصيحاته المخنوقة . وكان فسنين مضغوطا عليه ، وهذا ما أعاد اليه وعيه كليا .

قال فسنين بصوت واهن سمعه بالكاد :

ـ هل جرحت ، يا كاسيانكين ؟ لماذا انت تصرخ هكذا ؟

فدق أذنه صوت كاسيانكين :

ـ قدمى . . . قدمى !

ـ أيها الرفيق قوميسار الفرقة ، هل جرحت ؟ أخرج بسرعة ، بسرعة ! أيها الرفيق قوميسار الفرقة ! . .

سد شخص بجسمه الواسع ضوء الوهج ، وبقوة عجلى جذب باب السيارة فى الأعلى ، ورجه ، محاولا فتحه ، وعندما أنفتح ، امتدت ذراعان وأمسكتا بكتفى فسنين ، ورفعتاه الى فوق باصرار حازم . ولاح أمام عينى فسنين وجه أوسين الأبيض ، ثم زال . وسمعه يأمر بصوت مكتوم :

ـ أسرع ، أسرع ، أيها الرفيق قوميسار الفرقة ، يجب أن تغادر ! أرجوك بسرعة ! هل جرحت ؟ هل تستطيع أن تتحرك ؟

ـ أوسين . . . الأفضل أن تساعد كاسيانكين ، يبدو أنه جريح ، ـ همس بذلك فسنين ، وطلع من

الباب ، وقفز على الثلج ، ثم أمسك بالسيارة بسبب دوار خفيف .

صاح أوسين بضراوة ، وهو ينحنى على الباب :

ـ كاسيانكين ! هل جرحت ؟ جرحت أم تتظاهر ؟ أخرج حالا ! هل فهمت ؟ أخرج ، ولو كنت نصف حى ! أين البندقية الأوتوماتيكية ؟ أين البندقية ؟ !

وفى تلك اللحظة قفز شخص نحو فسنين ، وترددت أنفاس الى جانبه حارة صافرة : « أيها الرفيق قوميسار الفرقة ! » ـ وقبل أن يتم كلامه أمسك يده بأصابع حديدية ، وجذبه الى الأسفل ، وأمر بصيحة قطعت أنفاسه :

ـ استلق وراء السيارة ، هنا ! بالله عليك ، لا تقف بطولك ، أيها الرفيق قوميسار الفرقة ! . . وقعنا ! غير مفهوم من أين هذه الدبابات ؟ من أين جاءت ؟ لم تكن ! . .

كان ذلك هو الميجور تيتكوف رئيس الحرس . وفى الحال تذكر فسنين أن هذا قد جاء ـ راكضا اليهم من السيارة المصابة ، حين انفجرت القذيفة الأولى بعد تخديره برشقة . والآن ، حين دفع تيتكوف فسنين

نحو السيارة لحمايته ، سقط على غطاء المحرك على صدره وكوعيه ، ودفع بالبندقية الى يده اليسرى الموضوعة تحت المخزن القرصى ، متطلعا الى حافة الربوة ، حيث كانت دندنة المحركات تنبعث منتشرة وتخيم على الرؤوس . أوقفه فسنين قائلا :

ـ لا تطلق النار ، يا تيتكوف ! انتظر حتى تمر الدبابات ! لا تحتد ! لن تستطيع أن تقاوم الدبابات بندقية أوتوماتيكية ! انتظر !

قال تيتكوف متلاحق الأنفاس :

ـ أنا مذنب أزاءك ، أيها الرفيق قوميسار الفرقة . فأنا مسؤول عن حياتك . . .

قاطعه فسنين :

ـ أرجو أن تكف عن التبريرات ! أنا نفسى مسؤول عن حياتى .

قال تيتكوف :

ـ ها هى . . . تطوف القرية من اليسار ! لو لم يلاحظونا . . . حوالى اثنتى عشرة دبابة ، مع ناقلات مصفحة .

لم يستطع فسنين ، وهو بدون نظارة ، أن يتبين

بالتفصيل ، كل ما رآه تيتكوف بعينيه قط . كانت أشباح الدبابات الهائلة المترهلة تزحف ببطء على خطوط المرتفع الداكنة وسط الوهج فى غبش السهب القرمزى ، مغطية على كل شىء بهدير محركاتها ، مطلقة من مداخنها شررا متلويا ، وسارت على بعد مائة متر من المنخفض ، حيث استقرت السيارة المقلوبة . وفكر فسنين فى عجز حاد فى أن بيسونوف وديبف ، هناك ، فى نقطة المراقبة ، ما يزالان ، فى الغالب ، لا يعرفان عن هذه الدبابات التى شقت طريقها الى هنا ، الى طرف القرية الشمالى-الغربى .

وفى اللحظة التى فرغ من التفكير بذلك ، مرت فوق السيارة صلية كاشفة من رشاشة ، خاطفة كالبرق ، وكان الميجور تيتكوف أول من رأى ما لم يستطع ان يراه فسنين القصير النظر . حوالى عشرة من الألمان كانوا ينزلون من الربوة الى الطريق ، والظاهر أنهم من رجال الاستطلاع أرسلوا ليتبينوا هل بقى أحد سالما فى السيارة .

أخذ الألمان ينزلون المنحدر بحذر . تخلف اثنان منهم على الربوة يحملان رشاشا يدويا كانا

يطلقان النار . أنحنى أحدهما ، ووضع الآخر الرشاش على ظهر صاحبه من الخلف ، وكأنما يضعها على قاعدة . كان تيتكوف قبل ثانية ما يزال يأمل فى أن يتخطاهم الألمان . أما الآن فالتفت الى فسنين بشيء من الجزع تعتمل فى نفسه رغبة لا لزوم لها فى أن يصيح « انهم قادمون الى هنا ، على أية حال ! » الا أن فسنين خلع قفازيه صامتا ، وأخرج مسدسه من قرابه ، فقد حزر أنهم لم يفلتوا — لقد كان الألمان يقتربون من السيارة .

— ابتعد ، ابتعد ! أيها الرفيق قوميسار الفرقة ، أركض الى البيوت الصغيرة . اجر من هنا ! سنغطيك ! اصحب القوميسار ، يا كاسيانكين ! أنهض ، كاسيانكين ! . . آمرك بالوقوف ! . .

حاول العقيد أوسين ، بعد أن أخرج كاسيانكين من السيارة أن يسند ظهر مرافقه هذا على غطاء المحرك بدفعة قوية من يده اليمنى ، وضغط على بندقيته باليسرى . أما كاسيانكين فقد انزلق عن الغطاء ، وتلوى ، محاولا طوال الوقت القعود على الثلج ، وكان يزعق بتوسل :

— أيها الرفيق العقيد . . . يا عزيزى . . . قدمى ،

قدمى انفصمت . . . لا أقدر ، لا أقدر ! — وأنهار ، ودفع يد أوسين ، وهز من جنب الى آخر ، وجهه الذى شوهه البكاء .

جفل فسنين .

وقال « أتركه ! » شاعرا حتى ببرودة فى ظهره من هذا الزعيق المملوء رعبا ، من هذا التوسل الذى كانت تخالطه نبرة الموت نفسه .

وعندئذ أطلق أوسين جسم كاسيانكين الرخو كالزكيبة باشمئزاز ناقم ، وانتفض بكل جسمه ، وهرع نحو تيتكوف ، ونحو فسنين ، وأوعز بلهاث أجش ، آخذا الأمر كله على عاتقه :

— أيها الرفيق قوميسار الفرقة ، اذهب نحو البيوت حالا ! ركضا وزحفا نحو البيوت ! واختبىء هناك ! البيوت على بعد مائتى متر . يا تيتكوف ! أنا وأنت سنبقى هنا ! لا أمل فى كاسيانكين . . .

ظل عويل الاحتضار الذى أطلقه كاسيانكين يتردد طويلا فى أذنى فسنين ، رغم أن كاسيانكين كان يئن فقط ، ويجهش ، متكورا تحت قعر السيارة مثل كومة داكنة .

أجاب فسنين واقفا وراء السيارة :

ـ لا ، يا أوسين ، ـ وجذب ترباس الأمان فى مسدسه . ـ لن أهرع الى أى مكان من هنا . لماذا ؟ ليس هذا مخرجا ، يا أوسين .

صاح أوسين :

ـ ولكنك تفهم ، ايها الرفيق قوميسار الفرقة . أنت تفهم ما يعنى هذا ؟

واقترب وجهه الأبيض من وجه فسنين .

ـ أفهم . . . سنشتبك هنا ، يا أوسين .

كان فسنين يفهم كل شىء بذلك العرى الذى لا أمل معقولا فيه ، كان يفهم أنه لن يصل الى البيوت ـ مائتى متر فى المنخفض المضاء بالوهج ـ وكان يفهم أن لا مخرج ، وأن شيئا مستحيلا ومفاجئا قد حصل له ، مثلما حصل لآخرين ، شيئا كان من الصعب أن يصدق به ، وكأنه حلم كابوسى ، عندما تغلق دونك جميع الأبواب واحدا بعد الآخر غلقا تاما . كان يفهم ان الألمان قادمون ، نازلون من الربوة الى السيارة ، وأن هذه المعركة التى قرر من انعدام الحيلة ان يشتبك فيها ، المعركة الميئوس منها ، لن تكون طويلة . الا

أنه لم يكن يتصور ، على أية حال ، أن من المحتمل أن يموت بعد نصف ساعة ، بعد ساعة ، وان كل شىء سيختفى فجأة والى الأبد ، وسيزول من الوجود .

وقف فسنين ، مقلصا عينيه من قصر النظر ، واضعا اليد الحاملة للمسدس على رفرف السيارة ، وشعر ببرودة الحديد الميتة فى صدره لا فى يده ، وأحس فى الوقت ذاته بكتفى تيتكوف وأوسين تضغطان عليه من الجانبين .

أحاطت الدبابات بالقرية من جهة السهب هازة الأرض مصرفة مدوية ، وتحدرت ظلال حملة البنادق الأوتوماتيكية المنشورة على الربوة نازلة المنحدر الى السيارة . وكانت الرشاشة اليدوية قد توقفت عن اطلاق النار . والظاهر أن الألمان كانوا يحاولون تحسس الوضع باطلاق طلقات أولية ليعرفوا ما اذا كان هناك شخص حى . ولهذا ساروا مرفوعى القامة يتحادثون فيما بينهم فى هدوء بأصوات غير مفهومة .

ـ نار ! ـ أمر أوسين الذى كان يشتم بقسوة ، وأطلق ، وهو منبطح على بطنه على رفرف السيارة ، صلية أولى مخيفة بانفتاحها على تلك الأشباح ، وفى ومضات

النار المثرثرة كانت تلهب وجنتيه القوية كالصخر ، بتغددها البارز . ومضى فى أمره :

— نار ، يا تيتكوف ! اضرب الأوغاد ولا تدعهم ينزلون ! اللعنة عليهم ! . . أرمهم حالا . . .

ورش تيتكوف رشة طويلة الى يسار فسنين .

وأطلق فسنين مرتين حاسبا الرصاصات ، على الأشباح الشعثاء على خلفية الربوة الضاربة الى الحمرة . واندمجت الأشباح مع الأرض . ولم تصدر نار جوابية . وفى اللحظة التالية بدأت الدفقات النارية تلمع كثيفة من الثلج زاعقة بشكل جارح ، وأصابت أعلى السيارة ، وتناثرت على الطريق نيران الانفجارات الزرقاء . وكانت الرشاشة الألمانية ما تزال صامتة ، والبنادق الأوتوماتيكية تنطلق عن كثب ، حتى بدا وكأن الريح أخذت تحرك القبعة على الرأس ثم تردد من خلل لعلعة الرصاص صوت أجنبى يكسر الكلمات يصرخ بتلحين « يا روس ، لا ترم ، لا ترم ! » وأنهض شبح من وراء كومة ثلج فى النقطة الخاطفة لدبانة التسديد ، تلك النقطة التى كان فسنين يبحث عنها ، ورش الشبح فى الهواء رشة قصيرة تحذيرية من بندقيته ، ثم بلغت الوعى

هذه العبارة « يا روسى ، كبوت ، سلم ! » الا أن فسنين أطلق مرتين أخريين فى ذلك الصوت المكسر الغريب ، فى هذا الصوت الكاره الواعد بالرحمة ، وأطلق اطلاقة أخرى ، عاضا على شفته ، مسددا بدقة ، وبلغت أذنيه وشقتها صيحة أوسين وكأنها آتية من بعد ضبابى :

— حجارة فى جعبتك ، أيها الخنزير الفاشى ! لن ينفعك هذا !

عندما أخذت الرشاشة اليدوية تطلق رشقات مباشرة على الجانب الآخر من الطريق ، من بعد عشرين مترا عن السيارة لم يكن وعى فسفين مسلما بعد بأن الألمان قد دنوا دنوا تاما . كان وعيه آنذاك يقاوم ، ويرفض القدر المحتوم المقترب ، كان آنذاك يصدق وهو يستشعر ارتداد المسدس فى يده ، ويقنع نفسه بأن هذا القدر المحتوم لا يقترب الآن ، بل بعد بضع دقائق فقط ، وليس فى الحال ، بل عندما تنتهى رصاصات أوسين وتيتكوف ، وعندما تبقى عنده الرصاصة الأخيرة . . . وفكر ، موقعا ضغط اصبعه على الزناد لا شعوريا : « كم بقى عندى ؟ كم بقى ؟ . . فقط

أن تكون هادئا ، ولا تستعجل ، فقط أن تحسب . . .
لا بد أن تكون عند تيتكوف رصاصات احتياطية ،
لا بد أن تكون ، لا بد . . . »

— ميجور تيتكوف ، هل عندك . . .

وفجأة أختنق . دفعته ضربة حارة قاسية من صدره ، فأرتد الى الوراء بحدة ، وكان كل ما لحق أن يلمحه فسنين الذى خنقته الكلمات الأخيرة بسبب هذه الضربة ، هو عينى الميجور تيتكوف المتحولتين نحوه ، الصارختين بخرس من تعاسة مستحيلة . وصوت آخر آت من ناحية :

— يا رفيق قوميسار ! . . يا رفيق قوميسار ! . .

ولمع فى ذهن فسنين : « ماذا رأى فى وجهى ؟ » ومسى صدره باليد التى كانت تضغط على المسدس مدهوشا من تعبير اليأس والعذاب فى عينى تيتكوف ، وكأنه يبعد ذلك الشىء المحتوم الذى وقع له مفكرا « الآن حقا ؟ أحقا هذا ؟ . . معقول أنه حل بهذه السرعة ؟ » وأراد ان ينظر الى يده ليرى الدم عليها مستشعرا الراحة من هذا الوضوح البسيط المفاجئ والزائل لما حدث له الآن . . . الا أنه لم ير دما .

— أيها الرفيق قوميسار الفرقة ! هل جرحت ؟ أين جرحت ؟ أين جرحت ؟ . .

تردد صوت مألوف وغير مألوف كليا ورويدا رويدا راح يهدأ كل شىء ، ويبعد فى خواء أبكم ، وتراءت أمام عينيه موجات حمراء — وانداحت على شىء هائل بشكل لا يحد ، أسود ذى ألق خافت شبيه بصحراء حارة محترقة أو سماء جنوبية ليلية واطئة . واذ كان يحاول بعذاب أن يفهم ذلك ، رأى نفسه بوضوح صارخ جالسا مع ابنته نينا فى الظلام الخانق لليلة جنوبية ، على ساحل البحر قرب سوتشى ، عندما أخذها الى هناك بعد طلاقه لزوجته فى عام ١٩٣٨ . كان يرتدى — لسبب ما — بنطلونا أبيض وجاكته سوداء حدادية ، ويقف على الرمل فى البلاج الخالى تماما تتناثر فيه تختات منفردة رطبة من تلك التى يستلقى عليها المستحمون ، تبدو مثل بقع داكنة ، كان يقف وفى حنجرته كتلة من المرارة الخانقة من أثر احساس بذنبه عارفا أنه هنا على هذا البلاج بالذات كان يلتقى ، بعد نزهاته النهارية مع ابنته ، بالمرأة التى كان يجب ان تكون زوجته الثانية .

وحزرت نينا شيئا فبكت وجذبته ، وشدت بنطلونه الأبيض ، ورفعت اليه وجهها الطفولى المخضل بالدموع ، وطلبت اليه أن يأخذها الى أمها فى موسكو ، وتضرعت اليه قائلة « بابا ، أنا لا أريد أن أبقى هنا ، بابا أريد أن أعود الى البيت ، أريد أن أذهب الى أمى . خذنى ، أرجوك . . . »

واذ أحس بيدى ابنته المرتجفتين ، المتشبثتين به ، وبجسمها الصغير الضعيف ، الذى كان يدفعه من رجليه ، أراد أن يقول لها أن لا شىء حصل ، وأن كل شىء سيكون على ما يرام ، الا أنه لم يعد قادرا أن يقول شيئا أو يفعل شيئا . ان ثبات الأرض كان يزول من تحت قدميه . . .

ان رشقة الرشاشة التى أصابته جعلته يرتد خطوتين الى الوراء بقوة مميتة ، وفى تلك الثوانى التى غطى فيها فسنين بالمسدس المنطبقة عليه أصابعه موضع الضربة الحادة غير المتوقعة فى صدره ، كان ينبطح ، على ظهره فى الثلج ، وكان الدم يخرج من حنجرته .

ـ تيتكوف ! ماذا حصل للقوميسار ؟ ماذا ؟!

ولم يسمع فسنين ولم ير كيف كف أوسين عن الرمى ،

وهرع اليه متخفيا قافزا قفزات جبارة ، حين كان الميجور تيتكوف راكعا على ركبتيه أمامه ، يحاول ، والذعر مرتسم على وجهه ، أن يتلمس بيديه معطفه الممزق الداكن اللزق على صدره ، ولم يسمع أيضا جواب تيتكوف القصير ، ولا صياح أوسين الضارى الوحشى الأجش :

ـ الاوغاد ! . . يا ميجور تيتكوف ! احمل القوميسار ولو ميتا ! ولو ميتا ! . . مفهوم اسحبه ! الى البيوت خلال الخندق ! سألحق بك ! . .

ألقى تيتكوف ، وهو يعض شفته الى حد التدمى ، جسد فسنين الممزق بصلية رشاشة على ظهره الحديدى ، وسحبه عليه . واستلقى أوسين بضع دقائق قرب السيارة يطلق صليات طويلة على الألمان ، صارخا بشتائم رهيبة ، وعندما صمتت البندقية الألمانية ، قفز وضرب رفرف السيارة باخمص بندقيته الأوتوماتيكية وأخذ يصرخ بجنون الى قاع السيارة الذى كانت تأتى منه أنات صماء ، وكأنما من خلال غيبوبة الوعى .

ـ كاسيانكين ، أيها الخنزير الجبان . الناس يقتلون ، وأنت ما تزال حيا ؟ هل تفكر فى أن تركع

للألمان ؟ لتحفظ حياتك ؟ قدمك منعتك من الرمى ؟ أخرج أيها الخسيس ، أخرج !

— أيها الرفيق العقيد ، العزيز ، أيها الرفيق العقيد ! لا داعى لذلك ! لست ملوما ! — واحتمى كاسيانكين وراء نشجات زاعقة ، دون أن يخرج من تحت السيارة . — يا عزيزى ، أقتلنى ! اقتلنى !

صاح أوسين كازا على أسنانه :

— اخرس ! الرصاصة خسارة بك ! أخرج ، يا جبان ! أركض وراء تيتكوف ! . . هيا ، قبل أن أغير رأيى . . .

وبجذبة سحب من تحت قاع السيارة مخلوقا لا شكل له ، مائعا ، مرتجفا ذا عينين جامدتين يردد بصوت كاسيا نكين :

— ساغسل قدميك طول حياتى ، قدميك . . .

— أصمت ، يا وضيع ! أركض ! . .

ثم ابتعد عن السيارة متخفيا قافزا الى الخندق لاحقا بتيتكوف الذى كان يركض ويزحف ، ساحبا عليه جسم القوميسار فسنين الذى فقد حرارة الحياة .

الفصل السادس عشر

كان مدفع أوخانوف الوحيد ، الذى بدا وكأنه نجا بأعجوبة ، يقف على بعد كيلومتر ونصف من الجسر المحروق الذى شوهته القذائف ، وقد انتهت حياة المدفع فى ساعة متأخرة من المساء ، حالما نفدت جميع الذخائر التى حملت من المدافع الثلاثة المحطمة .

لم يكن فى مقدور كوزنيتسوف ولا أوخانوف أن يعرف على وجه التحديد أن دبابات مجموعة جيش الجنرال غوت قد نجحت فى عبور نهر ميشكوفا فى موضعين على الجناح الأيمن للجيش ، وتوغلت فى دفاعات فرقة دييف فى الليل ، غير مخففة من هجومها . وفى شقها للفرقة حصرت فى كماشة فوج تشيريبانوف فى جزء القرية الواقع على الضفة الشمالية من النهر . ولكنهما كان يعرفان جيدا أن جزءا من الدبابات — من الصعب تحديد عدده — سحق فى آخر النهار البطاريات المجاورة ، واجتاح الى الأمام ويسارا دفاع كتائب المشاة ، طالعا الى مواقع المدفعية ، بما فى ذلك بطارية درزدوفسكى ، وعبر الجسر الى الضفة الأخرى ، وبعد

ذلك حطّم هذا الجسر نصف تحطيم وأشعلت هاونات « الكاتيوشا » النفاثة النار فيه .

كان أغمض ما فى الموضوع أن المعركة أمست ، مع هبوط الظلام ، تبتعد ، وتخفت بالتدريج فى الخلف ، حيث ارتفع الوهج ، وانتشر الاحمرار على طول الضفة الشمالية التى كانت ، قبل مدة ، قصيرة ، مؤخرة . وهنا على الضفة الجنوبية ، أمام الخندق الأولى للمشاة ، الذى صفرته الدبابات بشكل نحيف ، وامام مواقع مدفعية البطاريات المسحوقة — بشكل لا يتصوره العقل — كانت المعركة قد هدأت أيضا ، وتوقفت الهجمات ، رغم أن كل شىء بقى ملتهبا بنار متحركة — فى كل مكان كان البنزين الاصطناعى يحترق على شكل جزر ، وكانت الدبابات منفردة ومتجمعة على الروابى ما بين محترقة ومحروقة وكان درع الناقلات المحروقة والتى قلبتها القذائف تسودّ ، ويتطاير اللهب من الهياكل الحديدية للوريات « أوبل » الألمانية . لم يكن كوزنيتسوف قد رآها فى المعركة ، والظاهر أنها كانت تسير وراء الدبابات .

كانت الريح فى حافة الوهدة تحرك وتوجج من

الدبابات حزم الشرر فتطفؤها ريح أرضية فى المنخفض . وكانت العيون يؤذيها الى حد التدميع ذلك الفتات الثلجى الجارح ، وتلك النيران الهادئة الشريرة فى السهب . كانت ثمة ثلاث دبابات ما تزال تدخن أمام مواقع البطارية تماما ، وكان الدخان الكثيف ينسرح على دروعها المسخمة نحو الأرض ، وفى كل مكان رائحة حديد محترق ، ومطاط حلو المذاق قليلا ، ولحم انسانى مشوى .

أفاق كوزنيتسوف على نفسه حين أحس بالغثيان من هذه الرائحة المقززة التى وخزت منخريه ودام غيثانه طويلا ، فانحنى على المتراس ، وهو مستلق ، وجاشت نفسه ، وسعل ، الا أن معدته كانت خالية ، ولم يشعر بالراحة ، ومن تقلصات التجشؤ أحس بضيق فى صدره وحنجرته . وبعدئذ مسح شفيته ، ونزل من المتراس ، دون أن يشعر بأى خجل من احتمال رؤية أوخانوف والطقم كله لضعفه . فان ذلك لم يكن له أى أهمية .

ان كل ما كان يفكر فيه كوزنيتسوف ويحسه ، ويفعله ، كأنما كان يقوم به شخص آخر فقد الأحاسيس السابقة — لقد تغير كل شىء ، وأنقلب فى غضون

يوم واحد ، وصار كل شيء يقاس بمقاييس ، غير التى كان يقاس بها قبل أربع وعشرين ساعة . كان ثمة احساس فى التعرى الصارخ فى كل شيء .

وهمس كوزنيتسوف أخيرا :

ـ لا أستطيع . كل شيء فى داخلى يتقلب .

وقبل أن يستوعب السكون الذى كان ينتشر أمام البطارية دلّك صدره المعذّب بتشنجات قوية ، والتفت الى رجال الطقم ، وقد أصمته المعركة تقريبا .

كان الرقيب الاول أوخانوف جالسا فى موقع النار ، وقد ألقى رأسه على قرمة المتراس فى اعياء لا حد له ، وعيناه الجامدتان نصف مغمضتين ، كان يبدو وكأنه نائم ، وجفناه لا يرفان . بعد نصف ساعة من اعلان نيتشايف عن نفاد القذائف ، انهدّ أوخانوف على الأرض قرب المدفع ، وقد ضحك ضحكة غريبة ، وظل جالسا ببسمته الخالية من المعنى ، والمنظار على سترته المبطنة المفتوحة ، محدقا بجمود فى الوهج الذى أخذ يتضرم ، والى خطوط القذائف الكشافة الغادرة فى الجانب الآخر من النهر ، حيث تحوّلت المعركة .

كانت ماسورة المدفع التى أحماها الرمى محببة بالشريرات المزرق ، كانت الشريرات تتحرك ، وتنطفئ كالحباحب فى الظلام . وكانت ذرات الثلج ترن على درع المدفع .

نادى كوزنيتسوف بصوت غير متكامل :

ـ أوخانوف ! . . هل تسمعنى ؟ انتزع أوخانوف عن الوهج بصره غير المكترث ، وقد سمع هذا النداء فى غير ما وضوح ـ انه هو أيضا سمعه فى المعركة ـ وبعد ذلك رفع يدا واحدة فى وهن ، ورسم دائرة فى الهواء ، فهز كوزنيتسوف رأسه الموشوش كرأس سكران دون أن ينطق بكلمة .

ـ من المحتمل ، ـ أجاب ، ونظر بمؤخر عينه الى الطقم يريد أن يعرف من وجوههم هل يدركون بأى شيء أنتهت المعركة .

لم يبق من رجال الطقم السبعة غير اثنين هما نيتشايف وتشيبيسوف ، وكان الطقم هذا بمجموعه منهوكا كليا ، فقد ، بعد معركة دامت ساعات عديدة ، الاحساس بالواقع ، وفى حالة قصوى من الانهيار العضلى لم يسألا عن شيء ، ولم يسمع صوتهما . ظل

المسدد نيتشايف على ركوعه السابق أمام جهاز التسديد ، وقد وسّد جبينه على مرفق ذراعه المطوية ، ويشق فمه تثاؤب عصبى قاهر ، فكان يردد « آخ – خا – خا – أ . . . » وكان تشيبيسوف نصف مستلق فى الجانب الآخر من مؤخرة السبطانة ، متلويا ، ضاما رأسه فى معطفه ، وكان يلوح من تحت الياقة وبطانة القلنسوة جزء من خده المزرق المغطى بشعر خشن قذر ، وتصدر من فمه شهقات متعبة رتيبة متوجعة ، وكأنما هو الآخر لم يكن قادرا على التقاط أنفاسه .

– أوه ، يا الهى ، الهى . . . لم تبق لى قوة . . .

– يا ملازم . . . ملازم ! سنعيش ، يا ملازم ، أم سنتجمد كالجراء ؟ أريد أن آكل فى الآن واللحظة ! أنا أموت من الجوع . لماذا هدأ الجميع ، ناموا ؟ هل أنت حى ، يا ملازم ؟

هتف بذلك الرقيب الاول أوخانوف . وجذب وانتزع من رقبته المنظار الذى لا ضرورة له ، وألقاه على المتراس ، وأطبق سترته المبطنة ، ونهض ، وضرب حذاء بحذاء مترنحا ، ممالا ، ثم رفس بقدمه حذاء نيتشايف دون كلفة ، وكان هذا ما يزال فى تثاؤباته

العصبية ، وعلى ركوعه السابق أمام جهاز التسديد واضعا جبينه على يده المنطوية على مؤخرة السبطانة .

– بأى سبب تستبيح لنفسك أن تتثاءب هكذا ، أيها البحار ؟ كف عن هذه الشغلة غير النافعة !

قال كوزنيتسوف بتعب :

– لا تمسه ، يا أوخانوف . لا بأس . ولا تمس احدا . أبق هنا . – وجذب قراب مسدسه الى جنبه بصورة آلية ، وقال : – ساعود حالا ، – أمرّ على البطارية . اذا لم يتسلل الألمان هناك . أريد أن أرى .

صفق أوخانوف قفازيه ، وهزّ كتفيه المرتخيتين . وقال وألقى على كتفه حزام البندقية الأوتوماتيكية :

– لنذهب الى المدافع ، سنرى . فقط أن شيئا يغشّى على عينى . هناك نحو سبعمائة متر الى القرية لا يبدو أن الألمان موجودون .

– احتلوا القرية ، فما نفع السهب الأجرد لهم ؟ وسبعمائة متر لا شىء بالنسبة للدبابات ! أغلب الظن أنهم يظنون أن أحدا لم يبق هنا . لا سيما وأنهم قد خرجوا الى الضفة الأخرى .

— على كل حال ، أنت شاب غريب ، يا ملازم . ولكن لا بأس . المرء يحتمل القتال معك .

— لطيف أن أسمع منك هذا ! قل شيئا آخر ! ثناء آخر وسأذوب . . .

— حسنا . موافق . بالمناسبة ، ماذا حصل لآنستنا ؟ أين هى ؟ هل هى حية ؟

— نعم ، انها فى المخبأ مع الجرحى . وجرّت الجرحى من مدفعك . الم تلاحظ ؟

— لم أكن أرى غير الدبابات . ولم أكن أفهم شيئا . . .

ما ان غادرا موقع المدفع ، وسارا فى خندق الاتصال حتى أطبق عليهما سكون تام الى حد الصمم فى ذلك الممر الضيق ، سكون ثقيل يضغط على الرأس كالرصاص . كان كوزنيتسوف أول مَن توقف ، وقد خيل اليه وكأنه دخل فى الماء ، وأن طبلتى أذنيه قد انسدتا ، هزّ رأسه فرنّ فى أذنيه رنين ممدود . وفى الحال توقف أوخانوف أيضا وراءه . سكنت خشخشة الثياب ، ووقع الخطوات تماما . ثم لعلعت الى الوراء فى ناحية الوهج صلية رشاشة منفردة وتوقفت ، مؤكدة

هذا السكون الثقيل غير الحقيقى . وتخدر كل شىء ، فى الليل . حتى ارتفع صوت أوخانوف الطاعن للصمت برنين مؤذ :

— ماذا وراء الأكمة ، يا ملازم ؟ رشاشة ألمانية فى المؤخرة ؟

— هل أذنك توشوش ، يا أوخانوف ؟ — وخلع كوزنيتسوف قبعته مترددا ، وقد ظن أنه قد أصيب بالصمم تماما . — هل تسمع شيئا ؟

— فى رأسى جنادب ، يا ملازم . هذا بعد الرمى . . .

— لا شىء آخر ؟

— أسمع أن الأمر أنتهى هناك ، على الضفة الأخرى . هل من المعقول أنهم تعمقوا الى هذا الحد ؟

— الهدوء فى كل مكان .

— هدوء كلى . يبدو أنهم كبسوا برجالنا حتى ستالينغراد ، وخرقوا الجبهة ، ونحن وحدنا هنا . . . أنظر الى الشمال الشرقى ، يا ملازم . تلك الحرائق فوق ستالينغراد . على بعد حوالى ثلاثين كيلومترا من هنا .

— انتظر . . . انصت ! — واقترب كوزنيتسوف من المتراس ، ومدّ جسمه مرهقا سمعه . — يبدو أن أحدا يصيح الى الأمام . . . أم هذا فى أذنى ؟

كان يسمع صياحا انسانيا ، فى مكان وراء خنادق المشاة على التلال ، تلاشى فى الصمت رأسا وسط الثلوج المحمرّة . تصنّت كوزنيتسوف من خلال الرنين الخافت فى أذنيه حابسا أنفاسه ، مبقيا قبعته فى يده ، ونظر الى الوهج المضطرم من الصمت المبهم فوق الضفة الأخرى من النهر والى السماء الخافتة الضوء ، فى ناحية الشمال الشرقى ، حيث كانت تقع ستالينغراد ، والى نيران الحديد الخامدة المتناثرة فى السهب ، على امتداد هذه الضفة كلها ، وأمام البطارية — نار ، وريح ، وذرات ثلج ، وهياكل مبهمة منحوسة لما احترق من ناقلات مصفحة ودبابات على التلال .

قال كوزنيتسوف بصوت منخفض :

— غير ممكن أن يكونوا قد شقوا طريقهم الى ستالينغراد .

لقد توهم ذلك اللفظ الانسانى ، كما يبدو . فأطلق أنفاسه أخيرا . لا طاقة فى أى مكان . لا حركة . لا صوت . كأن الأرض كلها قد هدمت ، الى آخر نفس حى ، وكانت تبرد بتأثير الرياح الوحشية ،

وتنبسط فى وهج ميت كالصحراء . أما هما ، واللذان بقيا وراءهما قرب المدفع معذبين منهوكين ، فهم ، أربعتهم ، بقوا فى العالم وسط الموت الشامل والخواء . ان النفس لفى ذهول من هذا الجمود البارد ، الليل الديسمبرى الميت . نطق كوزنيتسوف بابتسامة معوجة :

— توهمت . . . — وارتدى قبعته . — انك على حق : الأذن توشوش .

وعادا الى سيرهما فى خندق الاتصال . ومن جديد تردد وقع أقدامهما ، وخشخشة ثيابهما . وكان ذلك ، على أية حال ، امارتين على الحياة .

وضحك أوخانوف :

— اذا أخذنا نتوهم الأوهام ، يا ملازم ، فان أمورنا ليست على ما يرام . على أية حال ، ربما الذى صرخ كان جريحا ألمانيا ، أو واحدا من جنودنا المشاة . . .

— أظن أن قليلين من جنود الحراسة الأمامية بقوا أحياء . ظلت الدبابات تسحق طوال اليوم . ينبغى الذهاب الى هناك . . .

— موافق ، يا ملازم . وعليك ان تتصل بنقطة

المراقبة . فقد يكون عند درزدوفسكى اتصال ما بالقيادة .

ـ لنعاين البطارية ، ثم نفكر كيف سيكون الأمر ، ـ قال كوزنيتسوف ، وبعد أن خطا بضع خطوات فى خندق الاتصال ، قال بصوت غريب : ـ مدفع تشوباريكوف . . . أنا لا أفهم كيف لم يلاحظوا تلك الدبابة ؟

قلّب أوخانوف فكره بصوت مسموع :

ـ وأنا أيضا لا أفهم . أطلقت أنا النار عليها عندما رأيتها ، وهى أمام المتراس . يبدو أنهم جرحوا جميعا ، قبل الضربة الساحقة .

ـ كنت أرى حين فتحت النار .

واقتربا .

ان هذا المكان كأنه يسمى من قبل بموقع المدفع الثانى ، موقع الرقيب الثانى تشوباريكوف ، حيث بدأ كوزنيتسوف القتال صباحا ، حين ادركه هجوم الدبابات الأول . ولكنه الآن ليس من الممكن أن يسمى حتى بموقع . جسم دبابة واسع محروق أسود كالفحم ، ومدفع مسحوق مدفوع عن ساحته مدكوك بجنازير

فولاذية ، قد أرتفع هنا على نحو غريب رهيب ، بين المتاريس المهدومة ، والأحذية الناتئة على الأرض ، ومزق المعاطف والستر المبطنة ، وصناديق القذائف المتحولة الى كسر . ان أحدا منهم لم يلحق أن يهرب من المدفع . . .

كان كل شىء مقلوبا ، محروقا ، ساكنا ميتا تفوح منه بقوة الرائحة المرة لحديد حام ، وبارود تأكل التراب والثلج ، وطلاء محروق . كانت الريح تصفر بوحشية ، عابثة مدوية فى ثقوب الدرع الذى أبرده الصقيع منذ وقت طويل ، نصف المخلوع ، الملوىّ حلقات حلزونية ، الملصوق بجنزير ملتف بمزق قذرة ، الصارف صريفا حذرا ، مرسلا قشعريرة فى الظهر بدندنته الحديدية الموحشة .

كانت برودة الموت القاسية تفوح بقوة من معدن الدبابة الأسود الذى قسّاه الصقيع ، ومن المدفع المسحوق حتى أن الجلد على الوجنة تشوّك الى حد القشعريرة .

« كيف حدث كل هذا هنا ؟ كيف ؟ لماذا لم يلحقوا أن يطلقوا النار ؟ »

كان كوزنيتسوف يريد ، والغصة تطبق على حلقومه ، وشعور الذنب يضايقه — لماذا غادر موقع المدفع آنذاك ؟ — كان يريد أن يفهم كيف تحولت الى موت تلك الثوانى المهلكة التى كان فيها مع زويا يطلق النار على الدبابات فى موقع دافلاتيان ، وجاهد أن يتصور هل حاولوا اطلاق النار فى تلك الثوانى الأخيرة قبيل الموت ، وأن يتخيل وجوههم ، وحركاتهم لحظة جثوم الدبابة العملاقة الملتهبة على المتراس .

لم ير هلاك الطقم الا من بعيد . ولم يكن قادرا على أن يفعل شيئا . ان تلك الثوانى الخاطفة كالبرق أزالت عن الأرض بلمحة واحدة كل الذين كانوا هنا ، رجال فصيلته ، الذين لم يسنح له الوقت ليتعرف عليهم بصورة تليق بانسان : الرقيب الثانى تشوباريكوف برقبته الساذجة الطويلة مثل سويق عباد الشمس ، وبايماءته الطفولية حين كان يفرك عينيه بعجالة : « وقعت فى عينى ذرات تراب » ؛ والمسدد الدقيق العملى يفستيغنييف ، بظهره الهادئ البطئ ، وبخط الدم المتلوى ، المتخثر قرب أذنه التى أصمها الانفجار : « أصدر الأوامر لى بصوت أعلى ، أيها الرفيق الملازم ، بصوت أعلى ! . . »

انه ما زال يتذكر نظراتهم ، أصواتهم . كانت تتردد فى حناياه ، كأن موتهم كان خداعا له ، ولا بد أنه سيسمعهم من جديد ، ويراهم . . . لقد بدا له أن ذلك لا بد أن يقع ، لأنه لم يلحق أن يقترب منهم ، وأن يفهم ويحب كل واحد منهم . . .

أحس كوزنيتسوف بأن وجهه ويديه قد تجمدت وبشعور الاستنكار القتّال للنفس تقريبا ، استنكار ما حدث ، واستنكار كونه لم يكن قادرا عندئذ ، على تلافيه وايقافه ، أراد أن يعرف آخر ما حدث هنا ، الشىء الذى كان من الممكن ان يشرح كل شىء .

الا أن ما رآه فى موقع الرماية — الشىء المتبقى من طقمه ، المحدوس فقط ، غير الواضح ، القاتم ، المعفّر بالتراب ، الشىء الذى لم يكن بحاجة الى دفن — قد غمره بصمت الموت . لم يكن أحد قادرا أن يجيب سواهم ، وهم ليسوا فى الوجود . . . وفى الريح فقط كان يصدر رنين وهزهزة لا يكادان يسمعان : كان درع المدفع المعوج حلقات يمس ويصطدم بجنزير الدبابة الحديدى .

رفع كوزنيتسوف وجهه المتجمد . صدر خلفه فجأة صوت رفش صارخ زاعق . كان الصوت فى الصمت واضحا حادا . كان أوخانوف الذى لاح شبحه وسط الوهج أسود يضرب الرفش فى الأرض حانيا ورافعا قامته فى مشكاة القذائف .

اقترب كوزنيتسوف بهدوء ، ونظر . كان أوخانوف يحفر ليخرج من كومة التراب جسم انسان مبطوح فى المشكاة على وجهه ، مضغوط ، يتشبث فى يديه بشىء تحته . كان المعطف على ظهره ممزقا . والظاهر أن صلية رشاشة من الدبابة أردته صريعا .

سأل كوزنيتسوف بصوت كامد :

ـ من هذا ؟ من هذا ، يا أوخانوف ؟

أمسك أوخانوف الجسد المتصلب من كتفيه صامتا ، وبعد أن انتزعه من شىء مسطح رمادى ، قلب وجهه الى فوق . كان من المستحيل التعرف على وجه القتيل . ان طبقة من التراب قد جمدت عليه . وتبين أن الشىء المسطح الرمادى هو صندوق قذائف .

ـ انه حمّال قذائف ، ـ قال أوخانوف ذلك ، وغرز الرفش قرب صندوق مغرغرا بحنجرته ، وقال : ـ

يبدو أنه أصيب بصلية فى ظهره عندما كان يأخذ القذائف . ومع ذلك ، فأنا لا أفهم ، يا ملازم : هل أنهم سهوا عن الدبابة ، أم أنهم كانوا قد جرحوا قبل هذا ؟ ـ وأشار برأسه نحو الدبابة ـ كان ثمة قذائف باقية ! كانت عندهم قذائف ! وكان تشوباريكوف ويفستيغنييف يرميان رميا آلهيا . وكانت الدبابة فى تلك اللحظة تحترق !

أدهشت كوزنيتسوف الضراوة والانكار وعدم الرضى القاسى فى لهجة أوخانوف ، وكأنما هم ، الذين لم يكن بمقدورهم أن يردوا عليه ، كانوا الملومين فى موتهم ، وأنه ، أوخانوف ، لم يكن يريد اطلاقا أن يغفر هذا الموت لطقم كامل سحقته دبابة . قال كوزنيتسوف بصوت أجش :

ـ نحن لا نعرف ماذا حصل هنا . فمن نلوم ؟

قال أوخانوف ، وقلع صندوق القذائف من الأرض ، والقاه بقوة على المتراس :

ـ أنا لا أستطيع أن أصفح عن نفسى . كان علىّ ان أطلق القذيفة الثانية . ولكن كانت سبع دبابات تزحف علىّ . ومع ذلك فقد رأيت تلك الدبابة وكأنها

على راحة يدى . ان دبابة تشوباريكوف هذه كانت تولينى جنبها بوضوح . — وهنا خرج من المشكاة ، ونظر الى جسد حمّال القذائف الداكن المبطوح على الأرض ، وقال : — شكرا ، يا اخوان ، على القذائف على الأقل . أين ندفنه ، يا ملازم ؟

أجاب كوزنيتسوف :

— فى المشكاة . وأنا ذاهب الى مدافع دافلاتيان ...

كان كل شىء أيضا فى موقع للفصيلة الثانية محطما وممزقا ومطمورا ، وفى كل مكان حفر ، أحدثتها القنابل فاغرة أفواهها عن ظلمة ، وكانت الشظايا تخشخش تحت الأقدام . ان الموقع لم يعد له وجود : لا شىء سوى متاريس محروثة لساحات المدافع ، والخراطيش الفارغة المبثرة ، والمدفع الوحيد مسترجع محطم ، المدفع الذى كان كوزنيتسوف يطلق منه النار ، هذان فقط كانا دليلين على وجود موقع متروك خاو ، هادئ لا رجاء فيه ، وكانت الحفرة خلف المدفع ، التى وثب فيها كوزنيتسوف أثناء الغارة الى جندى الاتصال سفياتوف قد ثلمت الى النصف بانفجار قذيفة . وبينما كان كوزنيتسوف يمشى تشربكت قدمه بسلك

مقطوع ، وفجأة أحس احساسا حادا بترهل هذا السلك المتشربك به ، غير النافع لأحد الآن ، حتى أنه شعر بتقلص فى كل ما فى صدره .

ان أفزع ما وعاه فى تلك اللحظة لم يكن متمثلا فيما عاناه فى كل معركة اليوم ، بل فى فراغ الوحدة الدانى هذا ، فى هذا السكون الفظيع على البطارية ، وكأنما كان يسير فى مقبرة منبوشة ولم يبق أحد فى العالم حوله .

عاد الى مدفع تشوباريكوف محثا خطاه ، يريد الاسراع فى رؤية أوخانوف والسماع له ، فقد كان يجب أن يقرر معه ماذا يفعلان بعد ، وبأى تسلسل : نقل القذائف ، محاولة الاتصال بنقطة المراقبة ، العثور على زويا ، ومعرفة حالتها وأحوال الجرحى فى المخبأ ، وكيف حال دافلاتيان والآخرين . . .

كان جسم الدبابة المحروق يبدو كتلة سوداء تسد موقع الرماية ، ولم يكن أوخانوف موجودا فى الموقع ولا عند المشكاة . كانت الريح تصفر عابثة فى ثقوب المعدن ، وكان الرفش يبرز منحرفا على كومة رخوة من التراب فى المشكاة مثل علامة مشؤومة على الوحدة .

كان ذلك هو قبر حمّال القذائف من مدفع تشوباريكوف .

ـ أوخانوف ! . .

ولم يأت رد . نادى كوزنيتسوف بصوت أحزم :

ـ أوخانوف . هل تسمع ؟

ثم جاء النداء الجوابى من مكان وراء المتراس :

ـ يا ملازم ، الى هنا ! . . تعال بسرعة الى هنا ! . .

اندفع كوزنيتسوف الى الأمام نحو أشباح دبابات ثلاثة ، حيث كان أوخانوف ، قافزا عبر الأرض المتجمدة التى قذفتها القنابل ، ولما وصل رأى ظل أوخانوف المحدد بالحرائق البعيدة ، قرب الدبابة الأخيرة . وسأل كاتما أنفاسه :

ـ ماذا ؟ ماذا لاحظت يا أوخانوف ؟

ـ يبدو أن هناك احياء هنا . . .

الآن كان من الممكن للعين أن تتبين بوضوح أوخانوف ، والبندقية الأوتوماتيكية موضوعة على أهبة الاستعداد على الواح الجنازير العريضة ، وعند قدميه كانت حقيبة صغيرة جلدية مجهولة المصدر تشبه

حقيبة ظهر ألمانية . وضع أوخانوف قفازيه فى صدر سترته المبطنة ، ونفخ فى أصابعه ، يدفؤها ، وألقى نظرة سريعة على كوزنيتسوف ، من طرف عينه ، وقال :

ـ أنظر الى الأمام ، الى هناك . وأنصت . . . الى هناك ، يا ملازم ، أنظر الى الناقلتين المصفحتين على الربوة ألا ترى شيئا ؟ هل تتبين ؟

ـ لا أرى شيئا ! يبدو أن هناك صوت محرك .

ـ ها هو . . . أنظر ، أنظر . . . ومض مصباح جيب . . . هل رأيت ؟

لم يكن من الممكن التأكد فيما اذا كان ذلك وميض مصباح ، أو شعلة قداحة . ولكن وهجا قصيرا لمع كالشرارة الى الأمام ، ما بين الجسمين الميتين لناقلتين مصفحتين على الربوة ، قدّام الوهدة ، ثم تحرك هناك شىء على نحو غير واضح : بضعة أشخاص باهتة فى ظلام الليل ساروا فى السهب فى صف واحد ، حاملين من المصفحتين شيئا طويلا ، وأخذت أشباحهم تتضح باطراد على خلفية الوهج .

همس كوزنيتسوف :

— نعم ، انهم ألمان .

زفر أوخانوف ببرودة فى أذن كوزنيتسوف حين قال :

— اسمع ، يا ملازم ، انهم يدبرون أمرا . أنا لا أفهم . ماذا سنفعل ؟ . . عندى قرص كامل من الرصاص . والبندقية تعمل كالساعة . — وفى الظلمة المهلهلة لمعت عينا أوخانوف كالزئبق فى وجه كوزنيتسوف . — لنتركهم يقتربون قليلا ، ثم نبيدهم جميعا والى الشيطان ! يبدو أنهم حوالى عشرة أشخاص .

قال كوزنيتسوف دافعا يد أوخانوف عن البندقية الأوتوماتيكية بتحذير :

— لا ترم . انتظر ! أنظر ماذا يفعلون . . . أما هم من رجال الاسعاف ، أو فريق للدفن . يبدو أنهم يجمعون رجالهم . . .

ومرة أخرى لمعت فى السهب قدام الوهدة شعلة حجبها شىء ما ، واشتغل محرك بصوت مخنوق ، ودب ظل طويل لآلية تصرف بجنازيرها ، فى قمة الربوة الى اليسار ، وتوقفت . وتقدمت الأشباح المبهمة الى الأمام ، وحملت شيئا الى الآلية بلا ضوضاء ، وفى صف واحد ، وأخذت تشحنه فيها .

أسند أوخانوف مرفقه على الجنزير ، ونظر فى السهب ، وراح فى الوقت ذاته يدفئ راحتيه بأنفاسه .

— يبدو انهم أعوان الموت الآلمان يجمعون رجالهم . — قال ذلك وقد زايله الشك ، وسأل : — ولكن ماذا سنفعل ، يا ملازم ؟

تصنّت كوزنيتسوف مقطب الجبين : لم يعد يسمع محركا ، ولا أصواتا . وكان يفصلهما عن الألمان والآلية حوالى ثلاثمائة متر .

قال كوزنيتسوف دون اقتناع تام :

— لا ترم ، — ثم أضاف : — رجال الاسعاف أو دفّانون ليسوا دبابات . دعهم يجمعون . — وصمت مقلبا فكره . — عليهم اللعنة ! لن نبدأ المعركة قبل الأوان . لنذهب الى المدفع .

— يا خسارة ! ذلك لأنهم لا يشكون فى أننا موجودان هنا . صليتان ويسوّى الأمر ! موقعنا ممتاز . كيف ؟ نرميهم ؟ — عاد أوخانوف يلح ، وخوص عينيه ، وقال : — حتى لا يزخفوا . . .

— قلت لك لن نطلق النار على الدفانين ، هل فهمت ؟ هل ستربح المعركة اذا صرعت اثنين من

الدفانين ؟ نحن بدون ذلك تنقصنا رصاصات . هل تظن أن كل شيء قد انتهى ؟ أنظر الى هناك . الى هذه الجهة ، نحو القرية . ثم وراءك !

— لا تستعمل التحريض معى ، يا ملازم ! . .

جذب أوخانوف قفازيه من صدره ، وحتى دون أن ينظر الى الجهات التى أشار اليها كوزنيتسوف . لا الى جزء القرية الجنوبى المحروق نصفة الى الأمام والى اليمين ، ولا الى الضفة الشمالية التى احتلها الألمان أيضا . لبس قفازيه وقال بتسليم :

— حسنا . مقبول . ألم تر غنيمتى ؟ وضرب الحزام العريض الذى يطوق سترته بمسدسين وتناول الحقيبة المستديرة من على الأرض ، وقال : — أخذتها من الناقلة المحطمة . وقد فتحتها فاذا برائحة سجق مقدد . شيء لا ضرر منه أبدا . أما هذا فلك ، يا ملازم . . . على شجاعتك . خذه هدية من آمر المدفع .

فلّك أوخانوف حزامه ساحبا منه قرابا لامعا بمسدسه ، غير أن كوزنيتسوف أوقفه :

— أعطه لأحد رجال الطقم . عندى مسدس ، — ومس جيب معطفه المنتفخ بمسدس ، متذكرا رائحة

الزيت المقززة الشبيهة برائحة عرق انسانى . — أنت تعرف أن الغنائم تهدى لكتبة المؤخرة . هيا .

ضحك أوخانوف ضحكة مقتضبة .

— والله ، كنت أعتبرك حتى اليوم زهرة ، مثقفا . . . حتى ليتراءى لى أنك تحمر أحيانا . انك شاطر ! من أين أخذت هذا ؟ انهيت الثانوية ؟ لا شيء آخر ؟

— مرة أخرى ! لقد ضجرت يا أوخانوف . هل تريد أن أقص عليك تاريخ حياتى ؟

— أجبنى : هل أنهيت الثانوية ؟ أم جئت من المعهد ؟ لقد كنا فى المدرسة العسكرية فى بطاريتين مختلفتين . وأنا لم أعرفك الا عن بعد .

— أنهيت الثانوية . ولكن أنت أيضا تبدو . . .

— لا ، يا ملازم ، أنهيت سبعة صفوف ، أما البقية فخارجها . يبدو أننى أكبرك بثلاث سنين .

— يعنى ؟

— تركت المدرسة . وأغرمت بقراءة نات بينكرتون وشرلوك هولمز ، وأسعدنى الحظ ، وعملت فى التحقيقات الجنائية فى لينينغراد . وقد ساعدنى عمى . فقد كان يعمل هناك أيضا . وعلى العموم كانت حياتى بهيجة . هذه سنى قلعت فى أحد الأوكار أثناء حملة للتفتيش .

ـ انا أرى أنها كانت حياة بهيجة .

ـ لا تستغرب . انها مهنة نادرة . كان عملى مرتبطا بالمجرمين واللصوص ومَن على شاكلتهم . وهذا بالنسبة لك عالم مجهول . كنت أسير على حد السكين ، ولكن ذلك كان يروق لى . أنت لا تعرف هذه الحياة .

ـ لا أعرفها . ما الذى حصل لك فى المدرسة العسكرية ؟ لماذا لم تمنح الرتبة ؟

ضحك أوخانوف :

ـ صدق أو لا تصدق . قبيل التخرج غادرت من تلقاء نفسى ، ولكننى عدت ، والتقيت بآمر كتيبة وجها لوجه . هل تعرف النافذة فى المرحاض الأول بالقرب من المخرج ؟ ما ان صعدت الى تلك النافذة حتى رأيت هذا الميجور وكأن على رأسه طائر ، يحط على عدة المرحاض كالنسر .

ـ كيف دخل فى دماغك أن تغادر قبيل التخرج !

ـ هذا سؤال ساذج ، يا ملازم . حكاية قديمة وقد انتهت . ولكن هل أدركت عنصر الفكاهة فى المسألة ؟ صعدت الى النافذة ، ولكنى بدلا من أن أهرب رأسا لم أستطع أن أكبت ضحكى حين رأيت

الميجور فى هذا الوضع المكشوف . فحدق فىّ مشدوها ، أما أنا فقد انفجرت اضحك كالابله ، غير قادر على أن أضبط نفسى . أقف على طوار النافذة فى وضع حائر كالأحمق . وبعد ذلك بالطبع أرتفع الصياح والوعيد وأيقظ من النوم مساعد آمر الفصيلة دروزدوفسكى وهذا الأخير مساعد آمر فصيلة ممتاز من جميع النواحى ، وأرسلونى الى التوقيف . هل تصدق ، لا ؟

ـ لا !

قال أوخانوف ، وقد لمعت سنه الأمامية المعدنية ، وقد كشفت عنها ابتسامة :

ـ هذا أمر يعود لك .

الفصل السابع عشر

سمع قرب المدفع هتاف مذعور آت من الحفرة :

ـ قف ، من يمشى ؟ سأطلق النار ! . .

أجاب أوخانوف ساخرا ، وألقى صندوق القذائف بين مسندى المدفع :

— ارم ، رأسا فقط ! يجب أن تصيح هكذا ، يا تشيبيسوف : « قف ، من القادم ؟ » ازعق بصوت أقوى بحيث ترتجف ركبتاه . هيا اهتف مرة أخرى !

— لا أقدر . . . لا أقدر ، أيها الرفيق الرقيب . . . انهم يطلقون النار . — تمتم تشيبيسوف من الحفرة تبريرا لنفسه بصوت مهتز ناشج . — قبل حين أشعلت سيكارة ، واذا بصفير فوق رأسى ، ويصيب الرصاص المتراس . وها هم يطلقون النار من بندقية أوتوماتيكية ! . .

— من أين ؟ أين يطلقون ؟ — سأل كوزنيتسوف بلهجة صارمة ، قبل أن يرى تشيبيسوف ، وهو يقترب من الحفرة .

لم يطلع تشيبيسوف من الحفرة ، فكان غير مرئى فيها ، مندمجا مع حوافيها ، لا تبد منه الا حركة قليلة ، فقال كوزنيتسوف بنبرة آمرة مغيظة لنفسه :

— لماذا أنت محجور فى الأرض كالخلد ، يا تشيبيسوف ، أنت لا ترى حتى فى النظارة المزدوجة ! أخرج من هناك . أين نيتشايف ؟

— أنا اراقب ، أيها الرفيق الملازم . ونيتشايف فى المخبأ . . . هم هناك . . . الممرضة زويا وصلت

الى هناك . . . والسائق روبين أيضا .. يتحدثون عن شىء . . . بينما يستمر اطلاق النار من تلك الضفة . . . ما ان قدحت لأشعل سيكارة حتى صفرت رصاصة فى المتراس . الأفضل أن تنحنى ، فلا أحد يعرف ماذا يحصل . . .

أمر كوزنيتسوف قائلا :

— راقب ، يا تشيبيسوف . فقط لا من قعر الحفرة . هل فهمت ؟ اذا حصل شىء أرسل اشارة ، طلقة من بندقية ، والى المخبأ حالا . أعد كلامى .

— اذا حصل شىء — أرسل طلقة من بندقية ، أيها الرفيق الملازم . . .

— فقط ألا تغفل ! لنذهب الى المخبأ ، يا أوخانوف .

وأخذا ينزلان على الدرجات المحفورة فى المنحدر . كانت قشرة النهر الجليدية محمرة صقيلة من الوهج .

كان مدخل المخبأ مغطى بستارة من المشمع ، ومن ورائها كانت تأتى أنفاس حية ، وأصوات غير مفهومة ، التقط كوزنيتسوف من بينها صوت زويا

حالا . وتذكر فى نفس اللحظة ، وقشعريرة خاطفة تسرى فيه كيف الصقت به جسدها الباحث عن حماية ، وعيناها متقلصتان ـ كانت ركبتاها ملطختين آنذاك ـ فى تلك الثوانى النهائية ، كما بدت ، حين اكتشفهما ـ المدفع المتحرك ، وحين غطاها هو بجسده دون ادراك تقريبا ، غريزيا ، وكان مستعدا لأن يموت على ذلك النحو ، حاميا اياها من شظايا القنابل . الا أنه حتى الآن لم يكن يعى جيدا ما حصل له ولها بوجه خاص فى تلك اللحظة . ربما انبعث ذلك من قرون سحيقة ، حين كان الرجل بقوة الغريزة القاهرة يحمى المرأة بمثل تلك التضحية والتفانى لبقاء النسل على الأرض .

وفكر كوزنيتسوف عند المدخل تماما بما سيكون عليه وجهها الآن ، وتعبير عينيها ، بعد أن يدخل هو وأوخانوف ، وعقد بين حاجبيه ، وسحب الستارة .

صمتت الأصوات . وسعل شخص سعال زكام .

ـ حبذا لو عدّلت الستارة على نحو أتقن ... القنّاصة يتصيدون !

كان المخبأ رطبا ، باردا ، وفى ظرف قذيفة فارغة كان يتصاعد لهب بنزين مزورق ، مضيئا

الجدران الرطبة . كان فى المخبأ ثلاثة : زويا ، وروبين ، ونيتشايف . كان جميعهم يتدفأون منحشرين قرب النار العالية للمصباح المرتجل المفرقع . وأدار الجميع رؤوسهم نحو المدخل . كان الرقيب نيتشايف نصف مضطجع قرب زويا ، يكاد مرفقه يمس ركبتيها ـ كان معطفه مفتوحا على صدره حتى بدت فانيلته ـ ورمقها ممتحنا ، وانفرجت من تحت شاربيه ابتسامة مطلية بالميناء .

ـ وها هو الملازم ، يا زويا ، حضر الينا بعد انتظار !

بدأ السائق روبين الجالس على صندوق قذائف فارغ يتململ ، وأخذ يمسك بانهماك مبالغ ألسنة النار المتراقصة من ظرف القذيفة بأصابعه الكبيرة المتصلبة . حوّلت زويا رأسها بسرعة نحو كوزنيتسوف ، وكأنها لم تصدق نيتشايف ، حتى أن عينيها برقتا وشعتا رهبة ، ثم ابتسمت بهدوء وارتياح . لم يكن لوجهها أى شبه بوجهها ذاك حين كانت عند المدفع ، قبل وقت قصير . كان قد نحل وهزل ، وظهرت تحت عينيها ظلال نصف دائرية . واسودت شفتاها ، وبدتا وكأنهما

معضوضتان خشنتان ، وومض فى ذهن كوزنيتسوف :
« لا ، لا أحد يمكن أن يقبلها الآن من هاتين الشفتين السوداوين . ماذا حصل لشفتيها ؟ ولماذا ينظر نيتشايف اليها هذه النظرات ؟ »

قالت زويا مبتسمة بفرح صريح :

— الحمد لله ، على أنكما جئتما ، أيها العزيزان أنتظرتكما كثيرا ، أردت أن أراكما على قيد الحياة . الحمد لله على مجيئكما . أين كنتما ؟

— فى مكان غير بعيد . فى ضيافة الألمان ، يا عزيزتنا زويا . أنا والملازم تفقدنا مواقع الألمان . — ردّ بذلك أوخانوف ، وألقى نحو نار المصباح ، وهو ما يزال واقفا محنى الرأس الحقيبة الجلدية المستديرة البيتية كليا بأبازيمها النيكلية التى تغطت بالجمد ، وقال : تسلموا الغنيمة ، يا اخوان . افرش المشمع ، يا نيتشايف ! أغلب الظن أنكم جميعا جياع كالخيول ، ها ؟ تحية كفاحية لرئيس رقبائنا العزيز . لا بد أن بوز البقرة هذا جالس فى المؤخرة ، فى مكان ما الى قصعته ، يوسوس بميدالياته فى شجاعة ، هذا العتر القديم ، ويحزن علينا !

وضحك نيتشايف ، أما زويا فرمقت كوزنيتسوف من أسفل ، عاضة على شفتيها ، غير مبتسمة الآن ، وعلى وجهها مسحة من الشفقة غير المخفية وظلّ روبين يدفئ على النار كفيه الضخمتين ، مقسّيا وجهه القرمزى ، خازرا زويا من تحت حاجبيه المعقودين .

نادت زويا لا بصوتها بالأحرى ، بل بعينيها الواسعتين :

يا ملازم ، — واومأت له قائلة ، — اجلس معى ، من فضلك . أنا أريد أن أتحدث اليك ، لا . — وعضت شفتيها ، واستدركت ، — خذ هذه المذكرة . انها من دافلاتيان . رجانى أن أعطيها لك . لم أستطع فى المساء أن أسلمها . كان من غير الممكن ترك الجرحى . لطيف أن روبين ساعدنى . قل لى ، يا ملازم ، هل نحن مطوقون ؟

أخذ الورقة التى مدتها له ، غير مجيب عن سؤالها . سأل :

— كيف حاله ، يا زويا ؟ هل هو فى وعيه ؟

قال روبين بصوت موحش :

— ما بين هذا العالم والعالم الآخر . كان طوال الوقت يناديك . يقول يجب أن أقول له شيئا . . .

كان كوزنيتسوف يعرف حالة الملازم دافلاتيان الذى جرح جرحا بليغا فى بداية المعركة ، كما كان يعرف أنه مشرف على الموت ، وبعد أن القى نظرة على زويا ، لا على روبين ، أدرك أن حالة دافلاتيان ميؤوس منها كالسابق ، فتح الورقة بحذر . وكان مكتوبا فيها بخط مخربش كبير ، وبقلم رصاص :

« شخصى الى الملازم كوزنيتسوف من الملازم دافلاتيان . يا كوليا ، لا تتركنى هنا جريحا . لا تنسنى . هذا رجائى اليك . واذا لم نلتق فان فى جيبى الأيسر هوية الكومسومول ، وصورة فوتوغرافية عليها اهداء ، وعنوانان . عنوان امى وعنوانها . فأكتب لهما ، لا اعرف كيف ، ولكن حسب تقديرك . فقط دون عواطف . وهذا كل شىء ! لم انجح فى شىء . أنا فاشل . اعانقك . دافلاتيان » .

نهضت زويا ، وسرت فى شفتيها لية تشنجية تشبه الابتسامة .

— اتمنى لكم الحياة ايها الاعزاء الصغار . أنا ذاهبة الى الجرحى . بقيت عندكم طويلا .

— زويا — قال كوزنيتسوف متجهما ، ودس الورقة فى جيبه ، وسار وراءها نحو المخرج ، — أنا ذاهب معك . خذينى الى دافلاتيان .

وعندما خرجا صمت جميع من فى المخبأ .

— زويا ، كيف دافلاتيان ؟ هل يمكن ان اتكلم معه ؟

— لا يجوز الآن . اردت ان اقول لك . . . عندما يعود الى وعيه يظل طوال الوقت يسأل هل انت حى ، يا ملازم . هل انتما من مدرسة عسكرية واحدة ؟

— نعم . . . ولكن هل هناك أمل ؟ هل سيعيش ؟ أين جرح ؟

— اصيب أكثر من الجميع . فى رأسه وفخذه . واذا لا يرسل الى كتيبة الاسعاف فستكون نهايته سيئة . وللآخرين ايضا . لا استطيع أن اساعدهم فى شىء . عاجزة تماما ! وأنا اخدعهم فى قولى لهم ستأتى العربات قريبا . ولكن أظن أننا قد قطعنا عن المؤخرات تماما . فالى اين ننقلهم ؟ ومن يدرى أين كتيبة الاسعاف ؟

— هل يوجد فى نقطة المراقبة اتصال مع جهة ؟

— لا يوجد . انهم طوال الوقت يديرون جهاز اللاسلكى . هذا ما اعرفه . رجال الاتصال مع درزدوفسكى هناك . أين كنت يا ملازم ، بعد ان ركضت الى مدفع تشوباريكوف ؟ هل رأيت الدبابة التى سحقت المدفع ؟

— لم اكن أعرف انك . . .

— انس هذا ، ملازم . أنا لا اتذكر شيئا . كان احساسا مريعا ، حتى ركبتاى كانتا ترتجفان . أه ، نعم ، يبدو أننى رجوتك شيئا بخصوص المسدس . ان ذلك لمضحك ، بالطبع . أنا اريد ان أعيش مائة عام ، وألد عشرة اطفال نكاية بنفسى وبالآخرين . هل تتصور عشرة وجوه نواعم ساحرة حول المائدة ، وجميعهم ذوو رؤوس شقر ، وأفواه ملطخة بالعصيدة ؟ هل تعرف الصورة المرسومة على علبة عصيدة الاطفال ؟

— لا أعرف . . . زويا ، يبدو أنك تثلجت ؟ لنذهب ؟ لا نطل الوقوف .

— ملازم ، عندما كنت قرب خاركوف اضطررنا الى ترك الجرحى . وأنا أتذكر كيف صرخوا . . .

— هذه ليست خاركوف ، يا زويا . لن نشق

طريقنا اذ لا طريق امامنا . بقيت عندنا سبع قذائف . ولن يترك أحد احدا . لا مجال حتى للتفكير بذلك .

توقفا على بعد عشرين خطوة من المخبأ فى درب ضيق دكته الاقدام على طول حافة الشاطئ . قال :

— برد لعين . على العموم يبدو أنك تثلجت ؟

— لا ، هذه حالة عصبية . أنا اعرف اننى لا اتركهم الآن . أنت قلت لا طريق امامنا ؟ . .

رفعت ياقة معطفها الفرائى ، وهى تكتم اصطكاك اسنانها ، ونظرت عبر كوزنيتسوف الى الوهج ، والى الضفة المقابلة التى يحتلها الالمان . كان وجهها الابيض ، المحاط بفراء الغنم ، وخطا حاجبيها الطويلان ، وعيناها الداكنتان على نحو غريب ، المتبرئتان من شىء ما ، تنم كلها عن عذاب متعب عميق فى نفسها .

— لا أريد ان أترك الجرحى مرة ثانية . لا اريد . . . لا شىء افظع من ذلك .

وفجأة تصور كوزنيتسوف ، والقشعريرة تسرى فى بدنه كله ، أن الألمان ، بعد أن يحاصروا البطارية يأتون راكضين يصرخ بعضهم على بعض بالأوامر ويقتحمون المخبأ الذى فيه الجرحى ، وفى ايديهم

البنادق الاوتوماتيكية ، ولا تلحق هى لتخرج مسدسها ، وتنزوى فى ركن ، وتضغط بظهرها ويديها على الحائط كالمصلوبة . وسأل مخفضا صوته :

ـ قولى لى هل تعرفين استعمال السلاح ـ المسدس ، البندقية ؟

رمقته بنظرة ، وضحكت ضحكة غريبة دافئة شفتيها فى فراء ياقتها ، وبدا خطا حاجبيها المختلجان .

ـ بشكل سيئ جدا ! . . والآن قل لى أنت ، لماذا طوقتنى بشكل غريب عند المدفع ، عندما جبنت ، هل حميتنى ؟ شكرا لك ، يا ملازم . جبنت كثيرا .

ـ لم الاحظ .

ـ انتظر ! . . ـ وسحبت الياقة عن شفتيها ، وكف حاجباها عن الاختلاج الذى سببته تلك الضحكة المفاجئة ، وقالت :

ـ ما حصل بعد ان ذهبت الى مدفع تشوباريكوف ؟

ـ قتل سيرغونينكوف هناك .

ـ سيرغونينكوف ؟ ذلك الصبى الخجول ، السائق ؟ انتظر ، سأتذكر الآن . عندما كنا نسير الى هنا قال

لى روبين عبارة مريعة : « لن يغفر سيرغونينكوف لأحد فى الآخرة على موته » . ما معنى ذلك ؟

ـ لا يغفر لاحد ؟ ـ بادرها السؤال ، وأحس حين ادار رأسه ببرودة الجمد على ياقته التى حكت خده مثل ورق الصنفرة ، وقال :

ـ ولكن لماذا قال لك هذا ؟

وتابع كوزنيتسوف التفكير مع نفسه : « نعم ، وأنا ايضا مذنب . ولن اغفر لنفسى هذا . ليتنى كنت املك الارادة الكافية آنذاك لأوقفه . . ولكن ماذا اقول لها عن مصرع سيرغونينكوف ؟ ان التحدث عن ذلك يعنى التحدث عن كل ما حدث . ولكن لماذا اتذكر ذلك ، بينما ثلثا رجال البطارية قد هلكا ؟ لا ، لا استطيع ، لسبب ما ، ان انسى ذلك ! . . »

اجاب كوزنيتسوف بحزم :

ـ لا أريد التحدث عن مصرع سيرغونينكوف . لا معنى للتحدث الآن عن ذلك .

همست :

ـ يا الهى ، كم أنا مشفقة عليكم جميعا ، يا صبيان ! . .

أما هو فقد فكر ، وهو يسمع صوتها الذى تلون بالعذاب والاشفاق على الجميع ، ومعنى ذلك عليه ايضا : « أمن المعقول أنها تحب درزدوفسكى ؟ أمن المعقول أنه استطاع ان يمس شفتيها المعضوضتين المتورمتين ؟ وهل من المعقول أنها لم تستطع ان تلاحظ أن لدرزدوفسكى عينين باردتين لا رأفة فيهما ، والنظر اليهما كريه ؟ »

وسألته بهمس سمع فيه النبرة الرقيقة الناعمة :

— لماذا تنظر الى هكذا ، يا ملازم ، يا عزيزى ؟ تطيل النظر الى ، وكأنك لم ترنى من قبل قط . .

اجابها بصوت كامد :

— سأعود دافلاتيان فيما بعد . وهناك شىء آخر : لا تنادينى بـ « عزيزى » . تشفقين على ايضا ؟ أنا لم اجرح بعد ولم أقتل . لا سيما وأنا لا أريد أن أموت ميتة حمقاء لا معنى لها .

— وهل توجد ميتة ذكية ، يا ملازم ؟ اريد أن تبقى حيا ، أيها الصغير ، وأن تعيش طويلا . مائة وخمسين عاما ، وأن تكون لك زوجة وخمسة اطفال . والآن ، وداعا ، أنا ذاهبة الى الجرحى . . . لماذا

تنظر الى هكذا ، يا ملازم ؟ يبدو أننى اعجبتك بعض الشىء ؟ ها ؟ هذا ما كنت لا اعرفه ! — واقتربت منه ، ودفعت بيدها فراء ياقتها ، ورنت اليه بدهشة متقصة ، وقالت :

— آه ، ما أسخف واغرب هذا كله ، يا جندب !

— ولماذا جندب ؟

— لقب عائلتك قريب من لفظة جندب * . . . هل من المعقول انت لا تحب الجنادب ؟ عندما أنا أسمع صريرها ، أحس بارتياح شديد . واتخيل ، لسبب ما ، ليلة دافئة ، ودريسا فى حقل ، وقمرا أحمر فوق بحيرة . والجنادب فى كل مكان . . .

هبت برودة من جليد النهر . وحركت هذه الريح السفلية الجليدية طرف معطفها . ولمعت عيناها المبتسمتان ولاحتا داكنتين وهما فوق الياقة الفرائية التى طوتها بيدها فى قفازها الابيض الى الاسفل . كان خطا حاجبيها المغطيان بالجمد بارزين كالوبر ، وقد تقست اطراف رموشها ، ومرة اخرى خيل لكوزنيتسوف

* كوزنيتسوف قريبة الشبه من حيث اللفظ من « كوزنيتشيك » التى تعنى بالروسية جندب ، وهو نوع من الجراد — المترجم .

ان اسنانها ما تزال تصطك قليلا وكتفيها ترتعشان كأنما قد تثلجت كلية . وتخيل له بوضوح تام أن هذه الاسنان المصطكة ليست اسنانها ، وأن التى تحدثت الآن ليست هى ، بل امرأة أخرى بصوت آخر ، وأنه لا وجود للشاطئ ، ولا للوهج ، ولا للدبابات الالمانية ، وأنه واقف مع امرأة بالقرب من مدخل البيت فى ليلة ديسمبرية ، بعد التزحلق على الجليد ، والعاصفة الثلجية تبدد الدخان من السطوح ، والمصابيح فوق اسيجة الشارع فى الظلمة الرذاذية . . . متى كان ذلك ؟ وهل كان ذلك ؟ ومن كانت معه ؟

— هل تريد تقبيلى ؟ . . يتهيأ لى انك تريد . . . هل عندك اخت ؟ من المحتمل أن نقتل كلانا ، يا جندب . . .

— اسمعى ، ما الحاجة الى ذلك ؟ من تحسبيننى ؟ صبيا ؟ اهذا ما يسمى غنجا ؟ ام ماذا ؟

— واى غنج هذا ؟ لا ، مطلقا ، — وكتمت ضحكتها بياقتها بعد ان غطت بها نصف وجهها ، واتسعت عيناها ، — التغنج فى البداية بالعيون فقط . تحول الى زاوية ، الى انف ، والى شىء . واذا كان هذا الشىء أنت . . .

وأنا لا افعل ذلك ، هل ترى ؟ لا ، يا ملازم . لقد حميتنى قرب المدفع مثل أخت . بل وشعرت بذلك . احقا ليست لك اخت ؟

« قرب المدفع . . . كانت دبابات تسير ، وكنا نرمى . وقتل كاسيموف . وكانت هى على مقربة ، ثم جرت الى مدفع تشوباريكوف ، عندما أقتحمت الدبابة . ثم قلبت رشقة رشاشة سيرغونينكوف عدة مرات أمام المدفع المتحرك . . . وطلع الدخان من المعطف على ظهره . ووجه درزدوفسكى الملتوى المصعوق : « أمن المعقول كنت اريد له الموت ؟ . . »

— انت مخطئة !

« درزدوفسكى ! لا استطيع أن أتصور — أنت ودرزدوفسكى ! » كاد ينطق بهذا ، الا أن وجهها المرفوع اليه المترقب بحذر اضيئ فجأة ببرق أحمر كاشفا بشكل صارخ عينيها المتسعتين ، وشفتيها ، والجمد على حاجبيها الدقيقين ، حتى أنه لم يدرك فى الوهلة الاولى ماذا حدث .

همست شفتاها :

— ملازم ، الالمان ؟ . .

وفى تلك اللحظة تناثرت رشقات بنادق اوتوماتيكية فى مكان فى الأعلى ، وراء مرتفع الشاطئ ، وحلقت صواريخ من جديد . وعندما نظر الى الاعلى ، فى الجهة التى كان فيها المدفع راودته الرغبة حالا فى أن يقول لها صارخا بأن الواقعة قد بدأت ، وان الالمان قد بدأوا ، وان ذلك هو ، فى الغالب ، هو الشىء الاخير الذى ينهى كل شىء ، الا أنه صرخ بصوت متفجر لا بالشىء الذى دار فى خلده :

— اجرى الى المخبأ ! حالا ! اذكرى : لا اخت لى ! ليس لى اخت ! ولا تتفوهى بالسخافة ! لم يكن ولن يكون ! . .

ودفعها تقريبا ، وهو سائر فى الدرب ، منتقما منها لسبب ما بالكذب عليها ، مبغضا نفسه على ذلك فابتعدت عنه خطوة الى الوراء بوجه بائس متغير وندت هامسة :

— لم تفهمنى كما يجب ، يا ملازم ! ليس كما يجب ، يا جندب . . .

وركض هو على حافة الشاطئ الى مخبأ الطقم ، وهو يسمع صوت بنادق طويل معول فى الأعلى ،

والى اليسار كان جليد النهر فى الذبذبات السريعة لضوء الصواريخ يقترب تارة تحت الاقدام ، وينزلق اخرى مسرعا ويبتلعه الظلام . ثم دوت طلقة بندقية فى الاعلى ، عند المدفع ثم اخرى ، وترامت الى الاسفل صيحة نداء ارنبية . وكانت تلك اشارة من تشيبيسوف ، وتلك هى طلقته .

« اذن ، بدأ الهجوم . . . اذن ، الآن ! . . وليس لنا غير سبع قذائف ، سبع فقط . . . »

ركض كوزنيتسوف نحو المخبأ ، ودفع الستارة جانبا ، ورأى نار هاون « الكاتيوشا » البنفسجية ، وعلى المشمع خبزا مقطعا ، وعيون أوخانوف وروبين ونيتشايف المصوبة نحوه والفاهمة لشىء ما ، فأصدر امره :

— الى المدفع ! . .

الفصل الثامن عشر

انتظر حتى يخرج الجميع من المخبأ . كانت دفقات متسارعة من الضوء تهز الليل ، وتتحد فى السماء . وبالقرب من المدفع ازت طلقة بندقية للمرة الثالثة فى

رعب ، ولعلعت البنادق الاوتوماتيكية متوالية معربدة ، ومرق سرب الرصاص فوق الشاطئ مضيئا .

وأمر كوزنيتسوف مستحثا :

— بسرعة ! بسرعة ! الى المدفع ! الى الاعلى !

وتردد ايعاز أوخانوف فى المخبأ كالصدى مكررا أمر كوزنيتسوف ، ووثب نيتشايف وروبين خارجين الى الدرب ، وكأنما قذف بهما هذا الامر ، وهما يمضغان الطعام بعجالة . وظهر أوخانوف نفسه من المخبأ ، بعد ان اطفأ المصباح ، فكان آخرهم . القى البندقية وراء كتفه ، وراح يلعن بشدة ، وهو يمضغ طعامه ايضا .

— لم يتركونا نأكل . الملاعين ! خذ شيئا من السجق ، يا ملازم . على الأقل تبلغ بشىء — ووضع فى يد كوزنيتسوف قطعة خشفاء — الى المدفع ! اسرعا ، كالفتيان !

— الى الأعلى ! جريا !

وضع كوزنيتسوف القطعة الخشفاء فى جيب معطفه بشكل آلى ، وجرى على الشاطئ فى المقدمة نحو الدرجات الترابية المؤدية الى الاعلى . رمت الريح فى

عينيه ذرات حادة من الثلج ، وكانت خطوط واطئة من رشقات البنادق الاوتوماتيكية تتوامض الى الامام ، ومن هذا التوامض المتشابك فوق موقع المدفع انطلق للقائه صياح متوحش .

— رفيق ملازم ! رفيق ملازم !

كان ذلك نداء تشيبيسوف . كانت مصابيح الصواريخ المشتعلة فى السماء كضوء النهار تضئ وتبرز المدفع وساحته والحفرة ، حتى ان كوزنيتسوف ، وهو على بعد حوالى عشرة أمتار ، رأى تحت قرمة ساحة المدفع ، شخصا منحنيا على الأرض ، وعلى بعد خطوتين منه ، وراء المتراس ، كان ثمة شىء داكن مبسوط على الثلج ، شبيه بجسد انسان منكب على بطنه .

« المانى ! تسلل الى هنا ؟ اخذوا يهاجمون المدفع ؟ »

— تبادر ذلك الى ذهن كوزنيتسوف ، وقبل أن يعى شيئا ، ركض نحو تشيبيسوف محنى القامة ، ووقع قربه الى جانب عجلة المدفع .

— ماذا ؟ ماذا ؟

كان تشيبيسوف يرتجف محموما ، وهو جالس

تحت المتراس ، ولم تكن البندقية معه . كان يدق صدره بيديه ، ويهز رأسه ، ويصرخ مولولا :

ـ قتلته ! . . يا رفيق ملازم ؛ كان يركض الى هنا . وأنا فى الحفر متجمد بكل كيانى وهو مقبل الى هنا . الالمان يطلقون النار ، وهو يركض نحو المدفع . . . ويصرخ « أنا منكم ، روسى ! » أما أنا فكيف اصدق به ؟ . . الالمان بدأوا اطلاق النار . . .

امسك كوزنيتسوف كتف تشيبيسوف ، وهزه بكل قوته :

ـ اهدأ ! هل تسمع ؟ اشرح لى كما يجب !

ـ قتلته ، انا قتلته ! ـ كرر تشيبيسوف وهو يحرك قفازيه على صدره ، وعيناه ترفان بانشداه ـ كان يركض ويصرخ « أنا منكم ، روسى ! » وأنا ، كيف اصدق به ؟ فقتلته !

قال أوخانوف :

ـ انظر ، يا ملازم ، انها بندقية روسية .

ونهض على القرمة الى ركبتيه ، وسحب من وراء المتراس بندقية اوتوماتيكية بقرص مستدير ، واظهرها لكوزنيتسوف :

ـ من أين هذا السلافى ، حقا ؟

قال كوزنيتسوف ، بعد أن فحص البندقية التى غطاها الجليد :

ـ انه واحد منا . اجلبه الى هنا ، يا أوخانوف ! فقط بحذر لا تقفز على المتراس !

ـ سنحاول ، يا ملازم .

تحرك أوخانوف الى الامام مثبتا ركبتيه فى الارض ، واستلقى على المتراس ، وامسك بكلتا يديه كتفى الانسان الممدود بلا حراك ، المطروح بلا حياة ، الذى بدا فى مظهره متحجرا ، وجذبه بجهد وبطء الى ساحة المدفع . عندما أخذ يقلب جسد هذا الانسان الذى لا حياة فيه ليسنده الى المتراس فى وضع أروح وقع الى الخلف ، الى حافة القرمة ، رأسه المعتمر بخوذة سوداء من التى يلبسها رجال الدبابات ، واسعة عند الصدغين ، المانية ، وأخذ الرجل يئن انينا ضعيفا ممطوطا دون ان يفتح عينيه ، ولمعت اسنانه المصفوفة مثل شريط ضيق . قال أوخانوف فى شىء من التأكيد وقد انحنى نحوه :

ـ يبدو أنه حى .

كان الجميع يتجمهرون امام المدفع ينظرون بارتياب تارة الى الرجل المتوجع ، وتارة الى بروق الصواريخ ، وتارة الى التماعات طلقات البنادق الى الامام . وكان كوزنيتسوف صامتا غير فاهم جيدا معنى لما جرى هنا ، الا أنه قد أيقن بالفعل ان هذا الرجل ليس المانيا ، بالطبع ، فقد كان من الممكن تمييز وجهه الفتى المدور بوضوح ، تحت القلنسوة الالمانية السوداء، وجهه الروسى العريض الوجنتين الذى شوهه الألم . الذقن النامى ، وتفاحة آدم البارزة فى رقبته ، وقد تلطخ كلاهما فى الثلج ، والسترة المبطنة بقشرة من الجليد ، والكفين العاريتين المطويتين على الصدر ، مثل كفى الميت ، والحذاء اللبادى الذى مال بوزاه الى جانب بلا حياة . كان يبدو أنه قد قضى ساعات عديدة راقدا على الثلج فى البرد .

سأل نيتشايف :

— من هو ، يا ملازم ؟ ربما من جنود المشاة ؟ او من رجال الدبابات ؟ جريح هو ؟ أم متجمد كليا ؟ لقد ضم يديه . . .

فنشج تشيبيسوف من الخلف قائلا :

— صوبت عليه النار ، رميته . وكان هو يركض ويصيح وأنا . . .

اوقفه كوزنيتسوف قائلا :

— كف عن التأوه ، يا تشيبيسوف ! لا تنطق بكلمة واحدة !

— من أين جاء المشاة ؟ من أين جاء جندى الدبابات ؟ لا احد من رجالنا الى الامام . . . هاى ، يا شاب ! — نادى أوخانوف ، وضربه على خده ضربة خفيفة ، — هل تسمع ، يا شاب ؟ هل تسمع شيئا ؟

صرف الرجل باسنانه ، وزحفت تفاحة رقبته ، وتحركت الى الأعلى ، ومرة أخرى خرجت من خلال اسنانه أنة ممطوطة .

أمر كوزنيتسوف :

— أنظر ، يا أوخانوف ، هل عنده هوية . افحص الجيوب .

قال روبين مخاطبا تشيبيسوف باستنكار :

— كيف هان عليك أن تطلق النار عليه ، أيها الرأس الاحمق ؟ كيف ترميه بلادة اذا كان يصرخ انه روسى ؟

ـ لم اعرف ، أنا مذنب ، مذنب !

فقال كوزنيتسوف متخذا قرارا :

ـ يا روبين ! اذهب لاستدعاء زويا فى الحال . استدع زويا الى هنا !

فاجاب روبين فى قليل من الرغبة :

ـ سمعا . سنجلبها اذا كان ذلك يساعد ...

ـ اجر الى زويا ، يا روبين ، هل سمعت ؟

فك أوخانوف السترة المبطنة من على صدر الرجل جالسا القرفصاء ، وتحسس ، وقلب على البطانة جيوب قميصه وبنطلونه المبطن ، وأعلن بذهول : « الجيوب فارغة ! » وطلب الى نيتشايف بغيظ لا يخلو من تفريع :

ـ هات زمزمية الروم الالمانى بسرعة . انها فى حزامك . هات !

وبعدئذ قرب عنق الزمزمية من اسنان الشاب الذى دفع رأسه متأوها ، مقاوما دون وعى ، وكأنه تحت التعذيب ، الا ان أوخانوف امسك رأسه بيد ، وسكب بضع قطرات فى فمه بحزم ، بل وبغلظة ، قائلا فى الوقت ذاته :

ـ الآن ، الآن ، يا أخى ...

كان الجميع ينتظرون . شرق الشاب ، وقد تنفس من فمه ، وسعل ، وانثنى بكل جسمه ، محركا علباءه طويلا على حافة المتراس . انفتح جفناه قليلا ، وأطل من عينيه الكدرتين المتواريتين تعبير الخواء الذى يكون عادة لدى المدنفين من المرضى فى حالة نصف الوعى . انسحبت ذراعاه المطويتان الى الجانب الذى كان يجب أن تكون فيه البندقية الأوتوماتيكية . عندئذ سأله كوزنيتسوف :

ـ اسمع ، يا فتى ، مَن أنت ؟ من أين جئت ؟ نحن روس ، وأنت من ؟

طاف بصر الفتى فى الوجوه ، وفى الغالب أنه لم يسمع شيئا ، وما زال غير واع أين هو ، ولا ماذا جرى له . وأخيرا صدرت منه همسة مبحوحة :

ـ قلنسوة ... قلنسوة ... اخلع ...

ـ الظاهر أنه لا يسمع ، يا ملازم . عنده قلنسوة ألمانية من أين أخذها ؟ هيا ، أيها السلافى !

دفع أوخانوف القلنسوة عن رأسه ، ووضعها تحت علبائه . حمحم الشاب ، ومد ساقيه ، وطوف ببصره فى السماء المتشققة باضواء الصواريخ المضطربة ،

فوق الشاطئ ، ثم نظر الى المدفع ، والى كوزنيتسوف والى أوخانوف ، وما رف على وجهه كان يدل على أنه قد وعى كل شيء . قال الشاب بحشرجة هامسة :

ـ اخوان . . . من المدفعية ! بطارية ؟ . . ركضت اليكم ! . . أين غيورغييف ؟ غيورغييف ؟ . . . صباحا . . .

وصمت مستفهما ببصره فقط ، وفجأة تذكر كوزنيتسوف بحدس لذعه مع كلمة « صباحا » هذه ، الغارة ، والحفرة فى طقم تشوباريكوف ، ورجل الاستطلاع المصدوم الذى كان فى غيبوبة الادراك يطلب استدعاء العقيد آمر الفرقة ، نعم ، ان رجل الاستطلاع ذاك تحدث آنذاك عن الذين بقوا فى المقدمة . . .

قبل دقيقة كان هذا الشاب يشبه كثيرا هاربا من الأسر ، أو جندى مشاة من الحراسة الامامية ضل طريقه لسبب ما . ان الفكرة التى أطلت على كوزنيتسوف ، من أن هذا الشاب من رجال الاستطلاع الذين حصروا أثناء الحملة الاستطلاعية ، والذين تحدث عنهم رجل الاستطلاع الأول الذى تمكن من الوصول الى البطارية

فى الصباح فى بداية المعركة ، ان هذه الفكرة حتى هذه اللحظة كانت تبدو غير محتملة ومستحيلة . كيف استطاع أن يبقى حيا ؟ وأين كان خلال المعركة ؟ لقد سارت فى تلك الأرض الى الأمام عشرات الدبابات ، وتحلزنت فى زحفها ونبشت السهب كله ، وكانت القذائف تمزق كل متر من الأرض طوال اليوم . . .

قال كوزنيتسوف :

ـ أوخانوف ، أعطه مزيدا من الروم . التكلم صعب عليه .

ـ أظن أنه قد تجمد كليا ، يا ملازم . تجمد حتى أظافره .

أجاب بذلك أوخانوف صابا فى فم الشاب بضع جرعات أخرى من روم الزمزمية .

دفع هذا رأسه الى الوراء ، وكان قد استرد أنفاسه من توه . وهنا سأله كوزنيتسوف بصوت واضح عال :

ـ هل تستطيع الكلام ؟ سألقى عليك أسئلة ، وأجب أنت عنها . ذلك أسهل . هل غيورغييف من رجال الاستطلاع ؟ فى الصباح جاء الى بطاريتنا . وأنت أيضا من رجال الاستطلاع ؟

ظل الشاب يحرك علباءه على القلنسوة ، ثم انفرجت شفتاه :

ـ اخوان . . . يوجد رجلان فى حفرة قنبلة . . . رجلان منا مع ألمانى . . . نصف حى . . . جرحى ، ومتجمدون جميعا . . . النهار كله كنا مع هذا الألمانى . أسرناه عند الفجر ، على الطريق العامة . من سيارة . ألمانى مهم . . . أرسلنا غيورغييف . . . ليقول . . .

قال أوخانوف متبادلا النظرات مع كوزنيتسوف :

ـ هكذا . هل فهمت ، يا ملازم ؟ رجل الاستطلاع ذاك الذى كان عند تشوباريكوف فى الصباح ؟ نفسه ؟ هذا يحصل ! يا أولاد الحلال ! أهؤلاء هم رجال الاستطلاع ؟

رد كوزنيتسوف بالايجاب ، ومس كتف الشاب الذى كان يجلس مرتخيا على المتراس ، مغمض العينين :

ـ أين الآخران ؟ بعيدان عن هنا ؟ هل أنت جريح ؟ والألمانى معهما كما تقول ؟ هل أطلقوا النار عليك ؟

لم يفتح الشاب عينيه ، الا أنه استوعب معنى هذه

الأسئلة . وأخذ يئن ، والتقط كوزنيتسوف ، وهو ينظر الى شفتيه المتحركتين بلزوجة :

ـ حوالى خمسمائة متر الى الأمام . قدام الوهدة . كنت أستطيع التحرك . . . قررا ارسالى الى هنا . ركضت . . والألمان هناك فى كل مكان . سيارتان . ولم أستطع الرمى . يداى متجمدتان ، وكأنهما مقطوعتان . وأطلقوا النار على . . . يجب أن تأخذوهم ، يا أولاد ! رجلينا . . . والألمانى المهم جدا .

عاد كوزنيتسوف يسأل :

ـ على بعد خمسمائة متر تقريبا ؟ . . ولكن أين بالذات ؟ ونظر من وراء المتراس .

كانت الريح الصقيعية الجافة الضاغطة على الوجوه تقتطع أصوات صليات من البنادق الأوتوماتيكية آخذة بالخمود ، وترسل رشقات مسفة قادمة من السهب . كان السهب كله يتعرى متغيرا فى ضوء الصواريخ ، ويتلعبن ، ويتماوج تموجات بيضاء ، من تحت الأكوام السوداء للدبابات المحترقة التى كانت السماء الواطئة فى لحظة الظلام تنهض وراءها كالجدار . وكان من غير الممكن التصديق بأن فى مكان هذا

السهب الذى نشرت فيه الدبابات والصقيع الحاد الموت يمكن أن يكون ثمة أناس ، وأن يبقى فيه رجلان من رجالنا . . . كان يريد أن يفهم الى أين كان الألمان يطلقون النار ، ويريد أن يعرف اتجاه الطلقات ، الا أن أجسام الدبابات المحترقة الجبارة كانت تعيقه .

وسأل كوزنيتسوف مرة أخرى ، وانحنى على وجه رجل الاستطلاع تماما :

— خمسمائة متر تقريبا ؟ والأدق ؟ هل تستطيع أن تقول أدق ؟

استنشق رجل الاستطلاع الهواء ، رافعا الى ذقنه أصابع متقلصة مضمومة كالعساليج ، محاولا أن يدفئها ، وحركها الا أنها لم تنثن من سلامياتها . دون أن ينزل يديه عن ذقنه قام بتحريك ساقه لكى ينهض الا أن هذه المحاولة أوهنته حالا وارتطم بحافة المتراس وهمس :

— أرجو أن تنهضونى . يا اخوان . . . ساقاى أيضا . . . ناقلتان مصفحتان . . . أمام الوهدة تماما . . . استعجلوا ، يا مدفعية ! . .

سأل كوزنيتسوف :

— أين زويا ، اين روبين ؟

قال أوخانوف :

— يبدو ، يا ملازم أن الشاب سيفقد يديه يجب دلكهما بالثلج ، — وتلفت يمنة ويسرة وقال : — تشيبيسوف ! املأ قصعة بالثلج بسرعة ! وهاتها الىّ . فقط أن يكون ثلجا نقيا ، غير مخلوط ببارود . خذه من وراء الموقع . فهمت ؟

كان تشيبيسوف طوال هذا الحديث مع رجل الاستطلاع قابعا قرب المدفع ، فألقى الى أوخانوف نظرة حيوان ذليلة ، ولملم معطفه على صدره .

وخرج صوت خافت مولول مع بخار أنفاسه من تحت بطانة قلنسوته التى تجمد عليها الجمد خطوطا ، قال كوزنيتسوف مندهشا :

— ما هذا ، يا تشيبيسوف ؟ ماذا دهاك ؟ أنهض ، وأركض !

الا أن تشيبيسوف زحف على ركبتيه الى الحفرة ناشجا متمتما تمتمة متقطعة ، وغطس فى ظلامها . فقال نيتشايف فى أثره ، عاضا على شعرات شاربيه المتجمدة وكأنها مكسوة بالسكر :

— أصيب بالجمود تماما . بينما هو أطلق النار على الشاب . الظاهر أنه فقد عقله كليا . أنا سأذهب ، يا الرقيب الاول .

أوقفه آوخانوف قائلا :

— اجلس ! ليذهب هو ذلك نافع له ! افرك خديك يا نيتشايف ، سيكون ذلك نافعا أيضا كأن وجهك مبودر بالبودرة . وفى نفس الوقت أدار وجه نيتشايف اليه بضربة خفيفة من قفازه :

— افرك والا لن يسلم خداك !

لذع الزمهرير كوزنيتسوف أيضا ، وقد اشتد الزمهرير الى أقصاه ، وصارت يداه تتخدران وهما فى القفازين ، ورجلاه وهما فى الحذاء اللبادى الطويل . وتقلص وجهه متشققا بأظافر الصقيع وبينما كان ينظر الى رجل الاستطلاع ، والى أصابعه المتقلصة بالقرب من حنكه ، والى صلابتها الباردة العظمية تمثل بالتفصيل كيف قطع هذا الشاب الأمتار الخمسمائة الى البطارية ، دون أن يطلق نارا ، فان أصابعه ، فى الغالب لم تكن قادرة على أن تضغط على زناد البندقية الأوتوماتيكية وكان شعر الشاب يبدو وكأنه قد شاب لما علق فيه

من حبات الثلج ، ولاحت قطرات جمد كثيفة فى منخريه والتصقت رموشه جمدا ، ومع نفثات البخار كان يخرج من فمه همس :

— بسرعة ، يا مدفعية ! . . خمسمائة متر من هنا ! . . رجلان من رجالنا مع المانى . وراء ناقلتين مصفحتين . فى حفرة خلفتها قنبلة .

— البسه الخوذة ، يا اوخانوف .

أمر كوزنيتسوف ، وجلس على مسند المدفع ، وأنتظر ريثما يضع اوخانوف الخوذة على رأس رجل الاستطلاع ، وقال بصوت خفيض :

— ماذا سنفعل ، يا اوخانوف ؟ خمسمائة متر . والالمان الى اليسار . فريق لدفن الموتى . فاذا ذهب ثلاثة مع ثلاث بنادق ؟ . . نأخذ قنابل يدوية . ونبقى نيتشايف وتشيبيسوف عند المدفع للحيطة . يجب الذهاب . ما رأيك ؟

كان يعرف الى أين عليهم ان يذهبوا ، وفى الوقت ذاته كان يقنع نفسه بأنه لا يحق لهم فى الا يذهبوا ، ولا يحق لهم فى ألا يحاولوا التسلل الى ذينك الجريحين من رجال الاستطلاع اللذين ابلغ عنهما الشاب ،

الذى قطع لنجدتهما خمسمائة متر دون اطلاق نار . وكان فى قول كوزنيتسوف عن السلاح – ثلاث بنادق اوتوماتيكية وقنابل يدوية – شىء شبيه بخداع النفس ، ومع ذلك فقد كان يدرك أن ما من أحد منهما – لا هو بصفته آمر الفصيلة ، ولا اوخانوف – يمكن ان يعيش مطمئن البال بعد ذلك اذا كان كلاهما لا يتخذ مثل هذا القرار . ولم يكن ثمة من مخرج آخر . وأنتظر جواب اوخانوف واثقا برصانته وحنكته اكثر مما يثق بنفسه .

– هذا اقتراحى . فلنقرر ، يا اوخانوف . فان رجال الاستطلاع خرجوا الى مواقع بطاريتنا . . . سنحاول ؟

كان اوخانوف صامتا ينفخ بقوة فى قفازيه المخلوعين ، دافعا فيهما انفاسه الدافئة . ثم لبسهما ، وضرب بهما ركبتيه ، ونظر الى كوزنيتسوف من تحت غشاء الجمد الابيض على جفنيه بأسى متظاهرا بالعداء .

– ايمكن ان تخترع شيئا أكثر ذكاء ؟ لن نخترع شيئا آخر ، يا ملازم ! رغم أن خمسمائة متر ليست خمسة امتار . المهم ألا يتجمد الزيت فى البنادق من الصقيع ! واسمع ، يا ملازم . الالمان هدأوا .

كل شىء هدأ ، وجمد الى الأمام ، وما من صلية ، وما من رصاصة ، وما من صاروخ . لا شىء غير الاشباح الرمادية للدبابات المحترقة فى السهب ، وثعابين الريح الارضية المتلوية بينها ، وهباتها على المتراس .

صاح اوخانوف :

– تشيبيسوف ! أين تتوارى ؟ الى كالبرق ! اين الثلج ؟ اى شيطان !

خرج شبح تشيبيسوف الصغير من وراء المتراس بعجالة خرقاء . وعيناه حفرتان سوداوان من الرعب تحت بطانة قلنسوته اللامعة من الجليد . ودب الى المدفع على الأربع شاحطا بحذائه ، ساحبا على الأرض قصعة مملوءة ثلجا ، هاتفا بلا صوت :

– شخص يجرى هناك ! يجرى على الشاطئ ! الى هنا ! . .

قال اوخانوف واختطف القصعة من يديه :

– من يجرى ؟ ألا تفهم ماذا تقول ؟ نيتشايف دعه يشرب من الزمزمية ، فسيعود الى وعيه !

– انهم يركضون هناك . . . الى هنا . . . لم أتبين . . .

كرر تشيبيسوف قوله همسا ، وتراجع ، وهو يهمس ، متقهقرا على رجليه المطويتين الى النصف ، عن الشاب الذى راح يئن أنينا عاليا ، عندما وضع اوخانوف يده فى قصعة الثلج .

والآن صار كوزنيتسوف نفسه يسمع كركبة اقدام راكضة ، وقرقعة الثلج المقتربة الى يمين المدفع . اختطف بندقية رجل الاستطلاع هاتفا « من القادم ؟ » الا أن شبحين ظهرا من شبه الظلمة على خلفية الثلج ، وصدرت صيحة جوابية من هناك :

— جماعتكم ! ألم تعرفونا ؟.

وقد عرفهما . كان درزدوفسكى وآمر فصيلة الادارة رئيس الرقباء غولوفانوف . فعلى مسافة قصيرة على مرتفع الشاطئ أبرز الوهج المتخافت على الجانب الآخر من القرية معالمهما بوضوح .

دخل كلاهما موقع الرماية راكضا وكان درزدوفسكى فى معطفه المفصل جيدا ، الضيق ، المزرر باحكام ، التقط انفاسه تعبا ، وقال :

— من اطلق النار ؟

وفجأة أحس كوزنيتسوف برعدة عصبية حادة فى

جسمه من مجرد سماع رنة صوته الآمر ، فأستدار والبندقية مضغوطة على صدره ، وجلس على المسند مطبق الشفتين مفهما اياه بصمته أن ما حصل بينهما لم ينس .

— ماذا هنا ؟ يا الرقيب الاول أوخانوف ، ماذا تفعل هنا ؟ جريح ؟ من اين ؟

مر درزدوفسكى بكوزنيتسوف مندفعا ، ملقيا اسئلته اثناء سيره ، وقد نشر فى الجو رائحة معطفه المتجمد ، ولكى يتأكد بنفسه ، انحنى على اوخانوف ، وعلى رجل الاستطلاع ، واشعل مصباحا للجيب . ونفذ الضوء الى التضبب الأصفر ، ومس الاسنان المطبقة بقوة فى وجه الشاب المتقلص ، المعكوف الانف ، ولمعت على وجنتيه قطرات جمد كونتها دموع الألم .

— مدفعية ! . . مدفعية ! . . هما فى حفرة قنبلة . . لماذا البستمونى الخوذة ، أنا لا اسمع . . .

— اطفئ المصباح ، يا آمر البطارية ! ما الداعى الى ذلك ؟

قال اوخانوف ذلك دافعا المصباح بكتفه بغيظ ، وهو ماض فى فرك يدى الشاب بالثلج .

وفى تلك اللحظة صدرت طلقتان فى الشاطئ الآخر ، وكأنما فى انتظار اشارة ، وسرت وميضات نار فوق المتراس ، فأحنى درزدوفسكى رأسه قليلا ، مخبئا مصباحه المنطفى ، ونطق بسخرية ، غير مندهش كليا :

— أنتم فى وضع لطيف لا امرح منه ! — ثم سأل بلهجة تعنت معروفة عنه ، — من هذا الشاب ؟ وكيف وصل اليكم ؟

— لعنة على روبين . انه ابطأ من سلحفاة ، — قال اوخانوف ، ثم اجاب درزدوفسكى بتراخ مفرط ، — ان هذا الشاب هو رجل استطلاع ، يا آمر البطارية . من جماعة رجال الاستطلاع الذين خرجوا فى الليل ، ولم يعودوا . واذا تتذكر فان الأول قد جاء الينا اثناء الغارة . وهو يدعى غيورغييف ، وهذا هو الثانى . وتبين أن هناك اثنين آخرين حيين ايضا . لا يستطيعان التحرك . . . والشاب يقول انهما متجمدان وجريحان . ثم أن فى صحبتهما أسيرا أيضا . يوما كاملا . تلك هى الحكاية ، يا آمر البطارية .

عاد درزدوفسكى يسأل :

— رجلان من رجال الاستطلاع ، ومعهما اسير ؟ وماذا ؟ أهذا مضبوط ؟

— مع اسير ؟ ما الداعى الى الكذب ، يا اوخانوف ؟

— سأل رئيس الرقباء غولوفانوف الضخم بفجاجة وهز ذراعه جالسا القرفصاء ، فاحصا ببصره رجل الاستطلاع الذى كان يئن بين الحين والآخر انينا خافتا ، — هل هو أعلن ذلك ؟ ولكنه فاقد الوعى ، فى حالة هذيان . الدبابات هناك قلبت الأرض قلبا . فكيف يبقى رجال استطلاع فيها ؟

— يحصل الذى لا يحصل . الم تسمع بذلك ؟

— هل تصدق بالهذيان ، يا اوخانوف ؟ ولكن من أين ظهر هذا الشاب ؟

— اسكت ، يا غولوفانوف ، اذا كنت لا تفهم ! — ارتفع صوت درزدوفسكى بذلك ، وانتصب بحدة ولدانة وكأن لولبا نط فى داخله ، وقال ، — هل نسيت رجل الاستطلاع الذى ارسلوه الى مقر الفرقة ؟ وهل نسيت أن رجالا من الجيش كانوا ينتظرون الحملة الاستطلاعية هنا ؟ هل ذاكرتك ذاكرة صبية ؟ ومع ذلك فأنت آمر فصيلة الادارة ! اذن ، احضر لى جنديين

من خدمة الاتصال ! مهما كلف الأمر صلنى بقيادة الفرقة . هل فهمت ، يا غولوفانوف ؟ اعطيك عشر دقائق لا غير . أعد امرى !

استقام رئيس الرقباء غولوفانوف بكل قامته غير المتناسقة وبخفة غير منتظرة ، وكرر الأمر ، وقفز على المتراس بسرعة ، وطبطب كالفيل مبتعدا من موقع الرماية الى نقطة المراقبة التابعة للبطارية .

ضغط كوزنيتسوف على أخمص بندقيته الاوتوماتيكية الموضوعة على ركبتيه باصابعه التى كانت تفقد حاسة اللمس ، وقال اخيرا :

ـ اسمع ، يا درزدوفسكى ، لقد تأخرت هذه المرة كشانك دائما . انا واوخانوف اتخذنا قرارنا بالذهاب . وفى امكانك ان تطمئن . هىء جهاز اللاسلكى ، وابلغ . .

ـ أين الجريح ، يا اعزاء ؟

لم يكمل كوزنيتسوف كلامه ؛ فقد دخل روبين ، أو بالاحرى ، تدحرج على رجليه القصيرتين الى موقع الرماية فى خشخشة من الثلج ، ولهاث متقطع ، وفى الحال لمع معطف زويا الفرائى مثل بقعة بيضاء . وقد

رن صوتها فى الهواء القارس رنينا زجاجيا ملحنا ، وانقطع على الفور . ثم تحركت بقعة المعطف البيضاء فوق الأرض الى يسار المدفع ، وعاد صوت زويا الى الظهور ، فى رنة أخرى هذه المرة :

ـ اترك القصعة ، يا اوخانوف . انه جريح . اعطينى سكينك . . . امسك قدمه بهذا الوضع ، ساقطع حذاءه . فقط بحذر ، امسك من الكعب ، انظر ، فقد انتفخ من تجمع الدم .

« امن المعقول أن تشيبيسوف قد اصابه » ؟ ـ فكر بذلك كوزنيتسوف وقد تصور هذه السخافة الممكنة الوقوع ، وصك على اسنانه الى حد الألم . وقد عرف ما يفعل الآن ، وأى أمر سيصدر ، ذلك لأن الانتظار كان مستحيلا . كان البرد يخدش وجهه مثل ورق صنفرة ، وقد تجمد ظهره وصدره ويداه على البندقية ، ـ وكان يجب القيام بعمل ، المخاطرة ، كان يجب ان يتحرك فى الحال على الاقل ، ورغم كل شىء .

وكان ، على اية حال ، واثقا من أنهم سيقطعون هذه الامتار الخمسمائة تحت غطاء الدبابتين المحترقتين

امام البطارية ، ويصلون الى الناقلتين المصفحتين المحطمتين اللتين تقع فى مكان خلفهما حفرة القنبلة التى أحتمى فيها رجلا الاستطلاع . ولكن هل هما على قيد الحياة هناك ؟ . . ولماذا أنقطع اطلاق الرصاص الى الأمام فجأة ؟

« نعم ، الآن . . . فقط ألا نلتقى بألمان فى طريقنا الى حفرة القنبلة ، وألا نكتشف عن انفسنا مقدما ! وأن نصل دون اطلاق نار » .

ضرب قرص البندقية الاوتوماتيكية بجمع يده حتى دون ان ينظر الى درزدوفسكى ، ونهض ، وسار نحو الحفرة شاعرا بفراغ خفيف فى صدره ، ونادى بصوت خفيض مبحوح :

ـ اوخانوف ، روبين . تزودا بالقنابل اليدوية وبندقيتين ، وتعالا الى !

صار اوخانوف وروبين الآن واقفين الى جانبه فى الحفرة ، كان كلاهما يعبئ جيوبه بالقنابل اليدوية منهمكا صامتا ، ومعطفاهما يخشخشان وهما يمسان الارض المتصلبة .

ـ الملازم كوزنيتسوف !

أقبل درزدوفسكى سريعا ، وصار على بعد خطوة منه ، مشدودا كله كالوتر ، على عادته دائما ، متهيئا لاتخاذ عمل ، ملموسا ، متسما بالبرود ، كما كان من قبل فى القطار ، واثناء المسيرة .

قال مؤكدا ومصمما :

ـ اسمع ، يا كوزنيتسوف ، يجب الخروج الى رجال الاستطلاع فى جماعة كبيرة . لا يستطيع ثلاثة اشخاص أن يحملوا ثلاثة . أنا سأذهب أيضا ، مع رجلين من رجال الاتصال . سأذهب فى اثركم ، على يمين الناقلتين المصفحتين المحروقتين .

اجاب كوزنيتسوف بنفور بارد :

ـ يمكنك أن لا تقلق ، يا آمر البطارية . لئن بقى هنا أحد على قيد الحياة ، فسنستطيع حمله .

ـ لا ، لست قلقا ، يا كوزنيتسوف ! ولكنى سألحق بكم ! ـ قال درزدوفسكى . واختلج منخراه ، ورفت رموشه الانثوية ، وتطلع فى كوزنيتسوف من رأسه حتى قدميه .

وفى غضون ذلك دبت حركة قرب المدفع ، ولاحت شخوص فى الساحة ، ومرت زويا ونيتشايف يحملان

على ايديهما رجل الاستطلاع باتجاه الشاطئ ، وقد ضمدت ساقاه تضميدا سميكا جدا وسمع كوزنيتسوف همسة خفيفة كالنسمة ، لا يكاد يتبينها :

— مع السلامة ، يا اولاد . عودة ميمونة ! عسى أن لا يصيبكم سوء !

ولم يرد كوزنيتسوف عليها .

الفصل التاسع عشر

كانت الحفرة التى اضطر رجال استطلاع الفرقة الى الاحتماء بها عند تأخر عودتهم من حملة الاستطلاع ، ومداهمة المعركة لهم ، حفرة هائلة من تلك الحفر التى تخلفها القنابل ، واقعة على بعد مائة متر من الوهدة . والظاهر أنها ، فى بداية المعركة كانت تدخن سوداء رهيبة فاغرة الشدق بعد الغارة الجوية ، وسط بياض السهب المشمس ، فكانت الدبابات ، وهى تهاجم من الوهدة تتحاشاها ، مصعدة فى المرتفع ، ثم مرت الناقلتان المصفحتان بها على بعد بضعة أمتار ، وكانت

مدافع البطارية تصوب النار عليهما تصويبا مباشرا ، فأحرقتهما بسرعة .

عندما أندفع كوزنيتسوف وروبين الى حافة الحفرة ، ورأيا من الأعلى فى قاعها الرمادى الداكن اوخانوف ، الذى كان قد أرسل قبلهما للاستكشاف ، منهمكا بشىء فى بطن القاع ، كان يشغل بال كوزنيتسوف شىء واحد هو : هل بقى احد من المستطلعين سالما وهل هما هنا ؟ نزل راكضا على المنحدر الشديد ، ولهث بالكاد :

— احياء ؟

اجاب اوخانوف :

— هنا ، اثنان . . .

كان هذان الاثنان يرقدان فى قاع الحفرة ، متماسكين وكأنهما الى الابد . وكان اوخانوف ، وقد جلس القرفصاء ، يبذل جهودا شديدة فى محاولة عابثة لفكهما ، وفصل جسديهما ، وكأن أحدهما ملحوم بالآخر . كان يمسك بكتفيهما ، ويدفعهما كليهما . والعجيب أن علائم حياة واهنة ما تزال تبدر منهما . فقد طلع بخار انفاس من قلنسوة أحدهما

التى حبيها الجمد بكثرة ، وكان هذا يرتدى مريول تمويه . وتحولت الى اوخانوف عيناه اللتان لا تكادان تقيان تحت طبقة كثيفة من نديف الثلج ، وتقلص حاجباه وانفرجا مثل اسروعين سميكين مزغبين ، وخرج من حنجرته نحيط مبهم .

— فك يديك ، يا فتى ، فك يديك ! نحن جماعتكم . روس ! هل تعى ؟ — قال اوخانوف مقنعا — والآن ، انظر الى ، يا اخ !

وقال روبين حائرا :

— قل لى بحق الرحمة ، ان صاحب المريول هو من رجالنا ، وذاك المانى ، على ما يبدو ؟ أنظر ، انهما يتنفسان . يا للعجب !

اعلن اوخانوف :

— الثانى المانى ، يا ملازم . انظر !

وفى تلك اللحظة فقط ميز كوزنيتسوف بصعوبة الواحد عن الآخر — رجلين يرقدان متماسكين فى قاع الحفرة فى احتضان متيبس . وهذان الرجلان هما أحد رجال الاستطلاع ، والمانى بادى الضخامة مكتتز يرتدى قبعة فرائية ، ومعطفا ابيضين تماما مما تراكم

عليهما من ذرات الثلج كحبات الملح الكبيرة . كانت يدا الالمانى المقفزتان ملويتين على ظهره ، ووجهه الابيض العظمى اللون قد حجب الى النصف بياقته الفرائية ، ولم يكن فمه قد ألقم بما يمنعه من الصراخ . وعندما أحس بوجود اناس بالقرب منه اكتفى بارسال حشرجة ، دون ان يفتح فكيه المدورين الشبيهين بشدقى كلب كبير ، داسا خده فى الثلج . وقد برزت أبر ثلجية صغيرة كالشوارب الطويلة المبللة من منخريه الواسعين المنتفخين .

— يا فتى ، أطلق يديك ! نحن من جماعتك . هل فهمت ؟ جئنا عليكم . . .

واخيرا استطاع أوخانوف باستعمال القوة اطلاق الالمانى من بين يدى رجل الاستطلاع الماسكتين به كالطوق ، وكان الرجل يئن انينا لا يكاد يسمع — واغلب الظن أنه كان خلال ساعات كثيرة يحتضن هذا الأسير من ظهره محاولا الاحتفاظ بآخر دفء فى جسده وفى هذا الأسير . وقال اوخانوف لكوزنيتسوف وهو ينحى رجل الاستطلاع قليلا :

— الالمانى قوى ! أما الفتى فأمره مشكوك فيه .

ولكن اللعنة لماذا لم يخلع عن هذا الكلب معطفه ؟ توجد بطانة من الفراء ، انظر ، يا ملازم ! أكان يرعى هذه التحفة الثمينة ! هل نفك يديه ؟ الآن ، لن يهرب . . .

قال كوزنيتسوف مستعجلا :

ـ اين الثالث ؟ انا لا اراه . لقد قال ذلك الشاب ان هناك رجلين من رجال الاستطلاع . اسرع ، يا روبين ، الى الاعلى . ربما انسل الى هناك ؟ فتش قرب الحفرة !

نظر كوزنيتسوف الى رجل الاستطلاع الذى كان مستلقيا على ظهره دون صوت ، وقد انحدرت قلنسوته حتى عينيه المغمضتين وكانت مغطاة بالجليد مثل قناع من السكر ، وكان مريول التمويه كله ممزقا على صدره وعند البطن ، ولا وجود للحزام ، وكان الثلج فى تمزقات المريول يتجمد على السترة المبطنة كاللزقة . وقد انفرجت ساقاه اللتان بدتا ، وهما فى البنطلون المبطن ، مثل قطعتين من جذع الشجر ، وتلطخ حذاؤه الطويل بالتراب المعجون بالثلج . وكانت أحدى الساقين بارزة على نحو خاص ، وقد لفت بشىء عدة مرات عند الركبة ، وكان يتدلى من الركبة الى الثلج كاللسان شىء

ملوى دقيق يشبه حزاما متجمدا . كان ذلك حزام الوسط بالفعل ، مشدودا كالحبل المفتول تحت الركبة على ضمادة غير متقنة شدت على عجل ومنذ وقت طويل فوق البنطلون المبطن مباشرة . والظاهر أنه لم يخلع حذاءه ، ولم يقطع بنطلونه ، بل أراد أن يوقف الدم بحبل مفتول .

والظاهر أنهم جميعا ، وقد وصلوا الى القرية فى الصباح الباكر ، قد اصطدموا بالالمان ، وبالكاد وصلوا الى هنا ، حين بدأ القصف . ولكن اين السلاح ؟ وكم كان عددهم ؟ واين الثانى ؟

لم يكن فى الحفرة سلاح رجل الاستطلاع . كان هناك قراب مسدس أجنبى ضخم مع حزام على منحدر الحفرة منتزع من المانى ، كما يجب ان يفترض ، وقد أندفن الى النصف ، وبرزت حافته من كومة ثلجية . اخرج كوزنيتسوف القراب من الثلج وكان فارغا . وقد رماه ثم أنحنى على رجل الاستطلاع ، وحاول أن يزيح حافتى القلنسوة عن وجهه قليلا ، ولكنه لم يفلح . كان كل شىء قد تجمد على وجهه ، كل شىء كان فى قشرة صلبة ، ويخشخش . سحب

كوزنيتسوف يده ، وقال وأمله خفيف فى سماع رجل الاستطلاع له :

— اسمع ، يا شاب . نحن قومك ، روس . . . كنتما هنا اثنين . فاين الثانى ؟ الى اين ذهب الثانى ؟

الا أن ما استطاع ان يحدسه فى النحيط المكره من خلال القلنسوة لم يكن من الممكن ضمه فى كلمة معقولة . ان هذا النحيط كان مؤلفا من مقطعين :

— الـ ما . . . الـ ما . . .

ودار فى خلد كوزنيتسوف : « المانى ؟ » هل اراد ان يقول شيئا عن الالمانى ؟ أم يعتبرنى المانيا ؟ »

وتردد صوت اوخانوف :

— هل نبدأ باخراجهما ، يا ملازم ؟ هل علينا أن نحمل على اكتافنا هذا الاحمق الضخم ايضا ؟ أنظر اليه ، ماذا يفعل ؟ هل جن أم توحش ؟ هل اسدد له ضربة بين عينيه ، ليهدأ ؟

ولم يفهم كوزنيتسوف فى البداية ماذا جرى للالمانى . كان هذا ، بعد أن فك اوخانوف يديه ، يتدحرج فى قاع الحفرة مثل جذع ابيض ، ويضرب الثلج بحذائه الفرائى ويديه بضراوة ، ويدفع رأسه كالمصروع ،

ويلتوى ، ويضرب صدره على الارض ، مرسلا عواء مولولا . وقد تكشرت اسنانه الزرق ، وكأنها من ضحكة لا صوت لها ، واتسعت عيناه بشكل هستيرى . كان بين احتمالين : اما ان يكون البرد قد افقده وعيه ، واما انه يتلمس الدفء ، شاعرا ، ربما ، بفرح وحشى لانتهاء رقاده المعذب فى الحفرة ، وهو بين ذراعى المستطلع الروسى المتحجرتين ، فى انتظار الموت .

— فير فليوختر ، فير فليوختر * ! — تمتم الالمانى بهذه الكلمة الاجنبية غير المفهومة بحشرجة ، وقد ظهر الزبد فى اطراف فمه ، وهو يتقلب من جانب الى جانب . — روس . . روس ! فير فليوختر ! . .

قال اوخانوف وهو يراقب الالمانى بفضول متساهل :

— يبدو أن هذا الالمانى من ذوى الرتب ، وهو يشتم يا ملازم ، ها ؟ فى نوبة عصبية ؟

اجاب كوزنيتسوف :

— يبدو ذلك .

ثم همد الالمانى ، ورقد على جنبه ، واخذت يداه

---

* تعنى بالالمانية : ملعون . المعرب .

المقفزتين بقفازين فرائيين تعبثان فى موضع اسفل بطنه ، وتفتحان طرف معطفه . وتوتر ظهره ، ثم القى رأسه الى الوراء ، مبحلقا عينيه ، وأصدر صوتا نابحا ما بين البكاء والعويل ، ضاربا الثلج بحذائه الفرائى بتململ .

قال اوخانوف للالمانى بسخرية مشفعا كلامه اشارة :

— انفخ فى بنطلونك ، يا المانى ، فستدفأ أكثر . لا أحد يفتح لك فتحة بنطلونك هنا . تحمل ، ايها الوباء الهتلرى . لا يوجد هنا الجندى الخادم الذى يحمل لك ما تبول فيه .

— فير فليوختر روس ، فير فليوختر ! . . ايخ شتيربه * ، روس . . .

— شتيت اوف ! **

أمر كوزنيتسوف بالالمانية فجأة ، متذكرا بعسر الكلمات الالمانية التى عرفها فى المدرسة ، وتقدم من الالمانى الذى همد فى قاع الحفرة ، آمرا من جديد :

— شتيت اوف ! انهض !

* انا اموت (بالالمانية) . المعرب .

** انهض (بالالمانية) . المعرب .

اكتست عينا الالمانى فى وجهه العظمى اللون صلابة الزجاج ، وانخرطتا من أسفل الى الأعلى ، والى جانب كوزنيتسوف ، وتسمرتا على بندقيته . اطبق الالمانى فكيه المصطكين من البرد ، ورد مرسلا من خلال حنجرته صوتا مكظوما . لكز كوزنيتسوف كتفه بالبندقية ، وكرر أمره بالالمانية بحدة أشد :

— شتيت اوف ، شنيل ! بسرعة ! شتيت اوف ، قلت لك !

عندئذ جلس الالمانى مصعوقا ، وحاول النهوض فى الحال ، الا أن قدميه لم تحملاه ، وسقط على منحدر الحفرة على جنبه ، وكأنه احدا قد دفعه . ومرة أخرى أرسل قرقرة ناشجة ، واعتمد على يديه ، ونهض على الأربع ، وانتصب ببطء ، وتريث . ولما انتصب رقف مخلخلا مترنحا ، وكان اعلى قامة من كوزنيتسوف ، ضخما جدا ، متين الجسم ، ممتلئا جدا فى معطفه ذى الحاشية الفرائية ، وهكذا كانت نظرة الالمانى الاجنبية هذه مرئية عن قرب — نظرة تنتظر الضربة ، متحفزة ، وعازمة فى الوقت ذاته وبالارغام ، ان تظل محتفظة باستعلائها .

— سترافقه أنت ، يا اوخانوف . الظاهر أن هذا الخنزير له اعتبار !

قال كوزنيتسوف ذلك بشعور قارص مدغدغ لأن أمامه ، وبهذا القرب ، يقف هتلرى حى مقيت حتى ولو مر فى المخيلة . نعم ، انه كان يتصورهم جميعا على هذه الشاكلة ، ولهذا لم يكن يشك الآن ، ولو للحظة واحدة ، فى أن فى نفس هذا الاسير لم يبق أى شىء طبيعى انسانى يتصف به الناس الاعتياديون .

كانت تفصل بينهما هوة الآلام ، والدم ، وتصورات احدهما للآخر القائمة على البغضاء ، والاغتراب وعدم فهم احدهما لحياة الآخر ، ومفاهيم متعادية غير قابلة للتوفيق . ولم يكن بينهما الا الحرب ، والسلاح المعد للاطلاق .

قال كوزنيتسوف فى غيظ :

— ستكون مسؤولا عنه !

— سأوصله ، يا ملازم . سيسير بنعومة الحرير .

أعلن اوخانوف ذلك ، وتقدم ، وتحسس جيوب الألمانى بغلظة ودون كلفة ، وأخرج قداحة ، ومعها علبة سيكارة مسحوقة ، وفك المعطف دون استحياء ،

واخرج محفظة من القميص الذى وسوست عليه النياشين ، وبعد ذلك طوى حافة ردن معطفه المتصلب من الصقيع ، وقال فى شبه تساؤل :

— انظر كيف اعتنى به رجال الاستطلاع . أبقوا كل شىء معه . . . هل آخذ ساعته ، يا ملازم ؟

— اتركها ، عليها اللعنة ! واترك القداحة والسيكائر !

وكل شىء ! — قال كوزنيتسوف ذلك بسرعة وقرف — تأخذ من خنزير فاشى مقمل ! . .

أنزل اوخانوف ردن الالمانى بابتسامة ساخرة قائلا :

— لا يبدو أنه مقمل — ثم فتح المحفظة وقال

— انظر ، يا ملازم أية صور هذه . . ألم تلاحظ ؟.. لدى جميع الالمان صور أطفال كالملائكة ، لا سيما الفتيات . والجميع فى جواريب بيضاء .

— لم الاحظ . اعد له كل شىء .

أمر كوزنيتسوف ، دون أن يبدى أقل اهتمام بالصور ، وكأن لم يكن من الممكن ان يكون فى محفظة الالمانى شىء اعتيادى ، انسانى .

— اجبنى ، يا ملازم : لماذا علينا أن نعاملهم بمثل هذه الحسنى ؟

والظاهر ان الالمانى فهم شيئا . فمع تكرار كلمة « ملازم » أختفى من عينيه فى الحال الاستعلاء المتوتر ، وحل محله رجاء غير واثق . فمال الى ناحية كوزنيتسوف ، ذلك الفتى الروسى ، المقطب ، الآمر بغيظ ، وقال بالالمانية :

— سيكائر . . . سيكائرى ، يا هر ملازم ! تدخين ، تدخين . . . اريد ان أدخن ، يا هر ملازم ! ادخن !

ومرة أخرى لم يطق الوقوف على قدميه ، فجلس على مؤخرته على الثلج ، ناظرا من الاسفل الى كوزنيتسوف ، محركا رقبته ، فعل من يجد عسرا فى ابتلاع ريقه ، الا أنه ابتلع ريقه بتشنج .

قال كوزنيتسوف بازدراء :

— اعطها له . انه يريد ان يدخن ، الا ترى ؟

وتقدم من رجل الاستطلاع مقطب الجبين . كان هذا الاخير ما يزال يرقد على ظهره ، فى وضعه ، السابق ، وقد انفرج ساقاه ، وكانت نفثات من البخار تخرج مثل غمائم صغيرة واهية فوق القلنسوة المسحوبة على وجهه . كان ينبغى نقله من هذا المكان فى الحال ،

وكان من المستحيل على المرء تصور القيام بذلك دون ان يوجع ويثير رجله الجريحة المشدودة بالجديلة .

« ولكن أين يمكن أن يكون المستطلع الثانى ؟ ربما اخطأ ذلك الشاب ، على اية حال ! اين روبين ؟ »

كان اعلى الحفرة كله ، من الحافة الى الحافة ، يرسل دخانا كثيفا مدوما فى عصفات الريح الارضية الكاسحة التى كانت تنار من الأعلى بالتوهجات المنتظمة للصواريخ التى لم تكن ترى من قاع الحفرة . الخفق الصارف لذرور الثلج المتطاير الى الاسفل ، على منحدرات الحفرة والطنين الطليق السهبى للريح الارضية فى الأعلى ، فوق الحفرة ، فوق السهب الليلى ، وعلى بعد مائتى خطوة يوجد الالمان بدباباتهم ، ومواقعهم ومن فيها من مراقبين فى طرف القرية . وروبين لا يزال غائبا .

وفكر كوزنيتسوف « آن لنا ان نذهب ! من المستحيل الانتظار . . . يجب ان نعيد روبين ، ونعود ! لا تجوز المجازفة أكثر ! » وفى نوبة خاطفة من القلق ، والغم الحانق من جراء احساسه الطويل بالخطر على نفسه ، وعلى الآخرين ، هم ان يقول

لاوخانوف يجب حمل رجل الاستطلاع فى الحال ، الا أنه لم يلحق أن يقول ذلك .

ان صلية رشاشة مزكومة كأنما أنطلقت قرب أذنه جعلته ، بالغريزة ، يندفع الى فوق على منحدر الحفرة . لم يلحق الا أن يلوح بيده لاوخانوف آمرا اياه بأن يبقى فى مكانه الآن . وعندما صعد الى الاعلى ، فى غمامة الثلج المتلوية فوق الحفرة كان أول ما خطر له هو أن روبين اشتبك مع الالمان .

كانت الرشاشة ذات العيار الكبير تطلق نارا سريعة من طرف القرية بصوت مدو ؛ وكان كل شىء مضاء بعاصفة الصواريخ المثارة فوق طرف القرية . الا أن احدا لم يكن يشاهد الى يسار الحفرة وهى الجهة التى كان الالمان يرمونها .

نادى كوزنيتسوف رافعا جسمه على كوعيه :

— روبين ! روبين ، تعال الى .

فى تلك اللحظة ظهرت من وراء كثبان الثلج اشباح أناس غير واضحة ، على بعد حوالى خمسين مترا الى يسار الناقلتين المصفحتين ، وركضت بضع خطوات نحو الحفرة ، ووقعت فى الريح الارضية ، وتغطت فى

الثلج ، بينما كانت خطوط الطلقات من العيار الكبير تنطلق وتشتعل خاطفة كالبرق ، فى الموضع الذى كانت تركض فيه هذه الاشباح .

وفكر كوزنيتسوف انه درزدوفسكى ! ولكن لماذا لم يأت من ناحية الناقلتين المصفحتين ! الم يكن ذلك واضحا ؟

— الى اليمين ، الى اليمين ! زحفا الى هنا ! —

صاح كوزنيتسوف رافعا جسمه على كوعيه اعلى من ذوى قبل ، ليراهم على نحو احسن .

دبوا نحو الحفرة ، بينما تحولت صليات الرشاشات خلفهم ، وقد زادت من انخفاضها فوق السهب ، فى قطاع واحد ضيق بين الناقلتين والحفرة ، غير تاركة اياهم يرفعون رؤوسهم . وعلى بعد نحو من عشرة امتار من حافة الحفرة صاح من فى المقدمة ، قاذفا بنفسه :

— ملازم ! نحن هؤلاء . . .

ولمح كوزنيتسوف فى الشجيرات الصغيرة الى الامام ، روبين ، بكتفيه الضخمتين الملطختين بالثلج ، ثم لحظ الى اليسار درزدوفسكى يزحف نحو الحفرة بخفة مثل عظاية دقيقة سريعة ، ومعه جنديان للاتصال

من فصيلة الادارة ، والى جانبهم لمع بغرابة تحت قبعة بيضاء وجه معروف بشكل يقطع كل احتمال ، وغير معروف أيضا ، وجه لا يمكن أن يكون هنا ، وجه زويا الذى كان متهللا على نحو خادع ، لاجتيازها الخطر . كان وجهها الآن يبدو وكأنه يقول انها لم تكن قلقة قط من ان فى الامكان ان تجرح او تقتل هنا ، بل بالعكس لم يكن فى كل هذا اى خطر .

وفكر كوزنيتسوف مع نفسه « لماذا أخذوها معهم ؟ من تسعف الآن ؟ لماذا هى هنا ؟ » ولم يكن مندهشا بقدر ما هو مغتاظ من مجيئها الى هنا بلا ضرورة ، وعندما رآها تصاحب بعينيها مسار الطلقات فوق رأسها دون أن يتغير التعبير المرتسم على وجهها ، أوعز حانقا ، ماوحا ببندقيته :

ـ بسرعة ، بسرعة ! الى الحفرة !

صاح روبين مكظوما :

ـ بحثت ، يا رفيق ملازم ! . . بحثت فيما حولنا ، زاحفا طوال الوقت على بطنى . . ولم أجد الثانى فى اى مكان . . . زحفت فى كل متر ! . . وتحين منى نظرة فأرى رجالنا قادمين ، كانوا يسيرون الى اليسار ،

لا نحونا . واندفعت اليهم . ولاحظ اولئك . وبدأوا يطلقون النار !

قاطعه كوزنيتسوف :

ـ وماذا كنت تظن ، يا روبين ؟ هل كنت تظن انك جئت الى بيتك لتركض كما تريد ؟ ـ ونطق الكلمتين الاخيرتين بصلابة عدائية ـ دققت لنا الطبول ! الى الحفرة ، الجميع الى الحفرة !

استدارت الاجسام الزاحفة نحو حافة الحفرة ، عجالى متقطعة الانفاس ، مغطاة بالثلج ، ثم اخذ الجميع ينزلون مرة واحدة متدحرجين راكضين ، وسمع صوت درزدوفسكى المتهدج انفعالا :

ـ كوزنيتسوف ، هل كل شىء على ما يرام ؟ رجلا الاستطلاع هنا ؟

لم يكن ثمة داع للجواب . فلم ينزل كوزنيتسوف الى الحفرة ، بل راح ينظر ، وهو متضايق من نيران الالمان المثارة هذه ، باتجاه الشاطئ الى الرمى نصف القطرى للصليات المتلألئة الى يسار الناقلتين . وكانت العودة الى المدفع تقتضى المرور بهما . أحس كوزنيتسوف ، وهو يحفظ فى ذاكرته البصرية ، ويحسب

المنطقة الواقعة تحت الرمى ، أن أحدا بقى على حافة الحفرة ، وزحف نحوه ، وشعر بانفاس متلاحقة ، وهمس قرب اذنه :

ـ جندب ، عزيزى ! . . أنت حى ؟ الحمد لله على انك . . مرحبا ، انظر الى ، يا جندب !

اجاب فى غير ترحاب تقريبا ، ملتفتا اليها ؟

ـ تشاوفنا من قبل . ما الخبر ؟

جلست زويا على مقربة ، منزلة ساقيها فى الحفرة . كانت قبعتها مائلة الى جانب ، والثلج يعلق بشعرها وحاجبيها الطويلين . وكانت عيناها المحولتان قليلا تبدوان بسبب الجمد المتصلب الخشن على اطراف رموشها متسائلتين بشكل غير طبيعى ، متسعتين انفعالا . وكان فى انسراح قبعتها الى جانب ، وفى شفتيها المبتسمتين شىء صبوى ـ متحد .

ـ مرحبا ، يا جندب !

كررت قولها بنفس الرقة السابقة ، ناطقة فى استمتاع فرح بهذه الكلمة الطفولية اللعوب الخفيفة التى ابتكرتها ، ونظرت الى وجهه المتعبس عن قصد ، المتظاهر بعدم الفهم .

ـ أى « جندب » أنا ؟ يبدو أنك جئت لنقلنا ، نحن الجرحى ؟ يا للسخافة ! من طلب اليك أن تزحفى الى هنا خمسمائة متر ؟

ـ لا تصرخ على ، يا جندب ـ وانفرجت شفتاها المتورمتان ، وابتسمتا من جديد ـ أنا ممرضة اسعاف ، على اية حال ، ولست زوجتك غير المحبوبة . لا ، يا جندب ، أنت لا تريد أن تصرخ على ، صحيح ؟ ولكنك تصرخ لسبب ما ! أصبحت تأمر على ، يا جندب . وهل أنا مأمورة لك ؟

أمرها قائلا :

ـ انزلى الى الاسفل ! يوجد هناك رجل استطلاع جريح . ولكن لا داعى لتغيير ضمادته الآن ! يجب نقله اولا ! انزلى وسنغادر فى الحال !

وأنتظر بمظهر لا يلين نزول زويا الى الحفرة ، ونادى :

ـ روبين ، تعال !

ـ هل سنغادر الآن ، ايها الرفيق الملازم ؟ ـ سأل روبين بتشكك ، وهو يتقدم نحوه ، وسعل نافثا بخارا كثيفا ، وسأل : الا ننتظر قليلا ؟ ارتعبوا كثيرا . . .

— سننتظر ريثما يهدأ الوضع . ولهذا راقب انت هنا !

وبعد أن صدر كوزنيتسوف هذا الأمر ، زحف من حافة الحفرة ، ووقف على منحدرها ، ونقل البندقية الى صدره ، ونزل الى الاسفل .

وكأنهم جميعا كانوا فى انتظاره هناك . كان جنديا الاتصال بقبعتيهما المربوطتين تحت ذقنيهما مستلقين على الثلج استلقاء ، مهدئين انفاسهما بعد زوال الخطر ، وبين الحين والآخر كانا ينظران بقلق ، وبمؤخر عينيهما الى رجل الاستطلاع الجريح ، والى زويا ، والى الالمانى الاسير ، الذى كان يجلس بالقرب من اوخانوف ، حانيا رأسه بقبعته العالية ، على قدميه ، مسبلا يديه المقفزتين على جانبى معطفه ذى الحاشية الفرائية . أدارت زويا ظهرها اليهما ، وركعت على ركبتيها ، واخذت تتلمس رجلى المستطلع المنفرجتين السميكتين بشكل شائه ، الا أنها لم تفتح محفظتها ، ولم ترفعها عن فخذها . والظاهر أنها لم تزمع تجديد الضمادة هنا . كانت فقط تحدث المستطلع همسا .

بينما اعتصم الآخرون بالصمت ، ملقين اسماعهم الى لعلعة الرشاشة القريبة المتواصلة .

كان درزدوفسكى يقف بين رجل الاستطلاع الجريح والألمانى ، معدلا الحزام بقراب المسدس الذى انحرف الى الخلف من الزحف الطويل على الثلج ، وينظر فى تردد الى هذا تارة والى ذاك تارة اخرى وفى الضوء الباهت كان نفاد الصبر يبدو على وجهه الشاحب النحيل المنفعل .

عندما رأى كوزنيتسوف ينزل الى قاع الحفرة تقدم منه ، وسأل فى شىء من التعنت :

— أين رجل الاستطلاع ؟ كان يجب ان يكون هناك اثنان مع الالمانى ، كما فهمت ! فاين الثانى ؟

— ومن يستطيع أن يعرف اين ؟ ! بحثنا حول الحفرة ولم نجده .

اجاب كوزنيتسوف وكأنه لا يخاطب درزدوفسكى بل اوخانوف الذى كان جالسا بالقرب من الالمانى ، يمسح بكم سترته الصقيع من على ترباس بندقيته باهتمام عميق . وأكمل كوزنيتسوف قوله :

— لا أظنه ذهب الى الالمان ! فى الأرجح انه

زحف الينا ، ولكنه استنزف قواه . اما أنه انحصر فى منتصف الطريق ، واما أنه وصل الى خنادق الحراسة الأمامية . واحد من احتمالين .

قال درزدوفسكى بترخيم صوتى :

— يجب البحث ! لا بد من البحث ! والعثور عليه ، يا كوزنيتسوف ! اتصلت عن طريق اللاسلكى بنقطة قيادة الفرقة ، واخبرتهم بأننا ذاهبون الى هنا لجلبهما . وهذا ما امرونى به : ارسالهما الى نقطة القيادة حال الخروج بهما ، ودون تضييع ثانية واحدة . ارسلهما مع الأسير الى رئيس الاستطلاع ! اجل ، يجب البحث يا كوزنيتسوف . . . مهما كلف الأمر ! لا يحق لنا الخروج من هنا قبل أن نجد الرجل الثانى !

قاطعه كوزنيتسوف :

— يجب الا نبحث هنا بل ننقل الجميع من هنا ! قبل أن تنور الدنيا ! قبل ان نفقد الجميع فى هذه المصيدة ! أليس واضحا حقا أن الالمان يبعدون عن الحفرة مائتى متر ! ان كل شىء يرى من القرية دون حاجة الى منظار . حالما يهدأ الوضع ، ليذهب الجميع الى الناقلتين اولا ، ثم الى المدفع بركضات متقطعة وراء

الدبابات ! كان يجب البحث هنا من قبل ، لا الجرى فى السهب كالحمقى ! أنتم لم تستطيعوا ان تجدوا مكان الناقلتين !

قال اوخانوف بهدوء ، وهو ينظف ترباس البندقية بيديه :

— أنا متفق معك ، يا ملازم .

كان كوزنيتسوف يلمح الى خطأ درزدوفسكى ، والى تأخر وصوله الى هنا مع جندى الاتصال ، وانحرافه جانبا عن الناقلتين ، واثارته ، على هذا النحو ، نارا المانية كان يمكن تجنبها ، وأثار هذا الضجيج الذى لا حاجة به ، فى اللحظة التى كان يجب فيها نقل رجل الاستطلاع .

وقف درزدوفسكى صامتا برهة عاضا على شفتيه ، ثم تكلم باقتناع لا يدحض :

— ما دمت حيا فأنا المسؤول عن البطارية ! مسؤول عن كل شىء ، يا كوزنيتسوف ، بما فى ذلك حياتك . . .

— بهذا الشكل اذن ! فقط ما عداى يا آمر البطارية ! سأتحمل المسؤولية عن نفسى وعن رجالى ،

بطريقة من الطرق ، اذا اسعد الحظ ! . . رد بذلك كوزنيتسوف دون ان يتمالك نفسه ، وقطع كلامه فى الحال . لم يرد أن يواصل الكلام فى حضور زويا وجندى الاتصال ، ولم يرد أن يظهر أمام الجميع عداءه المكشوف لدرزدوفسكى . وقال :

— لنقف عند هذا ، يا آمر البطارية . تقول : يجب ان نبحث ؟

كانت الرشاشة من العيار الكبير فى طرف القرية تواصل اطلاق النار بانتظام ، شاقة السهب الأجرد الى يسار الحفرة ، والغريب أن أزيز الرصاص الكثيف لم يكن يبتعد ناحية ، بل كان يبدو وكأنه يتجمد فى مكان واحد . وكأن الرشقات كانت تتحسس شيئا قد وجدته ، دون ان تتحرك فى قطاعها .

كرر كوزنيتسوف ، ونظر الى كل من فى الحفرة :

— اذن ، فانت تريد ان تبحث هنا ، يا آمر البطارية ؟

أدار جنديا الاتصال اليه رأسيهما فى هلع ، وانتزع الأسير الالمانى من ركبتيه وجهه العظمى اللون المبقع ببقع التجمد الزرقاء ، وحاول بتقطيبة ان ينفذ الى معنى

كلماته ، ونهضت زويا فجأة ، ونظرت بتساؤل عاجز مفوسة حاجبيها ، وكانت عيناه تبدوان أكثر اسودادا تحت قبعتها المبيضة بالثلج . وفكر كوزنيتسوف كازا على اسنانه « لماذا تتفحصنى على هذا النحو ؟ » .

وقال كوزنيتسوف بهدوء غير طبيعى وغير مفهوم حتى لنفسه :

— اذن ، هكذا تقرر ! سأبقى مع روبين هنا . وسنبحث فى المكان مرة أخرى . أما أنتم فأقلعوا جميعا من هنا ، اقلعوا ما ان تهدأ الحال ، الى الشيطان ! ارشدهم يا اوخانوف ! والا فسيغرقون أيضا فى كوب ماء .

« هذا جنون ، حماقة ! » فكر مع نفسه شاعرا فى دخيلته بعدم التماسك فى قراراته ، ولمعت فى ذهنه فكرة : « ماذا يحدث لى ؟ لم أعد اسيطر على نفسى . أنا أعرف ان البحث عن رجل الاستطلاع غير معقول ، ولكننى أوافق ، بل واريد ان افعل ذلك بنفسى . . . »

— نعم ، يجب البحث . اصدر ، يا كوزنيتسوف ، امرا لروبين بان يعيد البحث مرة اخرى فى المكان . وسننتظر !

وحرك درزدوفسكى الحزام على خصره النحيل مثل خصر الفتيات ، وتنحى عن الجميع ووقف على المنحدر منتصب القامة ، منيعا ، وكأنما لا يخطأ فى أوامره ، وفى عناد الصلب . قال :

— لا يمكن ان يذهب المستطلع الثانى بعيدا . لا يحق لنا ان نقول لقيادة الفرقة اننا تركناه هنا ، ولا يحق لنا ان نعود بدونه ! خذ معك جنديى الاتصال أيضا ، يا كوزنيتسوف !

قال كوزنيتسوف :

هذا زائد . . . نكفى ، نحن الاثنان ! ما الذى يدعونا الى أن نلفت انظار الالمان الى اربعتنا ؟

— يا آمر البطارية . . .

مرت زويا بخطوات حذرة على مقربة شديدة من كوزنيتسوف ، حتى مست معطفه بطرف فروتها ، ووقفت امام درزدوفسكى ، وتحدثت مسترضية ، بصوت راج هادئ :

— يجب أن نحمل الآن رجل الاستطلاع هذا ، على الاقل ، فان حالته سيئة . انه متجمد ، وقد فقد

دما كثيرا . ونحن لا نعرف هل سنجد الثانى حيا ام لا ، ولكن يجب ان نحمل هذا . . .

— انهض ، ايها الحذاء الفاشى ! — امر اوخانوف ، ورفع الالمانى عن الارض بدفعة قوية من يده ، ونهض هو كالدب ، والقى بندقيته على كتفه وقال : هيا ، دس على رجليك ، ارقص ، يا وغد حرك رجليك ، والا فستموت قبل الاوان ! تحرك ، تحرك ، مثل شاب !

كان يدفع الالمانى من جانب الى آخر ، ويحركه فى قاع الحفرة ، وفجأة اطلقه ، وتقدم من درزدوفسكى شاحطا بحذائه أهوج الحركة ، بكل جرمه الضخم ، وأبعد زويا برفق ، الا أنه كان فى الوقت ذاته يبتسم بتراخ ينم عن طيب قلب ، مبديا سنه الامامية الفولاذية .

— هل تعرف كل الحقيقة عن نفسك ، يا آمر البطارية ؟ لم تفكر فى ذلك قط ؟ ابتعدى ، يا زويا ، اتوسل اليك ، والا فسأستحى . . .

— اوخانوف . . . اوخانوف ! — قالت ، ولم تبتعد ، بل بسطت صدرها قليلا ، ولسبب ما حجزت درزدوفسكى

فى ذعر بجسمها الرقيق المتوتر ، مبعدة اوخانوف بعينيها مدافعة قائلة : ماذا تريد ؟ . . لماذا ؟

— ابتعدى ، يا زويا . ماذا يمكننى ان افعل له ؟ اى معنى لذلك ؟ لا أجد اى معنى . أنا رقيب ، وهو ملازم . وقد استظهر كلانا الانظمة العسكرية عن ظهر قلب فى المدرسة العسكرية ، اذن . . .

نحاها اوخانوف برفق تام ، وأنحنى على كتف درزدوفسكى المستقيم ، مثل كتف الرياضى ، وسر له شيئا قصيرا غير مسموع ثم اضاف بوضوح :

— . . . اذا كنت لا تكترث بكل الذين بقوا من رجال بطاريتك ، فانك ، على اية حال ، يجب أن تفكر برأسك ، لا بمؤخرتك . عندئذ ابلغ الفرقة بذكاء .

— ماذا قلت ؟ . . .

قال درزدوفسكى بعصبية مميلا بجسمه الى الوراء ، وقد تشوه وجهه ، وكاد يقع على منحدر الحفرة ، كرر بصوت حاد الى حد الجلجلة :

— ماذا قلت ؟

قال اوخانوف مهدئا ، مبتسما بعينيه فقط :

— اهدأ ، اهدأ ، يا آمر البطارية ! الآن نستطيع

ان نتحدث من القلب للقلب . ليس عندنا درس اصطفاف فى المدرسة العسكرية . والله منا قريب جدا هنا . الله العلى القدير شاهد بيننا . وليس فى الأمر اى خرق للنظام . وأمرك ليس موضع نقاش . فقط يجب ان تعرف رأيى فيك ، يا آمر البطارية . ليكن ذلك فى علمك ، فقد ينفعك ذات مرة ! . .

تدخل كوزنيتسوف بحزم قائلا :

— كف ، يا اوخانوف ! يكفى — وتقدم ، وجذب بدن اوخانوف وقال — يكفى ذلك ، امام الالمانى هذا ! . . انظر اليه . ماذا به ، هل جن ؟

كان درزدوفسكى يقف متصلبا بكل جسمه ، وقد ابيض وجهه ، وبدا وكأنه قد ضمر ضمورا شديدا . بينما كان الالمانى ، كالدمية المنصوبة ، يهتز ببطء وبلادة فى موضع واحد ، محركا حذاءه الفرائى ، وصارت عيناه المتصنتتان ، وكأنما تلتقطان اصوات الكلام الغريب ، وحشيتين ، زجاجيتين ، تنتقلان من اوخانوف الى كوزنيتسوف ، وقد تبين ، على ما يبدو ، ان الكلام كان يدور عنه ، وعن مصيره ، فأخذ يتنفس تنفسا متلاحقا فاغرا فمه ، وكأنما اصيب بنوبة قلبية ، الا

أنه ترنح جانبا فجأة ، وسقط على الثلج منهارا ، باحا كلمات مبهمة كان لا يمكن أن يفهم منها سوى « روس ، شفاين * ، أموت . اتجمد » .

قال اوخانوف :

— الوغد يتظاهر ! لا يريد أن يؤسر . جن من البرد . كوزنيتسوف ، ماذا قال : شفاين ؟

آمر كوزنيتسوف ، واومأ للالمانى بما سورة بندقية :

— انهض ! تحرك ! شتيت اوف ! هيا ، تململ !

لم ينهض الالمانى ، بل ضغط ركبتيه نحو حنكه مرتعصا ، واكتفى بارسال بحيح من فراء ياقته المنتصب ، تقدم اوخانوف منه متظاهرا بالدهشة ، وأمسكه من تلابيبه ، ورفعه الى فوق بحنق شديد ، حتى أن الياقة قد فتقت . وعندما هزه قائلا « سأريك ما معنى « شفاين ! » صرخ الالمانى بصوت محتضر كامد . طوقه اوخانوف كالملزمة ، وسد فمه بكل قفازه . تحول الالمانى الى خوار قبيح ، ملتويا فى يديه .

— أيها البوز الهتلرى ! ستنسى ما هو ال « شفاين ! » سأنسيك امك وأباك !

---

* بالالمانية : خنزير . المعرب .

— اتركه ، يا اوخانوف ! ستخنقه ! . . ماذا تفعلون يا صغار ؟ يا اعزاء ! — قالت زويا فى ذهول وهى تكاد تبكى ، ملتفتة الى هذا تارة ، والى ذاك اخرى — لماذا أنتم خبثاء بهذا الشكل ؟ لا اكاد اتعرف عليكم ، يا صغار . . . ماذا حصل لكم ؟ — ومالت بكل جسمها نحو درزدوفسكى ، وتشبثت بردن معطفه متضرعة قائلة :

— فولوديا ، على الأقل اشرح لهم انك لست على هذه الصورة ! انهم لا يعرفونك ، يا فولوديا !

— ابتعدى ، لماذا تتدخلين ؟ — وانتزع ردنه من بين اصابعها ، وتراجع خطوة ، وكأنما يرتد عن حاجز والتمعت اسنانه عن تكشيرة احتقار — أنا اكره ان تتدخل نسوان الجبهة . . . خير لك ان تهدئى كوزنيتسوف ! فهو طيب ، وانت طيبة ! . . كلاكما عيسى المسيح ! فقط ليكن معلوما لجميع صغارك ، لاسيما كوزنيتسوف ، أنك لن تنامى مع احد منهم ! لا تأملى ، يا اخت الرحمة ! بعد المعركة ستغادرين البطارية الى كتيبة الاسعاف ! لن تبقى يوما واحدا فى البطارية ! ستغادرين حالا !

وصار وجهه الذى غيرته جهامة خبيثة ، متنافرا قبيحا . تراجع خطوة اخرى ، وكانما يريد أن يذلها بذلك ، وهز كتفيه بجموح حانق ، وأخذ يرتقى منحدر الحفرة بسرعة ، حتى تطايرت كتل التراب من تحت قدميه .

وتوقف على حافة الحفرة تماما ، ووقف بضع ثوان ، وصرخ بأمره بصوت ممزق منتزعا مسدسه من قرابه :

— ايها الجنديان الاتصالان ! خذا الاسير الالمانى واركضا ورائى !

وصعد تليلات ترابية ، دون ان ينتظر احدا ، وغاب خلفها .

صمت كل من كان فى الاسفل . بينما اوقفت الرشاشة رشقاتها التى كانت تمشط السهب . وزحفت فوق الحفرة فى الاعلى غمائم بيض من الريح الارضية . وقد رن أمر درزدوفسكى الصارخ فى الأعلى بوضوح صارخ ، فنهض جنديا الاتصال دفعة واحدة ، ودارا من جانب كوزنيتسوف واوخانوف ، ووثبا نحو الالمانى

فى حركة خرقاء ، ومدا ايديهما ، وكأنما اصطادا ارنبا من الجانبين .

اوقفهما كوزنيتسوف بحزم ، حاجبا الالمانى :

— ارجعا ! خذا رجل الاستطلاع ، والحقا بدرزدوفسكى فى الأعلى ! سيأخذ اوخانوف الالمانى ! خذا رجل الاستطلاع الجريح ! — وللاقناع دفعهما كليهما نحو رجل الاستطلاع — رأسيكما سيكون الجزاء اذا لا توصلانه ! زويا !

كان يجب ان يقول لها أن تسير الى جانب اوخانوف ، فان ذلك بالذات سيكون أكثر امنا لها فى طريقها الى المدفع ، الا أن بصره وقع عليها ، وصمت . كانت ساهية عنه غير مصغية اليه ، فى الغالب ، رغم أنها كانت تنظر اليه جاذبة قفازها على اصابعها ، وكانت عيناها جافتين ، متسعتين بشكل لا يحتمل ، وقد تقوس حاجباه الطويلان على نحو مذهل ، وكأنما تتحسس الما غامضا فى داخلها ، دون ان تعرف موضعه بعد .

— يا المانى ، هل تعرف سباق المائة متر ؟ سأرى كيف . . .

اخرج اوخانوف الالمانى الى منحدر الحفرة ، وخشخش بسير البندقية ، وكأنما يعبث به ، لكن دون ان يقول شيئا لزويا ، ولم يستعجلها . بل راح ينتظرها .

قال كوزنيتسوف بحشرجة :

— زويا ، يجب ان تذهبى . الآن هدأت الحال . يجب ان تذهبى . سيرى مع اوخانوف ! هل تسمعين ؟

— نعم ، انا ذاهبة ، الآن ذاهبة — قالت زويا مجفلة ، وخفضت وجهها ، مخفية اياه فى ياقة معطفها ، وتحدثت مع جندى الاتصال ببشاشة زائدة ، وقد جلست الى رجل الاستطلاع : ارجو ان تحملاه بحذر . رجله اليسرى مجروحة . لا تثقلا عليها . ارجوكما ، ايها الصغيران . . .

رفعا جنديا الاتصال رجل الاستطلاع وامسكا جسمه على نحو أروح متلمسين اياه .

قال كوزنيتسوف :

— اذهبوا ! سألحق بكم مع روبين ، اذا تسنى لنا ذلك . . .

— ولكن تحاش الالمان . . . وأبق حيا . لا تفقد صبرك ، والحق بنا ، يا جندب .

رجته زويا ، مبتسمة له من وراء كتفها بضعف وبلا حماية ، وكان بوده الآن ان يتخلى عن الكثير لقاء تفاديه رؤية ابتسامتها القسرية هذه .

قال اوخانوف ، وهو يضغط الالمانى اليه مهددا :

— هيا ، يا المانى ، ارنى بطولتك . سنسير متلازمين بالايدى . قلت : شفاين ؟ الى اللقاء ، يا ملازم .

— سر ، يا اوخانوف . التزم الحذر هناك .

اوصلهما كوزنيتسوف الى حافة الحفرة ، واستلقى الى جانب روبين ، مراقبا اياهما حتى اختفوا وراء شبحى الناقلتين المصفحتين .

الفصل العشرون

— هل فحصت كل شىء بامعان ، يا روبين ؟

— لماذا لا تصدق بى ، يا رفيق ملازم ؟ فحصت كل شىء حول الحفرة زاحفا على بطنى . ولوثت معطفى كله . لعل الريح الارضية قد طرحته اذا كان قد قتل . . . ولكن لا يوجد هنا حتى قتلى . فاين نبحث ؟

— مفهوم ، يا روبين . لنبحث مرة أخرى فى ناحية الوهدة ما دامت الحالة هادئة . لعله اضاع اتجاهه حين كان يزحف فزحف فى الاتجاه المعاكس . . .

رغم ان من الصعب تصور ذلك ايضا . كان فى امكانه أن يعرف باتجاه الصواريخ اين مواقعنا .

— لنكن حذرين جدا قرب الوهدة . ربما الالمان يتمشون هنا ، اذا لم يكونوا نائمين . تفو ! مصيبة ! ساغفو وأنا فى الطريق ، يا رفيق ملازم . يسرى فى شىء ما . والبرد فى جسمى كله ، وجفناى كأنما عليهما ثقل .

— ادلك وجهك بالثلج . ادلكه بقوة أشد .

— أنا ادلكه بلا حدود . وكأننى دلكته بورق الصنفرة ، يا رفيق ملازم . لم انم منذ اربع وعشرين ساعة . فى الليل كله هومت ساعة او ساعتين .

كانا راقدين على حافة الحفرة الخالية ، وحولهما كان الهواء خفيفا أبيض فوق السهب . وكان السكون الكثيف لتلك الليلة الديسمبرية الناصعة نحو الصباح يغشيهما بسنة باردة من نعاس لا يقاوم . وأحس كوزنيتسوف ، وقد استولى عليه خداع هذا السكون

المسيطر حوله ، وصفاء ما قبل الفجر ، والرهق العذب فى دماغه المتعب ، بأن وعيه يتخلى ، رغم ارادته ، عن مقاومة هذا التراخى المهدئ فى جسده المتجمد ، فنزع من هذا الغياب الخاطف المعتم .

— لنذهب الى الوهدة يا روبين — ونهض ، وادرك بعد نهوضه أنه غير قادر على ان يخطو خطوات خمسا ، فان التوتر العصبى بعد ليلة مسهرة ، وقد ارتخى فجأة ، وقد ابعد عنه الشعور بالخطر ، ولفه فى ضباب دافئ . وقف برهة أخرى ، فى هذا الوسن القصير غير الحقيقى ، وبعده كرر قوله « لنذهب ! » اكثر عنادا وارفع صوتا ، ولكى يعيد اليه الاحساس بالواقع الذى كان له قبل حين ، حرك اصابعه التى اصابها التجمد وهى فى القفاز ، ونقر بها على عقب بندقيته ، وقال للمرة الثالثة « لنذهب ، لنذهب ! » مقنعا بنبرة صوته نفسه ، وروبين بأنهما مضطران الى أن يسيرا ، سواء اهذا او ذاك ، وانه يجب عليهما ان يذهبا الى حافة الوهدة تلك .

كان الثلج ينهار تحت اقدامهما ، وكان كوزنيتسوف ، وهو يسير ، يسمع وراء كتفه نخير

روبين المستمر ، وصوت انسحاق قشرة الثلج المتجمد تحت حذائه اللبادى . وعندما نظر فى الخلاء الابيض البارد لليل الذى آل الى هدوء ، وجد نفسه مرة أخرى يفكر فى ان كل ما يفعله الآن لا يفعله هو بل شخص آخر ، وأنه هو وروبين ينفذان أمر شخص آخر ، لا اوامره هو ، وكأنما ذاك تطمين ضرورى . كما كان فى خفقات الريح الارضية الطويلة المتماوجة فى السهب ، وفى العراء الثلجى الهادئ المترنح أمام البصر ، والذى لم تعد تضيؤه الصواريخ تطمين مبهم أيضا ، وسكينة سعيدة قصيرة من الراحة ، بعد الذى حصل قبل وقت طويل ، وزال الآن ، وقد سرى هذا الشىء الدافئ المعتم الى الاعلى مثل غشاء لزج ، ولفه كله .

مزقت سكون الليل صليات جافة صدرت من الخلف ، فجعلت اصواتها كوزنيتسوف ينقذف الى امام . فكر كوزنيتسوف فى الحال ، وهو بين الصحو والنوم ، بين الواقع والوهم أن الطلقات صدرت من الخلف ، وانهما قد مرا دون ان يلحظا الحراسة الامامية الالمانية ، فجعلته هذه الفكرة الأولى يسقط على الأرض

بدافع من الغريزة ، ويصرخ خالعا سر البندقية من رقبته :

ـ الى الخلف ، يا روبين !

الا أنه فى اللحظة التالية رأى روبين يركض اليه من حافة الوهدة .

ـ ملازم ، ملازم ، يبدو ان شيئا قد حصل بجماعتنا ! انظر ! انظر الى الخلف ! . .

ـ روبين ، تعال الى هناك . . . ورائى .

أمره كوزنيتسوف ، وقد سمع لعلعة البنادق الاوتوماتيكية المتقطعة الى الخلف منه ، وانفجارات القنابل اليدوية المتتابعة واحدة بعد أخرى ، ورجع مندفعا الى الحفرة ، باتجاه الناقلتين المصفحتين ، حيث سارت جماعة درزدوفسكى ، مفكرا اثناء عدوه « ماذا حصل هناك ؟ اصطدموا بالالمان ؟ امن المعقول انهم لم يستطيعوا المرور ؟ »

ثم لعلعت الرشاشة الكبيرة العيار الى الخلف صادرة من طرف القرية بصوت مجلجل غليظ ، وهز السهب ، وردت النيران الحياة للسهب كله ، فراح يتسع سريعا ، ويتقلص ، وتراقصت الانوار فوق

رأسه ، وهزت ظلام السماء ودفعته . كان ظلا كوزنيتسوف وروبين ينطان أمامهما منحرفين ، فكان يركضان عليهما ويدوسانهما ، واحيانا كانا هذان الظلان يبتعدان عنهما فى انزلاق شبحى .

— الى الناقلتين ، يا روبين ، يمينا !

صاح كوزنيتسوف ، وقد لاحظ الحفرة أمامهما ، والناقلتين الداكنتين الى اليمين ، حيث كانت الطلقات تخرق الريح الأرضية مثل خطوط منقطة .

ومرة أخرى انفجرت بعض القنابل اليدوية الى الأمام بدوى هش ، وصدر أزيز نحيل لمزيج من الرشقات ، واقترب كوزنيتسوف من الناقلتين لاهثا ، ورأى من هناك كل شىء .

كان بعض الرجال يركضون واحدا وراء الآخر مبتعدين عن الدبابات الالمانية المحطمة الى سيارتين مجتزرتين على المرتفع ، وكانت اشباح أخرى لرجال فى المنخفض تزحف وتلوح داكنة على الثلج فى الخلاء وراء الناقلتين ، وامام مقبرة الدبابات الالمانية ، ومن تلك الناحية كانت بنادقنا تقذف هاتين السيارتين ، والالمان المتراكضين عنها ، بنار سريعة مرسلة دمدمة

عالية الرنين . شغلت احدى السيارتين محركها ، وكانت على جانبيها اجساد متدلية ، واندفعت من مكانها ، وبدأت تستدير ، وتنحت جانبا ، وبقيت الأخرى واقفة ، كما كانت من قبل ، والشرارات تتطاير منها على نحو محموم ، فقد كان الالمان يغطون المنخفض امام الدبابات بنيران بنادقهم الاوتوماتيكية .

— روبين ، صوب نحو السيارتين ! ارم ! —

صاح كوزنيتسوف وهو يضغط اصبعه المتخدرة على زناد الاطلاق بنوع من التشفى ، وأخذ عقب البندقية يضرب كتفه مرتدا ، وراح السهب يهتز فى هذه النار باهرا للبصر . أوقف كوزنيتسوف نفسه بجهد خارق لكيلا يفرغ قرصا كاملا دفعة واحدة .

وبح روبين على مقربة منه :

— اصلال ! ثعابين ! تستحقون الخنق . الخنق بالايدى !

— القنابل اليدوية ، يا روبين ! اقذفها على السيارة ! . . اسرع !

وفى ضوء الطلقات تراقص الى جانب كوزنيتسوف لمعان قرمزى على اسنان روبين القوية ، ووجهه الكبير

المفزع المخمور ، وقد ضغط خده على كرنافة البندقية .
الا أن روبين لم يسمع أمر كوزنيتسوف فى الوهلة الاولى ، على ما يبدو ، وعندئذ ضربه كوزنيتسوف على كتفه ، وصاح بشراسة واحتدام : « القنابل ! القنابل اليدوية ! » وبعد ذلك فقط ، انقطعت رشقة البندقية مبتورة ، وأخذ روبين يفك ويقلب جيب معطفه بيده اليمنى . وبعد أن ابتعد خطوتين عن الناقلة ، سحب الفتيلة مائلا على جنبه ، وقذف القنبلة فى ناحية المرتفع مرسلا شهقة مبحوحة من حنجرته . وتناول قنبلة ثانية حالا ، وقذف بها فى اثر الأولى قذفة مجنونة . وارسل الانفجاران المتعاقبان طرطشة حمراء على منحدر المرتفع . ان القنبلتين اليدويتين لم تبلغا السيارتين .

— أى ، أيها الاوغاد الزلاحف !

واختطف روبين البندقية ، وهو يصرخ بذلك ، واستلقى الى جانب كوزنيتسوف تحت جنزير الناقلة ، ورشق السيارتين رشقات طويلة . ادرك كوزنيتسوف ان كليهما يطلقات كل الرصاصات بسرعة لم يكن عندهما أى قرص احتياطى من الرصاص — ففكر حالا بوجوب التحرك نحو المنخفض ، حيث كانت جماعة درزدوفسكى

مستلقية على الثلج تحت النيران ، رغم أنه كان واضحا الآن انه وروبين يجذبان انتباه الالمان اليهما . الا أنه فى الوقت الذى كان يعى فيه ذلك كانت تبلغ سمعه اصوات طلقات جوابية متناقصة من بنادقنا فى المنخفض . انتزع اصبعه من المرونة الطيعة لزناد الاطلاق ، ورفع جسمه على مرفقيه ، ناظرا الى حيث كانت الطلقات تتناقص قرب الناقلتين المصفحتين .

— روبين ، هنا ! ابق هنا ! . . حول انتباههم اليك ! انا ذاهب اليهم ، الى هناك ! فهمتنى ؟ هل تسمعنى ؟ واحرص على الرصاص ، اقتصد . . . انا ذاهب اليهم . . .

ومن الخلف ، من طرف القرية كانت الرشاشة ذات العيار الكبير تطلق النار على المنخفض ، مغطية بصوتها الراعد الكثيف على نباح البنادق اللاهث ؛ لقد أخذت ثلاث اواربع رشاشات اخرى تطلق النار من نوافذ البيوت الى اليسار اطلاقا سريعا ، وراحت خطوط رصاصها تنطلق قريبة جدا من جنب الناقلتين المصفحتين ، مختفية ، فى كثبان الثلج على المنحدرات .

ركض كوزنيتسوف زهاء خمسين مترا باتجاه

المنخفض ، وهو يسقط وينهض ، ويقع فى حفر القنابل ، وكان الالمان يطلقون النار من السيارتين بذلك الاتجاه تحت اضواء الصواريخ المنتشرة الى الاعلى . وفجأة ثقل كل شىء فيه ، صار كل شىء كالرصاص ، وكأن ثقلا مفرطا جاثيا ضغط على انفاسه . ركع على ركبتيه اثناء جريه عدة مرات ، راشقا المرتقى رشقات قصيرة ، بينما كان قلبه اللاهث يدق فى أذنيه بمطارق صغيرة مرنة ، كاتما اصوات الخارج ، وكانت عيناه تبحثان عن مصادر التوهجات الوامضة حول السيارة على الربوة ، ومع المطارق التى كانت ترن فى أذنيه كانت تقرع وعيه فكرة واحدة ملحة : « لماذا لا يخرجون الى الدبابات ؟ لماذا لا يتحركون ؟ لماذا يستلقون على الثلج تحت النار ؟ يجب التحرك الى الامام ، وراء الدبابات ! »

عندما بلغ المنحدر المتحدر ببطء ، كان اوخانوف أول شخص رآه كوزنيتسوف فى المنخفض أمام الدبابات الالمانية المحطمة . كان اوخانوف يرقد وراء كثيب ثلج على بعد حوالى مائة وخمسين خطوة من سفح الربوة ، يضغط الاسير الالمانى بكوعيه على الثلج ،

وقد ارتمى بصدره فوقه ، وراح يطلق رشقات مقتصدة على السيارة الوحيدة الباقية على الربوة . وكان بعد كل رشقة يزحف يسرة نحو الدبابات ، جارا الالمانى وراءه بجرات قوية ، شاتما ، ضاغطا اياه فى الثلج مرة أخرى ، مرتميا عليه . كان قرص فارغ من الخراطيش مرميا على بعد بضعة امتار من كثيب الثلج .

— اوخانوف ! الى الدبابات ، عدوا ! — استطاع كوزنيتسوف ان يصرخ بالكاد ، وقد اختنقت انفاسه تماما ، واقعا قربه بهبدة قال :

— الى الدبابات عدوا ! . . لا تضيع هنا دقيقة واحدة ! الى الدبابات عدوا . . . اوخانوف ، هل تسمع ؟

ادار اوخانوف نحوه وجها مخبولا مهتاجا ، غريبا عليه كليا ، مأخوذا ، والتمعت سنه الفولاذية الامامية لمعانا احمر .

— ملازم ، اهرع الى آمر البطارية . . . الى زويا ! ارسلت احد جنود الاتصال ، ولكن فى قليل من الجدوى ! هناك جريح على ما يبدو ! سأبقى انا هنا ! انت اليهم ! . .

— من جرح ؟ ماذا ؟

— اذهب اليهم ، يا ملازم ! الى زويا ، اركض اليها !

بلغه صوت اوخانوف مرة أخرى ، مقطعا الى حد انه لم يعرفه ، والتصق اوخانوف بالبندقية ، ضاغطا الالمانى على الثلج بجسمه ، وسدد على السيارة الواقفة على الربوة .

« زويا ؟ جرحت ؟ غير ممكن ! هذا غير ممكن ! »

ودون ان يدرك كوزنيتسوف تماما ما هو فاعل ، والقشعريرة الجليدية تطوق ظهره انطلق بقدمين كأنهما من قطن ، غير مطأطئ قامته ، نحو الاجسام المتحركة المتناثرة فى قاع المنخفض . لم يكن يعى الا شيئا واحدا ، هو أنه قد حدث الشىء الذى ما كان يريده ان يحدث ، والذى لم يحق له ان يحدث ، ولا يجوز أن يحدث . وبهذا الارتياب ذاته ، وبغيظ وحشى دفع بشدة ، بعد ان نزل الى قاع المنخفض ، شخصا منحنيا قرب كثيب ثلج ، لا غط يشغل يديه قرب فمه .

وفهم بغير وضوح أن هذا هو احد جنديى الاتصال ، يقطع باسنانه رزمة الاسعاف الاولى ، وفى نفس اللحظة

رأى على منحدر الكثيب الثلجى ، المعطف الفرائى الابيض الذى يعرفه ، والحذاء اللبادى الأبيض ، ومحفظة اسعاف معفرة بالثلج تماما ، وكل ذلك رآه وكأنما من خلال غشاوة متماوجة .

— ماذا تفعل هنا ، اللعنة !

رد جندى الاتصال بصوت مذعور :

— جرحت . . . ويجب أن نشد لها ضمادة ! انظر ، كيف اصابوها .

كانت زويا راقدة على جنبها ، وقد كورت جسمها ، وقلصت عينيها ، وطوت رجليها ، وكأنها تستشعر بردا ، وضمت ذراعيها على بطنها وكان المسدس الصغير مطروحا قرب ركبتيها المستديرتين المطبقتين الساكنتين ، وكان شىء داكن افزع كوزنيتسوف ، يسيل على الثلج تحتها .

الا أنه ظن فى البداية أن هذا الشىء المفزع الداكن المسفوح على الثلج ليس دما ، ولم يكن فى وسعه ان يتصور ان ذلك دم زويا ، وأنه يرى دمها ، وفى الحال جاهد حتى أن يوحى لنفسه ، ويقول لنفسه لم يحدث شىء قاهر لا يرد ، ولا يمكن ان تجرح جرحا « مميتا » ،

أو تقتل ، ولا يمكن أن تضم ذراعيها على بطنها بهذا الشكل الرهيب المفزع .

— زويا . . . ماذا بك ، زويا ؟

— انها لا تتكلم ، يا ملازم . . . اصابتها صلية بندقية اوتوماتيكية . . . فى بطنها على ما يبدو . . . فى البداية كانت تقول : ابتعدوا ، أنا بنفسى . . . ولم تتركنا نضمدها . . . أما الآن فلم تعد تتكلم — تمتم جندى الاتصال ، وكانت تمتمته تبدو صادرة من بعد سحيق — كان كل شىء هادئا ، ولكن عندما وصلنا الى المنخفض ، اخذوا يطلقون من فوق وبدأت الحكاية . . .

سأل كوزنيتسوف بخفوت غير سامع صوته :

— اين درزدوفسكى ؟ أين هو ؟

— ألا تراه ؟ جالس هناك على الثلج . . . يبدو أنه قد جرح أيضا . . . قذفنا الالمان بالقنابل اليدوية .

— اين درزدوفسكى ؟

سأل كوزنيتسوف مرة أخرى ، وعندما التفت فقط لمح درزدوفسكى على بعد خمسة امتار من الكثيب الثلجى جالسا على الثلج حاسر الرأس .

كان درزدوفسكى ما يزال ممسكا بالمسدس فى يده اليسرى ، بينما كان يضع اليمنى المقفزه على رقبته بين الحين والآخر ، ويقربها من عينيه ، ويتفوه بكلام متقطع مبهم . كان جندى الاتصال الثانى منحنيا يجاهد لانهاض درزدوفسكى ، رافعا اياه من تحت ابطيه من الخلف ، وكانت بندقية حامية ملقاة فى نفس المكان قرب مريول التمويه المتكور المكتسى لونا رماديا ، وهو المريول الذى كان يرتديه رجل الاستطلاع المتجمد .

كان درزدوفسكى ينتزع نفسه ، مقاوما جندى الاتصال ، وراح يقول محموما ، وبالعناد الجارف لن اصيب بصدمة :

— ضمدنى ! . . اين زويا ؟ ضمادة ! انا مجروح ، لتضمدنى هى ! اذهب ! . .

زرر كوزنيتسوف معطفه على صدره آليا ، ودون ان يعرف السبب ، واتجه نحوه آليا ايضا وانحنى عليه ، فرأى الجلد فى اسفل اذنه قد تمزق وتضرج بالدم . وتكلم بشفتين متجمدتين :

— درزدوفسكى ! هل تسمعنى ؟ هل تستطيع ان

تقف على قدميك ؟ قدماك سليمتان ؟ انهض ، انهض ، درزدوفسكى !

ـ اين زويا ؟ اين زويا ، يا كوزنيتسوف ؟ اين ؟ أنا بحاجة الى تضميد ! . .

ـ انهض ، درزدوفسكى ، انهض !

بعدئذ خلع كوزنيتسوف معطفه ، وفرشه على الثلج . وتعاون مع درزدوفسكى على وضع زويا المتكورة على هذه النقالة ، وحملاها بهذا الشكل . الا أنه لم يكن يستطيع النظر اليها ، فقد كان يرتجف ، وكأنما من نوبة ملاريا ، سار درزدوفسكى فى المقدمة ، مهتزا بتهافت وكالمغشى عليه . كانت كتفاه المستقيمتان ابدا قد تحدبتا ، والتوت يداه الى الخلف ، وهما ممسكتان بحافتى المعطف . وكانت الضمادة على رقبته التى لاحت قصيرة تبدو بيضاء بياضا غريبا ، وكانت تسترخى على الياقة ، فكان درزدوفسكى لا يدير رقبته قط ، ويتعذر عليه الالتفات . كان بين الحين والآخر يتمايل كالسكران ، متعثرا كثيرا ، ولم ينطق بكلمة واحدة . غير أن ظهره كان ينتصب احيانا ، ويخرج من حنجرته ما بين الانين والسعال الشبيه

بالجؤار ، فكان هذا الصوت المكتوم يصم كوزنيتسوف بألم يمزق صدره .

وعندما دخلا الشريط الذى تكونه الدبابات الالمانية المحطمة ، حيث لا تصل رشقات البنادق ، سأل درزدوفسكى همسا :

ـ لنسترح قليلا . . . لا أقدر . . . ارجوك ، كوزنيتسوف . . .

وضعا زويا على الثلج ، ومرة اخرى لم يجد كوزنيتسوف العزيمة على أن ينظر اليها ـ كانت لذع التشنج الحادة لا تدعه يتنفس . وقف ضاغطا كتفه على درع مصهور لدبابة المانية ، وقد ارتخت رجلاه ، وكان يود لو يجلس على الثلج ، ويغمض عينيه ، ولا يتحرك ، ولا يفكر بأى شىء . الآن أصبح كل شىء لديه سواء ، فقد كل شىء قيمته ، صار فى لحظة واحدة بلا معنى ولا اهمية ؛ رجل الاستطلاع المتجمد ، والاسير الالمانى ، والليل بعد المعركة ،والبرد ، وحفرة القنبلة قرب الوهدة ـ كل شىء كان يبدو ظلما مريعا لا انسانيا ، ضروريا فقط لكى يحصل هذا . . .

« جرحت فى البطن » كان يفسر لنفسه شديد

الانفعال ، متصورا بطريقة منطقية لا نفع فيها كيف أمكن ان يحدث هذا : « فى بادئ الأمر ، عندما دخلوا الى المنخفض ، هل كانت ترد على النار باطلاق مسدسها ؟ وبعد ذلك ؟ . . . ولكن لماذا هى بالذات ؟ لماذا هى بالذات ؟ »

— يا كوزنيتسوف . . .

وأمسك كوزنيتسوف بطرفى المعطف بشكل آلى ، وكالغائم ، وسار ، دون أن تؤاتيه العزيمة على ان ينظر أمامه ، الى الاسفل ، حيث كانت ترقد هى ، وحيث كان يرف فراغ ساكن بارد مميت : لا صوت ، ولا أنة ، ولا نفس حياة . ولكن لا ، ما زال هنا شىء حى على نحو خادع — احساس يديه بثقل جسدها على المعطف ، وهذا كل ما كان يحسه فى تلك الدقائق التى حملها فيها مع درزدوفسكى الى المدفع .

عندما اوصلاها الى المدفع ، كان وجه نيتشايف يهتز الى الامام فوق المتراس يمنة ويسرة . قفز من ساحة المدفع للقائهم ، وعلى وجهه تعبير مستفهم ابله ، وسار الى جانبهما ناظرا الى زويا ، ثم ألقى على درزدوفسكى وكوزنيتسوف نظرة مستغربة طويلة موقفة ،

وكأنما كان يتوقع أن يشرحا له كيف حصل كل ذلك ، وكيف وقع هذا لها . ولكن لم يشرح أى واحد منهما ، لا درزدوفسكى ، ولا كوزنيتسوف ، أى شىء له .

ظل كوزنيتسوف يحاول تجنب النظر اليها . لم ينظر اليها ايضا حين وضعاها فى المشكاة ، لم يتذكر من اشار اليهما بأن يضعاها هناك ، كيلا تكسو الريح الارضية وجهها بالثلج . وقف ، وقد أنزل البندقية على الأرض ، وسمع ، ولكن ليس فى الحال ، صوتا طيفيا شبيها بصوت نيتشايف يهمس له : « تثلجت كليا ، يا رفيق ملازم ، ستتجمد تماما » . وفى هذه اللحظة فقط ، رأى فجأة ، على متراس المشكاة ، معطفه مبقعة اطرافه ببقع داكنة ، وفكر مع نفسه لسبب ما ، بأنه لن يستطيع بعد الآن أن يضع على جسمه هذا المعطف بآثار دمها عليه ، بآثار موتها .

دندت من كوزنيتسوف همسة :

— لماذا اخذت معطفى ؟ اتركه فى المشكاة . . .

فرد عليه نيتشايف من جنبه بهمس ايضا :

— انت ترتجف بكل جسمك ، وانت فى السترة المبطنة فقط ، يا رفيق ملازم . . . كيف حدث هذا لزويا ؟ كيف جرحت ؟

كانت تجتاح كوزنيتسوف رجفة شديدة ، وكانت اسنانه تصطك اصطكاكا ، وقد تجمد كل جسمه ، ولم تتخل عنه الرغبة فى أن يجلس ، ويغمض عينيه ، ولا يفكر بشيء . فان ذلك هو السبيل الوحيد الى التخفيف ، كما كان يتصور .

القى البندقية عند قدميه ، وجلس على المتراس عند المشكاة — لم يجد فى نفسه القوة على ان يخطو الى مسندى المدفع — وأخذ يمسح ، مرتجفا وجهه بقفازه القذر ، ويشد ويمسد على حنجرته .

وتراءى له أنه يسمع بوضوح وخفوت « جندب . . . الحق بنا . ابق حيا ، يا جندب ! فقط تحاشى الوقوع فى براثن الالمان » .

واخذ يئن فى قفازه ، ولأول مرة عزم على أن ينظر اليها ، فى المشكاة .

كانت زويا راقدة على المشمع الذى فرشه نيتشايف هناك ، وغطيت بطرفه الى صدرها . الآن لم يكن يرى ذلك الدم الذى افزعه . كانت زويا راقدة على جنبها حاسرة الرأس — قبعتها فى الغالب تركت فى المنخفض — كانت تكور جسمها بشدة ، مثل الاطفال ، وكأنما

كانت نائمة ، مستكنة وكأنها مستغرقة فى النوم . وكانت الريح تحرك شعرها الخفيف على وجهها الابيض كالرخام ، الفاقد رواء الحياة . وكان حاجباها واضحين بشكل خاص ، جعلهما عذاب خاطف معكوفين قليلا . كان حاجباها ، ورموشها المتصلبة تبدو وكأنها ترف ، وتهتز اهتزازا خفيفا . فقد كان يمسها ويبيضها النديف الدقيق الجاف الذى كانت الريح الارضية تسربه من المتراس . وقد أنفعل كوزنيتسوف بسرعة ، مغمضا عينيه ، وضغط باصابعه حنكه وشفتاه بقوة زرعت الالم فى جلده تحت القفاز الخشن . كان يخاف أن يفقد قدرة التحمل الآن ، ويفعل شيئا جنونيا ضاريا وهو فى يأسه واحساسه بذنبه البليغ ، وكأن الحياة قد أنتهت ، ولم يبق شيء الآن .

ان شعرها الخفيف هذا كان يخفق على جبينه وعلى عينيه اثر ضربات الانفجارات الحارة ، حين احتضنته ، وانضغطت عليه ، فى البحث عن غوث ، فى موقع دافلاتيان ، وآنذاك ضغطها هو على عجلة المدفع ، حاميا أياها غريزيا من شظية قد تصيب ظهرها ، آنذاك مست برودة جبينها الحية ، ودفء

انفاسها رقبته العرقة ، وخديه . . . وهل كان فى وسعه فى تلك اللحظات ، أن يعلم ما سيحصل لها فيما بعد ، بعد عدة ساعات ؟ وهل كان فى وسعه ان يعلم أنها ستجرح فى المنخفض ، وأنها ستخرج مسدسها من محفظتها ؟

القى شخص معطفا على كتفيه ، وهو ما يزال واقفا على المتراس ، لا يتحرك ، ولا يجيب على صوت ، يبدو أنه صوت نيتشايف مرة اخرى :

— يا رفيق ملازم ، انت ترتجف جدا . يجب أن تذهب ، من الافضل ان تذهب الى مخبأ الجرحى . فهناك موقد مشتعل . . . الجميع وصلوا ، والحمد لله . انظر . . . هل تسمعنى يا رفيق ملازم ؟ انت بحاجة الى ان تتدفأ . اقول عاد الجميع . . .

— الجميع ؟ . . . وصلوا ؟

قال كوزنيتسوف من خلال الغصة الواقفة فى حنجرته ، وكأنما قد ضربته هذه الكلمات « الجميع وصلوا ، والحمد لله » . ورأى فجأة على مقربة منه تعبير الحيرة الكلية مرتسما على وجه نيتشايف المزرق ، وشاربيه الاكرتين ، وهمس بشكل غير مفهوم تقريبا :

— غط وجه زويا . . . عن الريح الارضية . . غطه حالا . . .

نزل نيتشايف الى المشكاة فى رهبة ، وسحب طرف الشمع ، وغطى وجه زويا بحذر ، وخرج الى المتراس .

كان ذلك أروح للنفس ، على ما يبدو . فحاول كوزنيتسوف ان ينهض ، ولم تطعه قدماه ، فانهار مرة أخرى على حافة المتراس عاجزا . فسقط المعطف الذى القاه نيتشايف من على كتفيه ، وانسرح على ظهره .

ان كل ما جعله ، فى هذه الأيام ، فى توتر غير طبيعى ، وحمله على ان يفعل ما لم يكن فى الامكان فعله ، قد ارتخى فيه فجأة . والآن لم يحاول حتى ان ينهض ، بل كان يدلك ويتحسس حنجرته التى بدت وكأنها مشدودة فى انشوطة . ولو بدأت الدبابات الالمانية هجوما الآن ، أو زحف حملة البنادق الاوتوماتيكية على المدفع ، لما سيطر على نفسه ، فى الارجح ، ولما تحرك من مكانه ليصدر أمره ويطلق النار . . .

« لماذا الجميع صامتون ، ينظرون الى ؟ ماذا يفكرون جميعا ؟ وهل رأوا كيف حدث هذا ؟ واين كان درزدوفسكى ؟ لقد كان بالقرب منها . . . »

سار جنديا الاتصال على الربوة مارين بالمشكاة ، يحملان رجل الاستطلاع المتجمد ، الى مخبأ الجرحى ، حسبما فهم كوزنيتسوف ، سارا صامتين ، وقد لويا رأسيهما بارتياب ، الى حيث كانت ترقد زويا مغطاة بالمشمع . ثم قال أحدهما :

« أنتهى أمر الاخت » ، وتوقفا مترددين ، وكأنهما مازالا يتوقعان أنها تستطيع أن تلقى المشمع عنها ، وترد عليهما بابتسامة ، وحركة ، وصوت رنان حنون ، تعرفه البطارية كلها : « يا صغار ، يا اعزاء ، لماذا تنظرون الى هكذا ؟ أنا حية . . . » الا أن المعجزة لم تحدث ، وبقيا واقفين يتفرسان بالمشمع فى المشكاة ، باستفسار وتبلد ، وراوحا بقدميهما ، حاملين بشكل غير مريح رجل الاستطلاع الذى كان يخور خوارا كامدا .

وأرتفع ايعاز اوخانوف مغتاضا :

— اذهبا به ! لماذا تراوحان فى مكانكما ؟

وبعد صمت قال بصوت خفيض :

— وانت ، يا نيتشايف ، لماذا أنت ايضا واقف كالعمود ؟ الق المعطف على الملازم . أو انت ، يا روبين ، ساعد . . .

فتردد صوت نيتشايف مرة أخرى :

— البس المعطف ، ايها الرفيق الملازم .

والقى المعطف على كتف كوزنيتسوف مرة اخرى .

ورن صوت روبين من فوق كئيبا :

— الاحرى بك ان تنهض ، ايها الرفيق الملازم . ستتجمد وانت على الارض .

— دع المعطف . قلت لك لا حاجة . دعه هنا . . . اتركه . . .

الا أنه نهض ، رغم ذلك ، وقد فهم بشكل مبهم من الحاح نيتشايف وروبين أنهما كانا يلاحظان شيئا عليه ، من مكانهما ، يلاحظان شيئا جديدا ، مرعبا ، غير اعتيادى ، لم يرياه من قبل . وشعر بقشعريرة . وكانت اسنانه ما تزال تصطك . وآتى بمحاولات لبلع ريقه ، ولم يستطع ان يتغلب على الضيق الذى يطبق على انفاسه .

وكان كل شىء من حوله قد برز بوضوح فى ضوء الغبش الازرق ، وكان سكون قبيل الصبح المشدود قد خيم على موقع الرماية ، والسهب ، وعلى الدبابات المحروقة . وكان اوخانوف وروبين المبيضان من قدميهما

حتى الرأس بما علق فى ثيابهما من ثلج ، الا أن وجهيهما كانا اسودين من سخام البارود ، يجلسان على مسندى المدفع ، واضعين على ركبتيهما البندقيتين اللتين ما تزالان حاميتين ، وكأنما يدفئان اصابعهما عليها ، دون ان يخلعا القفازات . وكان كلاهما يثبتان بصرهما فى كوزنيتسوف .

وعلى بعد خطوتين منهما كان الالمانى مستلقيا على جنبه فى ساحة المدفع ، وقد تسربل أيضا فى الثلج كلية ، ويداه مربوطتان الى ظهره بحزام . كان ينخر متوجعا ، مطأطئ الرأس ، وكأنما يرجو شيئا ، ولكن احدا لم يطلق يديه . لم يكن يسمع ، ولا يلاحظ . وكأنه غير موجود . فلم تكن لنشجاته الآن ، ولا لخوفه ، ولا لعذابه ، أية أهمية ، ولا أية قيمة . ودهش كوزنيتسوف دهشة خاطفة من بقاء هذا الالمانى حيا ، ومن نشيجه ، وطأطأته لرأسه بهذا الشكل الحى ، هنا ، بالقرب من المشكاة ، حيث كانت ترقد زويا مغطاة بمشمع . وفكر بنوبة مفاجئة من الحنق « انهم قد حموه ، ولو كنت أعرف لما حدث ذاك ! هل شاهد درزدوفسكى كيف جرحت ؟ . . »

نادى كوزنيتسوف « يا آمر البطارية ! » وتقدم نحو الخندق مترنح الخطو ، مناديا « هل تسمعنى ، يا آمر البطارية ؟ »

كان درزدوفسكى واقفا فى نهاية الخندق يدير له ظهره ، ولم يرفع رأسه . وكانت الضمادة التى شدها جندى المخابرة على عجل فى المنخفض تلمع بيضاء غريبة على رقبته ، جاعلة اياها تبدو اكثر سمكا ، مخفية كتفيه ، وكانت دفتاه تلوحان من تحت معطفه محدودبتين ناتئتين ، بينما كانت ذراعاه ترتخيان .

سأل بخفوت :

— ماذا تريد منى ؟

— فقط ان أعرف . . هل كنت تسير مع زويا ؟

— كنت اسير معها .

— هل رأيت كيف جرحت ؟

— جرحنا سوية .

— ومتى اخرجت المسدس ؟ هل أطلقت النار ، يا آمر البطارية ؟

— مسدس ؟ اى مسدس ؟ عم تسأل ؟ — واستدار ، ولاحت عيناه الزرقاوان النديتان مستديرتين

فى وجهه البيضوى – ماذا كان لك معها ، يا كوزنيتسوف ؟ . . لقد حدست . . . عرفت ماذا كنت تبغى ! ولكن عبثا كنت تأمل فى شىء ، عبثا ! . .

وكان فك درزدوفسكى يختلج وينط ، فقد اصيب بصدمة ، فكان ينطق بهذه الكلمات بهوس انسحاق وغيرة لا معنى لها الآن اطلاقا ، حتى ان كوزنيتسوف اتكأ على حائط الخندق ، وأغمض عينيه ، فقد كان من المستحيل رؤية نظرة درزدوفسكى المريضة الشاخصة ، وتلك الضمادة المنسرحة على رقبته ، ولطخات الدم على ياقته . قبل ثانية من الزمن كان كوزنيتسوف مستعدا لأن يفهم ، ويصفح ، وينسى الكثير مما كان بينهما ، الا أنه اعاده الى نفسه كون درزدوفسكى لم ير كيف قتلت زويا ، وقد جرح معها ، وغيرته هذه التى لا تحق لأحد الآن . بعد فترة قصيرة قال بصوت اجش :

– الافضل الا تجيب ، يا آمر البطارية ! – وأبتعد ، لكيلا يسأل ، ولكى يطفئ فى داخله الاحتدام المضطرم ضده ، ولكيلا يسمعه ، ولا يراه ، ولا يواصل الحديث معه .

– كل ذلك بسبب هذا الوغد ! كل ذلك بسببه ! . . بسبب هذا الوضيع صرعت .

وفجأة دفعت كوزنيتسوف لكزة مرفق قوية ، ووثب درزدوفسكى من الخندق مندفعا ، وكأنما انتابته نوبة ، وقد تلوى فمه ، وقفز الى الألمانى المستلقى قرب المتراس ، المولول فى ياقته ولولة ممطوطة – واندلعت صيحة فى موقع الرماية :

– خنزير ! . .

كانت كتفه تهتز بلهوجة ، وظهره يرتج ، وكانت يده تجاهد لتنتزع المسدس من غمده . فهم كوزنيتسوف ما تعنى هذه الحركة ، فاندفع وراءه .

– قف ! قف ! الى الوراء !

وبالكاد لحق ان يمسك بكف درزدوفسكى ، واستطاع ان يدفعه ، وكأنما صبت فيه كالرصاص قوة هوجاء ، فأرتطم خصر درزدوفسكى فى حافة الخندق وانتصب دفعة واحدة ، وقد أبيض وجهه الملتوى .

– ابتعد ، يا كوزنيتسوف ! ابتعد ! . .

وثب اوخانوف وروبين نحو درزدوفسكى ، من الجانبين ، وأمسكاه من مرفقيه ، وضغطاه فى ركن

الخندق بجسميهما ، فأخذ هذا يرنح رأسه يمنة ويسرة ، هازا الضمادة المحلولة ، وشرع يصرخ ، وقد طفرت من عينيه دموع العجز :

— بسببه ! بسببه زويا ! . .

— تهاجم رجلا اعزل ، يا آمر البطارية ؟ — قال اوخانوف هازا درزدوفسكى من كتفه وكأنما يهدئ سكران . — هذا ما يستطيع أن يفعله الاحمق أيضا ! هيا ، اهدأ ، يا آمر البطارية ، اهدأ ! هل أصبت بصدمة ؟ وما شأن الالمانى هنا ؟ اصح ! ما شأن الالمانى ؟

وخمد درزدوفسكى رأسا ، وتكور على نفسه ، فالتا من أيدى اوخانوف وروبين خائرا ، وبعد زفرات ونشقات مرتعصة انشأ يقول :

— نعم ، أنا مصاب بصدمة . رأسى يرن . وابتلاع الريق يؤلمنى . شىء يطبق على حلقومى . . . ثم اضاف منهوكا واهنا — سيزول الآن . انا ذاهب الى نقطة المراقبة . . .

قال اوخانوف :

— ضمادتك قد حلت ، يا آمر البطارية — يا

روبين ، اصحب آمر البطارية الى نقطة المراقبة . وضمده ، كما ينبغى .

— تفضل ، يا آمر البطارية .

دعا روبين درزدوفسكى ، وتبعه مقطب الجبين فى خندق الاتصال .

سأل كوزنيتسوف :

— من نرسل مع الالمانى ، يا اوخانوف ؟ روبين أم نيتشايف ؟ أم جنديى الاتصال هذين ؟

مص اوخانوف من جديد نفسا عميقا من سيكارته ، بملء صدره ، ونفث الدخان من منخريه .

— لا حاجة الى تفكير كثير ، يا ملازم . يجب ارسال الالمانى الى الفرقة . لا مفر من ذلك . فلماذا نشغل انفسنا به ؟ أبق انت عند المدفع مع نيتشايف وروبين فقد تضطر الى اطلاق النار . سأوصله بطريقة من الطرق . فقط ارجو منك ، يا ملازم — وسحق اوخانوف على الارض عقب السيكارة التى استنفد نهايتها بعدة مصات ، ونظر فى ناحية المشكاة بتدقيق بطئ معذب ، وقال :

— حسنا ، أنت تفهم بنفسك ، يا ملازم . انها

الحرب اللعينة ! اليوم تصرع هذا ، وغدا ذاك ، وبعد غد أنت .

ونصحه كوزنيتسوف بصوت كامد :

— خذ روبين معك ، واذهبا معا . شدد حذرك فى الضفة الأخرى . لا تتحرش بالالمان . انا ذاهب الى مخبأ الجرحى .

— حسنا . أنا لا احب القبل الرجالية ، دعنا لا نتوادع ، يا ملازم . — والقى اوخانوف البندقية على كتفه بشىء من الاهمال ، ولاحت ابتسامة فى عينيه فقط — مع السلامة ، يا ملازم . سأخذ روبين معى .

ان ابتسامة اوخانوف المهدئة هذه بعد كلماته حول ضرورة نقل الالمانى الى نقطة قيادة الفرقة ، على أية حال ، واستعداده لأخذ الالمانى ، والعبور به ، فى مثل هذا الظرف الى الضفة المقابلة ، مجازفا بحياته مرة اخرى فى يوم واحد ، ونوبة الغيرة الانتقامية التى انتابت درزدوفسكى — كل ذلك بدا وكأنه فى دنيا غريبة غير واقعية تفح ضراما ، أما الحياة الفعلية ، بشمسها الاعتيادية ، واصواتها المألوفة ، ونورها الصافى الهادئ ، فقد تغورت فى ظلام الليلة التى لا تقاس

بالساعات . وتملكت كوزنيتسوف الرغبة فى ان يجلس على مسند المدفع ، أو يستلقى على الثلج مستسلما ، ويغمض عينيه ويصمت .

« ولكن ، ينبغى ان اذهب الى الجرحى . فان دافلاتيان هناك . . . أما زال على قيد الحياة ؟ يجب أن اذهب الى الجرحى ، الآن يجب أن اذهب ! » .

أخذ كوزنيتسوف يحث نفسه ، ورفع البندقية من الارض ، وكأنه يرفع ثقلا باهضا ، وامسكها بيد مسترخية ، وماسورتها الى الاسفل ، ونظر الى المشكاة دون ارادته .

كانت الريح الأرضية تهب بدفقات ، وتعبث بطرف المشمع الذى كان يغطى وجه زويا ، وخشى كوزنيتسوف أن ترفع الريح الغطاء فجأة ، وتكشف عنها مرة أخرى بوضوح لا رأفة فيه ، ميتة ، مستسلمة ، متكورة فى مشكاة القذائف الباردة . ذهب كوزنيتسوف نحو الدرجات المحفورة فى الشاطئ ، ماسا كثبان الثلج بماسورة بندقيته ، مرتجفا من القشعريرة ، محنى القامة .

الفصل الحادى والعشرون

فى وقت متأخر من المساء امسى واضحا لبيسونوف أن قواتنا لم تستطع اخراج الالمان من رأس الجسر الذى احتلوه فى الضفة الشمالية فى نهاية النهار ، وكسح دباباتهم من الجزء الشمالى من القرية ، رغم نزول فوج الدبابات المستقل الى المعركة ، ونزول فرقة المشاة الـ « ٣٠٥ » الاحتياطية ، ورغم السرعة والتفانى فى عمليات اللواء المستقل المضاد للدبابات ، ورغم النار المركزة التى صوبها فوجا الهاونات النفاثة اللذان استدعيا الى الجبهة . ومع ذلك فقد تمكنت ، ولو بصعوبة هائلة ، من أن تفك الكماشة التى كانت تطبق على جناحى فرقة دييف بشكل مميت ، وأن تشق ممرا ضيقا الى فوج الميجور تشيريبانوف المحاصر ، والذى كان يتكبد خسائر ، وهو يقوم بالدفاع فى جميع الاتجاهات .

وفى نحو منتصف الليل أخذت المعركة تهدأ بالتدريج فى كل مكان فى قطاع الجيش .

فى تلك الساعة كان بيسونوف جالسا فى مخبئه

غير واثق بفترة الهدوء هذه ، ولكنه راض ، على أية حال ، بعد الاخبار التى وردته عن عمليات الفرقة الـ « ٣٠٥ » التى شقت ممرا الى فوج تشيريبانوف . كان يصغى بتعب الى تقرير عن الوضع يقدمه نائب رئيس قسم العمليات الميجور غلاديلين . كان التقرير جافا روتينيا . ولم يقاطعه بيسونوف مرة واحدة . كانت قدمه تمر بنوبات من الألم من جراء التوتر العصبى ، وقد تكررت هذه النوبات خلال المساء كله ، لا سيما بعد أن سقط فى الخندق قبل بضع ساعات ، وقد التوت قدمه بوضع غير مريح اثناء غارة بنيران قاذفات الالغام ذات المواسير الست . وصار وجه بيسونوف الجاف أكثر جفافا من جراء هذه النوبات ، وضمر واربد . وكان فى بعض الاحيان يتصبب عرقا حارا ، فيمسحه بمنديله عن رقبته وصدغيه ، متحاشيا تحديقة الميجور بوجيتشكو الدائمة فيه ، وقد لاحظ منذ وقت طويل أن حالة القائد ليست كما ينبغى .

قال بيسونوف بعد أن استمع الى التقرير :

— ليس واضحا ، يا ميجور . . . .

ومد رجله تحت المنضدة مهيئا لها وضعا اروح .

بعد اربع وعشرين ساعة من الضغط الناجح من جانب الالمان وتقويتهم السريعة للضربة — وكان استعجالهم نحو الهدف محسوسا — أوقفوا ، بالطبع ، الهجمات فى قطاع الجيش ، لاسباب اخرى ، بالتأكيد ، جديدة اساسية جدا لا يمكن التنبؤ بها سلفا . لقد كان بيسونوف يميل الى التفكير ، مهما يكن فى ذلك من مجازفة ، بأن العدو ، وقد انزل الى الميدان احتياطه الرئيسى فى الجناح الايمن لجيشه ، وزحف فى تلك المنطقة الى بضعة كيلومترات ، كان عند الليل قد استنزف امكانياته . وكان على هذا الواقع الجديد يتوقف وقت تسديد الهجوم المضاد المتفق عليه مع قائد الجبهة ، والذى كان يجب ان يبدأ فى اللحظة التى تصبح فيها دلائل استخدام العدو لكل احتياطاته ، وامارات التعب فى هجومه واضحة ، فى تلك اللحظة بالذات لا قبلها ولا بعدها .

ولكن اشياء كثيرة كان يمكن ان تتوضح كليا خلال الساعات القريبة فقط ، بل وحتى فى اوائل الصباح : هل سيبدأ الالمان من جديد ، أم لا يبدأون ؟ وهل سيكون الضغط التالى ، فى الاستعجال اللامنطقى نحو

ولم تكن هذه الملاحظة « ليس واضحا » تخص التقرير ، ولا الوضع الذى نشأ فى الفيالق ، ومع ذلك فان غلاديلين الرجل الكهل الموزون ، الذى تعود على أن يسرد المعلومات الموضوعية بدون انفعال جهد الامكان ، أظهر بكل هيكله المعروق ارتباكا استمر ثانية واحدة ، وكأنه نسى أن يبلغ القائد بشىء جوهرى لم يكن له الحق فى نسيانه وعدم معرفته .

— اعذرنى ، ايها الرفيق القائد ، أنا لم افهم .

قال بيسونوف بصوته الصارف :

— ليلة أمس لم يوقفوا العمليات ساعة واحدة . واليوم ، وقد أدخلوا الاحتياط ، حسب معلوماتنا ، صمتوا بعد أن احتلوا رأس جسر مريحا . ألا يبدو ذلك منافيا للمنطق ، يا ميجور ؟ غير مترابط ؟

— اعتقد ان ذلك له علاقة بعمليات وحداتنا المجاورة فى وسط الدون ، ايها الرفيق القائد . بعمليات الجبهة الجنوبية-الغربية وجبهة فورونيج . حقا ان بداية هجومهم اليوم لم تكن موفقة جدا ، ولكن على أية حال . . .

قال بيسونوف : محتمل .

الهدف ، موجها الى الجناح الايسر للجيش ، حيث استطاعت تشكيلة الدبابات الالمانية نهارا أن تحطم الحراسة الامامية ، وأن تخرج فى المساء الى الضفة الجنوبية ، وتتغلغل ايضا فى دفاعنا ؟ الا أن بيسونوف لم يكن يؤمن حدسا بهذا التغير فى اتجاه الضربة الرئيسية ، وفضلا عن ذلك ، لم ترد أية اخبار عن اعادة تشكيل قوات العدو ضد الجناح الايسر للجيش . فاين الحقيقة فى كل هذا ؟ أين الحقيقة الصلدة ؟

— ايها الرفيق القائد ، قد طلبت شايا . ارجو المعذرة ، كم ملعقة سكر اضع لك ؟

— نعم . . . ملعقتين . شكرا .

صب الميجور بوجيتشكو قدحا مملوءا بالشاى الساخن من ابريق الشاى المغلى على الموقد ، حتى فاحت رائحة الشاى . وبعد ان فكر قليلا وضع ثلاث ملاعق من السكر ، ووضع القدح على الطاولة امام بيسونوف .

وفكر بيسونوف مع نفسه « اتراهم استنفدوا قواهم ، فهمدوا ؟ أم ما لا تزال عندهم فضلة من قوة ، وسيبدأون ؟ »

لم يكن هناك جواب دقيق على ذلك ، وكان

يعرف ان الالمان ان لم يستخدموا كل احتياطيهم وسيبدأون فى الغد ، اى فى الصباح ، هجوما جديدا ضد الجناح الايمن للجيش ، هنا على رأس الجسر ، فى قطاع فرقة دييف ، فانه سيضطر الى اللجوء الى الوسائل الاخيرة — وبدون ذلك سيكون الصمود مستحيلا — فيلقى الدبابات والآليات اللذين قدمتهما القيادة العليا من احتياطيها للهجوم ، واللذين وصلا الى نقاط تمركزهما على بعد ١٠ — ١٥ كيلومترا من الخط الامامى . وبالنتيجة ستتبدد القوى المتحركة المعدة لتوجيه الضربة المضادة ، وحين تتبدد سيوجه ضربة جوابية لا بقبضة مشدودة ، بل باصابع منفرجة ، وذلك ما لم يأت باى نجاح حتى الآن ، رغم ان ذلك حدث غير مرة .

القى بيسونوف الملعقة الحارة فى قدح الشاى القوى ، وسأل :

— فى آخر الأمر متى سيتم الاتصال بمقر قيادة الجبهة ؟ أين رئيس قسم الاتصال ؟

اجاب الميجور غلاديلين بدرجة معينة من الدقة :

— الظاهر ، أيها الرفيق القائد ، أن فيلق الدبابات اثناء تحركه فى الظلام على الخط اوقع بعض الركائز . . .

ستصلح من دقيقة الى أخرى . رئيس قسم الاتصال ذهب الى الخط منذ وقت طويل .

— لا يهمنى سبب العطب أبدا . انا بحاجة الى الاتصال !

مس بيسونوف القدح ليعرف هل هو حار ، وشرب بضع جرعات (ان هذا الشاى القوى كان له ، على اية حال ، مذاق القصدير ، والبارود على ما يبدو) وضع القدح ، ومسح بمنديل الجيب العرق الذى تصبب رأسا على صدغيه ورقبته . ان بيسونوف ، وهو تحت ضغط هذه الايام والليالى ، والبلاغات بلا انقطاع من نقطة قيادة الجيش ، والآتية من الفيالق ، ومشاغل توسيع الممر الضيق الذى تشقه قوات الفرقة الـ « ٣٠٥ » الى فوج تشيريبانوف المحاصر ، لا يزال يشعر بالألم الحارق فى قدمه . ثقلت قدمه ، وورمت ورما معيقا ، وعندئذ ، ولكى يصرف باله عن الالم ، وينسى نذره المخيفة ، راح ، لسبب ما ، يتذكر كيف اعانه فى المستشفى فى مثل هذه الحالات ، قبل بضعة أشهر ، شىء واحد هو التدخين المستمر . وكانوا بعد العملية قد منعوه من التدخين منعا باتا . نعم ، لقد

حذروه فى المستشفى أن العادة القديمة قد اصبحت الآن مهلكة له ، وقد ضعف النبض فى شرايين رجله اليمنى . ولكن بيسونوف ، الآن ، وقد تذكر النيكوتين المهدئ ، الذى كان ينبهه دائما فى الماضى ، نظر بطرف عينه الى علبة السيكائر المغربية الزرقاء زرقة الثلج ، المنسية على الطاولة من قبل احد الناس — رئيس الاستطلاع او فيسنين — والتى لم يمسها أحد فى حضوره .

مد يده الى العلبة ، وكأن ذلك سهوا ، وفتحها ، وتناول السيكارة السميكة ، وشم رائحة التبغ الجافة باستمتاع شهى عالق فى النفس .

« واحدة فقط . . . فى الماضى لم استطع بدونها . لأجرب . سيكارة واحدة . . . لاسيما وفيسنين غائب — قال بيسونوف لنفسه ، متصورا كيف أن عضو المجلس العسكرى ستذهله بلطافة هذه المفاجأة ، وهو المدخن المدمن ، وسيخلع نظارته ، فى الغالب ، ويرفع حاجبيه ، ويسأل « احقا انك تدخن ، يا بيتر الكسندروفيتش ؟ »

— احقا انك تدخن ، ايها الرفيق القائد ؟

سأل الميجور غلاديلين بذهول متوجس ، واختطف علبة الكبريت من المنضدة ، ليشعل له السيكارة .

وحدق به بوجيتشكو ، وجنود اللاسلكى ، وجنود الاتصال الذين صمتوا لحظة واحدة ، كلهم حدقوا به بانتباه .

لاحظ بيسونوف هذا الانتباه العام ، فأخذ يضغط على السيكارة ، وهو غير مرتاح من نفسه ، متضايق من هذه النظرات . اغلب الظن أن ميوله وعاداته ونقاط الضعف فيه كانت معروفة فى مقر قيادة الجيش ، وهنا فى فرقة دييف . كان احدهم ينبه لكيلا يقع فى حرج ولا يثير الملاحظة الزائدة ، أو ابداء عدم الارتياح .

— اذن ... يهمنى للغاية ان أعرف متى سيتم الاتصال مع مقر قيادة الجبهة ؟

قال بيسونوف كابتا الانفعال فى صوته ، فخرج على قدر بالغ من الأدب . وتأوه ، ومدد تحت الطاولة ساقه التى بدت ثقيلة ، وبدأ يتكلم موجها كلامه لا غلاديلين وحده :

— كما يهمنى للغاية لماذا لم يعرف حتى الآن هل وصل عضو المجلس العسكرى الى منطقة تمركز احتياطات الجيش ام لا . اين هو ؟ استفسروا مرة اخرى من فيلق الدبابات وفيلق الآليات . يجب أن يكون هناك الآن . لماذا يتأخر ؟

اجاب الميجور غلاديلين بلهجة مهذبة :

— أنا اعرف ، ايها الرفيق القائد ، أن عضو المجلس العسكرى لم يصل الى مقر قيادة الجيش . من المحتمل أنه تأخر ، وهو فى الطريق الى فيلق الدبابات ، فى مكان ما فى قوات الخط الاول . من المحتمل تماما ...

— اسأل الفيلقين ، والفرقة الـ « ٣٠٥ » ، وفوج خوخولوف . وأرجو أن تهيئ لى الاتصال بالجبهة . أنا بالانتظار .

ووضع بيسونوف السيكارة المدعوكة فى علبتها مغتاضا ، ونقر باصابعه على الطاولة .

اندفعت فى هواء الخندق الدافىء الرطب همهمات جهاز اللاسلكى الباعث دمدمة فى الأثير . تحول جندى اللاسلكى الى الاستقبال . وتتداخل مع الدمدمة الكهربائية كلام رومانى سريع ، وانقطع ، وانبعث مجعجعا أمر المانى حاد نطق بتلحين ، وكأنه املاء لبرقية ، وقد غطت عليه ذبذبات الجو ، واشارات مورس العجلى — كانت تجرى محادثات عجماء ، فى تلك الساعة كان جنود الاتصال الالمان والرومانيون

فى مقرات الاركان ونقاط القيادة يعملون عملا مشددا للغاية ، وهو ما لم يحدث عادة قبيل الاستعداد الجوى للهجوم . عندئذ تصمت جميع اجهزة اللاسلكى ، ويسود الاثير سلام ظاهرى وهدوء .

لقد كان الاثير الآن فى حركة غير اعتيادية ، وكان بيسونوف قد اسبل جفنيه نصف اسبالة من التعب ، وفكر مع نفسه ، وهو يستمع الى الشفرات غير المألوفة ، ويخمن فى محاولة غير نافعة سبب المحادثات اللاسلكية الغريبة :

« باى مناسبة تدور هذه الارجوحة الليلية بينهم ؟ هل هم يستعدون للصباح ؟ ولماذا اخذت اللاسلكيات الرومانية تعمل ؟ »

اصوات ، وخطوات ، وضجيج فى قسم مجاور من المخبأ يحتله دييف مع جنود الاتصال للفرقة ، وتبع ذلك طرق عال على الباب . وقد انتزعت هذه الاصوات بيسونوف من الاستغراق فى التفكير .

ـ هل تأذن لى ، ايها الرفيق القائد ؟ . . .

ودخل بوجيتشكو المخبأ دون ان ينتظر استئذانا ، ومن الطريقة التى نطق بها « الرفيق القائد » بصوت

مسحوق ، وهو منتصب القامة ، وبسبب امتقاع وجهه الذى كان دائما دافق الحيوية بسّاما ، احس بيسونوف ، وقلبه غائص ، بأن شيئا بالغ الاهمية قد حدث .

وتردد بوجيتشكو ، وسحق برجله وبعصبية كتلا من التراب غير مرئية . استعجله بيسونوف ، وقد قوى احساسه بالمصيبة الواقعة :

ـ لماذا انت صامت ، يا بوجيتشكو ، ابلغنى ! ما الخبر ؟

ـ فيسنين . . . ايها الرفيق القائد .

ـ اين ؟ غير ممكن ! اشرح لى كما يشرح الناس . أين هو ؟

ـ ايها الرفيق القائد . . . قبل لحظة فقط جاء الميجور تيتكوف ، جريحا . . . وأبلغ أن عضو المجلس العسكرى . . .

ـ ماذا ؟ جريح ؟ مقتول ؟

نكس بوجيتشكو رأسه ، وسحق بعقبه كتلة من التراب تحت قدميه ، واذا بيسونوف وقد تصبب عرقا حارا ، وطغى عليه ألم حاد فى قدمه ، يرفع عليه صوته لأول مرة فى هذه الفترة ، وقد فقد السيطرة على نفسه :

— أنا اسألك : هل هو جريح ام قتيل ؟ هل اصبت بالخرس ؟ قتلوه ؟

— نعم ، ايها الرفيق القائد . . . اصطدموا بالالمان فى الطريق . ان الميجور تيتكوف يريد ان يبلغك بنفسه .

وجعله هذا النعى المفاجئ الذى لم يكن منتظرا له ، وكأنه صاعقة ، يفكر مع نفسه « فيسنين قتل ؟ اصطدموا بالالمان فى الطريق ؟ اين ؟ فى القرية ؟ ما هذا الذى يقوله بوجيتشكو ؟ كيف حدث ؟ »

وتماوجت اضواء المصابيح ، واجهزة التلفونات وآلة اللاسلكى ، والخارطة على المنضدة ، والوجوه ، وكأنما كانت تطوف فى هواء المخبأ الساكن الدافئ . وصمت الجميع . وفى الحال أنسل من جانب ظل قصير مبتور لانسان . أخرج بيسونوف منديله مغمورا برائحة الفاجعة النازلة ، وبصوت طيفى يقول « ايها الرفيق الجنرال » ، مسح حنكه ورقبته لتضييع الوقت ، ولكيلا ينفجر رأسا ، ويصب جام غيضه على هذا الصوت الخارج من الظل ، والمسطح الخالى من الحياة ، والرمادى الهالك ، الذى كان يجب ان ينعى له

فيسنين . وبعد صمت طويل التزمه ، سأل وهو يمسح عرقه :

— اين اصطدمتم بالالمان ، يا ميجور تيتكوف ؟

— فى الضاحية الشمالية الغربية للقرية ، ايها الرفيق القائد . . . وكانت سيارة الحرس فى المقدمة . . .

واقتضاه جهدا أن يدير رأسه ، وينظر صوب هذا الصوت المتوحد القاضى ، وكأنه فى محكمة ، المتردد فى جنبات المخبأ ، واستبدت به فجأة رغبة فى أن يرى تيتكوف كله — وجهه وعينيه — وينفذ خلال الكلمات الى حقيقة ما حدث ، ويتخيل الدقائق الأخيرة التى شهدها ورآها رأى العين .

كان الميجور تيتكوف ، الذى كان يترنح كالظل الى يمين باب المخبأ ، بهيئة لا تعرف : كان رأسه المستدير مشدودا بضمادة حتى قصبة أنفه ، وهيكله القصير العريض الصدر الشبيه بكتلة من الحديد ، ملفوفا بفروة خروف شعثاء ، اطرافها مقطعة ، ومهلهلة ، وكمها الايسر ممزق بفعل رصاصة متفجرة ، على ما يبدو ، وقد برزت من هناك خصائل من الفرو شوهاء ، واطلت من تحت الطاقية الرمادية التى تشكلها الضمادة

القذرة عينان قانطتان محمرتان بالدم ، وعاد ذلك الصوت المفعم باليأس :

— ذهبت دورية استطلاع المانية الى السيارتين . ورفض عضو المجلس العسكرى التراجع الى البيوت . وكانت على مسافة مائتى متر تقريبا فى ارض مكشوفة . . . وأمر بالاشتباك معهم . . .

قاطعه بيسونوف قائلا :

— كيف قتل ؟ كيف صرع فيسنين ؟

— اطلقنا النار حوالى عشر دقائق . ثم التفت ورأيت الرفيق عضو المجلس العسكرى منبطحا على ظهره قرب السيارة ، وهو يضم المسدس الى صدره والدم يتدفق من حنجرته . . .

— وبعد ذلك ؟

استعجله بيسونوف رغم ارادته ، وكأنما كان يريد أن يعرف لنفسه الشىء الرئيسى فى هذا المصرع ، غير أن الشىء كان يفلت ، ولا يتبلور بوضوح تام ، ولا يستوعبه الوعى . لقد كان يبلغ بأن فيسنين قد صرع ، بينما كان لا يبصر مصرعه ، ولا يتصوره ميتا ، لأنه لم يكن ما هو أكثر امتناعا من هذه المفاجأة ، ولا ما هو أكثر استعصاء على التفسير ، على ما بدا ،

من العلائق التى تكونت بينهما ، وهما رجلان فى الجيش ، متساويان فى المسؤولية عن كل شىء ، من تلك العلائق غير الطويلة التى كانت تبدو ، من جرائه هو ، بيسونوف ، وبفعل نفوره المتشكك من السلطة الثانية الى جانبه ، ليست كما كان يريدها فيسنين ، ولا كما كان يجب ان تكون . وربما كان عدم رغبة فيسنين فى الجدال ، ولينه ، ونصائحه الحفيفة التى تبدو عابرة ، وعدم ميله الى التشديد على اظهار مكانه الى جانبه جانب قائد الجيش ، هو الدرجة التى دسها فيسنين تحت قدميه حسب تجربته الخاصة ، وبسعيه لعدم مس كبريائه ، وذلك لتثبيته فى الجيش الجديد ، وسط رجال لم يتعرفوا بعد على الأمر ، ولم يظهروا فى التعارف الأول . أكان كل شىء بهذا الشكل ؟ واذا لم يكن كذلك ، فانه لا فيسنين ، كان العائق لكل ما كان يمكن ان يكون بينهما . وهذا ما لم يستطع أن يغفره لنفسه الآن . . .

ومن مكان بعيد ، من ضوء المصباح ، من الهواء الدافئ ، الشبيه بهواء الحمام ، جاء صوت الميجور تيتكوف المتهرج :

— . . . تناوبنا ، العقيد اوسين وأنا ، على حمل الرفيق عضو المجلس العسكرى على ظهرينا . وقد جرح العقيد اوسين فى كتفه فى القرية . حطمت الطلقة العظم . وحالما وصلنا الى دباباتنا ، اخذنا سيارة من سيارات نقل الذخيرة ، وذهبنا بعد ذلك الى كتيبة اسعاف الفرقة الـ « ٣٠٥ » . ان اوسمة ووثائق الرفيق عضو المجلس العسكرى هى هنا معى . والعقيد اوسين أدخل نقطة الاسعاف . وقد قال ان اسلمك الوثائق كاملة سليمة . ماذا ينبغى أن أعمل الآن ، أيها الرفيق الجنرال ؟ الى أين اتوجه الآن ؟ . . .

ما كان ينبغى للميجور تيتكوف ، فى اغلب الظن ، أن يعرض اوسمة فيسنين ووثائقه ، وكانت كل كلمة تفوه بها تنبض بعذاب العجز أمام ما حدث . ان تلك اللفة المدماة التى وضعت على الطاولة ، فى منديل جيب لزق كانت واقعا لا ينقض ولا يدحض مثل ضربة على العينين تؤكد بقساوتها حقيقة مصرع فيسنين . كان بيسونوف بصورة لا شعورية يحتمى بيد واحدة من ضوء المصباح الساطع ، ومن النظرات المصوبة اليه ، فمد اليد الأخرى ، لسبب ما ، الى أرومة هوية

فيسنين الشخصية ، وكانت الأرومة رطبة ، وظل وقتا طويلا غير قادر على فتحها ، فقد كانت وريقاتها ملتصقة ، متشبعة بالدم ، داكنة .

ومع ذلك فقد فتح بيسونوف الهوية ، وكان اول ما وقع عليه بصره تصوير صغير مأخوذ بآلة تصوير للهواة وضع بين ورقتين من اوراق الهوية ، وكان ايضا ملطخا كله بلطخات بنية ، الا أنه كان فى الامكان تدقيق النظر فيه . كانت الصورة مأخوذة لفيسنين مع ابنته ، على ما يبدو . كان فيسنين يرتدى قميصا ابيض ، وبنطلونا صيفيا ابيض ، وكان فتى المظهر على عهد ما قبل الحرب ، وهو يبتسم لشخص ما ابتسامته الصبيانية الحية ، حتى أن انفه قد تغضن مرحا ، وكان يجلس وراء مجدافين فى قارب باخرة ، يسير على خليج مشمس بدت على ساحله بناية المصح بين اشجار السرو ، وفى مقدمة القارب جلست صبية فى نحو السابعة من عمرها نحيلة لوحتها الشمس الى حد الاسوداد ، وقد تهدل شعرها الاشقر الناصل من تحت طاقيتها على خديها ، وبرز عظما الترقوتين الضعيفان من وراء فتحة السارافان وكانت تنحنى على جانب

القارب ، وقد طلب اليها أن تغمس يدها النحيلة فى الماء . وفى ظل الطاقية كانت عيناها المتيقظتان محولتين الى الجانب الذى ينظر اليه ويبتسم فيسنين البعيد وهو فى شبابه بهيئة لا يعرف بها . وكان طرفا شفتى الصبية معوجين بشىء من الضيق ، لا تريد أن تبتسم ولا أن ترفض الابتسام لشخص غريب ، الا أن ملتقط الصورة ، كما يبدو ، كان يأمرها بالحاح :

« ابتسمى ! »

وكتب فى زاوية من الصورة بحروف بيضاء « سوتشى . ١٩٣٨ » .

« لماذا كان يحمل معه هذه الصورة بالذات ؟ اهذه الصبية ابنته ؟ وهل بين وثائقه صورة لزوجته ؟ وماذا يضيف ذلك ، وماذا يفسر ؟ لا ، أنا لا استطيع أن انظر ، لا استطيع أن اطلع على تفاصيل حياته بعد وفاته ! لماذا نريد دائما أن نعرف عن الشخص بعد وفاته أكثر مما كنا نعرفه فى حياته ؟ »

— ايها الرفيق القائد . . .

رفع يده عن جبينه . وارتفع فى جو المخبأ أزيز جهاز التردد العالى ، ورفع جندى الاتصال السماعة ،

ونظر الى بيسونوف بعينين تدعوانه بتهيب ، قائلا بهمس :

— يدعونك ، أيها الرفيق القائد ، من مقر قيادة الجبهة . — نعم ، نعم . . . الآن ، نعم ، نعم . . .

وارتج مرفقه على المنضدة ، وتلمس باحثا عن عصاه التى كانت مركونة على الحافة ، وتوكأ عليها ، ونهض تحت انظار جميع الموجودين فى المخبأ ، وسط صمت متلزج كالوحل ، وصرت عصاه اثناء سيره الى جهاز الاتصال . كانت السماعة دافئة من حرارة كف جندى الاتصال ، حية ، الا أنه كانت فيها ذبذبة واهتزاز اصوات المدى الخافتة ، الفراغ المنداح الى ما لا نهاية ، فتكلم بيسونوف تحدوه رغبة عارمة فى تحطيم هذا الصمت فى المخبأ وفى السماعة :

— الخامس يسمع .

— دقيقة واحدة ، يا رفيق خامس . ساعطيك الرفيق أول .

وفى الطرف الثانى من هذا المدى المفصول بالليل نقلت السماعة سريعا ، وفى الحال نطق صوت آخر

مفعم بقوة عصارات الحياة ، صوت رجل معافى مشغول بأمور ملحة ، وكانت فى الصوت رنة انفعال :

— مرحبا ، يا بيتر الكسندروفيتش ! هل هيأت الاخفاف ؟ واطلقت لحيتك ؟ هل تمنطقت بالزنار ؟ على القفطان ؟

كان المتكلم قائد الجبهة : لكنة اوكرانية ، ورنة جنوبية فى النطق . لقد عرفه بيسونوف . لم تزل بينهما الكلفة بعد ليخاطبه بضمير المفرد ، وقد اخجلت بيسونوف قليلا هذه المخاطبة الجديدة غير الرسمية بضمير المفرد ، كأنها قد نزعت عنه شيئا ، وجردته من استقلالية معينة ، ولو كانت فى المخالطة الاولية ، أما قائد الجبهة ، فبعد ان تحدث معه بيسر ، كما يتحدث مع زميل له فى المدرسة ، لمح على شكل سؤال ، وشبه مزاح الى ان جيش بيسونوف اعتبر بمثابة « المحاصر » .

الا أن بيسونوف الذى كان فى تلك اللحظة فى وضع لا يتقبل فيه اطلاقا حتى شبه المزاح ، ولم يستطع التحول الى ضمير المفرد فى المخاطبة ، اجاب :

— أنا احمل معى ماكنة الحلاقة ، حسب عادتى

القديمة ، يا رفيق أول . أما الاخفاف والقفطان فلم يزودنا بها رئيس المؤخرة . قبل ساعتين كانت عندى فرصة لأعرفكم بوضعنا ، يا رفيق اول .

— اعرف . درست ، وأنا اوافق ! — وضحك القائد ضحكة هادرة ، ولم يتقبل لهجة بيسونوف الجافة الرسمية — هذه هى الأمور ، يا بيتر الكسندروفيتش ! الآن ، اعتبر أن وضعك سيكون اسهل . الى الشمال-الغربى منك ادخل الجيران فى الثغرة اربعة فيالق من الدبابات ، وهى تتحرك بنجاح للقضاء على الاحتياطات العاملة ، وتخرج الى جناح ومؤخرة جيوش « الدون » . . . هكذا تسير الأمور . أنا موافق على تقديراتك . لو انحصرتم كليا . فقد حان الوقت . ستبدأ بعد التدقيق . ستتلقى الأمر . أشد على يدك ويد فيتالى اسايفيتش من كل قلبى على صمودكم ! وبالمناسبة أريد أن افرحك أيضا : فى المساء جاءنا تلفون من القائد العام . كان مهتما بوضع جيشك ، وراضيا ، وكان يستحث . . .

كانوا فى قيادة الجبهة لا يعرفون شيئا بعد . كان فيسنين بالنسبة لهم ما يزال حيا ، وكان ضروريا . كانت وحدات الجبهة الجنوبية-الغربية وجبهة فورونيج

قد اخترقت اخيرا دفاع الالمان بعد محاولة فاشلة ، وأدخلت فى الثغرة فيالق من الدبابات . وكانت القيادة العليا مهتمة ، وراضية ، وكانت تستحث . وكان بيسونوف يخمن بأن وضع الجيش سيكون محل اهتمامها . . .

ابقى بيسونوف السماعة اللزجة فى اصابعه الرطبة ، وقد بدا له انه ما يزال يشم رائحة الدم الحديدية المالحة ، الفائحة من لفة الاوسمة والوثائق البنية المرطبة المصرورة فى منديل جيب ، ومن الصورة الفوتوغرافية ، التى كانت فيها شفتا الفتاة النحيلة ، ابنة فيسنين تعوجان اعوجاجا ينم عن ضيق ، ومن اصابعه هو ، التى كانت مطبقة بالسماعة الى حد الابيضاض .

— لماذا سكتت ، يا بيتر الكسندروفيتش ؟ ما الذى يقلقك ؟ اعترض اذا كانت لديك تقديرات اخرى ، انا سامع . ماذا بعد ؟ هل تريد أن تطلب شيئا ؟ صاحبك المدقق ياتسنكو حصل على كل طلباته . رجل طماع ياتسنكو هذا !

قال بيسونوف بصوت جاف :

— اسمحوا لى ان اقاطعكم . ليس لى الحق فى أن اخفيه عليكم . . . قتل عضو المجلس العسكرى

فيتالى ايسايفتش فيسنين قبل ثلاث ساعات وهو فى طريقه الى فيلق الدبابات .

— كي . . . ف كيف قتل ؟ ماذا تقول ؟ ما هذا الحديث الذى اسمعه منك ؟ — انسلت صيحة القائد من الطرف الآخر للخط ، وفى الحال تحولت الى همس — كيف هذا ؟ اى نبأ تبلغنى ؟

كرر بيسونوف :

— ابلغك ، يا رفيق اول ، أن فيتالى ايسايفيتش فيسنين قد قتل فى القرية ، وهو فى الطريق الى فيلق الدبابات . بلغونى بذلك قبل لحظات .

— قتل ؟ فيسنين ؟ يعنى أنكم لم تحرصوا على عضو المجلس العسكرى ! أمن المعقول انك لم تكن تعرف انه يدخل فى كل مأزق حتما ؟ لم تكن تعرف ؟ كان عليك أن تكبحه ، وتضع عليه عينيك الاثنتين ! أى رجل ممتاز فقدنا ! هذا ما لم اتوقعه ، لم اتوقعه على الاطلاق ! كالبرق فى سماء صافية ! ولكن اى حرس عندك ؟ اين كانت عيونهم ؟

— ارجو عدم التقريع ، يا رفيق اول . ان ذلك لا ينفع الآن ، مع الاسف . لا ينفعكم ولا ينفعنى —

ثم صمت بيسونوف قليلا — هل تسمحون لى بأن ابلغكم فى ايجاز باراء اضافية الى تقريرى ؟

— اى شىء جديد آخر عندك ؟ على أية حال ، كيف حدث ذلك ، يا بيتر الكسندروفيتش ؟ آه ، كيف طعنتنى ! طعنتنى حتى الموت ! . .

— هل تسمحون ، يا رفيق اول ؟ أرجو أن تسمعونى .

— نعم ، تحدث ، ابلغنى . أنا مصغ لك .

وتحول بيسونوف بقسوة تاركا الحديث عن فيسنين ، لم تكن فى نفسه القوة الروحية الكافية ليعيد تفاصيل مصرعه . فأخذ يبلغ ، دون ان يرى من الضرورى أن يبين أنه ، فى آخر النهار ، وبالنظر للوضع فى فرقة دييف التى شقتها الدبابات الالمانية ، كان مستعدا لاتخاذ دفاع فى جميع الاتجاهات هنا ، وبالاحرى خشى ذلك (وكذلك فيسنين الذى كان ، على خلافه ، لا يخفى مخاوفه) ولكنه ما كان يجازف ، حتى آنذاك ، فى أن يعزم على « تحريك » الفيلق الآلى وفيلق الدبابات ، وتفريقهما على التشكيلات ، وهما المخصصان للضربة المضادة . لم يقل سوى وقت التشكيلات المتحركة قد آن ، وأن غوت استخدم

بالأمس احتياطاته — وقد اكد ذلك الميجور الالمانى الاسير ، الضابط فى وحدة الاتصال — وأن توجيه الضربة المضادة يجب ان يتم اليوم صباحا ، قبل أن يجددوا نشاطهم فى الضفة الشمالية . ينبغى أن لا يضيع الوقت ، ولا تعطى لهم مهلة ، وأن يخرج الالمان من رؤوس الجسور فى البداية وقبل ان يتسنى لهم اعادة تشكيل قواتهم ، وذلك بشن هجوم مضاد مفاجئ يقوم به فيلق الدبابات والفيلق الآلى دون التهيئة المعتادة بالمدفعية .

سأل القائد :

— ولماذا بدون تهيئة المدفعية ؟ ماذا تبغى بذلك ؟ ألا تثق بالمدفعية ؟

— الالمان يعرفون جيدا ان التهيئة بالمدفعية هو تحذير خاص من الهجوم . ستقوم المدفعية بدورها حين تخرج الدبابات الى مشارف الهجوم .

قال القائد :

— سنناقش الأمر . حسنا . سأتشاور مع ممثل القيادة العليا . وستتسلم الأمر . . . والآن كيف حصل ذلك لفيسنين ؟ بأية صورة ؟ آلمتنى كليا ، يا بيتر

الكسندروفيتش ، بنبئك . الآن انت وحدك تتخذ القرار ، بدون عضو المجلس العسكرى . كان يثق بك كثيرا ، أنا اعرف ، رغم . . . لست انت بالبسيط ، بصراحة ، يا بيتر الكسندروفيتش ! أنت صعب !

وفكر بيسونوف غامضا قليلا جفنيه المثقلين :

« نعم ، فيسنين . . . والآن انا وحدى . لا احد الآن يملأ مكان فيسنين عندى ، كان يثق بى ؟ بينما كنت اخاف ان انفتح امامه ، وانغلقت على نفسى . ايه ، يا عزيزى فيتالى ايسايفتش ، الانسان يتعلم طوال حياته ، ونحن نبدأ بالتقدير الحقيقى فى وقت متأخر ! اعذرنى ، اذا تستطيع ، على برودى ، وجفائى . انا نفسى اتعذب من ذلك ، ولكن لا استطيع أن اغير طبعى » .

لم يقل بيسونوف ذلك الى قائد الجبهة ، لقد كان ذلك خاص به ، وما كان ليفضى به لأحد ، ويدلى به لمحكمة الاخرين ، شأنه شأن ذكرياته الموجعة المعذبة عن ابنه وزوجته ، الذكريات الشبيهة بوخزات ضمير لا تطاق .

وقف بيسونوف طويلا أمام الجهاز بعد ان أنهى المحادثة مع قائد الجبهة . وقف كسيرا وسط الاصوات الحذرة ، والنداءات فى خطوط المخابرة ، وسط الوجوه التى تراقبه خلسة ، وهو نفسه قد أحس بأن وجهه قد اربد من الارهاق ، وهرم خلال هذه الساعات الاربع والعشرين ، ولم يعد ينفتح لأحد . وفى الوقت ذاته كان يدرك جيدا ما يفكر به الآن الميجور غلاديلين المتحفظ المثابر المنكب على الخارطة باهتمام ، والعاملون الاخرون ، وجنود الاتصال ، والمرافق بوجيتشكو ، ورئيس الحرس تيتكوف ، الذى كان ينتظر بتوتر بالغ قرار مصيره ، ومعه كان الجميع ينتظرون ذلك . وكان يتراءى ظلا اسود الى يسار الباب ، ورأسه المضمد يهتز مثل كرة بيضاء . لم يصطبر تيتكوف فذكره بنفسه همسا :

ـ ماذا على ان افعل . . . أيها الرفيق القائد ؟ الى اين اذهب ؟

قال بيسونوف بحدة :

ـ الى المستشفى . توجه الى المستشفى ، يا ميجور تيتكوف .

وبعد وقت كان بيسونوف راقدا على منصبة فى مخبأ دييف المدفأ ، وهو فى حالة من الوجوم العابس ، ملتزما وضعا واحدا ، ناظرا فى الواح السقف الرطبة من البخار . وبين الفينة والاخرى كان يسمع نحنحة بوجيتشكو الخافتة المختلسة ، وانشغاله بابريق الشاى على الموقد الحديدى ، وخشخشة معطفه الرطبة ، ولكنه لم يرد على ذلك بشىء . كانت الاصوات تتسرب من المخبأ المجاور صماء عبر الأرض ، وكانت يود ان يصمت ويفكر بالقرب من هسيس اللهب المتسق اللامبالى فى الموقد ، ويحافظ على توازنه الخارجى على الاقل ، وعلى الهدوء الذى كان ضروريا جدا قبيل الصباح ، والذى بدأ يخونه بعد نعى فيسنين . وبمحاولة يائسة لنسيان الخبر الذى جلبه الميجور تيتكوف ، ولو لدقيقة واحدة ، حاول بيسونوف التفكير بالهجوم المضاد المزمع أن يقوم به الفيلقان ، بتقريره لقائد الجبهة ، الا أنه عاد مرة أخرى الى افكاره عن فيسنين ، وعن التكتم الذى كان بينهما وهو شىء لا يغتفر كسخافة خبيثة ، وعن اللفة الداكنة المصرورة فى منديل جيب والمحتوية على اوسمة فيسنين ووثائقه ؛

التى وضعها تيتكوف على الطاولة ، وعن الابتسامة الواهنة الضيقة التى رآها على فم الفتاة فى التصوير الشمسى الذى وجده فى هوية فيسنين .

« لم يرد ان يتراجع » دارت فى رأس بيسونوف مرة اخرى كلمات تيتكوف ، مصعوقا بأن يصدر فيسنين مثل هذا الأمر ، وهو لم يكن ، وهو فى وضعه ذاك ، ملزما على قبول معركة محكوم عليها بالفشل مقدما ، بل كان عليه ان يتراجع ، ولا يعرض نفسه للخطر فى تلك الظروف . ولكن فيسنين قبل المعركة على اية حال ، وحدث الشىء الذى حدث قبل ثلاث ساعات .

ـ ايها الرفيق القائد ، اشرب شايا . . .

رائحة شاى مخدر . وخطوات واطئة . وازيز لا يكاد يسمع لابريق الشاى على صفيحة الموقد ، ورنين الملعقة فى القدح .

ـ لو غفوت نصف ساعة ، ايها الرفيق القائد . . . لا أحد يضايقك هنا . اشرب الشاى ، واغف . لن يحدث شىء فى نصف ساعة . وأنا لا ادع احدا يزعجك .

ـ شكرا ، الآن .

فتح بيسونوف عينيه ، الا أنه لم ينهض . واثناء

ذلك كان يقول لنفسه من الضرورى ان ينهض ، ويشرب قدحا من الشاى الذى أعد له ، ويدخل بالشكل المعتاد المألوف للجميع الى المخبأ المجاور ، حيث كانوا ينتظرون الآن اوامره الأخيرة قبيل الصباح ، وحيث كان ضوء مصباح المركمات المألوف له ، والخرائط ، والتلفونات ، وجهاز اللاسلكى ، والنداءات ، لأنه كان يعرف منذ وقت بعيد أن ضربة الموت القاسية ، المثقلة على النفس لا توقف الحرب ولا العذابات ، ولا تصرف الاحياء عن ضرورة ان يحيوا . وهذا ما حصل ايضا بعد نعى ولده . انزل رجليه عن المنصبة مستجمعا عزيمته لينهض ، وجلس ، ثم راح يبحث عبثا عن شىء عند موضع رأسه .

— نعم ، الآن . شكرا ، يا ميجور — وابتسم ابتسامة مريرة بطرفى شفتيه المحفورتين عميقا بغضون الاعياء المميت — لماذا تنظر الي هكذا ، يا بوجيتشكو ؟

انزل بوجيتشكو الابريق الحار عن الموقد بقبعته ، وراح يصب فى قدح قصديرى شايا بنى اللون وفاحت رائحته القوية ، مخفيا برموشه المسبلة عينيه المكتئبتين ببريقهما الاصفر ، وقال :

— لا شىء ، ايها الرفيق القائد . . . وثائق فيتالى ايسايفيتش . . . سأسلمها .

وما كان ليجرأ فى حياته ابدا ان يقول لبيسونوف أنه وجد فى وثائق فيسنين التى وضعها فى الحقيبة لتسليمها الى مقر القيادة ورقة مدعوكة لزجة ، تحمل الشىء الرهيب للغاية ، الذى لا يجوز ان يعرفه بيسونوف.

الفصل الثانى والعشرون

بعد اربعين دقيقة من اصدار بيسونوف لأمره بارسال الاشارات لفيلق الدبابات والفيلق الآلى لبدء الهجوم ، كانت المعركة فى الجزء الواقع على الضفة الشمالية من القرية قد وصلت الى نقطة التحول .

وكانت معركة الدبابات هذه المتسعة فى شوارع القرية وطرفها ترى من نقطة المراقبة ، ومن عل تبدو فى الظلمة مريعة على نحو صاعق بقربها ، واختلاطها ، وعنفوانها العنيد ، ولربما ، بوجه خاص ، لأن أحدا من الناس لم يكن يرى فى اى مكان فيها . كانت

قذائف المدفعية المباشرة تلمع فى طرف القرية كله ، ونوافير قذائف هاونات « الكاتيوشا » النفاثة تتفجر كثيفة بين البيوت . وعلى الشاطئ كانت تدب وتنبسط وسط الحريق الناشب اجساد حديدية متوردة لامعة ، وكأنها عرقة ، تصوب النيران من مسافة قصيرة ، تكاد تطعن بعضها بمواسير مدافعها ، ساحقة بجنازيرها البيوت والزرائب ، مستديرة فى الافنية ، خارجة منها لتعيد الهجمات ، مضيقة مطوقة رأس الجسر أكثر فأكثر . وكان الالمان يقاومون متشبثين فى الضفة الشمالية ، غير ان المعركة كانت تنزلق نحو النهر ، وقد حدث تغير ما فى الدقيقة الاربعين ، وملأ الهدير المكثف ، وزئير المحركات مجرى النهر باصداء مهشمة . وبدأ الالمان ينسحبون فى الاماكن نحو المعابر . وفجأة نظر بيسونوف الى الضفة الجنوبية ، لا الشمالية ، خائفا أن يخطأ ويتسرع فى الاستنتاج .

فى ذلك الجانب من النهر ، الجانب الذى كانت تنسحب اليه الدبابات الالمانية ببطء ، والذى بدا كل شىء فيه ، قد سحق وهشم واستبيح خلال الساعات الاربع والعشرين الماضية ، هناك حيث كان السهب

يبدو محروقا ميتا ومقفرا تماما لا يتردد فيه أى نفس حى ، بدأت تتولد فى ارجائه المختلفة — اكواز الرصاص المنطلق من البنادق ، وتتطاير أفقيا مزق اللهب قرمزية عريضة من بعض المدافع ، والسنة النيران ضيقة شعثاء من البنادق المضادة للدبابات . ثم لعلعت ثلاثة رشاشات دفعة واحدة فى الاماكن التى كانت فيها خنادق المشاة فى الأمس ، وما كان يعتبر ميتا معدوما أخذت تدب فيه حركة ضعيفة ، وتبدو فيه علائم الحياة ، وكان من غير الممكن التصور كيف بقيت هذه الحياة ، كيف ظلت تومض من بداية المعركة حتى نهايتها فى تلك الخنادق ، وفى مواقع المدفعية تلك التى مرت بها الدبابات أو طوقتها ، بعد أن حاصرت الضفة الجنوبية بكماشة فى اواخر يوم امس .

كانت ريح الصباح الذى ما يزال معتما تضرب متراس نقطة المراقبة ضربات حادة ، وتوخز عينى بيسونوف ، وتعيقه عن الرؤية ، معتصرة الدموع . اخرج منديله ، ومسح وجهه ، وعينيه ، وبعد ذلك انكب على عدستى النظارة المزدوجة .

كان يريد ان يتأكد كليا من شىء كان من الصعب

التصديق به ، ولكنه ما عاد يثير شكا فى نفس أحد .
هناك ، على الضفة الجنوبية ، فى الخنادق التى سحقتها الدبابات ، ومواقع المدافع المجتاحة بدأ يطلق النار ، ويدخل المعركة اولئك الذين بقوا فى الحصار ، المتطوعون عن الفرقة ، اولئك الذين ما كان من الممكن ، فى كل التقديرات ان يبقوا سالمين ، ويعدوا من الاحياء .

— اوه ، يا فتيانى الشجعان ! انظر ، ايها الرفيق القائد ! يبدو أنهم يتنفسون ! رائعون فتيانى هؤلاء ! بواسل ! بواسل جدا !

كان هذا صوت دييف الفتى القوى صدر على مقربة متهللا منفعلا وسط دوى الريح الذى كان يسوط متراس نقطة المراقبة ، وسط صيحات جنود الاتصال ، وسط الحركة الحية حوله .

ورقة دييف هذه التى تفجرت فجأة ، ممزوجة بتبجحه الغر بفتيانه من الخنادق الأمامية الذين ، كان يبدو ، انهم قد هلكوا منذ وقت طويل ، غير أنهم يواصلون القتال — وطراوته الصريحة هذه ، ضعفه ، لم تثر بيسونوف ، بل بالعكس ، اصغى الى هتافات دييف ، ودون أن يلتفت ، عاد يفكر وغصة مرة فى

حلقه أن الحظ ، على اية حال ، كافأه بقائد الفرقة دييف شاكرا .

كان غبش الصباح التشرينى ينفرج عن قذائف الدبابات ، ويهدر برجيع الصدى ، المندمج مع هزيم الرعد فوق السهب ، وتثرثر فيه المحركات متكاثفة ، وتخرقه اضواء الصواريخ الالمانية الخاطفة التى كانت تشق السماء على غير نظام ، تارة هنا ، وتارة هناك .

كانت الدبابات الالمانية الهائجة كالوحوش التى اثارها الطراد من مكامنها تتراجع عن الشاطئ ، نابحة بغيظ وحدانا وجماعات مشتتة ، تحت ضغط دباباتنا من طراز « ت — ٣٤ » التى قد احتلت ، معبرين ، حسب البلاغ الذى تلقاه بيسونوف قبل خمس دقائق . كانت هذه الدبابات تسير بعد ان طلعت على الضفة الجنوبية ، فى خط منحرف ، مزيدة من سرعتها ، معترضة ، وتطوق الى اليسار واليمين جناحين مكشوفين من الدبابات الألمانية المتلاصقة تماما وكأن احداها تحتك بالاخرى .

لم تتحمل بعض الدبابات الوقوف فأخذت تنسلخ ، مشتتة فى جهات شتى ، عن هذا الحشد من الدبابات العاوية عواء معدنيا ، كقطيع مطارد ، المتوقفة أمام

الوهدة ، التى هجمت منها فى الصباح ، وكانت تطلق النار الى الخلف على الضفتين الشمالية والجنوبية . وارتفع على الفور صاروخ اشارة فوق الدبابات المتجمهرة فى تلك الضفة ، وحلق عاليا ، واشتعل فى السماء ، وتناثر فى السهب مثل مطر أخضر . وعلى الفور أخذ اللهب يتتابع ويتوامض الى مسافة قليلة الى جانب الدبابات الالمانية وأمامها على التليلة امام الوهدة . لمعت خطوط طلقات رشاش منحرفة نحو السماء — خطوط من نقاط قرمزية فى ظلام السهب ، فى مؤخرة الالمان . ولكن لم يكن من الممكن أن يكون رجالنا على التليلة . وتبين أن الطلقات صادرة من رشاشة المانية ذات عيار كبير ، وكان واضحا من خطوط طلقاتها أنه ينطلق من نقطة المراقبة .

— ماذا دهاهم ، ايها الرفيق القائد ؟ فقدوا عقلهم ؟ يضربون رجالهم ؟ — قال بوجيتشكو ، مراوحا بالقرب من بيسونوف فى انفعال فرح عارم بسبب المعركة ، وانسحاب الالمان ، ولنجاح تقدم دباباتنا . بل واغرب فى الضحك قائلا — تمثيلية ، أيها الرفيق القائد !

ترك بيسونوف عدستى النظارة ، محدقا فى طلقات الرشاشة المحافظة على اتجاهها الافقى على التليلة أمام الوهدة ، وكان فى بادئ الأمر لا يقل دهشة عن بوجيتشكو . ولكنه ادرك ، بعد أن لاحظ كتلة الدبابات الزاحفة على الشاطئ فى اتجاه خطوط طلقات لا تنقطع أن الرشاشة الالمانية كانت تشير للدبابات باتجاه طلقاتها فى الظلام الى طريق الانسحاب على الطريق العام وراء الوهدة .

لم يشرح ذلك لبوجيتشكو ، لأن اية تفسيرات كانت تشغل عن المهم ، وكانت زائدة ، وكان فى وسعها أن تخرق شيئا فى نفسه ، شيئا محتدا ، مضغوطا ، حارا ، مثل التحسس بنجاح صاعق ، واكتشاف سر الآخرين ، والرضى بمجرد التفكير بانه قد حدث ما هو محتمل ، وأن الفيلقين اللذين ادخلا المعركة مسندين بنيران المدفعية فى بداية الهجوم قد اخرجا الالمان بضربة مباغتة من رؤوس الجسور ، واحتلا المعابر ، وخرجا الى الضفة الجنوبية ، وهما الآن يطوقان الالمان من الجناحين متقدمين فى تلك الضفة ، أما الالمان فقد انسحبوا الى الجنوب باتجاه خطوط طلقات الرشاشة .

وكان بيسونوف يخاف دائما التوفيق السهل فى الحرب ، ضربة الحظ العمياء ، رعاية القدر المحتومة ، مثلما كان ينكر المبالغة الفارغة لبعض زملائه ، والتطلعات المسرفة الحلاوة فى اروقة مقرات الاركان عن نصر كاسح فى كل عملية مرسومة . لقد كان بيسونوف بعيدا عن الاوهام الفالتة ، لأن كل ما فى الحرب يجب ان يدفع بالدم ثمنا له ، سواء للخسائر أو النجاحات ، لأنه لا يوجد ثمن غير هذا الثمن ، ولا يمكن ان يستعاض عنه بشىء .

وفكر مع نفسه « يجب الانتظار قليلا . انتظار الاخبار التالية من الفيلقين ! ولا حاجة للاستعجال فى ارسال تقرير مفصل الى قيادة الجبهة » .

الا أن كيانه كله قد انكمش ملتهبا حتى تصبب ظهره عرقا حين صار يرى ، بعد الساعات الاربع والعشرين من الضغط الالمانى الذى جعل الدفاع كله على بعد شعرة من الكارثة ، وبعد اختراق الالمان للشاطئ الشمالى ، وبعد الخسائر ، والجهد ، وقطع فرقة دييف ، صار يرى الآن سيارات المشاة الالمانية المحروقة على الطريق فى السهب ، والدبابات الالمانية

المتراجعة الى الجنوب ، ويرى على الضفة الجنوبية التى كانت قد قطعت عن الفرقة قبل زمن قصير توهجات قذائف المدفعية تلاحق هذه الدبابات المتقهقرة الى الوهدة ، وأخذ يدك عصاه فى الارض باصابعه العرقة ، وهى فى قفاز فرائى ، مجاهدا اكثر لضبط نفسه ، مصغيا بوجه جامد الى الاخبار الجديدة المرسلة باللاسلكى .

« انتظر ، انتظر اكثر » وفى الوقت ذاته كان يكتم فى نفسه دفقات متزايدة من الرغبة فى أن يذهب فى تلك الثانية الى المخبأ ، ودون أن يتمادى فى الفرح ، يبلغ قائد الجبهة الذى ابلغه قبل نصف ساعة عن بدء الهجوم المضاد . يبلغه بأن الالمان يتراجعون عن الشاطئ ، وأن الفيلق الآلى وفيلق الدبابات يلقيان نجاحا ، وقد صدر لهما الأمر باحتلال الجزء الواقع على الضفة الجنوبية من القرية احتلالا تاما ، والتقدم قدما ، وقطع الطريق العام الى الجنوب من القرية .

كانت الحرائق تشب فى كل مكان من الضفة الجنوبية ، وتتناثر مزق النار على سطوح بيوت القرية ،

وترتفع وتتصادم لوالب الانفجارات فى الشوارع حيث كانت تجرى معركة الدبابات الآن .

وبعد عشر دقائق حين فرغ بيسونوف من ابلاغ قائد الجبهة بالتفصيل عن تقدم الفيلقين ، وتحدث مع رئيس الاركان ياتسنكو خرج مرة أخرى من المخبأ المضاء بالمصابيح اضاءة هادئة الى الخندق — الرمادى المتثلج المتعرض للريح — وفجأة فطن الى أن شيئا ملحوظا قد تغير خلال هذه الدقائق ، وتحول الى حالة جديدة ، وتحرك فى السماء وعلى الأرض .

صفا الهواء المهزوز بالقتال وهدير محركات الدبابات ، وشف ، وسرت فيه ، على نحو ما يحدث فى الصباح ، زرقة بنفسجية هلامية ، شفافة باردة حول التليلة ، تتخللها نيران ساطعة صادرة عن الدبابات المحترقة أمام الوهدة وراء النهر ، جذلى لعوبة فى ضوء النهار الطالع . وبدا الجزء الواقع على الضفة الجنوبية من القرية قريبا ، وكانت العين المجردة ترى الآن دبابات « ت — ٣٤ » تدب مترنحة ، مصعدة خصائل شعثاء من اللهب ، من ناحية السهب الى طرف القرية . وفى اثرها سارت فصائل المشاة مشيا او على لوريات

لونت بلون الثلج . وبعيدا عن هذا كله كان شريط مشرق حذر فى الأفق ينصدع برقة وهدوء ، مشعلا أفق الثلج بلهب ابيض ، مذكرا وفق قوانين سرمدية بمشاعر انسانية أخرى كان بيسونوف وجميع الذين كانوا معه فى خندق نقطة المراقبة قد نسوها منذ زمن طويل .

« نعم ، ها هو الصباح » .

خرج بيسونوف الى الريح المعربدة على قمة المرتفع ، واحس بقدوم الصباح القارس ، الصافى على نحو ما هو فى كانون الأول ، الواعد بشمس ، وسماء رائقة . وفكر بيسونوف فى انكشاف الدبابات فى السهب العارى ، وفى الطيران الالمانى وطيرانه . وفى الغالب فكر فى هذا ايضا مندوب الجيش الجوى الذى وصل فى اواخر الليل الى نقطة المراقبة . وهو رجل مستطيل الوجه برتبة عقيد محب للمعشر ، يحمل حقيبة ضخمة ، ويرتدى حذاء طويل العنق ، ويضع بين شفتيه المبتسمتين سيكارة من البلاستيك الشفاف . رد على نظرة بيسونوف المتسائلة — أين طائرات الهجوم ؟ — قائلا فى الحال ان كل شىء سيكون على ما يرام ،

فالضباب غير موجود ، والحمد لله ، وبعد عشرين دقيقة ستمر طائرات الهجوم فوق نقطة المراقبة ، وبعد ان فرغ من جوابه أطبق اسنانه على المبسم ، وابتسم ابتسامة مشجعة .

— حسنا ، اذا كان الأمر كذلك .

قال بيسونوف ذلك ، كابتا رغبة فى أن يذكر أن الضباب غير موجود بالنسبة للطيران الالمانى ايضا .

قال بوجيتشكو بمرح حزين ، غير مبتعد عن بيسونوف خطوة واحدة منذ بداية المعركة :

— انظر ، ايها الرفيق القائد ، ماذا يفعل السلاف ، انتعشوا ! . اليس هذا مطبخ الميدان ؟

واشار بقفازه الى جسر نصف محطم الى يسار المرتفع .

— ماذا ؟

سأل بيسونوف ، وكان يفكر فى تلك اللحظة بالطيران ، ورفع بذهول منظاره الزلق من الجمد ، وضبط حدة العدستين .

وراء المرتفع ، وعلى الضفة الجنوبية من النهر ، فى العراء الموجود امام الوهدة ، والذى قطعه الالمان

يوم أمس ، الى يسار القرية ، حيث دبت الحياة ، قبل وقت قصير ، ببعض المدافع ، وبعض البنادق المضادة للدبابات ، وثلاث رشاشات كان مطبخ الميدان يسير مهتزا بحفر القنابل ، ويجرى بمحاذاة خنادق الاتصال ، نافثا الدخان فى غبش الصباح ، مبددا وراءه على الثلج حبات الشرر الملتهب . كان ينطلق بجنون ، متخذا طريقه بين الانفجارات التى احدثتها قاذفات الالغام فوق المرتفع . اندفع واحد من رؤساء الرقباء الاجرياء بمطبخه الى الضفة الأخرى ، وراء الدبابات ، واسرع نحو الخط الأمامى . وظهر خمسة او ستة اشخاص من خنادق مشاة الجناح الأيسر ، ولوحوا ببنادقهم داعين اياه ، الا ان المطبخ مر من أمامهم ينط ، قافزا على حفر القنابل ، وانطلق ، لا يلوى على شىء ، نحو مواقع المدفعية الى يمين الجسر . وتوقف هناك ، وكأنما قد اندك فى الارض . وخرج على الفور رجل من القمرة ، وركض الى مدفع كان قد اطلق قذيفة من توه ، وكانت الريح تطاير اطراف المعطف الطويل الذى يرتديه ، وهو من المعاطف التى يرتديها الضباط .

قال بوجيتشكو مؤكدا ، مرتفعا على حافة المتراس :

— على اية حال ، هذه هى البطارية التى كنا فيها . هل تذكر اولئك الشبان ، ايها الرفيق القائد ؟ كان عندهم آمر بطارية هو ذلك الفتى . . . الملازم . . . درزدوف . . كما يبدو .

تمتم بيسونوف :

— لا اتذكر . درزدوف ؟ تذكر بشكل اضبط ، يا بوجيتشكو .

قال بوجيتشكو يعينه على التذكر :

— فى المكان الذى انتظرت فيه رجال الاستطلاع . نفس الاشخاص الذين جلبوا معهم المانيا اسيرا . شخصان منهما قادا الالمانى الى هنا . البطارية من عيار ٧٦ مليمترا .

— بطارية ؟ تذكرت . فقط انه لم يكن يدعى درزدوف . . . اسم شبيه بهذا الاسم ، ولكن ليس هو بالضبط . يبدو لى انه درزدوفسكى . نعم ، صحيح ! درزدوفسكى . . .

خفض بيسونوف النظارة بحدة ، بعد أن فكر بصمود هذه البطارية منذ بدء المعركة ، هذه البطارية

التى كان يقودها ذلك الفتى الازرق العينين الذى ادهشه صباح أمس ، المتربى تربية مدرسية ، المتماسك القوام ، وكأنه فى استعراض ، المستعد للموت دون تردد ، المنتمى الى عائلة جنرال معروفة بين العسكريين ، وتصور للحظة واحدة ما تحمله الرجال هناك عند المدافع ، وهم فى وجه الاتجاه الرئيسى لهجوم الدبابات . واخيرا قال بمجاهدة ماسحا ببطء مقصود وجهه الموخوز بذرات الثلج شاعرا بالانفعال والبرودة يشدان بشرته :

— بوجيتشكو ، أريد الآن أن أمر على تلك المواقع ، الآن بالذات . . . اريد ان أرى ماذا بقى هناك . . . خذ كل ما تبقى من النياشين هنا . واكرر ، كل ما تبقى من النياشين هنا . واخبر دييف بأن يتبعنى .

نظر بوجيتشكو باستغراب هادئ الى يد بيسونوف الصغيرة ، وهى تضغط على المنديل وتعصره ، وتلويه دون أن تسقطه فى جيب الفروة ، وهز رأسه ، واندفع ليدعو دييف .

لم يكن يرى من حقه ان يخضع للانطباعات الشخصية ، وأن يرى فى جميع الصغائر تفاصيل المعركة

عن قرب شديد ، ان يرى بعينيه عذابات ، ودم ، وموت وهلاك الناس الذين ينفذون آوامره فى المواقع الامامية . لقد كان واثقا ان الانطباعات المباشرة الذاتية تنخر بالنفس على نحو يوهنها ، وتولد الشفقة والشك فيه ، وهو الذى يقتضيه واجبه أن ينشغل بالمجرى العام للعملية ، وأن يكون مسؤولا عن مصيرها فى نطاقات أخرى وعلى أتم وجه . ان العذاب ، والشجاعة ، وموت بضعة اناس فى خندق واحد ، فى بطارية واحدة كان من الممكن أن يصير أمرا فاجعا على نحو لا يطاق بحيث لا يقوى الانسان بعده على أن يصدر أوامر جديدة بشكل حازم ، ويقود الذين يتوجب عليهم أن ينفذوا أوامره وارادته .

لم يكن اقتناعه هذا يعود الى يوم أمس أو اليوم ، بل يعود الى عام ١٩٤١ المعقد المترسخ فى الذاكرة ، حين اضطر ، وهو يقود على الجبهة الغربية ، الى أن يسير وسط الدم ، والصيحات ، ونداءات رجال الاسعاف ، بين أنات الجرحى ليحث الى الاندفاع من الخنادق اناسا كاتما فى نفسه الشفقة على عجزهم ازاء حركات الالتفاف الكبيرة والصغيرة لدبابات لم

توقف عند الحدود ، وازاء الطيران الالمانى المسلط على الرؤوس .

الا أن بيسونوف قد خان نفسه فى هذا الصباح القارس ، صباح هجومه المضاد ، وهو على مسافة خمسة وثلاثين كيلومترا جنوب — غربى ستالينغراد ، فى مستهل نجاح جيشه .

. . . عبروا النهر على الجليد ، وصعدوا الى الشاطئ ، والريح تنفذ الى عظامهم ، ثم دخلوا عبر خندق الاتصال غير العميق الى خندق نصف مهدم ، وهنا تصور بيسونوف بمخيلته فقط أنه الآن أمام الخنادق الاولى للمشاة . فابطأ خطوه لخفقان قلبه ، وتقطع انفاسه .

هنا ، على الضفة الجنوبية ، حيث ظلت الدبابات تهاجم لساعات عديدة دون انقطاع ، وتسير باتجاهات شتى لعدة مرات ، كانت الخنادق التى شوهتها حفر القنابل قبل هذا قد مزقتها جنازير الدبابات وشققتها وقلبتها حتى ان بيسونوف لم ير بوضوح ومن النظرة الاولى ، الرشاشات المسحوقة باعشاشها ، ومزق الثياب وقطع الاحذية ، ومزق القمصان البحرية ، الممزوجة بالتراب ، وحواضن البنادق المدقوقة ، واقراص القصعات

واجهزة الوقاية من الغازات ، المطمورة باكوام من الخراطيش الفارغة ، المسودة ، والأجساد المغطاة بالثلج . كانت هذه الاشياء ، اشلاء الاسلحة والحياة الانسانية القريبة العهد قد حرثت حرثا ، وكأنما بمحراث جبار ، وطمرت الى النصف بالركام الذى خلفته فى كل مكان حفر القنابل ، والضغط الهائل لجنازير الدبابات .

سار بيسونوف متخذا طريقه بحذر متزايد عبر اكوام التراب فى الخندق ، قافزا الجدبات المغطاة بالثلج البارزة تحت قدميه مستديرة أو مسطحة ، مجاهدا أن يتفاداها ، ولا يمسها بعصاه ، مخمنا أن تحت هذه الجدبات جثث من قتلوا فى الصباح . وفكر بمرارة قاتلة ، وقد فقد الأمل فى العثور على احياء هنا ، بأنه قد اخطأ ، فقد تراءى له فقط من على نقطة المراقبة نبض خافت للحياة فى هذه الخنادق .

وحدث بيسونوف نفسه : « لا ، لم يبق أحد هنا ، على الاطلاق . الرشاشات والبنادق المضادة للدبابات انطلقت من الخنادق اليسرى . يسار البطارية . نعم ، يجب الذهاب الى هناك » .

الا أن رنينا معدنيا صدر فى تلك اللحظة من وراء منعطف الخندق . وخيل لبيسونوف أنه يسمع اصواتا ، فخرج من منعطف الخندق واجف القلب ، وتوقف .

نهض للقائه من وراء مكمن الرشاشة شخصان ، مثل شبحين ابيضين ، ملطخان بالثلج من رأسيهما الى قدميهما . كان وجهاهما المتجمدان مغطيين بالطبقة الجليدية التى تكونها بطانتا القلنسوتين ، ومن تحت هاتين البطانتين تطل عيون الهبها الصقيع والريح ، واحاطت بها دوائر الجمد ، تفرست بيسونوف كاشفة عن ذهول متشابه — لم تتوقع ، على ما يبدو ، أن ترى جنرالا حيا بمرافقة ضباط أحياء هنا ، فى هذا الخندق الميت .

كانت ابازيم بحرية مستطيلة تلمع لمعانا كامدا . وعلى قطعة من المشمع ممزقة محترقة ، مفروشة على حافة الخندق كومة من اقراص الرصاص المستخدمة فى الرشاشة اليدوية ، والتى جمعت من الموقع كله ، وعلى مقربة من الرشاشة بندقية مضادة للدبابات على ركيزة . وفى كل مكان ، على المتراس ، وفى قاع الخندق مظاريف رصاص حديث الاطلاق . والظاهر

أن هذين الرجلين اللذين بقيا على قيد الحياة ، وهما جندى رشاش وحامل بندقية مضادة للدبابات ظلا فترة من الوقت يطلقان النار من مكمن واحد ، موحدين آخر ما لديهما من جهد ، كتفا الى كتف . والابازيم البحرية تدل على أنهما كانا من بحارة الشرق الاقصى ، الذين تحولوا الى مشاة قبل شهرين ، عند تشكيل الجيش ، وقد احتفظا بقميصيهما البحريين وابازيمهما البحرية كتذكار من الماضى فقط .

وقف كلاهما مصعوقا امام بيسونوف لا تكاد تفرق بينهما العين ، فى معطفين سميكين خشنين من الثلج والجمد . وقد رفعا الى قبعتيهما قفازيهما المتصلبين متهيبين . كان كلاهما متقطع الأنفاس دون ان ينطق بكلمة واحدة ، وكأنه لم يصدق بأن يظهر الى جانبه بهذا الشكل المفاجئ جنرال ، والضباط خلفه .

عند ذاك بادر دييف الجسيم الى النزول الى خندق الرشاشة ، خارقا قوانين الاحتشام غير المكتوبة ، وهو فى حضرة قائد ، وعانق احدهما بعد الآخر عناقا قويا ، وصدر صوته المتأثر المتلمس الصلابة متهدج النبرة :

— صمدتما ، يا اولاد ؟ خرجتما احياء ؟ ايها الرفيق القائد ، السرية الثانية . . .

وقبل ان يكمل جملته نظر فى عينى بيسونوف نظرة توسل وتأثر شديد .

تسربت من وعى بيسونوف ، كالظلال ، كل الكلمات التى كان عليه ان يقولها فى هذه اللحظة ، غير متبلورة فيما كان يحسه ، وبدت كلمات لا تعنى احدا ، صغيرة ، فارغة ، لا تنهض بالجوهر الخالد لما رآه الآن ، فاكتفى بأن قال بصعوبة :

— من بقى ايضا ؟ هل تبقى حى من امراء الوحدات ؟ — لا أحد . . . لا احد ، ايها الرفيق الجنرال .

— واين الجرحى ؟

— عبر زهاء عشرين شخصا الى تلك الضفة ، ايها الرفيق الجنرال . بقينا وحدنا من السرية .

— شكرا . . . شكرا منى لكما . اسماكما ؟ اريد ان اعرف .

وما كاد يسمع اسميهما حتى التفت الى بوجيتشكو الذى كان يحدق صامتا بالمحظوظين ، وقد بدا عليه رضى غابط متألم لرجل يعرف ما يعنى ان يبقى الانسان

حيا هنا ، فى الحراسة الامامية بعد معركة أمس . وعندما أجبر بيسونوف نفسه على ان يقول بصوت كامد : « اعطنى نيشانين للراية الحمراء . سجل اليوم قائمة النياشين ، يا عقيد دييف » ، أخرج بوجيتشكو من حقيبته بفرح علبتين ، وقدمها لبيسونوف ، فأسند هذا عصاه على جدار الخندق ، وتقدم من الرجلين اللذين جمدا فى مكانهما لا يفقهان ، ووضع النيشانين فى قفازيهما المتصلبين ، واستدار مختفيا بحاجبيه المقطبين الألم الحلو المر الذى كان يعصر صدره ، وسار يعرج فى الخندق دون ان يلتفت . بينما كانت الريح الهابة من الشمال تنقل الى ما وراء القرية المحترقة اصوات المعركة يمينا خلف الوهدة ، وتحمل من الشاطئ دفقات من الرذاذ الثلجى الواخز ، وتدر الدموع من زوايا عينى بيسونوف . فأسرع فى خطاه لكيلا يرى الذين خلفه وجهه . وكان لا يحسن اظهار الرقة ، ولا يعرف البكاء ، وكانت الريح تساعده ، فقد درت دموع الغبطة والامتنان من عينيه ، لأن الاحياء هنا ، فى الخنادق كانوا ينفذون الأمر الذى اصدره لهم : القتال فى كل الاوضاع لآخر رصاصة . وقد قاتلوا ،

واستشهدوا هنا فى أمل ، ولم يعيشوا بضع ساعات ليروا بدء الهجوم المضاد .

وكرر القول مع نفسه : « كل ما استطيعه ، كل ما استطيعه . ولكن ماذا استطيع ان أفعله لهم غير هذا الشكر ؟ »

— المطبخ ! . . مدفعيون ، ايها الرفيق القائد ، البطارية نفسها !

صاح بوجيتشكو ، بعد ان لحق به ، وتلعثم مندهشا من شىء ما ، وتحاشى النظر الى وجه بيسونوف الندى المتغير جدا بشكل لم يره عليه من قبل ، وتأخر على الفور ، وسار الى الخلف باتجاه هوة النهر ، حيث كان مطبخ الميدان يقف وحيدا يخرج منه دخان خفيف .

كان هذا المطبخ الذى ظهر على الضفة الجنوبية فى اثر دباباتنا مطبخ البطارية جاء به رئيس الرقباء سكوريك .

حين بلغت المعركة على رأس الجسر الذى احتله الالمان الى الخلف اعلى نقطة لها ، ثم أخذت الدبابات الالمانية تتراجع منه عبر المعابر الى يسار البطارية

ويمينها كف درزدوفسكى عن محاولته اليائسة للاتصال عن طريق اللاسلكى بنقطة قيادة فوج المدفعية ، فقد صار واضحا ما حدث بدون الحاجة الى اتصال . وخلال نصف ساعة أطلق كوزنيتسوف جميع القذائف السبع المتبقية ، دون ان ينتظر امرا ، على الدبابات العابرة الى الضفة الجنوبية ، وبعد أن فرغ منها اصدر أمره للطقم بحمل البنادق الاتوماتيكية ، والنزول الى الخندق ، واطلاق النار على المشاة الذين بدأوا يتراجعون . وكان المشاة الالمان يتراجعون على الاليات الثقيلة المغطاة بالمشمعات وسيارات « الاوبل » على الطريق الريفية ، بعيدا الى اليسار ، وهناك ، فى الجناح الايسر ، أطلقت النار عليهم بضعة مدافع متفرقة بقيت من البطاريات المجاورة ورشاشتان كبيرتان سلمتا بأعجوبة الى الامام .

احتلوا اماكنهم فى الخنادق . وكانوا اربعة ، افراد طقم اوخانوف ، بقايا الفصيلة ، متجمدين ، منهوكين ، دمرتهم الليلة الماضية ، ما زالوا غير مدركين كليا كيف بدأ الأمر على الضفة الشمالية ، ولماذا يترك الالمان مواقعهم بهذه السرعة . كانوا ، بين الحين

والآخر ، يدفئون بانفاسهم ، اكفهم ، وترابيس البنادق لكيلا يتجمد الزيت فيها . كان كوزنيتسوف يحس بقشعريرة . وكان اوخانوف يضرب منكبيه بقفازيه . وكان نيتشايف وروبين ينظفان الحافة امام المتراس برفشين . وكان الجميع يفعلون ذلك صامتين لا يقوون على التفكير ولا النطق . وقد مر على هذه الحال أكثر من ساعة . وعندما انطلق مطبخ الميدان عدوا فى غبش الصباح البنفسجى ، وراء دباباتنا على الربوة شمالا ، وكأنه المستحيل بعينه ، ناطا كالمجنون فى حفر القنابل ، مندفعا الى البطارية ، وحين اوقف رئيس الرقباء سكوريك المطبخ على بعد عشر خطوات من المدفع ، بوجه متوحش ، شاتما الحصان المنهوك واندفع نحوهم متعثرا باذيال معطفه الطويل ، كان وعيهم ما يزال غير مستوعب الفرحة الحقيقية لما حصل . وحتى حين غص رئيس الرقباء بصيحته : « يا اولاد ، أنا اليكم . . . طعام ! » لم يؤخذ وصوله وصيحته على انه واقع فعلى ، بل كانا ومضتين ضعيفتين لعالم آخر ، معزول ، غير محسوس تقريبا . ولم يرد على صيحته أحد .

— اين الناس ؟ . . . امن المعقول انتم اربعة ؟

وطوف رئيس الرقباء بصره فى المواقع الخالية من الناس ، وفى الدبابات الالمانية المحطمة المحروقة ، ووطأ موقع الرماية بحذائه الطويل الانيق ، واصدر صوتا مبهما مجمجما ، واندفع عائدا الى المطبخ . وهناك القى على ظهره تورمسا وحقيبتين ظهريتين مملؤتين ، على ما يبدو ، بأرغفة الخبز والبقسماط ، وأنطلق برجليه المعكوفتين قليلا الى المدفع ، والقى بحمولته كلها على كومة المظاريف الفارغة بين مسندى المدفع ، متمتما بذهول تام :

— هذه حصص البطارية كاملة . . . من الخبز ، والبقسماط ، والفودكا . ولكن هل من المعقول انكم اربعة فقط ؟ . . . كيف اتصرف بالطعام ، ايها الرفيق الملازم ؟ اين درزدوفسكى ؟ آمر البطارية ؟

— انه فى نقطة المراقبة ، ومعه رجلان . ويوجد فى المخبأ جرحى أيضا . اذهب اليهم ، يا رئيس الرقباء .

رد عليه كوزنيتسوف بلسان غير طيع ، وجلس على مسند المدفع ، وهو يرتجف من القشعريرة ، غير

مكترث بهذه الحصص الزائدة ، وبصيحات رئيس الرقباء هذه . قال اوخانوف .

— حبذا لو نشعل نارا صغيرة ، يا ملازم . سنتجمد حتى الموت ، ونحن بلا نار . وانت ايضا ترتجف كالورقة . وعندنا صناديق القذائف . وعندنا فودكا بكمية محترمة والحمد لله . فلنفعلها ، يا ملازم ! يبدو أن رجالنا قد ضغطوا عليهم .

اجاب كوزنيتسوف فى غير اكتراث :

— فودكا ؟ نعم ، فودكا للجميع . . .

انطلق رئيس الرقباء بخفة الى مخبأ الجرحى ، بينما اخذ نيتشايف وروبين يكسران الصناديق ، ويوقدان النار فى ساحة المدفع . دفع اوخانوف كومة المظاريف ، وفرش مشمعا تحت مؤخرة السبطانة ، وانشغل بتورمس الفودكا ، والطعام السخى ، وصب الفودكا فى القصعة الوحيدة التى عثر عليها فى الخندق ، وفك كيس البقسماط . ثم قعد بالقرب من كوزنيتسوف على مسند المدفع ، وقرب القصعة منه .

— دفئ نفسك ، يا ملازم ، والا فسنلقى الويل . سنتحول الى تماثيل . اشرب ، وسيساعدك الشرب .

تناول كوزنيتسوف القصعة بكلتا يديه ، وأحس برائحة الفودكا الواخزة غير النقية ، وكتم انفاسه واسرع فى جرع بضع جرعات بعطش ، وأمل فى ان تزيل الفودكا القشعريرة ، وتدفئه ، وترخى شيئا يضغط عليه مثل نابض من فولاذ . لذعته الفودكا الباردة لذع النار ، وفى الحال غامت عليه مثل ضباب حار . تذكر كوزنيتسوف ، وهو يقضم البقسماط المتحجر ، كيف أن اوخانوف قدم الفودكا لزويا ، ذات يوم ، منذ عهد بعيد ، فى ذلك السهب اللانهائى المتلألئ تحت الشمس ، اثناء المسيرة ، فاغمضت زويا عينيها ، وشربت من الزمزمية مشمئزة ، وضحكت وقالت ان فى بطنها اشتعل مصباح صغير ، لقد ضايقتها الفودكا . . . متى كان ذلك ؟ قبل مائة عام ، فى عهد بعيد جدا لا تقوى ذاكرة الانسان على تذكره . ولكنه كان يتذكره ، وكأنما حدث قبل ساعة . كانت عيناها تلمعان فى وجهه من الاسفل الى الاعلى لمعانا نديا ، وما تزال ضحكتها الهادئة ترن فى اذنيه بوضوح ، وكأن لا شىء حدث بعد ذلك . . . ثم حلم بعد ذلك بكل شىء ، بحياة كاملة هائلة ، بمائة عام كاملة ؟ حلم بشىء

لم يكن له وجود قط . . . ذلك لأن شيئا ما لم يحصل . مجرد أنها رحلت الى كتيبة الاسعاف لجلب الادوية ، وستعود الآن الى البطارية فى فروتها البيضاء الرشيقة المشدودة بحزام . كما كانت ذات مرة فى القطار : « يا صغار ، يا اعزاء . كيف عشتم بدونى ؟ »

ولكنه فى الوقت ذاته كان يدرك بزاوية من وعيه المضبب أنه يخدع نفسه ، وأنها لن تعود من اى مكان ، من أية كتيبة للاسعاف ، وأنها هنا ، على مقربة منه ، وراءه ، هنا ، عند المدفع ، دفنها فى المشكاة ، فى آواخر الليل ، هو ، واوخانوف ، وروبين ، ونيتشايف ، وهى ترقد هناك وحيدة الى الأبد ، مغطاة بقطعة من المشمع ، مطمورة فى التراب ، وعلى التليلة نصف المستديرة محفظتها الصحية التى جعلها الثلج شبه ملحوظة .

وكل ما تبقى منها بعد أن فرغوا من آخر شىء هو هذه الحقيبة التى وضعها روبين على الحدبة الطرية . وقد قال بجهامة ودراية : « وبعد ذلك يجب ان يكتب : زويا يلاغينا ، ممرضة اسعاف » .

والآن كان الثلاثة الذين تبقوا من فصيلته يجلسون على مسندى المدفع حول كوزنيتسوف ، وقد ربطتهم

هذه الليلة رابطة القرابة قرب النار المفرقعة . وكان يتصاعد من النار الضعيفة دخان خفيف دافئ مر الطعم . كانوا يقضمون البقسماط ، وقد دب فيهم المرح من شرب الفودكا ، ودفأتهم النار ، وراحوا يتحدثون بانفعال اكثر وبصوت أعلى عن هرب الالمان وينظرون الى الحريق فى القرية ، ويسمعون دمدمة المعركة وراءها ، وهى تتعمق أكثر فأكثر فى السهب ، الى جنوب البطارية .

اخذ اوخانوف يطلى البقسماط بالزبدة المركبة متصرفا بمطلق الصلاحية والحزم ، ناثرا فوقها سكرا ناعما ، ويصب الفودكا فى القصعة من التورمس ، مغدقا على الجميع بسخاء لا حسب التقنين . وكان هو نفسه قد شحب ، وان لم يثمل ؛ ينظر الى افراد طقمه — روبين ونيتشايف ، وقد بدا عليهما شىء من الحيوية . ولم تساعد الفودكا كوزنيتسوف ، ولم ترخ النابض الفولاذى داخله ، ولم تزايله القشعريرة ، رغم أنه ظل يشرب وفق نصيحة اوخانوف ، بجرعات كبيرة شهقا بالرائحة غير الصافية ومن الاشمئزاز .

كان اوخانوف أول من لاحظ حركة جماعة من الناس الى يمين مواقع البطارية . فقال :

— يا ملازم ، يبدو أن القيادة قادمة نحونا ! انهم يسيرون بمحاذاة المتاريس . . . انظر ، يا ملازم !

واكد روبين ، وقد ثمل ، وأحمر كالشمندر :

— نعم ، انهم قادمون الى هنا — نقل قصعة الفودكا خافيا اياها وراء عجلة المدفع بيد مضطربة ، وقال — الرجل ذو العصا يبدو أنه جنرال . . .

قال كوزنيتسوف بهدوء غير طبيعى :

— نعم ، أنا أرى — لا حاجة الى اخفاء القصعة ، يا روبين .

كان بيسونوف يسير بمحاذاة مواقع الرماية متعثرا فى كل خطوة بما كان بالامس فقط بطارية كاملة العدد . مارا بالمتاريس الساقطة ، المهدمة تماما ، وبالمدافع المحطمة ، المقرحة بالشظايا ، واكوام التراب ، وحفر القنابل الفاغرة اشداقها السود ، وبالدبابة الألمانية القابعة الجاثمة بثقلها الفولاذى على موقع تشوباريكوف المحطم . والآن عاد الى ذاكرته بوضوح قدومه فى الصباح الى هنا ، قبيل بدء القصف الجوى ، وحديثه القصير مع آمر البطارية المنتصب القامة ،

وكأنه فى تمرين القيافة فى المدرسة العسكرية ، الفتى الحازم .

« اذن ، من هذه المواقع اطلقت البطارية النار على الدبابات ، نفس البطارية التى كان يقودها ذلك الفتى ؟ »

وبرابط غير مفهوم فكر أيضا بابنه ، وبآخر لقاء معه فى المستشفى ، وبعتاب زوجته الذى لا يغفر بعد عودته من المستشفى ، عتابها عليه فى أنه ، اى بيسونوف ، لم يصر ، ولم يتخذ شيئا لجعله يخدم فى جيشه ، حيث كان من الممكن ان يكون افضل وأسلم وأضمن . وللحظة تصور ابنه آمر سرية فى خنادق المشاة تلك التى بقى فيها اثنان على قيد الحياة ، أو هنا ، فى بطارية المدفعية حيث كان كل شىء فى كل متر من الأرض قد حطم تحطيما لا يعرفه به ، وكأنه بفعل عاصفة حديدية هوجاء . وابطاء بيسونوف خطوه ليلتقط انفاسه قليلا . ولم يزايله الضيق المرير فى صدره ، فأخذ يفك ابازيم ياقة فروته ، وكانت تخنقه .

« الآن سيستريح نَفَسى . . . الآن سيزول كل شىء ، فقط ان لا افكر فى ولدى »

كان بيسونوف يوحى لنفسه بذلك باصرار ، واضعا ثقله على العصا أكثر فأكثر .

ـ استعداد ! الرفيق الجنرال . . .

توقف . ووقع بصره على أربعة من رجال المدفعية ، فى معاطف ملطخة للغاية ، مسودة ، مدعوكة ينتصبون أمامه بالقرب من مدفع البطارية الاخير . وكانت نار صغيرة تدخن منطفئة فى موقع المدفع ذاته ، وعلى مشمع مفروش الى جانبها ترموس ، وحقيبتان . ورائحة الفودكا فى الجو .

وعلى وجوه الأربعة بقع السخام المنتشر على البشرة المخشوشنة ، وعرق داكن مبترد ، وبريق سقيم فى حدقات العيون ، وحاشية من دقيق البارود على الاكمام ، وعلى القبعات . ان الذى أعطى ايعاز « استعداد » لدى مرأى بيسونوف ، وهو ملازم معتدل القامة هادئ عابس ، عبر مسند المدفع ، ورفع يده الى قبعته بالتحية مشدود الجسم قليلا ، مستعدا للتعريف . وما كاد يتذكر بيسونوف ، وهو ينظر اليه باستغراب مستقص حتى عرفه . لم يكن هذا هو آمر البطارية الشاب الذى يتذكر اسم عائلته ، بل ملازما آخر رآه أيضا من قبل ،

والتقى به ، ربما هو آمر الفصيلة الذى كان يبحث عن آمر مدفعه عند المحطة بعد غارة الطائرات الالمانية ، نفس الرجل الذى كان من شدة ذهوله لا يعرف اين يبحث عنه .

قطع بيسونوف التعريف بايماءة من يده ، وقد عرف بشخصه ذلك الملازم ذا العينين الرماديتين الكئيبتين ، والشفتين المسفوعتين ، والأنف المستدق فى وجه ناحل ، الملازم صاحب المعطف المقطوع الازرار ، المبقع الأذيال ببقع بنية من زيت القذائف صاحب الشارات المنسلخة المينا على ياقته التى طلاها الجمد . وقال بيسونوف :

ـ لا حاجة الى تعريف . . . افهم كل شىء . لقد رأيتك فى المحطة . انا اتذكر أسم آمر البطارية ، أما اسمك فقد نسيته . . .

ـ آمر الفصيلة الاولى كوزنيتسوف . . .

ـ يعنى أن بطاريتكم حطمت هذه الدبابات ؟

ـ نعم ، ايها الرفيق الجنرال . اليوم صوبنا على الدبابات . ولكن لم يكن قد بقى لدينا غير سبع قذائف . . . هذه الدبابات حطمت يوم أمس . . .

كان صوته ما يزال يجاهد ، حسب الاصول العسكرية ، ليكتسب قوة متساوقة خالية من العاطفة ، وفى لهجته وفى نظراته جدية كئيبة غير صبوية ، دون ظل للتهيب امام الجنرال ، وكأن هذا الفتى ، آمر الفصيلة قد اجتاز بثمن حياته شيئا ما ، والآن كان هذا الشاهد ، هذا الشىء الذى قد فهمه ، يطل من عينيه جافا ، وجمد فيها ولم يهرق . وأراد بيسونوف ، وهو يحس بتقلص واخز فى حنجرته بسبب صوت ونظرة الملازم ، والتعبير المتشابه والمعاد تقريبا على الوجوه الخشنة الرمادية المحمرة لرجال المدفعية الثلاثة الذين كانوا واقفين بين مسندى المدفع وراء آمر فصيلتهم ، اراد ان يسأل عما اذا كان آمر البطارية حى ، واين هو ، ومن منهم جلب رجل الاستطلاع والالمانى الاسير . الا أنه لم يسأل . لم يستطع . . . كانت الريح اللاذعة تهب على موقع الرماية ضارية تطوى الياقة واذيال فروته ، وتعصر الدموع من جفنيه الملتهبين . ودون أن يمسح دموع الامتنان المريرة اللاذعة هذه ، وقد زايله الخجل من انتباه امراء الوحدات الملتفين حوله وقد ران عليهم السكون ، التفت الى بوجيتشكو متكئا

على عصاه ثقيلا . وبعد أن سلم هؤلاء الاربعة اوسمة الراية الحمراء نيابة عن السلطة العليا التى منحته الحق العظيم الخطير فى القيادة وتقرير مصير عشرات الالاف من الناس ، اجبر نفسه على ان يقول :

— كل ما استطيع شخصيا . . . كل ما استطيعه . . . شكرا ! . . شكرا على الدبابات التى اصبتموها . وان تحطيم دباباتهم كان الشىء الأهم . . . الشىء الأهم . . .

وارتدى قفازه وسار مسرعا فى خندق الاتصال باتجاه الجسر .

ولزم كوزنيتسوف الصمت ، ضاغطا على علبة النيشان باصابع متجمدة ، وهو ما يزال على عبوسه واندهاشه من نداوة الدموع على جفنى قائد الجيش ، من الشىء الجديد الذى لم يكن يتوقعه من الجنرال يوم أمس فى المحطة ، وبعد ذلك صباحا فى البطارية ، وهو الذى علق بذاكرته لحدة انتباهه وصوته الصارف البارد .

وفى اثناء ذلك كان رئيس الرقباء سكوريك ، والملازم درزدوفسكى قد ظهرا على مرتفع الشاطئ ،

وحين لاحظا القيادة من هناك على مقربة من المدفع جريا الى البطارية .

وقبل ان يصل رئيس الرقباء سكوريك الموقع ، استدار عن المدفع ، لسبب ما ، وأخذ يصعد المرتفع الى المطبخ ، بينما ركض درزدوفسكى الى جماعة امراء الوحدات التى كانت قد ابتعدت زهاء مائة متر على الشاطئ . وقف درزدوفسكى امام بيسونوف بهيئة استعداد فى معطفه المزرر تماما ، المشدود بالحمالة ، مقدودا كالوتر ، مضمد الرقبة شاحبا مبيضا ، ورفع يده الى صدغه بالتحية بحركة استعراضية متقنة . ولم يكن مسموعا ما قاله فى التبليغ . ولكن كان يرى من موقع الرماية الجنرال وهو يعانقه ، ويقدم له علبة قدمها له المرافق مثل التى قدمت للاربعة عند المدفع ، وللاثنين فى الخندق .

قال اوخانوف ، وهو يجلس على المسند مبتسما ابتسامة لا ضغن فيها :

— قدموا للجميع بالتساوى .

الا ان روبين نطق بلعنات كثيرة حاذقة لأن اوخانوف غمزه بطمع . فرد عليه اوخانوف :

لم اتوقع منك ذلك ايها السائق . ما هو السبب فى ذلك ؟

— نابع من القلب ، يا رقيب ! ضاق صدرى . . .

قال اوخانوف :

— اذن ، يا اخوان . لنغسل النياشين بالفودكا ، حسب الاصول . نخب انتصار جيشنا على الفاشيين ! نخب الجزاء الذى يستحقونه ! انتهى الآن ! اليس كذلك يا ملازم ؟ كيف حالك ؟ اجلس معى . هات القصعة ، يا روبين ! حسنا ، يا ملازم . . . كل شىء ينسى . أمرنا بأن نعيش .

سأل كوزنيتسوف بخفوت ، واربد وجهه :

— ينسى ؟

وقال نيتشايف ، وهو يمسد شاربيه الصغير ، ويديم النظر فى الربوة .

— ليس الأمر على ما يرام مع آمر بطاريتنا . انه يسير كالأعمى . . .

ابتعد الجنرال والامراء المرافقون له عن البطارية الى الجسر ، بينما سار درزدوفسكى عبر مرتفع الشاطئ الى المنخفض ، الى الدرجات المؤدية الى مخبأ الجرحى ،

وهو الآن لا يشبه درزدوفسكى المعهود المقدود ، المنتصب كنصل من العشب ، الذى تحمل ، على ما يبدو ، جهدا هائلا ليركض نحو الجنرال ، ويؤدى له التحية بخفته السابقة ، ويقدم تبليغه . كان يمشى الآن مشية محطمة مفككة خائرة ، مطرق الرأس ، مطوى الكتفين ، ولم يرفع بصره مرة باتجاه المدفع ، وكأنما لم يكن حوله احد من الناس .

قال اوخانوف :

— شىء ما حصل له بالفعل بعد وفاة زويا . . . حسنا . هذا يكفى . دعونا لا نتذكر . لنغسل النياشين ، يا اخوان . هكذا ، على الاغلب .

ووضع القصعة وسط المشمع ، وصب الفودكا من التورمس الى نصفها ، وفتح علبة النيشان ، وامسك النيشان باصبعيه ، كقطعة من السكر ، والقاه فى قعر القصعة ، ثم فعل الشىء ذاته بنياشين روبين ، ونيتشايف ، وكوزنيتسوف على التوالى .

وأخذ الجميع يحتسون الفودكا بالتتابع . وكان كوزنيتسوف آخر من تناول القصعة . وخلال ذلك كان درزدوفسكى ينزل الدرجات مترنحا بوهن كالسكران ،

ولم تكن قامته النحيلة المحنية على نحو غير معتاد ترى على الربوة . وكانت الريح تهب من مجرى النهر . فاذا بكوزنيتسوف يسمع هسهسة الى الخلف شبيهة بهسهسة ذرات الثلج على المشمع فى اعماق المشكاة . حين وضعوا جثمان زويا هناك . وارتجت القصعة فى يدى كوزنيتسوف ، ورنت النياشين فى القعر مثل قطع من الثلج . نظر بعينين متسائلتين ، وهو يواصل شربه ، الى الخلف ، الى محفظة الاسعاف المبيضة من تناثر الثلج عليها بفعل الريح الارضية ، وغص ، وأحس باختناق انفاسه . ألقى القصعة ، ونهض ، وسار فى خندق الاتصال مبتعدا عن المدفع ، ممسدا حنجرته .

هتف اوخانوف من الخلف :

— ماذا بك ، يا ملازم ؟ الى اين يا ملازم ؟

اجابه همسا :

— لا شيء . سأعود حالا . . . فقط أن اتجول فى البطارية .

مرت اسراب من طائرات الهجوم فوق رأسه ، مرسلة هديرا واطئا ، منخفضة وراء القرية . ولمعت

سطوحها لمعانا ورديا ، وقد انعكس فى أسفلها حريق الشروق البارد ، واستدارت فى الافق ، وانقضت على اهداف غير مرئية ، ممزقة الهواء الصباحى بصليات جافة . والى الامام ، وراء سطوح القرية المشتعلة كانت السماء تمور بدخان اسود عريض فيه التماعات قرمزية ، ممتد الى الغرب ، حيث كان يتلاشى هلال شفاف محاق فى فراغ السماء .

١٩٦٥ — ١٩٦٩

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ٢١ ،
موسكو – الاتحاد السوفييتي